③ العقيدة الإسلامية

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

- القول السديد في مقاصد التوحيد
- سؤال وجواب في أهم المهمات
- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان
- الدرة البهية
  شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية
- الحق الواضح المبين
  في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية
- توضيح الكافية الشافية

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤١١هـ - ١٩٩٠م

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية

القول السديد في مقاصد التوحيد



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله . نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد. فقد سبق أن كتبنا تعليقاً لطيفاً في مواضيع كتاب التوحيد، لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، قدّس الله روحه، فحصل فيه نفع ومعونة للمشتغلين ومساعدة للمعلمين، لما فيه من التفصيلات النافعة مع الوضوح التام. وطبع بمطبعة الإمام، ثم نفدت نسخه مع كثرة الطلب عليه. ودعت الحاجة الشديدة إلى إعادة طبعه ونشره، وفي هذه المرة بدا لي أن أقدم أمام ذلك مقدمة مختصرة تحتوي على مجملات عقائد أهل السنة، في الأصول الستة وتوابعها، فأقول مستعيناً بالله:

عبد الرحمٰن بن ناصر بن سعدي

مقدمة تشتمل على صفوة عقيدة أهل السنة
وخلاصتها المستمدة من الكتاب والسنة

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فيشهدون أن الله هو الرب الإلّه المعبود، المتفرِّد بكل كمال، فيعبدونه وحده، مخلصين له الدين، فيقولون إن الله هو الخالق البارىء المصور الرازق المعطي المانع المدبر لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الآخِر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء، وأنه العليُّ الأعلى بكل معنى واعتبار، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وأنه على العرش استوى، استواء يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته، فعلمه محيط بالظواهر والبواطن، والعالم العلوي والسفلي؛ وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب، وإنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرحمن الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم، ومن رحمته أنه ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له، من ذا الذي يسألني فأعطيه، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له؛ حتى يطلع الفجر. فهو ينزل كما يشاء، ويفعل ما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وفي قدره،

فما خلق شيئاً عبثاً، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم، وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات؛ ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين، وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من الصفات الذاتية، كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة، والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق، ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء، كيف يشاء، وكلماته لا تنفد، ولا تبيد، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدا، وإليه يعود، وأنه لم يزل ولا يزال موصوفاً بأنه يفعل ما يريد؛ ويتكلم بما يشاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية، فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب، وتواترت به السنة. إن المؤمنين يرون ربهم تعالى عياناً جهرة، وإن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم وألذه، وإن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبداً، وإن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة، فإنهم وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها، وإن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها؛ وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقاً، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئاً نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع

الاستعانة بالله، فهم يحرصون على ما ينفعهم ويستعينـون بالله. وكـذلك يحققون الإخلاص لله في جميـع حركاتهم، ويتبعون رسول الله، فالإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، والنصيحة للمؤمنين طريقهم.

فصل

ويشهدون أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسل إلى الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله، ويستعينوا برزقه على ذلك. ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم، وأعظمهم بياناً، فيطيعونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه، ويقدمون قوله وهديه على قول كل أحد وهـديه، ويعتقدون أن الله جمـع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد، فهو أعلى الخلق مقاماً، وأعظمهم جاهاً، وأكملهم في كل فضيلة؛ لم يبق خير إلا دل أمته عليه؛ ولا شر إلا حذرهم عنه. وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرّقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميـع أعمال العباد ــ خيرها وشرّها ــ قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة، تقـع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها، بل جعلهم مختارين لها، وخصَّ المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين بفضله ونعمته، وولى غيرهم ما تـولوه ورضوه لأنفسهم من الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السنة أنهم يدينون بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، ولأئمة

المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوىء الأخلاق وأرذلها، ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيماناً، أعظمهم إيماناً ويقيناً، وأحسنهم أعمالاً وأخلاقاً، وأصدقهم أقوالاً، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة؛ وأبعدهم من كل رذيلة. ويأمرون بالقيام بشرائع الدين، على ما جاء عن نبيهم فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها، ويرون الجهاد في سبيل الله ماض مع البَرِّ والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين، جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها. ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد ﷺ وأفضلهم أصحاب رسول الله ﷺ، خصوصاً الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر، وبيعة الرضوان والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فيحبون الصحابة ويدينون الله بذلك، وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم، ويدينون الله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وأن يثبتهم على

دين نبيهم إلى الممات. فهذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون.

قال المصنف رحمه الله:

كتاب التوحيد

هذه الترجمة تدل على مقصود هذا الكتاب من أوله إلى آخره، ولهذا استغنى بها عن الخطبة؛ أي أن هذا الكتاب يشتمل على توحيد الإلـٰهية والعبادة بذكر أحكامه وحدوده وشروطه، وفضله وبراهينه، وأصوله وتفاصيله، وأسبابه وثمراته ومقتضياته، وما يزداد به ويقويه، أو يضعفه ويوهيه وما به يتم ويكمل.

اعلم أن التوحيد المطلق العلم والاعتراف بتفرد الرب بصفات الكمال والإقرار بتوحده بصفات العظمة والجلال، وإفراده وحده بالعبادة، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: توحيد الأسماء والصفات، وهو اعتقاد انفراد الرب جل جلاله بالكمال المطلق من جميع الوجوه بنعوت العظمة والجلال والجمال التي لا يشاركه فيها مشاركة بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفي لشيء منها ولا تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل، ونفي ما نفاه عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب، وعن كل ما ينافي كماله.

الثاني: توحيد الربوبية بأن يعتقد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وهذه التربية النافعة للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين.

الثالث: توحيد الإلهية ويقال له توحيد العبادة وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله وحده وهذا الأخير يستلزم القسمين الأولين ويتضمنهما، لأن الألوهية التي هي وصفه تعم جميع أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أوصاف العظمة والجلال ولما أسداه إلى خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالى بصفات الكمال وتفرده بالربوبية يلزم منه أنه لا يستحق العبادة أحد سواه. ومقصود دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم الدعوة إلى هذا التوحيد.

فذكر المصنف في هذه الترجمة من النصوص ما يدل على أن الله خلق الخلق لعبادته والإخلاص له، وأن ذلك حقه الواجب المفروض عليهم، فجميع الكتب السماوية وجميع الرسل دعوا إلى هذا التوحيد، ونهوا عن ضده من الشرك والتنديد، وخصوصاً محمد ﷺ. وهذا القرآن الكريم فإنه أمر به، وفرضه وقرره أعظم تقرير، وبينه أعظم بيان، وأخبر أنه لا نجاة ولا فلاح ولا سعادة إلا بهذا التوحيد، وأن جميع الأدلة العقلية والنقلية والأفقية والنفسية أدلة وبراهين على الأمر بهذا التوحيد ووجوبه، فالتوحيد هو حق الله الواجب على العبيد، وهو أعظم أوامر الدين، وأصل الأصول كلها، وأساس الأعمال.

بــاب
فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

لما ذكر في الترجمة السابقة وجوب التوحيد، وأنه الفرض الأعظم على جميع العبيد ذكر هنا فضله وهو آثاره الحميدة ونتائجه الجميلة وليس شيء من الأشياء له من الآثار الحسنة والفضائل المتنوعة مثل التوحيد فإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات هذا التوحيد وفضائله.

فقول المؤلف رحمه الله: «وما يكفر من الذنوب» من باب عطف

الخاص على العام فإن مغفرة الذنوب وتكفير الذنوب من بعض فضائله وآثاره كما ذكر شواهد ذلك في الترجمة.

ومن فضائله أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما.

ومن أجلّ فوائده أنه يمنع الخلود في النار إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة خردل وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية ومنها أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة ومنها أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه وأن أسعد الناس بشفاعة محمد ﷺ من قال لا إلـٰه إلا الله خالصاً من قلبه.

ومن أعظم فضائله أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد. فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.

ومن فضائله أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات؛ فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخفّ عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وعقابه.

ومنها أن التوحيد إذا كمل في القلب حبب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين، ومنها أنه يخفف على العبد المكاره ويهون عليه الآلام، فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكاره والآلام بقلب منشرح، ونفس مطمئنة، وتسليم ورضى بأقدار الله المؤلمة.

ومن أعظم فضائله أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم، وخوفهم ورجائهم، والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي، والشرف

العالي، ويكون مع ذلك متألهاً متعبداً لله لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققاً كاملاً بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيراً وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السموات والأرض، وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلاً من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر، وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها ولا تبلغ هذا المبلغ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.

ومن فضائل التوحيد أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى، وإصلاح الأحوال، والتسديد في الأقوال والأفعال.

ومنها أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.

بـــاب
من حقق التوحيد
دخل الجنة بغير حساب

وهذا الباب تكميل للباب الذي قبله وتابع له، فإن تحقيق التوحيد تهذيبه وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية الاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في

الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع والمعاصي التي تكدر التوحيد وتمنع كماله، وتعوقه عن حصول آثاره.

فمن حقق توحيده بأن امتلأ قلبه من الإيمان والتوحيد والإخلاص، وصدقته الأعمال بأن انقادت لأوامر الله طائعة منيبة مخبتة إلى الله، ولم يجرح ذلك بالإصرار على شيء من المعاصي، فهذا الذي يدخل الجنة بغير حساب؛ ويكون من السابقين إلى دخولها وإلى تبوء المنازل منها.

ومن أخص ما يدخل في تحقيقه كمال القنوت لله وقوة التوكل على الله؛ بحيث لا يلتفت القلب إلى المخلوقين في شأن من شؤونه، ولا يستشرف إليهم بقلبه، ولا يسألهم بلسان مقاله أو حاله، بل يكون ظاهره وباطنه وأقواله وأفعاله وحبه وبغضه، وجميع أحواله كلها مقصود بها وجه الله متبعاً فيها رسول الله. والناس في هذا المقام العظيم درجات

﴿ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٣٢]

وليس تحقيق التوحيد بالتمنِّي ولا بالدعاوي الخالية من الحقائق، ولا بالحلي العاطلة، وإنما ذلك بما وقر في القلوب من عقائد الإيمان وحقائق الإحسان وصدقته الأخلاق الجميلة، والأعمال الصالحة الجليلة، فمن حقق التوحيد على هذا الوجه حصلت له جميع الفضائل المشار إليها في الباب السابق بأكملها والله أعلم.

بـــاب
الخوف من الشرك

الشرك في توحيد الإلهية والعبادة ينافي التوحيد كل المنافاة وهو نوعان: شرك أكبر جلي، وشرك أصغر خفي، فأما الشرك الأكبر فهو أن يجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه أو يرجوه أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعاً

من أنواع العبادة، فهذا الشرك لا يبقى مع صاحبه من التوحيد شيء؛ وهذا المشرك الذي حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ولا فرق في هذا بين أن يسمّي تلك العبادة التي صرفها لغير الله عبادة أو يسميها توسلاً أو يسميها بغير ذلك من الأسماء فكل ذلك شرك أكبر لأن العبرة بحقائق الأشياء ومعانيها دون ألفاظها وعباراتها.

وأما الشرك الأصغر فهو جميع الأقوال والأفعال التي يتوسل بها إلى الشرك كالغلو في المخلوق الذي لا يبلغ رتبة العبادة كالحلف بغير الله ويسير الرياء ونحو ذلك فإذا كان الشرك ينافي التوحيد ويوجب دخول النار والخلود فيها وحرمان الجنة إذا كان أكبر وأنه لا تتحقق السعادة إلا بالسلامة منه كان حقاً على العبد أن يخاف منه أعظم خوف وأن يسعى في الفرار منه ومن طرقه ووسائله وأسبابه ويسأل الله العافية منه كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء وخيار الخلق وعلى العبد أن يجتهد في تنمية الإخلاص في قلبه وتقويته وذلك بكمال التعلق بالله تألها وإنابة وخوفاً ورجاء وطمعاً وقصداً لمرضاته وثوابه في كل ما يفعله وما يتركه من الأمور الظاهرة والباطنة فإن الإخلاص بطبيعته يدفع الشرك الأكبر والأصغر، وكل من وقع منه نوع من الشرك فلضعف إخلاصه.

بـــاب

الدعاء إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله

وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهراً وباطناً، والخوف من ضده؛ وبذلك يكمل العبد في نفسه. ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه ثم يسعى في تكميل غيره، وهذا هو طريق جميع الأنبياء، فإنهم أول ما يدعون إلى عبادة الله وحده

لا شريك له وهي طريقة سيدهم وإمامهم ﷺ، لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن. ولم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن؛ وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء وإذا كانت الدعوة إلى الله وإلى شهادة أن لا إلـه إلا الله فرضاً على كل أحد كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره فعلى العالم من بيان ذلك والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم؛ وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة. قال تعالى:

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: الآية ١٦]

ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.

بـــاب

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إلـه إلا الله

هما بمعنى واحد، فهو من باب عطف المترادفين، وهذه المسألة أكبر المسائل وأهمها كما قال المصنف رحمه الله. وحقيقة تفسير التوحيد العلم والاعتراف بتفرد الرب بجميع صفات الكمال وإخلاص العبادة له.

وذلك يرجع إلى أمرين: نفي الألوهية كلها عن غير الله بأن يعلم ويعتقد أنه لا يستحق الإلـهية ولا شيئاً من العبودية أحد من الخلق، لا نبي

مرسل ولا ملك مقرب ولا غيرهما، وأنه ليس لأحد من الخلق في ذلك حظ ولا نصيب.

والأمر الثاني إثبات الألوهية لله تعالى وحده لا شريك له وتفرده بمعاني الألوهية كلها وهي نعوت الكمال كلها. ولا يكفي هذا الاعتقاد وحده حتى يحققه العبد بإخلاص الدين كله لله فيقوم بالإسلام والإيمان والإحسان وبحقوق الله وحقوق خلقه قاصداً بذلك وجه الله وطالباً رضوانه وثوابه، ويعلم أن من تمام تفسيرها وتحقيقها البراءة من عبادة غير الله وأن اتخاذ أنداد يحبهم كحب الله أو يطيعهم كطاعة الله أو يعمل لهم كما يعمل لله، ينافي معنى لا إلـه إلا الله أشد المنافاة، وبيَّن المصنِّف، رحمه الله، أن من أعظم ما يبين معنى لا إلـه إلا الله قوله ﷺ: (من قال لا إلـه إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله)، فلم يجعل مجرد التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ولا دمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه.

فتبين بذلك أنه لا بد من اعتقاد وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ومن الإقرار بذلك اعتقاداً ونطقاً، ولا بد من القيام بعبودية الله وحده طاعة لله وانقياداً ولا بد من البراءة مما ينافي ذلك عقداً وقولاً وفعلاً، ولا يتم ذلك إلا بمحبة القائمين بتوحيد الله وموالاتهم ونصرتهم، وبغض أهل الكفر والشرك ومعاداتهم، ولا تغني في هذا المقام الألفاظ المجردة ولا الدعاوي الخالية من الحقيقة، بل لا بد أن يتطابق العلم والاعتقاد والقول والعمل، فإن هذه الأشياء متلازمة متى تخلف واحد منها تخلفت البقية والله أعلم.

بـــاب
من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفـع البلاء أو دفعه

وهذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحـدها أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً أو قدراً.

ثانيها أن لا يعتمد العبد عليها بل يعتمد على مسببها ومقدرها مـع قيامه بالمشروع منها وحرصه على النافـع منها.

ثالثها أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء: إن شاء أبقى سببيتها جارية على مقتضى حكمته ليقوم بها العباد ويعرفوا بذلك تمام حكمته حيث ربط المسببات بأسبابها والمعلولات بعللها؛ وإن شاء غيّرها كيف يشاء لئلا يعتمد عليها العباد وليعلموا كمال قدرته وأن التصرف المطلق والإرادة المطلقة لله وحده. فهذا هو الواجب على العبد في نظره وعمله بجميـع الأسباب.

إذا علم ذلك فمن لبس الحلقة أو الخيط ونحوهما قاصداً بذلك رفـع البلاء بعد نزوله؛ أو دفعه قبل نزوله، فقد أشرك لأنه إن اعتقد أنها هي الدافعة الرافعة فهذا الشرك الأكبر وهو شرك في الربوبية، حيث اعتقد شريكاً مـع الله في الخلق والتدبير، وشرك في العبودية حيث تأله لذلك وعلق به قلبه طمعاً ورجاءً لنفعه وإن اعتقد أن الله هو الدافـع الرافـع وحده ولكن اعتقدها سبباً يستدفـع بها البلاء فقد جعل ما ليس سبباً شرعياً ولا قدرياً سبباً وهذا محرم وكذب على الشرع وعلى القدر: أما الشرع فإنه ينهي عن ذلك أشد النهي وما نهى عنه فليس من الأسباب النافعة وأما القدر فليس هذا من الأسباب المعهودة ولا غير المعهودة التي يحصل بها المقصود ولا من الأدوية المباحة النافعة.

وكذلك هو من جملة وسائل الشرك فإنه لا بد أن يتعلق قلب متعلقها بها وذلك نوع شرك ووسيلة إليه فإذا كانت هذه الأمور ليست من الأسباب الشرعية التي شرعها على لسان نبيه التي يتوسل بها إلى رضا الله وثوابه ولا من الأسباب القدرية التي قد علم أو جرب نفعها مثل الأدوية المباحة كان المتعلق بها متعلقاً قلبه بها راجياً لنفعها فتعين على المؤمن تركها ليتم إيمانه وتوحيده فإنه لو تم توحيده لم يتعلق قلبه بما ينافيه وذلك أيضاً نقص في العقل حيث تعلق بغير متعلق ولا نافع بوجه من الوجوه؛ بل هو ضرر محض.

والشرع مبناه على تكميل أديان الخلق بنبذ الوثنيات والتعلق بالمخلوقين، وعلى تكميل عقولهم بنبذ الخرافات والخزعبلات، والجد في الأمور النافعة المرقية للعقول، المزكية للنفوس، المصلحة للأحوال كلها دينيها ودنيويها والله أعلم.

بـــاب
ما جاء في الرقى والتمائم

أما التمائم فهي تعاليق تتعلق بها قلوب متعلقيها والقول فيها كالقول في الحلقة والخيط كما تقدم فمنها ما هو شرك أكبر كالتي تشتمل على الاستغاثة بالشياطين أو غيرهم من المخلوقين فالاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك كما سيأتي إن شاء الله ومنها ما هو محرم كالتي فيها أسماء لا يفهم معناها لأنها تجر إلى الشرك.

وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة.

وأما الرقى ففيها تفصيل: فإن كانت من القرآن أو السنة أو الكلام

الحسن فإنها مندوبة في حق الراقي لأنها من باب الإحسان، ولما فيها من النفـع، وهي جائزة في حق المرقي إلا أنه لا ينبغي له أن يبتدىء بطلبها، فإن من كمال توكل العبد وقوة يقينه أن لا يسأل أحداً من الخلق لا رقية ولا غيرها؛ بل ينبغي له إذا سأل أحداً أن يدعو له أن يلحظ مصلحة الداعي والإحسان إليه بتسببه لهذه العبودية له مـع مصلحة نفسه، وهذا من أسرار تحقيق التوحيد ومعانية البديعة التي لا يوفق للتفقه فيها والعمل بها إلا الكمل من العباد. وإن كانت الرقية يدعى بها غير الله ويطلب الشفاء من غيره فهذا هو الشرك الأكبر لأنه دعاء واستغاثة بغير الله، فافهم هذا التفصيل، وإياك أن تحكم على الرقى بحكم واحد مـع تفاوتها في أسبابها وغاياتها.

بـــاب
من تبرك بشجر أو حجر أو غيرهما

أي فإن ذلك من الشرك ومن أعمال المشركين فإن العلماء اتفقوا على أنه لا يشرع التبرك بشيء من الأشجار والأحجار والبقـع والمشاهد وغيرها فإن هذا التبرك غلو فيها وذلك يتدرج به إلى دعائها وعبادتها وهذا هو الشرك الأكبر كما تقدم انطباق الحد عليه وهذا عام في كل شيء حتى مقام إبراهيم وحجرة النبـي ﷺ وصخرة بيت المقدس وغيرها من البقـع الفاضلة.

وأما استلام الحجر الأسود وتقبيله واستلام الركن اليماني من الكعبة المشرفة فهذا عبودية لله وتعظيم لله وخضوع لعظمته فهو روح التعبد فهذا تعظيم للخالق وتعبد له وذاك تعظيم للمخلوق وتأله له فالفـرق بين الأمرين كالفرق بين الدعاء لله الذي هو إخلاص وتوحيد والدعاء للمخلوق الذي هو شرك وتنديد.

بـــاب
ما جاء في الذبـح لغير الله

أي أنه شرك، فإن نصوص الكتاب والسنة صريحة في الأمر بالذبـح لله، وإخلاص ذلك لوجهه، كما هي صريحة بذلك في الصلاة فقد قرن الله الذبـح بالصلاة في عدة مواضـع من كتابه، وإذا ثبت أن الذبـح لله من أجل العبادات وأكبر الطاعات، فالذبـح لغير الله شرك أكبر مخرج عن دائـرة الإسلام، فإن حد الشَرك الأكبر وتفسيره الذي يجمـع أنواعه وأفراده أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله.

فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء، كما أن حد الشرك الأصغر هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلـغ رتبة العبادة، فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان.

بـــاب
لا يذبـح لله بمكان يذبـح فيه لغير الله

ما أحسن اتباع هذا الباب بالباب الذي قبله، فالذي قبله من المقاصد وهذا من الوسائل. ذاك من باب الشرك الأكبر، وهذا من وسائل الشرك القريبة، فإن المكان الذي يذبـح فيه المشركون لآلهتهم تقرباً إليها وشركاً بالله قد صار مشعراً من مشاعر الشرك، فإذا ذبـح فيه المسلم ذبيحة ولو قصدها لله فقد تشبّه بالمشركين وشاركهم في مشعلاهم، والموافقة الظاهرة تدعو إلى الموافقة الباطنة والميل إليهم.

ومن هذا السبب نهى الشارع عن مشابهة الكفار في شعارهم وأعيادهم وهيئاتهم ولباسهم وجميع ما يختص بهم إبعاداً للمسلمين عن الموافقة لهم في الظاهر التي هي وسيلة قريبة للميل والركون إليهم، حتى أنه نهى عن الصلاة النافلة في أوقات النهي التي يسجد المشركون فيها لغير الله خوفاً من التشبه المحذور.

بــــاب

من الشرك النذر لغير الله، باب من الشرك الاستعاذة بغير الله؛ باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

متى فهمت الضابط السابق في حد الشرك الأكبر، وهو أن من صرف شيئاً من العبادة لغير الله فهو مشرك، فهمت هذه الأبواب الثلاثة التي والى المصنف بينها، فإن النذر عبادة مدح الله الموفين به؛ وأمر ﷺ بالوفاء بنذر الطاعة، وكل أمر مدحه الشارع أو أثنى على من قام به أو أمر به فهو عبادة، فإن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة، والنذر من ذلك.

وكذلك أمر الله بالاستعاذة به وحده من الشرور كلها وبالاستغاثة به في كل شدة ومشقة، فهذه إخلاصها لله إيمان وتوحيد، وصرفها لغير الله شرك وتنديد.

والفرق بين الدعاء والاستغاثة أن الدعاء عام في كل الأحوال، والاستغاثة هي الدعاء لله في حالة الشدائد، فكل ذلك يتعين إخلاصه لله وحده، وهو المجيب لدعاء الداعين المفرج لكربات المكروبين، ومن دعا غيره من نبي أو ملك أو ولي أو غيرهم، أو استغاث بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو مشرك كافر، وكما أنه خرج من الدين فقد تجرد أيضاً من العقل،

فإن أحداً من الخلق ليس عنده من النفـع والدفـع مثقال ذرة لا عن نفسه ولا عن غيره بل الكل فقراء إلى الله في كل شؤونهم.

بـــاب
قول الله تعالى: ﴿أيُشركون ما لا يَخلُقُ شيئاً وهم يُخْلَقُون﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩١]

هذا شروع في براهين التوحيد وأدلته، فالتوحيد له من البراهين النقلية والعقلية ما ليس لغيره، فتقدم أن التوحيدين: توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من أكبر براهينه وأضخمها. فالمتفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه، هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

وكذلك من براهين التوحيد معرفة أوصاف المخلوقين، ومن عُبد مـع الله، فإن جميـع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفـع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ولا يملكون ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافـع، المعطي المانـع، الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه يرجـع كل شيء وله يقصد ويصمد ويخضـع كل شيء، فأي برهان أعظم من هذا البرهان الذي أعاده الله وأبداه في مواضـع كثيرة من كتابه وعلى لسان رسوله، فهو دليل عقلي فطري كما أنه دليل سمعي نقلي على وجوب توحيد الله، وأنه الحق وعلى بطلان الشرك.

وإذا كان أشرف الخلق على الإطلاق لا يملك نفـع أقرب الخلق إليه وأمسهم به رحماً فكيف بغيره؟ فتباً لمن أشرك بالله وساوى به أحداً من المخلوقين؛ لقد سلب عقله بعد ما سلب دينه؛ فنعوت الباري تعالى وصفات عظمته وتوحده في الكمال المطلق أكبر برهان على أنه لا يستحق العبادة

إلا هو، وكذلك صفات المخلوقات كلها وما هي عليه من النقص والحاجة والفقر إلى ربها في كل شؤونها وأنه ليس لها من الكمال إلا ما أعطاها ربها من أعظم البراهين على بطلان إلـٰهية شيء منها، فمن عرف الله وعرف الخلق اضطرته هذه المعرفة إلى عبادة الله وحده، وإخلاص الدين له والثناء عليه، وحمده وشكره بلسانه وقلبه وأركانه وانصرف تعلقه بالمخلوقين خوفاً ورجاءً وطمعاً والله أعلم.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم﴾

[سورة سبأ: الآية ٢٣]

وهذا أيضاً برهان عظيم آخر على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وهو ذكر النصوص الدالة على كبرياء الرب وعظمته التي تتضاءل وتضمحل عندها عظمة المخلوقات العظيمة، وتخضـع له الملائكة والعالم العلوي والسفلي، ولا تثبت أفئدتهم عند ما يسمعون كلامه أو تتبدى لهم بعض عظمته ومجده، فالمخلوقات بأسرها خاضعة لجلاله معترفة بعظمته ومجده خاضعة له خائفة منه، فمن كان هذا شأنه فهو الرب الذي لا يستحق العبادة والحمد والثناء والشكر والتعظيم والتأله، إلّا هـو، ومن سواه ليس له من هذا الحق شيء، فكما أن الكمال المطلق والكبرياء والعظمة، ونعوت الجلال والجمال المطلق كلها لله لا يمكن أن يتصف بها غيره فكذلك العبودية الظاهرة والباطنة كلها حقه تعالى الخاص الذي لا يشاركه فيه مشارك بوجه.

بـاب الشفاعة

إنما ذكر المصنف الشفاعة في تضاعيف هذه الأبواب لأن المشركين يبررون شركهم ودعاءهم للملائكة والأنبياء والأولياء بقولهم نحن ندعوهم مـع

علمنا أنهم مخلوقون مملوكون، ولكن حيث أن لهم عند الله جاها عظيماً ومقامات عالية ندعوهم ليقرِّبونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده كما يتقرب إلى الوجهاء عند الملوك والسلاطين ليجعلوهم وسائط لقضاء حاجاتهم وإدراك مآربهم. وهذا من أبطل الباطل، وهو تشبيه لله العظيم ملك الملوك الذي يخافه كل أحد، وتخضع له المخلوقات بأسرها، بالملوك الفقراء المحتاجين للوجهاء والوزراء في تكميل ملكهم ونفوذ قوتهم، فأبطل الله هذا الزعم وبيّن أن الشفاعة كلها له كما أن الملك كله له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى إلا توحيده وإخلاص العمل له. فبين أن المشرك ليس له حظ ولا نصيب من الشفاعة، وبين أن الشفاعة المثبتة التي تقع بإذنه إنما هي الشفاعة لأهل الإخلاص خاصة وأنها كلها منه، رحمة منه وكرامة للشافع، ورحمة منه وعفوًا عن المشفوع له، وأنه هو المحمود عليها في الحقيقة وهو الذي أذن لمحمد ﷺ فيها وأناله المقام المحمود.

فهذا ما دل عليه الكتاب والسنة في تفصيل القول في الشفاعة.

وقد ذكر المصنف رحمه الله كلام الشيخ تقي الدين في هذا الموضع وهو كاف شاف، فالمقصود في هذا الباب ذكر النصوص الدالة على إبطال كل وسيلة وسبب، يتعلق به المشركون بآلهتهم، وأنه ليس لها من الملك شيء: لا استقلالاً ولا مشاركة ولا معاونة ومظاهرة، ولا من الشفاعة شيء، وإنما ذلك كله لله وحده، فتعين أن يكون المعبود وحده.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿إنك لا تهدِي مَنْ أحببتَ﴾

[سورة القصص: الآية ٥٦]

وهذا الباب أيضاً نظير الباب الذي قبله، وذلك أنه إذا كان ﷺ هو أفضل الخلق على الإطلاق وأعظمهم عند الله جاهًا وأقربهم إليه وسيلة، لا يقدر على هداية من أحب هداية التوفيق وإنما الهداية كلها بيد الله، فهو

الذي تفرد بهداية القلوب كما تفرد بخلق المخلوقات، فتبين أنه الإلـه الحق، وأما قوله تعالى:

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [سورة الشوري: الآية ٥٢]

فالمراد بالهداية هنا هداية البيان وهو ﷺ المبلـغ عن الله وحيه الذي اهتدى به الخلق.

بـــاب
أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

والغلو هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيء، فإن حق الله الذي لا يشـاركه فيه مشارك هو الكمال المطلق، والغنى المطلق، والتصرف المطلق من جميـع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحد سواه، فمن غلا بأحد من المخلوقين حتى جعل له نصيباً من هذه الأشياء فقد ساوى به رب العالمين وذلـك أعظم الشـرك، ومن رفـع أحداً من الصالحين فوق منزلته التي أنزله الله بها فقد غلا فيه وذلك وسيلة إلى الشرك وترك الدين.

والنـاس في معاملة الصـالحين ثلاثـة أقسام: أهـل الجفـاء الـذين يهضمونهم حقوقهم ولا يقومون بحقهم من الحب والموالاة لهم والتوقيـر والتبجيل، وأهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها، وأهل الحق الذين يحبونهم ويوالونهم ويقومون بحقوقهم الحقيقية ولكنهم يبرأون من الغلو فيهم وادعاء عصمتهم، والصالحون أيضاً يتبرَّأون من أن يدّعوا لأنفسهم حقاً من حقوق ربهم الخاصة، كما قال الله عن عيسى ﷺ:

﴿سبحانَك ما يكونُ لي أن أقولَ ما ليس لي بحقٍّ﴾

[سورة المائدة: الآية ١١٦]

واعلم أن الحقوق ثلاثة: حق خاص لله لا يشاركه فيه مشارك وهو التأله

له وعبادته وحده لا شريك له، والرغبة والإنابة إليه وحده حباً وخوفاً ورجاءً، وحق خاص للرسل وهو توقيرهم وتبجيلهم والقيام بحقوقهم الخاصة؛ وحق مشترك وهو الإيمان بالله ورسله، وطاعة الله ورسله، ومحبة الله، ومحبة رسله؛ ولكن هذه لله أصلاً وللرسل تبعاً لحق الله، فأهل الحق يعرفون الفرقان بين هذه الحقوق الثلاثة فيقومون بعبودية الله وإخلاص الدين له، ويقومون بحق رسله وأوليائه على اختلاف منازلهم ومراتبهم والله أعلم.

بـــاب

ما جاء فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده، باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

ما ذكره المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم؛ وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع.

أما المشروع فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل: يزورها المسلم متبعاً للسنة فيدعو لأهلها عموماً ولأقاربه ومعارفه خصوصاً فيكون محسناً إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسناً إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

وأما الممنوع فإنه نوعان: أحدهما محرم ووسيلة للشرك، كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها والصلاة عندها وكإسراجها والبناء عليها والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة. والنوع الثاني شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم.

ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى

الله زلفى ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر . من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنّة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين. وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

بـــاب
حماية المصطفى حمى التوحيد
وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب رأى نصوصاً كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه من الحث على الإنابة إلى الله وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة وقوة الطمع بفضله وإحسانه والسعي لتحصيل ذلك وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه أو الغلو في أحد منهم والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة وتكميلها وخصوصاً حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين ونهى عن التشبه بالمشركين لأنه يدعو إلى الميل إليهم ونهي عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوسل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد ونهي عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

بــاب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه وأنه أمر واقـع في هذه الأمة لا محالة والرد على من زعم أن من قال لا إلـه إلا الله وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم وسمى ذلك توسلاً لا عبادة فإن هذا باطل.

فإن الوثن اسم جامـع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضـع وهو العبادة، فإنها حق الله وحده فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثناً وخرج بذلك عن الدين ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافـر ومنافق. والعبـرة بروح الـدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

بــاب
السحر وباب شيء من أنواع السحر

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيراً من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك والتوصل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره، ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين:

من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم وربما تقرّب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه؛ ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر، وفيه أيضاً من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول،

وهذا من أفظع المحرمات وذلك من الشرك ووسائله ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس النميمة لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور. فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

بـــاب
ما جاء في الكهان ونحوهم

أي من كل من يدّعي علم الغيب بأي طريق من الطرق وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرها أو صدّق من ادعى ذلك فقد جعل لله شريكاً فيما هو من خصائصه وقد كذب الله ورسوله. وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله، وفيه إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

بـــاب النشرة

وهو حل السحر عن المسحور. ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بيّن الجائز منه والممنوع وفيه كفاية.

بــاب الطيرة

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغيرها فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين وكان يحب الفال ويكره الطيرة، والفرق بينهما أن الفال الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله وليس فيه تعليق القلب بغير الله بل فيه من المصلحة النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره؛ أو يسمع كلاماً يسره مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه؛ فهذا كله خير، وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيَرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثَّر في قلبه أحد أمرين أحدهما أعظم من الآخر (أحدهما) أن يستجيب لذلك الداعي، فيترك ما كان عازماً على فعله أو بالعكس فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازماً عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله. ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسباباً، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله. وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني أن لا يستجيب لذلك الداعي ولكنه يؤثر في قلبه حزناً وهماً وغماً، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول، فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة

وذمها ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل وينبغي لمن وجد شيئاً من ذلك وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

باب
ما جاء في التنجيم

التنجيم نوعان:

نوع يسمى علم التأثير وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى الباطلة ولما فيه من تعلق القلب بغير الله ولما فيه من فساد العقل، لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني علم التسيير وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات فهذا النوع لا بأس به بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

باب
الاستسقاء بالنجوم

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم وإضافتها إليه قولاً واعترافاً واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مُطرنا بنوء كذا وكذا ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء، والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله فإنه الذي تفضل بها على عبادة، ثم الأنواء

ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته بالوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره، وهذا الموضع من محققات التوحيد وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

باب

قول الله تعالى: ﴿ومِنَ الناسِ مَنْ يتَّخذُ من دون الله أنداداً يُحُبُّونَهم كحُبِّ الله﴾
[سورة البقرة: الآية ١٦٥]

أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده وهي أصل التأله والتعبد له بل هي حقيقة العبادة ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعاً لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه.

ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله والبغض في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه؛ وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله ويقدم طاعتهم على طاعة الله ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئاً، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضاً وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرها وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك وغيرها وهي أصل الشرك وأساسه.

وهنا قسم رابع وهو المحبة الطبيعية التي تتبع ما يلائم العبد ويوافقه من طعام وشراب ونكاح ولباس وعشرة وغيرها، وهذه إذا كانت مباحة إن أعانت على محبة الله وطاعته دخلت في باب العبادات، وإن صدت عن ذلك وتوسل بها إلى ما لا يحبه الله دخلت في المنهيات، وإلا بقيت من أقسام المباحات والله أعلم.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿إنما ذلكُمُ الشيطانُ يُخَوِّفُ أولياءَه﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٧٥]

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده والنهي عن تعلقه بالمخلوقين وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك؛ ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة وتارة يقع طبيعة وعادة، وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لأنه شرّك في هذه العبادة التي هي

من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه لله، وأيضاً فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعله لله نداً في الخشية كمن جعل لله نداً في المحبة وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروها أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك مما هو واقع من عباد القبور.

وإن كان الخوف طبيعياً كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري: فهذا النوع ليس عبادة وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفاً محققاً قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم، وإن كان خوفاً وهمياً كالخوف الذي ليس له سبب أصلاً أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء وقد تعوذ ﷺ من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى أن خواصَّ المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمناً وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب:

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين﴾

[سورة المائدة: الآية ٢٣]

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله أن يعلم العبد أن الأمر كله لله وأنه ما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب

مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله وتعلق به وكل إليه وخاب أمله.

بـــاب
قول الله تعالى: ﴿أفأمنوا مَكْرَ الله﴾

[سورة الأعراف: الآية ٩٩]

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفاً من الله، راجياً له، راغباً راهباً؛ إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه، خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها. وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسارِّ يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها، وينتظر الفرج بحلها، وبرجو أيضاً أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين: فوات الأجر المحبوب وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب وهو النافع وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين (أحدهما) أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه. الثاني أن يتجاري به الرجاء حتى يأمن مكرِ الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد، وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران (أحدهما) أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية ويقطع طمعه من رحمة الله لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة فلا يزال كذلك حتى يصبر له هذا وصفاً وخلقاً لازماً، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي (الثاني) أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشيء من ضعف علم العبد بربه وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها ـ فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل؛ لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه وإلى رحمته وجوده وكرمه. وللأمن من مكر الله أيضاً سببان مهلكان (أحدهما) إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضاً غافلاً مقصراً عن الواجبات، منهمكاً في المحرمات حتى يضمحل خوف الله من قلبه ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروى.

السبب الثاني أن يكون العبد عابداً جاهلاً معجباً بنفسه مغروراً بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدل بعمله ويزول الخوف عنه ويرى أن له عند الله المقامات العالية فيصير آمناً من مكر الله متكلاً على نفسه الضعيفة المهينة، ومن ههنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق، إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

بـــاب
من الإيمان الصبر على أقدار الله

أما الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وأصله وفرعه فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله وبرضاه ويقرب إليه وصبر عن محارم الله.

فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله وأن لله أتـمَّ الحكمة في تقديرها وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، رضي بقضاء الله وسلم لأمره وصبر على المكاره تقرباً إلى الله ورجاء لثوابه وخوفاً من عقابه واغتناماً لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

بـــاب
ما جاء في الرياء ثم قال: باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين وروح التوحيد والعبادة وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائـع الإسلام الخمس وحقائق الإيمان التي هي الإحسان وبحقوق الله وحقوق عباده مكملاً لها قاصداً بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة ولا دنيا وبذلك يتم إيمانه وتوحيده.

ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد

مراءاة الناس واستمر على هذا القصد الفاسد فعمله حابط وهو مشرك أصغر ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر، وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مـع إرادة مراءاة الناس ولم يقلـع عن الرياء بعمله فظاهر النصوص أيضاً بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء، والرياء آفة عظيمة ويحتاج إلى علاج شديد وتمرين النفس على الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أعراضها وأغراضها فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة؛ فهذا ليس له في الآخرة من نصيب وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن، فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان لا بد أن يريد الله والدار الآخرة وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان فهذا وإن كان مؤمناً فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص وعمله ناقص لفقده كمـال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصاً تاماً ولكنه يأخذ على عمله جعلاً ومعلوماً يستعين به على العمل والدين كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير وكـالمجاهـد الذي يتـرتب على جهاده غنيمـة أو رزق وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معيناً له على قيام الدين ولهذا جعل

الله في الأموال الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءاً كبيراً لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة كما قد عرف تفاصيل ذلك، فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها والله أعلم.

بـــاب
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أرباباً، باب قول الله تعالى:
﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين يزعُمُون أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليك﴾

[سورة النساء: الآية ٦٠]

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر فإن الرب والإلـه هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي؛ وهو الذي يؤله ويُعبد وحده لا شريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته، فإذا اتخذ العلماء والأمراء على هذا الوجه وجعل طاعتهم هي الأصل وطاعة الله ورسوله تبعاً لها فقد اتخذهم أرباباً من دون الله يتألههم ويحاكم إليهم ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، وهذا هو الكفر بعينه فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها لله، والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكماً وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله وبذلك يكون دين العبد كله لله وتوحيده خالصاً لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وفي كل الحقوق كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا وقد حاكم إلى الطاغوت.

بـــاب
من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بـالله وبأسمـائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإلـه الحق وأن إلـهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئاً من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

بـــاب
قول الله تعالى: ﴿يعرفون نعمةَ الله ثم يُنْكِرُونها﴾

[سورة النحل: الآية ٨٣]

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً كما تقدم وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيـد إلا بإضافة النعم إلى الله قولاً واعترافاً، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره والتحدث بها والثناء على الله بها والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته والله أعلم.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢]

الترجمة السابقة على قوله تعالى:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ [سورة البقرة: الآية ١٦٥]

يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله نداً في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات ــ وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كلولا الله وفلان وهذا بالله وبك وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كلولا الحارس لأتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد، والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفـع الأسباب إلى إرادة الله، وإلى الله ابتداء ويذكر مـع ذلك مرتبة السبب ونفعه فيقول لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله نداً في قلبه وقوله وفعله.

بـــاب

من لم يقنـع في الحلف بالله

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بـالصدق أو ظاهره الخير والعدالة فيحلف فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه، لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلاله يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرضَ إلا بالحلف بالطلاق أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب وحلف على ما تيقن كذبه فيه فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد لأن حالته متيقنة والله أعلم.

بـــاب

قول: ما شاء الله وشئت

هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٢]

بـــاب

من سب الدهر فقد سب الله

وهذا واقع كثيراً في الجاهلية وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجّان والحمقى إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت وربما لعنوه. وهذا ناشىء من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء فإنه مدبّر مصرّف والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره، وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها وتغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد؛ أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.

بـــاب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

وبـــاب
احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب أن لا يجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحـاكم الحكام، أو بأبـي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفـع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

بـــاب
من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

أي فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومخرج من الدين، لأن أصل الدين: الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك. ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد، لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعـان: معرضـون ومعارضـون، فالمعـارض المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفراً وأعظم فساداً، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

بـــاب
قول الله تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضرَّاءَ مَسَّته﴾

[سورة فُصِّلت: الآية ٥٠]

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو

بكدّه وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد لأن المؤمن حقاً من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقاً على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس، والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاءَ فيما آتاهما﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٩٠]

مقصود الترجمة أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله لهم النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وألَّا يُعبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعُوهُ بها وذَرُوا الذين يُلْحِدُون في أسمائه﴾

[سورة الأعراف: الآية ١٧٩]

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه؛ أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى؛ ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها، فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه: فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى؛ فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفوّ الغفور التواب ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك

باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلىء بأجلِّ المعارف. فمثلاً أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلب تعظيماً لله وإجلالاً له. وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله، وشوقاً له وحمداً له وشكراً. وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعاً لله وخشوعاً وانكساراً بين يديه وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية، والإرادات الفاسدة. وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقاراً واضطراراً إليه والتفاتاً إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته وتعبّده بها لله لا يحصل العبد في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخاص والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكمل من الموحدين. وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى.

وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة، والإلحاد أنواع إما أن ينفي الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم، وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم، وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإلـه، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى فشبهوها بالله، ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة، فحقيقة الإلحاد في أسماء الله هو الميل بها عن مقصودها لفظاً أو معنى، تصريحاً أو تأويلاً أو تحريفاً. وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.

بـــاب
لا يقال: السلام على الله

وقد بين ﷺ هذا المعنى بقوله (فإن الله هو السلام) فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المسلم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميـع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

بـــاب
لا يقول: اللهم آغفر لي إن شئت

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابـع ذلك، قد أمر العبد أن يسألها من ربه طلباً ملحاً جازماً، وهذا الطلب عين العبودية ومخها، ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة، لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء.

وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد. فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلـح الأمرين، كالدعاء المأثور «اللهم احيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيـراً لي» وكدعـاء الاستخارة.

فافهم هذا الفرق اللطيف البديـع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علماً وقدرة ورحمة ولطفاً.

بـــاب
لا يقل: عَبْدِي وأَمَتي

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول عبدي وأمتي إلى فتاي وفتاتي، تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد، وليس حراماً وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذوراً بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص خصوصاً هذه الألفاظ التي هي أمسُّ بهذا المقام.

بـــاب
لا يرد من سأل بالله
وبـــاب
لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

الباب الأول خطاب للمسؤول، وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احتراماً وتعظيماً لحق الله، وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني خطاب للسائل، وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئاً من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسني هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية، والأمور الدنية وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه فإنه لا يسألها بوجهه.

بــاب
ما جاء في «اللَّوْ»

اعلم أن استعمال العبد للفظة «لو» يقـع على قسمين: مذموم ومحمود:

أما المذموم فأَنْ يقـع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان، لأن فيه محذورين (أحدهما) أنها تفتـح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه وليس فيها نفـع (الثاني) أن في ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها، والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقـع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده. فكان في قوله: لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا، نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره.

ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك فأَنْ يقولها العبد تمنياً للخير، أو تعليماً للعلم والخير كقوله ﷺ: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لمـا سقت الهدى ولأهللت بالعمرة) وقوله في الرجل المتمني للخير (لو أن لي مثل مال فلان لعملت فيه مثل عمل فلان) و(لو صبر أخي موسى ليقص الله علينا من نبئِهما)، أي في قصته مـع الخضر.

وكما أن «لو» إذا قالها للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنياً للشر فهو مذموم، فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها: إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمني الشر كان مذموماً، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محموداً، ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

بـــاب
النهي عن سب الريـح

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر إلا أن ذلك الباب عام في سب جميـع حوادث الدهر، وفي هذا خاص بالريـح. ومـع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريـح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالسابُّ لها يقـع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريـح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالباً لكان الأمر أفظـع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

بـــاب
قول الله تعالى: ﴿يظُنُّون بالله غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهلية﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٥٤]

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميـع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به وأنه يفعله وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان؛ وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية للنافية للتوحيد لأنها سوء ظن بالله؛ ونفي لكماله وتكذيب لخبره، وشك في وعده. والله أعلم.

بـــاب
ما جاء في منكر القدر

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة. فعلينا أن نؤمن بجميـع مراتب القدر فنؤمن أن الله بكل

شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره.

ومن تمام الإيمان بالقدر العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون بل جعلهم مختارين لطاعاتهم ومعاصيهم.

بـــاب
ما جاء في المصورين

وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله نداً في النيات والأقوال والأفعال. والند هو المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشَبُّه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلـٰهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

بـــاب
ما جاء في كثرة الحلف

أصل اليمين إنما شرعت تأكيداً للأمر المحلوف عليه، وتعظيماً للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقاً. ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف، فالكذب وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

بـــاب
ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها بعد ما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقـع النقض في هذه الحال كان انتهـاكاً من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركاً لتعظيم الله وارتكاباً لأكبر المفسدتين؛ كما نبه عليه ﷺ، وفي ذلك أيضاً تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به؛ فإن الوفاء بالعهود خصوصاً المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

بـــاب
الإقسام على الله
وبـــاب
لا يستشفـع بالله على خلقه

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد.

أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأناً من أن يتوسل به إلى خلقه، لأن رتبة المتوسل به غالباً دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب مـع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافـع وهو الكبير العظيم الـذي خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات بأسرها.

بـــاب

ما جاء في حماية المصطفى حمى التوحيد
وسدِّه طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ويحصن إلا باجتناب جميـع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيـد إلا بتركه.

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته؛ وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهراً وباطناً، قولاً وفعلاً وإرادة واعتقاداً. وقد مضى من التفاصيل ما يوضـح ذلك.

بـــاب

قول الله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

[سورة الأنعام: الآية ٩١]

ختم المصنف، رحمه الله، كتابه بهذه الترجمة، وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزه، لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وحده، الذي يجب أن يبذل له غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل. وهذا حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته، والإنابة إليه. إنه جواد كريم.

وهذا آخر التعليق المختصر على كتاب التوحيد وتوضيـح مقاصده، وقد

حوى من غرر مسائل التوحيد. ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول وبه تقوم العلوم كلها، والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.



سُؤال وجواب في أهم المهمّات



بسم الله الرحمن الرحيم

عليه نتوكل وبه نستعين

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه.

وبعد، يقول العبد الفقير إليه مختار أبو الشامات: بعد اطلاعي على هذا الكتاب الذي حوى فوائد عديدة قل أن توجد في غيره، وهذا دليل واضح على علو مقام مؤلفه الذي ملأ وشاع ذكره وكيف لا، وهو الفريد في عصره وقد بث روح العلم والعمل وأرشد قومه إلى طريق التوحيد الذي هو أساس الدين إذ لا معبود في هذا الوجود إلا الواحد المعبود الذي علا فاقتدر هو رب العالمين الذي لا يستحق العبادة سواه وحصر العبادة لذاته بقوله:

﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ [سورة الفاتحة: الآية ٥]

ولا نطلب العون إلا منك يا رب العالمين.

وهذا الكتاب الذي حوى كل المعاني التي عليها أساس هذا الدين، وقد أوضح فيه معنى التوحيد الذي بني عليه الإسلام، أقول إن مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي من قبيلة تميم؛ ولد في بلدة عنيزة في القصيم في عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وعاش يتيماً وأوقف نفسه لطلب العلم وحفظ الحديث عن شيخه الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر وقرأ الفقه وعلوم العربية على شيخه الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل، وكما أنه قرأ التوحيد والتفسير وأصول الفقه وفروعه على أكبر مشايخه، القاضي الورع الشيخ صالح بن عثمان القاضي، وقرأ على عدة مشايخ وكل منهم يفتخر بهذا

المؤلف لحسن أخلاقه وزهده وورعه. وكان متواضعاً أنيساً ويحب الفقراء والمساكين ويمد يده لمساعدتهم ولكل من يريد المساعدة، وهو اليوم يبث روح العلم والأدب في كل أوقاته وله تلاميذ عديدون نسأل الله أن يطيل حياته ويبارك في أوقاته ويرزقنا وإياه العمل الصالـح أنه قريب مجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصديــر

الحمد لله على ما لهُ من الأسماء الحسنى والصفاتِ الكاملةِ والنعمِ السابغة وأصلِّي على محمدٍ، المبعوثِ لصلاح الدينِ والدنيا والآخرةِ. أما بعدُ فهذه رسالةٌ مختصرةٌ احتوت على أهم المهماتِ من أمورِ الدينِ وأصولِ الإيمان، تدعو الحاجةُ والضرورة إلى معرفتها جعلتها على وجهِ السؤالِ والجوابِ لأنه أقربُ إلى الفهمِ والتفهيمِ وأوضحُ في التعلُّم والتعليمِ.

السؤال الأول

ما حدُّ التوحيدِ وما أقسامُه

الجوابُ: حَدُّ التوحيدِ الجامعُ لكل أنواعِه هو علمُ العبدِ واعتقادُه واعترافُه وإيمانُه بتفرد الربِّ بكل صفةِ كمالٍ وتوحُّدهُ في ذلك واعتقادُ أنه لا شريكَ لهُ ولا مثيل لهُ في كمالِهِ وأنَّه ذو الألوهية والعبوديةِ على خلقه أجمعين، ثم إفرادُه بأنواعِ العبادةِ فَدَخَلَ في هذا التعريفِ أقسامُ التوحيدِ الثلاثة: أحدُها: توحيدُ الربوبيةِ، وهو الاعترافُ بانفرادِ الربِّ بالخلقِ والرزقِ والتدبيرِ والتربيةِ. الثاني: توحيدُ الأسماء والصفاتِ، وهو إثباتُ جميع ما أثبتهُ اللَّهُ لنفسهِ أو أثبتهُ لهُ رسُولُهُ مُحمد ﷺ، من الأسماء الحسنى وما دلتْ عَليه من الصفاتِ، من غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ ومن غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ. الثالثُ: توحيدُ العبادةِ، وهو إفرادُ الله وحدَهُ بأجناسِ العباداتِ وأنواعِها، وإفرادُها، وإخلاصُها للَّهِ من غير إشراك يدٍ في شيءٍ منها. فهذه أقسامُ التوحيدِ التي لا يكونُ العبدُ موحِّداً حتى يلتزمَ بها كلِّها ويقومَ بها.

السؤال الثاني

ما هو الإيمانُ والإسلامُ وأُصولُهما الكليةُ؟

الجوابُ: الإيمانُ هو التصديقُ الجازمُ بجميع ما أمر اللَّهُ ورسُولُه بالتصديقِ به المتضمنُ للعملِ الذي هو الإسلامُ وهو الاستسلام لله وحده والانقيادُ لطاعتِه. وأما أصولُهما فهي ما احتوتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ:

﴿قولوا آمنَّا باللَّهِ وما أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيُّونَ من ربِّهِمْ لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهم ونحنُ لهُ مسلمون﴾ [سورة البقرة: الآية ١٣٦]

وما فسرهُ به النبيُّ ﷺ في حديث جبريلَ وغيرِه حيثُ قال: الإيمانُ أن تؤمنَ باللَّهِ وملائِكته وكتبِه ورسُلِه واليومِ الآخر والقدر خيرِهِ وشرهِ. والإسلامُ أن تشهد أن لا إلَهَ إلاّ اللَّهُ وأن محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة وتؤتي الزكاةَ وتصومَ رمضانَ وتحجَّ البيتَ. ففسَّر الإيمانَ بعقائدِ القلوب، وفسرَ الإسلامَ بالقيامِ بالشرائع الظاهرةِ.

السؤال الثالث

ما هي أركانُ الإيمانِ بأسماء الله وصفاتِه؟

الجواب: هي ثلاثةٌ: إيمانٌ بالأسماء الحسنى كلِّها؛ وإيمانٌ بما دلّتْ عليه من الصفاتِ؛ وإيمانٌ بأحكامِ صفاتِه ومتعلقاتِها. فنؤمنُ بأنه عليمٌ لهُ العلمُ الكاملُ المحيطُ بكل شيءٍ؛ وأنهُ قديرٌ ذو قدرةٍ عظيمةٍ يقدرُ بها على كل شيءٍ؛ وأنهُ رحيمٌ رحمان ذو رحمةٍ واسعةٍ يرحمُ بها من يشاء. وهكذا بقية الأسماء الحسنى والصفات ومتعلقاتِها.

السؤال الرابع

ما قولُكم في مسألةِ علوِّ الله على الخلقِ واستوائِه على العرشِ؟

الجواب: نعرفُ ربَّنا بأنهُ عليٌّ أعْلىَ، بكل مَعْنى. واعتبارُ علوّ الذات وعلُوٍّ القدرِ والصفاتِ وعلوِّ القهر وأنه بائنٌ من خلقِه مستوٍ على عرشِه كما وصفَ لنا نفسَه بذلك. والاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ؛ فَقدْ أخبرنا أنه استوى ولمْ يخبرنا عن الكيفية. وكذلك نقولُ في جميع صفات الباري إنه أخبرنا بها ولم يخبرْنا عن كيفيتِها، فعليْنا أن نؤمنَ بكل ما أخبرنا في كتابه وعلى لسانِ رسُولِه ﷺ لا نزيدَ على ذلك ولا ننقص منهُ.

السؤال الخامس

ما قولُكم في الرحمةِ والنزولِ إلى السماء الدنيا، ونحوِها؟

الجوابُ: تؤمنُ وتقرُّ بكلّ ما وصفَ الله به نفسَه من الرحمةِ والرضى والنزول والمجيء، وبما وَصَفَهُ به الرسولُ ﷺ على وجهٍ لا يماثلُهُ فيه أحدٌ من خلقِه، فإنه ليس كمثله شيء. فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله تعالى صِفاتٌ لا تشبهُها الصفاتُ. وبرهانُ ذلك ما ثبت من التفصيلاتِ العظيمةِ في الكتابِ والسنةِ في إثباتها والثناء على الله بها، وما وردَ على وجهِ العمومِ في تنزيهِه عن المَثَلِ والنِّدّ والكفوِ والشريكِ.

السؤال السادس

ما قولُكم في كلامِ اللّهِ وفي القرآنِ؟

الجواب: نقول القرآنُ كلامُ الله منزلٌ غيرُ مخلوقٍ. منهُ بدأ وإليه يعودُ، واللّهُ المُتَكلّمُ به حقًّا، لفظُهُ ومعانيه، ولمْ يزلْ ولا يزالُ مُتكلّماً بما شاء إذا شاء وكلامُه لا ينفدُ ولا لهُ منتهى.

السؤال السابـع

ما هو الإيمانُ المطلقُ، وهل يزيدُ وينقصُ؟

الجواب: الإيمانُ اسمٌ جامعٌ لعقائِد القلبِ وأعمالِه وأعمالِ الجوارِح وأقوالِ اللّسانِ، فجميعُ الدينِ أصُوله وفروعُه داخلٌ في الإيمانِ ويَترتَّبُ على ذلك أنَّه يزيدُ بقوَّة الاعتقادِ وكثرتِه، وحُسن الأعمال والأقوال وكثرتها، وينقصُ بضدّ ذلك.

السؤال الثامن

ما حكمُ الفاسِق الملّي؟

الجواب: منْ كان مؤمناً موحِّداً وهو مصرٌّ على المعاصي فهو مؤمنٌ بما معهُ من الإيمان، فاسقٌ بما تركه من واجباتِ الإيمان، ناقص الإيمان مستحقٌّ للوعد بإيمانِه وللوعيدِ بمعاصيه، ومع ذلك لا يخلَّدُ في النارِ؛ فالإيمانُ المطلقُ التامُّ يمنعُ من دخولِ النارِ والإيمانُ الناقصُ يمنعُ من الخلودِ فيها.

السؤال التاسـع

كمْ مراتبُ المؤمنين، وما هي؟

الجواب: المؤمنون ثلاثةُ أقسامٍ: سابقونَ إلى الخيرات، وهُم الذين قامُوا بالواجباتِ والمستحبّاتِ، وتركوا المحرَّمات والمكروهات؛ ومقتصِدون، وهُمُ الذين اقتصروُا على أداء الواجباتِ واجتناب المحرّمات؛ وظالمونَ لأنفسهِم، وهمُ الذين خلطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

السؤال العاشر

ما حكمُ أفعالِ العبادِ؟

الجواب: أفعالُ العباد كلُّها من الطاعاتِ والمعاصي داخلةٌ في خلقِ اللَّهِ وقضائِه وقدرهِ، ولكنَّهم هُم الفاعلونَ لها لمْ يجبرْهُمُ اللَّهُ عَليها مـع أنها واقعةٌ بمشيئَتِهِمْ وقدرتِهِمْ، فهي فعلُهمْ حقيقة وهمُ المـوصوفـون بها المثـابُـون والمعاقَبون عليها، وهي خلقُ الله حقيقةً؛ فإنَّ الله خلقَهُم وخلق مشيئَتَهُمْ وقدرتهم وجميـع ما يقـعُ بذلك فنؤمنُ بجميـع نصوص الكتابِ والسنةِ، الدالّةِ على شمولِ خلق اللَّهِ وقدرته لكلِ شيءٍ من الأعيانِ والأوصافِ والأفعالِ، كما نؤمنُ بنصوص الكتابِ والسنَّةِ الدالّةِ على أن العبادِ همُ الفاعلونَ حقيقةً للخيرِ والشرِّ، وأنهم مختارون لأفعالِهمْ، فإنَّ اللَّهَ خالقُ قدرتِهمْ وإرادتِهم وهما السببُ في وجود أفعالِهم وأقوالِهم، وخالقُ السببِ التام خالقٌ للمسبَّب، واللَّهُ أعظمُ وأعدلُ من أن يجْبرهُمْ عليها.

السؤال الحادي عشر

ما هو الشِّركُ وما أقسامُهُ؟

الجواب: الشِّركُ نوعان: شركٌ في الربوبية، وهوَ أنْ يعتقِدَ العبدُ أنَّ لله شريكاً في خلق بعض المخلوقات أو تدبيرها. النوعُ الثاني الشركُ في العبادة، وهو قسمانِ: شِركٌ أكبرُ وشركٌ أصغرُ. فالشِّركُ الأكبرُ أن يصرفَ العبدُ نوعاً من أنواع العبادة لغيرِ الله. كأنْ يدعو غيرَ الله أو يرجوهُ أو يخافُهُ فهذا مُخْرِجٌ من الدين وصاحبُهُ مُخْلَدٌ في النارِ وأما الشِّركُ الأصغرُ فالوسائلُ والطرقُ المفضيةُ إلى الشِّرك إذا لمْ تبلـغ رتبةَ العبادةِ كالحلفِ بغيرِ الله والرياءِ ونحوِ ذلك.

السؤال الثاني عشر

ما صفةُ الإيمانِ بالله على وجهِ التفصيل؟

الجواب: إنَّنا نقرُّ ونعترفُ بقلوبنا وأَلسنَتِنا أنَّ الله واجبُ الوجودِ؛ واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ؛ متفرِّدٌ بكلِّ صفةِ كمالٍ ومجدٍ؛ وعظمةٍ وكبرياءٍ وجلالٍ؛ وأنَّ لهُ غايةَ الكمالِ الذي لا يقدرُ الخلائقُ أنْ يُحيطُوا بشيءٍ من صفاته؛ وأَنَّهُ الأولُ الذي ليسَ قبلَهُ شيءٌ، والآخِرُ الذي ليسَ بعدَهُ شيءٌ، والظاهرُ الذي ليسَ فوقَهُ شيءٌ والباطنُ الذي ليسَ دونَهُ شيءٌ وأَنَّهُ العليُّ الأعلى: علوَّ الذَّات وعلوَّ القدرِ، وعلوَّ القهرِ وأَنَّهُ العليمُ بكل شيءٍ، القديرُ على كلِّ شيءٍ، السميعُ لجميعِ الأصواتِ، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. البصيرُ بكلِّ شيءٍ، الحكيمُ في خلقِه وشرعِه، الحميدُ في أوصافِه وأفعالِه، المجيدُ في عظمتِه وكبريائِه، الرحمنُ الرحيمُ الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعمَّ بجوده وبرّهِ ومواهبِه كلّ موجودٍ؛ المالك الملك لجميع الممالك فلهُ تعالى صفةُ الملك والعالم العلويُّ والسفليُّ كلُّهم مماليكُ وعبيدٌ لله، ولَهُ التصرفُ المطلقُ، وهو الحيُّ الذي لَهُ الحياةُ الكاملةُ المتضمِّنَةُ لجميع أوصافِه الذاتيةَ القيُّومُ الذي قام بنفسِه وبغيره وهو متصفٌ لجميع صفاتِ الأفعالِ، فهو الفعّالُ لما يريدُ، فما شاء كان وما لمْ يشأ لم يكنْ. ونشهدُ أَنَّهُ ربُّنا الخالقُ البارىءُ المصوِّرُ الذي أوجد الكائناتِ وأتقن صنْعَها، وأحسن نِظامها وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو الإِلَهُ المعبودُ الذي لا يستحقُّ العبادة أحدٌ سواهُ، فلا نخضعُ ولا نذلُّ ولا نُنِيبُ ولا نتوجَّهُ إلَّا للَّهِ الواحدِ القهارِ، العزيزِ الغفارِ، فإياهُ نعبدُ وإياه نستعين، وله نرجو ونخشى: نرجُو رحمتَهُ ونخشى عدْلَهُ وعذَابَهُ. لا ربَّ لنا غيرهُ فنسألُهُ وندْعُوهُ، ولا إِلَه لنا سواهُ نُؤمِّلُهُ ونرجُوهُ، هو مولانا في إصلاح ديننا ودنيانا، وهو نِعمَ النصيرُ، الدافعُ عنّا جميع السوء والمكارِه.

السؤال الثالث عشر

ما صفةُ الإيمان بالأنبياء على وجه التفصيل؟

الجواب: علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسُل الذين ثَبَتَتْ نبُوَّتُهم ورسالتُهُمْ على وجه الإجمال والتفصيل، ونعتقدَ أن اللَّهَ تعالى اختصَّهم بوحيِهِ وإرْسالِه، وجَعلَهمْ وسائِطَ بينَهُ وبين خلقِه في تبليغ دينِه وشرعِه، وأيَّدهُمْ بالآيات الدالّة على صدقهم وصحةِ ما جاؤوا به، وأنهُم أكملُ الخلق علماً وعملاً، وأصدقُهم وأبرُّهُمْ وأكملُهُم أخلاقاً وأعمالاً، وأنَّ اللَّهَ خصَّهمُ بفضائِل لا يلحقُهُم فيها أحدٌ، وبرَّأَهُمْ منْ كلِّ خُلُقٍ رذيلٍ، وأنهم معصومونَ في كلِّ ما يبلغونَهُ عن الله وأنَّهُ لا يستقِرُّ في خبرِهم وتبليغهم إلّا الحقُّ والصوابُ، وأنَّهُ يجبُ الإيمانُ بهمْ كلِّهمْ، وبكلِّ ما أُوتوهُ من اللَّهِ، ومحبَّتُهم وتوقيرهُم وتعظيمُهمْ، ونؤمن أنَّ هذه الأمور واجبةٌ علينا لنبيّنا محمدٍ ﷺ على أكمل الوجوه وأعلاها، وأنَّهُ يجبُ معرفتُهُ ومعرفة ما جاءَ به من الشرعِ: جملةً وتفصيلاً، بحسَب الاستطاعة، والإيمانُ بذلك والتزامُه والتزام طاعتِه في كلِّ شيءٍ بتصديقِ خبره وامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِهِ، وأنَّهُ خاتَمُ النبيين لا نبيَّ بعدَهُ، قد نَسختْ شريعتُه جميعَ الشرائعِ، وهي باقيةٌ إلى قيامِ الساعةِ، ولا يتمُّ الإيمانُ به حتَّى يعلمَ العبدُ أنَّ جميعَ ما جاءَ بِهِ حقٌّ، وأنهُ يستحيلُ أن يقومَ دليلٌ عَقليٌّ وحسِّي أو غيرهما على خلافِ ما جاءَ بِهِ. بل العقلُ الصحيحُ والأمورُ الحسِّيةُ الواقعةُ تشهد للرسولِ بالصِّدقِ والحقِّ.

السؤال الرابع عشر

كم مراتبُ الإيمانِ بالقضاء والقدرِ؟ وما هي؟

الجواب: مراتبُ ذلك أربعٌ لا يتمُ الإيمانُ بالقدرِ إلّا بتكميلها: الإيمانُ بأنه بكل شيء عليمٌ، وأنَّ علمَهُ محيطٌ بالحوادِثِ، دقِيقِها وجليلِها، وأنه كتَبَ ذلك باللَّوحِ المحفوظِ، وأن جميعها واقعةٌ بمشيئتِهِ وقدرتِهِ. ما يشاء كان

وما لَمْ يشأ لَمْ يكنْ، وأنهُ مـع ذلكَ مكّنَ العبادَ من أفعالِهِمْ فيفعَلونها اختياراً منهم بمشيئَتهِم وقدرتهم. كما قالَ اللَّهُ تعالى:

﴿ألَمْ تعلمْ أنّ اللَّهَ يعلمُ ما في السماء والأرضِ إنّ ذلك في كتاب﴾
[سورة الحـج: الآية ٧٠]

وقالَ: ﴿لمنْ شاءَ منكمْ أن يستقيم * وما تشاؤون إلَّا أنْ يشاءَ اللَّهُ ربُّ العالمينَ﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

السؤال الخامس عشر

ما حدُّ الإيمانِ باليومِ الآخر، وما الذي يدخلُ فيه؟

الجواب: كلُّ ما جاءَ في الكتابِ والسّنّةِ مما يكونُ بعدَ الموتِ فإنه داخلٌ في الإيمانِ باليومِ الآخر: كأحوال القبر والبرزخ ونعيمه وعـذابهِ، وأحوالِ يومِ القيامةِ وما فيها من الحساب، والثواب والعقاب، والصحفِ والميزانِ، والشفاعةِ وأحوالِ الجنةِ والنارِ، وصفاتها وصفاتِ أهْلها، وما أعدَّ الله فيهما لأهْلِهما إجمالاً وتفصيلاً، كلُّ ذلك من الإيمانِ باليومِ الآخرِ.

السؤال السادس عشر

ما هو النفاقُ وأقسامُه وصفتُه؟

الجواب: حَدُّ النفاقِ إظهارُ الخيرِ وإبطالُ الشّرِ؛ وهو قسمان: نفاقٌ أكبرُ اعتقاديٌّ مخلَّدٌ صاحبه في النار، وذلك مثل ما أخبر الله بِهِ عن المنافِقِينَ في قوله:

﴿ومِنَ الناسِ من يقول آمنَّا بالله وباليومِ الآخِرِ وما هُم بمؤمنينَ﴾
[سورة البقرة: الآية ٨]

من المُبْطنين للكفْرِ المظهرين للإسلامِ؛ ونفاقٌ أصغر عمليٌّ، مثلُ ما ذكرهُ النبـيُّ ﷺ في قولِهِ: (آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدّثَ كَذب، وإذا وعد أخْلف، وإذا ائتُمِنَ خانَ) فالكُفْرُ الأكبرُ والنفاقُ لا ينفـعُ معهُ إيمانٌ ولا عملٌ، وأما

الأصغرُ منهما فقدْ يجتمعُ مَعَ الإيمانِ فيكونُ في العبد خيرٌ وشرٌ، وأسبابُ ثوابٍ وأسبابُ عقابٍ.

السؤال السابع عشر

ما هي البدعةُ، وما أقسامُها؟

الجواب: البدعةُ هي خلافُ السُّنَّةِ؛ وهي نوعان: بدعةُ اعتقادٍ، وهي اعتقادُ خلافِ ما أخبرَ اللَّهُ به ورسُولُه، وهي المذكورة في قولِهِ ﷺ: (وستفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً، كلها في النار إلا واحدةً) «قالوا: ما هي يا رسولُ اللَّهِ» قال: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي). فمنْ كانَ على هذا الوصف فهو صاحبُ سنةٍ محضةٍ ومنْ كان من بقية الفرق فهو مبتدعٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ؛ وتتفاوت البدعُ بحسبِ بعدها عن السُّنَّة.

والنوعُ الثاني بدعةٌ عمليةٌ ، وهي التعبُّدُ بغير ما شرعَ اللَّهُ ورسُولهُ، أو تحريمُ ما أَحلَّ اللَّهُ ورسُولهُ. فمنْ تعبَّدَ بغير الشرعِ أو حرمَ ما لم يُحَرِّمْهُ الشارعُ فهو مبتدعٌ.

السؤال الثامن عشر

ما حقوقُ المسلِمينَ عليك؟

الجواب: قال اللَّهُ تعالى:

﴿إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ﴾ [سورة الحجرات: الآية ١٠]

فالواجبُ أنْ تَتَّخِذَهمْ إخواناً تحبُّ لهمْ ما تُحبُّ لنفسِكَ وتكرهُ لهم ما تكرهُ لنفسكَ، وتسعى بحسبِ مقدورِكَ في مصالحِهم وإصلاحِ ذاتِ بينهمْ وتأليفِ قلوبهم واجتماعِهم على الحق. المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظْلِمُه ولا يخذلُهُ ولا يكذِبُهُ ولا يحْقِرُهُ وتقوم بحقّ من لهُ حقٌّ خاصٌّ كالوالدين والأقاربِ والجيرانِ والأصحابِ والمعامِلينَ.

السؤال التاسع عشر

ما الواجبُ نحو أصحاب النبيّ ﷺ؟

الجواب: من تمام الإيمان برسُولِ اللَّهِ ﷺ ومحبَّته محبةُ أصحابه بحسب مراتبهم من الفضلِ والسَّبْقِ، والاعترافُ بفضائلِهِمْ التي فاقوا فيها جميع الأمّة، وأنْ تدينَ اللَّهَ بحبهمْ ونشرِ فضائلِهِمْ، ونُمْسكَ عمّا شجر بيْنهُمْ، ونعتَقدَ أنّهمْ أولى الأمَّةِ بكلِّ خصلةٍ حميدةٍ وأسبقُهُمْ إلى كلِّ خيرٍ وأبعدُهمْ من كلِّ شرٍ، وأنهم جميعهم عدولٌ مرضيّونَ.

السؤال العشرون

ما قولُكم في الإمامَةِ؟

الجوابُ: نعْتَقِدُ أنَّ نَصْبَ الإمامِ فرضُ كفايةٍ، فإنَّ الأمة لا تسْتَغني عن إمامٍ يُقيمُ لها دينَها ودُنياها، ويدْفعُ عنها عاديةَ المعتدين وإقامةِ الحدودِ على الجناة، ولا تتم إمامته إلّا بطاعتهِ في المعروف في غيرِ معصيةٍ والجهادُ ماضٍ مع البَرِّ والفاجرِ، ويُعانُون على الخيرِ ويُنْصَحُونَ عن الشرِّ.

السؤال الحادي والعشرون

ما هو الصِّراطُ المستقيمُ، وما صفتُهُ؟

الجواب: الصراطُ المستقيمُ هو العلمُ النافعُ والعَمَلُ الصالحُ. والعلمُ النافعُ هو ما جاءَ به الرسُولُ من الكتابِ والسُّنَّةِ والعَمَلُ الصالحُ هو التَّقربُ إلى اللَّهِ بالاعتقاداتِ الصحيحَةِ وأداء الفرائضِ والنوافلِ، واجتنابِ المنهياتِ، وهو القيامُ بحقوقِ الله وحقُوقِ عبادهِ، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بالإخلاصِ التامِّ لله والمتابعةِ لرسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ والدينُ يدورُ على هذينِ الأصلين، فمنْ فاته الإخلاص وقع في الشِّركِ ومن فاتتْهُ المتابعةُ وقع في البِدعِ.

السؤال الثاني والعشرون

ما هي الأوصافُ التي يتميز بها المؤمنُ عن الكافرِ والجاحِد؟

الجواب: هذا سؤالٌ عظيمٌ. بالفرق بين المؤمنِ وغيره يتميز الحقُّ والباطلُ، وأهلُ السعادةِ من أهل الشقاوةِ؛ فاعلمْ أنّ المؤمنَ حقّاً هو الذي آمن بالله وبأسمائه وصفاته الواردةِ في الكتابِ والسُّنّةِ على وجهِ الفهمِ لها والاعتراف بها، وتنْزيههِ عما يُنافي ذلك؛ فامتلأ قلبُهُ إيماناً وعلماً، ويقيناً وطمأنينةً وتعلُّقاً باللَّهِ، فأنابَ إلى الله وحدَهُ وتعبَّدَ لله بالعباداتِ التي شرعَها على لسان نبيه ﷺ، مخلصاً للَّهِ بها، راجياً لثوابهِ، خائفاً من عقابه، شاكراً للَّهِ بقلبه ولسانهِ وجوارحه على نعَم اللَّهِ وإحسانهِ العظيمِ، الذي يتقلبُ به في جميعِ الساعاتِ؛ لاهجاً بذكرِهِ لا يرى نعمةً أعظمَ من هذه النعمةِ ولا كرامةً أعظم منها. يهزأ بلذَّاتِ الدُّنيا الماديةِ إذا نُسبَتْ إلى لذةِ الإنابةِ إلى اللَّهِ والإقبالِ عليه وحْدَهُ، ومعَ هذا فقَدْ أخذَ نصيباً وافراً من لذَّاتِ الحياة، وتمتَّع بها، لا على الوجهِ الذي يتمتَّعُ به الجاحدونَ أو الغافلون، بلْ تمتَّعَ بها عَلَى وجهِ الاستعانةِ بها على القيامِ بحقوقِ الله وحقوقِ عبادهِ. وبذلك الاحتساب والرجاء تمتْ بها لذاتُهُ واستراحَ قلبُهُ وآطمأنَّ، ولمْ يحزنْ إذا جاءتهُ الأمورُ على خلافِ ما يحبُّ. فهذا قدْ جمَعَ اللَّهُ لهُ بين سعادةِ الدُّنْيا والآخرة.

أما الجاحدُ والغافلُ فهو على خلاف ذلك. قدْ جحَدَ ربّه العظِيمَ، الذي قامت البراهينُ العقليَّةُ والنقليَّةُ والعلومُ الضروريةُ والحسيةُ على وجودهِ وكمالهِ، فلمْ يعبأ بذلك كلِّه، فلمَّا انْقَطَع عن اللَّهِ اعترافاً وتعبداً تعلَّق بالطبيعَةِ فعَبَدها وصارَ قلبُهُ شبيهاً بقلوبِ البهائم السائمة، ليس لَهُ همةٌ إلا التمتعُ بالأمورِ الماديّةِ، وقلبُهُ دائماً غيرُ مُطمَئن بلْ خائفٌ من فوات محبوباتِه، وخائفٌ من حصوُلِ المكارهِ التي تنتابُهُ، وليس معهُ من الإيمانِ ما يسهلُ عليه المصيباتِ، وما يخفف عنهُ النكباتِ، قدْ حُرِمَ لذةَ الإيمان وحلاوة التقرُّب إلى اللَّهِ وثمراتِ الإيمانِ العاجلةَ والآجلةَ، لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً وإنما خوفُهُ ورجاؤهُ متعلقٌ بمطالِب النفُوسِ الدنيوية الخسيسةِ الماديّةِ.

ومن أوصافِ المؤمنِ: التواضـعُ للحقّ وللخلقِ، والنصيحةُ لعبادِ اللَّهِ على اختلافِ مراتبهم، قولًا، وفعلًا، ونيةً. والجاحِدُ: وصفُهُ التكبرُ على الحقّ وعلى الخلق والإعجابُ بالنفس؛ لا يدينُ بالنصيحَةِ لأحدٍ. المؤمنُ سليمُ القلبِ من الغشّ والحقدِ، يحبُّ للمسلمين ما يحبُّ لِنفْسِه، ويكرَهُ لهمْ ما يكرهُ لنفسِه، ويسعى بحسَب وُسْعِه في مصالحهمْ، ويتحملُ أذى الخلقِ ولا يَظلمُهمْ بوجهٍ من الوجوهِ. والجاحِدُ قلبُهُ يغلي بالغلِّ والحقْدِ، ولا يريدُ لأحد خيراً ولا نفعاً إلا إذا كانَ لهُ في ذلك غرضٌ دنيويٌ، ولا يبالي بظلمِ الخلْقِ عندَ قدرتِه، وهو أضعفُ شيءٍ عن تحمُّل ما يصيبُهُ منهمْ. المؤمن صَدُوقُ اللِّسان حَسنُ المعاملةِ، وصفهُ الحلمُ والوقارُ، والسكينةُ والرحمةُ، والصبرُ والوفاءُ، وسهولةُ الجانب ولينُ العريكةِ؛ والجاحدُ وصفهُ الطيشُ والقسوةُ، والجزعُ والهلـعُ، والكذبُ وعدمُ الوفاء، وشراسةُ الأخلاق.

المؤمنُ لا يذلُّ إلا للَّه، قد صانَ قلبَهُ ووجههُ عن بذلِه وتذلُّله لغير ربه، وصفهُ العفةُ والقوةُ، والشجاعةُ والسخاءُ والمروءةُ، لا يختارُ إلَّا كلَّ طيبٍ أما الجاحِدُ، فعلى الضِد من ذلك، قد تعلَقّ قلبُهُ بالمخلوقِينَ خوفاً من ضرَرِهِمْ ورجاءً لِنَفْعِهِمْ، وبذلَ لهمْ ماءَ وجهِهِ؛ وليس لهُ عفةٌ، ولا قوةٌ، ولا شجاعةٌ، إلّا في أغراضهِ السُفليَّةِ، عادمُ المروءةِ والإنسانيةِ، لا يُبالي بما حَصلَ لهُ من طيبٍ أو خبيث. المؤمنُ قد جمَـعَ بين السَّعي في فعلِ الأسبابِ النافِعَةِ والتوكلِ على اللَّهِ والثقَةِ به وطلبِ العون منهُ في كلِّ الأمُور، واللَّهُ تعالى في عونهِ؛ وأما الجاحدُ، فليسَ عندهُ من التوكُلِ خبرٌ وليس لهُ نظرٌ إلا إلى نفسِه الضعيفةِ المَهينةِ قد ولَّاهُ اللَّهُ ما تولى لِنَفسهِ وخذلهُ عن إعانته على مطالِبهِ فإنْ قدَّرَ لهُ ما يحبُّ كانَ استدراجاً.

المؤمنُ إذا أتتهُ النعمُ تلقّاها بالشُّكرِ وصرفَها فيما ينفَعُهُ ويعودُ عليه بالخير، وغيرُ المؤمنِ يتلقاها بأشَرٍ وبطرٍ واشتغالٍ بالنعْمَةِ عن المنعِمِ، وعن شُكرهِ ويصرفُها في أغراضِه السُّفليةِ وهي مـع هذا سريـعٌ زوالُها، قريبٌ

انفصالُها. المؤمنُ إذا أصابتهُ المصائبُ قابلَها بالصبرِ والاحتسابِ وارتقابِ الأجرِ والثوابِ، والطمعِ في زوالِها فيكونُ ما عُوّضَ من الخيرِ والثواب أعظمَ ممّا فاته من محبوبٍ أو فصلَ لهُ من مكروهٍ. والجاحدُ يتلقّاها بهلعٍ وجزعٍ، فتزدادُ مصيبتُهُ، ويجتمعُ عليه ألمُ الظاهرِ وألمُ القلبِ، قد عُدمَ الصبرَ وليسَ لهُ رجاءٌ في الأجرِ، فما أشدَّ حسرَتُهُ وأعظمَ حربتَهُ. المؤمنُ يدينُ اللّهَ بالإيمانِ بجميعِ الرسُلِ وتعظيمهمْ وتقديمِ محبتهمْ على محبةِ الخلق كُلهمْ، ويعترفُ أنَّ كلَّ خيرٍ منهُ الخلقُ إلى يوم القيامةِ، فعلى أيدِيهِمْ وبإرشادهمْ، وكلَّ شرٍّ وضررٍ ينالُ الخلقَ فسببُهُ مخالفتهم، فهم أعظمُ الخلْقِ إحساناً إلى الخلقِ، وخصوصاً إمامُهمْ وخاتمُهُمْ محمدٌ ﷺ؛ الذي جعلهُ اللّهُ رحمةً للعالمينَ، وبعثهُ لكلِّ صلاحٍ وإصلاحٍ وهدايةٍ.

وأما الملحدونَ فبضدّ ذلك، يعظّمونَ أعداءَ الرسُلِ ويحترمونَ أقوالهمْ ويهزأون كأسلافِهِمْ بما جاءتْ به الرُّسُلُ وذلك أكبرُ دليلٍ على سخافة عقولِهمْ وهبوطِ أخلاقهمْ إلى أسفلِ سافلين. المؤمنُ يدينُ اللّهَ بمَحبة الصحابةِ وأئمةِ المسلمينَ وأئمة الهدى والملحدُ بالعكس. المؤمنُ ـ لكمالِ إخلاصِه للهِ ـ يعملُ للهِ ويحسنُ إلى عباد اللّهِ، والجاحدُ ليسَ لِعمله غايةٌ إلاّ تحصيلُ أغراضهِ الخسيسةِ. المؤمنُ مُنشرحِ الصدرِ بالعلم النافعِ والإيمانِ الصحيحِ والإقبالِ على اللّهِ واللهْجِ بذكرهِ والإحسانِ إلى الخلقِ وسلامةِ الصدر من الأوصافِ الذميمةِ، والجاحدُ الغافلُ دينه ذلك لفقده الأسباب الموجبةِ لانشراح الصدر.

فإذا قيل إذا كانَ الإيمانُ الصحيحُ كما وصفْتَ، مع اختصاركَ واقتصاركَ، وأَنَّ به السعادةَ العاجِلَةَ والآجِلةَ، وأَنَّهُ يُصْلِحُ الظاهرَ والباطنَ، والعقائدَ والأخلاقَ والآدابَ، وأنَّهُ يدعو البشرَ كلَّهمْ إلى كلِّ خيرٍ وصلاحٍ، ويهدي للَّتي هي أقومُ، فإذا كان الأمرُ كما ذكرتَ، فلِمَ كان أكثرُ البشَر عن الدين والإيمانِ معرضين، ولهُ محاربينَ، ومنه ساخرين؟ وهلا كان الأمرُ

بالعَكس، لأنَّ الناسَ لهُمْ عقُولٌ وأذهانٌ تختارُ الصالِحَ على الفاسِد، والخيرَ على الشرِّ، والنافعَ على الضَّارِ؟..

فالجواب: أنَّ هذا الإيرادَ قد ذكرَهُ الله في كتابِه وأجابَ عنهُ بذكرِ الأسبابِ الواقعَةِ المانِعَةِ، وبالموانِع العائقَةِ، وبذكرِ الأجوبةِ عنْ هذا الإيراد لا يهُول العبدَ ما يراهُ من إعراضِ أكثر البشر عنْهُ، ولا يستغربُ ذلك، فأقولُ: قد ذكرَ اللَّهُ لِعدَم الإيمانِ بالدين الإسلامي موانعَ عديدةً واقعةً من جمهور البشر، منها الجهلُ به وعدمُ معرفتِهِ حقيقةً، وعدمُ الوقوفِ على تعاليمه العاليةِ وإرشاداته الساميةِ، والجهلُ بالعلوم النافعة أكبرُ عائقٍ وأعظمُ مانعٍ من الوصول إلى الحقائق الصحيحةِ والأخلاق الجميلة. قال تعالى: ﴿بَلْ كذَّبوا بما لَمْ يُحيطوا بعلمِهِ ولمَّا يأْتِهِم تأويلُهُ﴾ [سورة يونُس: الآية ٣٩]

فأخبرنا أنْ تكذيبهم صادرٌ عن جهلهِمْ وعدمِ إحاطتهم بعلمهِ، وأنه لَمْ يأْتهم تأويلُهُ الذي هو وقوعُ العذاب الذي يوجب للعبدِ الرجوعَ إلى الحق والاعتراف به، ويقولُ تعالى:

﴿ولكن أكثرَهُم يجهلونَ﴾ [سورة الإنعام: الآية ١١١]

﴿ولكن أكثرهم لا يعلمُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية ٣٧]

﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ فَهمْ لا يعقلونَ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٧١]

﴿إنَّ في ذلك لآيةً لقومٍ يعلمونَ﴾ [سورة النمل: الآية ٥٢]

إلى غير ذلك من النصوص الدالّة على هذا المعنى. والجهلُ إما أن يكونَ بسيطاً، كحال كثيرٍ من دهماء المكذِّبين للرسُولِ الرَّادِّينَ لِدعوته اتِّباعاً لرؤسائهِمْ وساداتهِمْ وهُمُ الذينَ يقُولونَ إذا مسَّهم العذابُ:

﴿ربَّنا إنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وكبراءَنا فأضَلُّونا السبيل﴾

[سورة الأحزاب: الآية ٦٧]

وإما أن يكونَ الجهلُ مركباً، وهذا على نوعين:

أحدُهما: أن يكونَ على دينِ قومِه وآبائهِ ومن هو ناشيءُ معهمْ، فيأتيه

الحقُّ فلا ينظرْ فيه وإنْ نظرَ فنظرٌ قاصرٌ جداً لرضاه بدينه الذي نشأ عليه وتعصيبِهِ لقومه، وهؤلاء جمهورُ المكذبينَ للرُّسُلِ الرادّينَ لدعْوتهمْ، الذين قال اللَّهُ فيهم:

﴿وكذلك ما أرسلْنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مترفُوها إنّا وجَدْنا آباءنا على أُمةٍ وإنّا على آثارهمْ مقتدون﴾ [سورة الزخرف: الآية ٢٣]

وهذا هو التقليدُ الأعمى الذي يظنُّ صاحبُهُ أنهُ على حقٍّ وهو على الباطلِ؛ ويدخلُ في هذا النوْعِ أكثرُ الملحدينَ الماديّينَ، فإن علومهُم عند التحقيقِ تقليدٌ لزعمائهم، إذا قالوا مقالةً قبلوها كأنها وحيٌ مُنْزَلٌ، وإذا ابتكروا نظريةً خاطئةً سَلَكوا خَلْفَهُمْ في حالِ اتِّفاقِهمْ وحالِ تناقُضِهمْ، وهؤلاء فتْنَةٌ لِكلِّ مفتونٍ لا بصيرةَ لهُ.

النوعُ الثاني: من الجهلِ المركَّب حالةُ أئمة الكفر وزعماء الملحدينَ، الذين مهروا في علومِ الطبيعةِ والكونِ، واستجهلوا غيرَهمْ وحصروا المعلوماتِ في معارفهمْ الضئيلةِ ضيقة الدائرةِ، واستكبروا على الرُّسُلِ وأتْبَاعهمْ، وزعموا أنَّ العلومَ محصورةٌ فيما وصلتْ إليه الحواسُّ الإنسانيةُ والتجاربُ البشريةِ، وما سوى ذلك أنكروهُ وكذّبوهُ، مهما كان من الحقِ: فأنكروا ربَّ العالمين، وكذّبوا رُسُله، وكذبوا بما أخبر اللَّهُ به ورسُوله من أُمورِ الغيبِ كلِّها، وهؤلاء أحقُّ النَّاسِ بالدُّخُولِ تحتَ قولِه تعالى:

﴿فلمَّا جاءتهمْ رُسُلهمْ بالبيِّناتِ فرحُوا بما عنْدَهمْ من العلمِ وحاقَ بهمْ ما كانوا به يستهزئون﴾ [سورة غافر: الآية ٨٣]

ففرَحُهُمْ بعلومِهِمْ، علوم الطبيعةِ، ومهارتُهُمْ فيها هو السَّببُ الأقوى الذي أوجَبَ لهُمْ تمسُّكَهُمْ بما معَهُم من الباطِل، وفرْحُهُمْ بها يقتضي تفْضيلَهُمْ لها ومدْحَهُمْ لها وتقديمها على ما جاءتْ به الرُّسُلُ من الهدى والعلم. بل لم تكفِهِمْ هذه الحالُ حتى وصلوا إلى الاستهزاءِ بعلوم الرُّسُلِ واستهجانها، وسيحيق بهمْ ما كانوا به يستهزئون. ولقد انخدع لهؤلاء الملحدينَ كثيرٌ من المشتغلين بالعلوم العصريةِ التي لمْ يَصْحبها دينٌ صحيحٌ، والعهدةُ في ذلك

على المدارسِ التي لم تهتمَّ بالتعاليمِ الدينيَّةِ العاصمةِ من هذا الإلحادِ، فإنَّ التلميذَ إذا خرج منها لم يمهر في العلوم الدينية، ولا تخلّق بالأخلاق الشَّرعيةِ ورأى نفسَهُ أنه يعرفُ ما لا يعرفهُ غيرهُ احتقرَ الدِّين وأهلَهُ وسَهُلَ عليه الانقيادُ لهؤلاءِ الملحدين الماديين. وهذا أكبرُ ضررٍ ضُرِبَ به الدينُ الإسلاميُّ.

فالواجبُ قبل كلّ شيءٍ على المسلمين نحو المدارسِ أن يكونَ اهتمامُهُمْ بتعليم العلومِ الدينيةِ قبل كلِّ شيءٍ، وأن يكونَ النجاحُ وعدمُه متعلقاً بها لا بغيْرها، بل يُجعلُ غيرُها تبعاً. وهذا من أفرضِ الفرائضِ على من يتولّاها ويباشر تدبيرها وعلى الأساتذةِ المعلمين فيها ومستقبلُ الشبيبةِ متوقفٌ على هذا الأمرِ فليتق اللَّهَ من لهُ ولايةٌ أو كلامٌ عليها، وليحتسب الأجر العظيم عند اللَّهِ في جَعلِ الدين أهمَّ العلوم المدرسية، فإن الخَطَر كبيرٌ مع الإهمالِ، والصلاحُ والخيرُ مضمونٌ مع العنايةِ في علوم الدينِ.

ومن موانِع الدين والإيمانِ الحسدُ والبَغْي، كحالِ اليهود الذين يعرفُونَ النبيَّ ﷺ وصدقَه وحقيقةَ ما جاءَ به كما يعرفونَ أبناءَهُمْ ويكتمون الحقَّ وهُمْ يعلمونَ، تقديماً للأغراض الدنيوية والمطالب السُّفليةِ على الإيمان. وقدْ منعَ هذا الداء كثيراً من رؤساءِ قريشٍ، كما هو معروفٌ، من أخبارِهمْ وسيرهمْ. وهذا الداء ناشىءٌ عن الكبرِ الذي هو أعظمُ الموانعِ من اتباع الحقِ. قال تعالى:

﴿سأصْرِفُ عن آياتيَ الذين يتكبَّرونَ في الأرض بغير الحقِّ﴾
[سورة الأعراف: الآية ١٤٦]

فالتكبرُ الذي هو ردُّ الحق واحتقارُ الخلقِ منَع خلقاً كثيراً من اتباع الحق والانقيادِ لهُ بعد ما ظَهرتْ آياته وبراهينه. قال تعالى:

﴿وجَحَدُوا بها واستيقنتْها أنفُسُهمْ ظلماً وعلوًّا فانظرْ كيف كان عاقبةُ المفسدينَ﴾ [سورة النمل: الآية ١٤]

ومن موانع الإيمانِ الإعراضُ عن الأدلَّةِ السَّمْعيَةِ والأدلَّة العقلية الصحيحة. قال تعالى:

﴿ومن يَعْشُ عنْ ذكرِ الرحمن نُقَيِّض لهُ شيطاناً فهو لهُ قرينٌ * وإنهمْ ليصدُّونهمْ عن السبيل ويحسبون أنهمْ مهتدونَ﴾

[سورة الزخرف: الآيتان ٣٦، ٣٧]

وفي القرآن الكريم على لسانهم:

﴿لو كُنا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنا في أصحاب السعيرِ﴾

[سورة المُلْك: الآية ١٠]

فلمْ يكن لأمثالِ هؤلاء الذين اعترفوا بعدم عَقلهمْ وسمعهمْ النافع رغبةٌ في عُلوم الرُّسُلِ والكُتُبِ المنْزَلة من الله ولا عقولٌ صحيحةٌ يهتدون بها إلى الصواب وإنّما لهم آراءٌ ونظرياتٌ خاطئةٌ يظنُّونها عقلياتٍ وهي جهالاتٌ، ولهم اقتداءٌ خلفَ زعماءِ الضلالِ منعهُمْ من اتباع الحق حتى وردوا نارَ جهنمْ فبئس مثوى المُتكبرين. ومن موانع اتباع الحق ردُّهُ بعد ما تبينَ، فيعاقبُ العبدُ بانقلاب قلبهِ ورؤيته الحسن قبيحاً والقبيح حسناً. قال تعالى:

﴿فلما زاغوا أزاغ اللَّهُ قلوبهمْ﴾ [سورة الصف: الآية ٥]

﴿ونُقَلِّبُ أفئدَتهمْ وأبصارَهُم كما لم يؤمنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهُمْ في طغيانهمْ يعمهون﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٠]

وهذا لأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ وقد ولاهُم اللَّهُ ما قولوا لأنفُسهِمْ إنَّهمْ اتخذوا الشياطينَ أولياء من دون اللَّهِ. ومن الموانع الانغماسُ في الترفِ والإسرافُ في التَّنعُّم فإنهُ يجعلُ العبد تابعاً لهَواه منقاداً للشهوات الضارة كما ذكرَ اللَّهُ هذا المانِعَ في عِدَّة آياتٍ مثل قولِه:

﴿بلْ متعنا هؤلاء وآباءهُمْ حتَّى طال عليهمُ العُمرُ﴾

[سورة الأنبياء: الآية ٤٤]

﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ [سورة الواقعة: الآية ٤٥]

فلما جاءتهُم الأديانُ الصحيحةُ بما يعدلُ ترفَهُمْ ويوقفهم على الحدِّ النافِع ويمنعُهُمْ من الانهماك الضارِّ في اللذات رأوا ذلك صاداً لهُمْ عن مؤاداتهم، وصاحبُ الهوى الباطل ينْصرُ هواه بكلِّ وسيلةٍ. لما جاءهُمْ الدين بوجوب

عبادة الله وشُكر المنعمِ على نعمه وعدمِ الانهماك في الشهوات ولّوا على أدْبارهمْ نفوراً. ومن الموانِـع احتقارُ المكذبين للرُّسُل وأتباعهم واعتقاد نقصهِمْ والتهكمُ بهمْ كما قال قومُ نوحٍ:

﴿أنـؤْمِنُ لك واتبعك الأرذلون﴾ [سورة الشعراء: الآية ١١١]

﴿وما نراك اتَّبعك إلاّ الذين هُم أراذلُنا باديَ الرأي وما نرى لكمْ علينا من فضلٍ﴾ [سورة هود: الآية ٢٧]

وهذا منشؤهُ من الكبر، فإذا تكبّر وتعاظمَ في نفسه واحتقرَ غيرهُ اشمأزَّ من قبول ما جاء به من الحق حتى لو فُرض أن هذا الذي ردَّهُ جاءهُ من طريق من يعظمهُ لقبله بلا تردُّد. وقال تعالى:

﴿كذلك حقّتْ كلمةُ ربك على الذين فسقُوا أنهم لا يؤمنون﴾
[سورة يونُس: الآية ٣٣]

فالفسقُ وهو خروج العبد عن طاعة الله إلى طاعة الشيطان، وكونُ القلب على هذا الوصف الخبيث أكبرُ مانـع من قبولِ الحقّ علماً وعملاً، واللّهُ تعالى لا يزكّي من هذه حاله، بل يكلُه إلى نفسهِ الظالمةِ، فتجُولُ في الباطلِ عناداً وضلالاً وتكونُ حركاتُهُ كلُّها شرًّا وفساداً فَفِسْقٌ يقرنه بالباطِلِ وتصدُّهُ عن الحق، لأن القلْبَ متى خرجَ عن الانقيادِ للَّهِ والخضوعِ فلا بُدَّ أنْ ينقادَ لكلِّ شيطانٍ مَريدٍ، كُتِبَ عليْهِ أنَّهُ من تولاهُ، فإنهُ يُضِلُّه ويهديه إلى عذابِ السَّعير. ومن أكبرِ موانـعِ اتباع الحقّ والإيمانِ حصرُ العلومِ والحقائقِ في دائرةٍ ضيقةٍ، كما فعل مَلاحِدةُ المادِّيينَ في حصرهم العلومَ ومدركاتِ الحسِّ، فما أدركوه بحواسِّهم أثبتوهُ وما لم يُدركُوه بها نَفَوْهُ ولو ثبَتَ بطُرقٍ وبراهين أعظم بكثير وأوضَح وأجْلى من مدركاتِ الحسِّ. وهذه فتنةٌ وشبهةٌ ضلَّ بها خلقٌ كثيرٌ، وهذه الطريقة الخبيثة انكروا وجودَ الربِّ وكفروا بالرسُلِ وبما أخْبرُوهُمْ به من أمورِ الغيبِ التي قامت الأدلةُ والبراهينُ المتنوعَةُ على صدْقِها، بلْ قامت الأدلةُ المشاهدةُ على حقِّها. ومن المعلومِ بالضرورةِ والعلمِ اليقيني أن البراهينَ على وجود الباري ووحدانيته وانفرادِه بالخلْقِ والتدْبير لا يمكن أن يساوِيَها

أو يقاربَها شيءٌ من الطرقِ المثْبَتةِ لأي حقيقةٍ تكون. فقد قامت الأدلةُ السمْعِيَّةُ والعقليةُ والعيانيَّةُ والفطريةُ على ذلك، وقدْ أظْهَرَ من آياتهِ في الآفاقِ وفي الأنفسِ ما تبينَ به الحقُّ، وأنّهُ حقٌّ ورسلُه حقٌّ وجزاؤهُ حقٌّ وجميعُ أخباره حقٌّ ودينُهُ حقٌّ فماذا بعدَ الحقّ إلا الضلالُ، ولكنْ تمرُّدُ المادِّيّينَ وكبرُهُمْ حالَ بيْنَهُمْ وبينَ الحقِّ النافِع الذي لا ينفعُ غيرهُ بدونه بوجهٍ من الوجوهِ. والمؤمنُ البصيرُ يعرفُ بنورِ بصيرته أنهم في ضلالٍ مبين وعمىً متراكِم ونحمدُ اللَّهَ على نعمةِ الهدايةِ.

ومن الموانِعِ تجرد المادِّيينَ ومن تبِعَهُمْ من المغرورينَ، وزعمُهُمْ أنَّ البشرَ لَمْ يبلغوا الرُّشدَ ونضوجَ العَقْلِ إلاّ في هذه الأوقات التي طغتْ فيها المادة وعلومُ الطبيعةِ، وأنهمْ قبل ذلك لَمْ يبلغوا الرُّشدَ. وهذا فيه من الجراءةِ والإقدامِ على السَّفْسَطَةِ والمُكابرةِ للحقائقِ والمباهَتَةِ ما لا يخفى على من لهُ أدنى معقولٍ لم تغيرْهُ الآراء الخبيثةُ. فلو قالوا إنَّ المادةَ والصناعةَ والاختراعاتِ وتطويعَ الأمور الطبيعيةِ لَمْ تنْضُجْ وتتمَّ إلا في الوقتِ الأخيرِ لصَدَّقهُمْ كلُّ أحدٍ، وأمّا تعريفهمْ على هذا وتجريهمْ وتعدِّيهمْ إياهُ إلى العلومِ الصحيحةِ والحقائقِ الثابتةِ والأخلاقِ الجميلةِ فقضيته من أكذبِ القضايا. فإنَّ العقولَ والعلومَ الصحيحةَ إنما تعرفُ ويستدلُّ على كمالها أو نقصها بآثارِها وبأدلتها وغاياتها. انظُرْ إلى الكمال والعلوِ في العقائدِ والأخلاقِ والدينِ والدنيا والرحمةِ والحكمةِ التي جاء بها محمدٌ ﷺ، وأخذها عنه المسلمونَ وأوصَلَتْهمْ وقت عملِهمْ بها إلى كلِ خيرٍ دينيٍ ودنيوي وكل صلاحٍ، وأخضعَتْ لهمْ جميعَ الأمم وأنهمْ وصلوا إلى حالةٍ وكمالٍ يستحيلُ أن يصلَ إليهِ أحدٌ حتى يسلك طريقهم.. ثم انظر إلى ما وصلتْ إليه أخلاقُ المادِّيينَ الإباحيين، الذين أطلقوا السِّراحِ لشهواتهمْ ولَمْ يقفوا عند حدٍّ حتَّى هبطوا بذلك إلى أسفل سافلين. ولولا القوةُ الماديةُ تمسِكهُمْ بعض التماسُكِ لأَرْدَتْهُم هذه الإباحية والفوضى في الهلاك العاجلِ.

﴿ولا تحسبن اللَّهَ غافلاً عمّا يعمَلُ الظالمونَ﴾
[سورة إبراهيم: الآية ٤٢]

ثم لولا بقايا من آدابِ الأديانِ بقيتْ بعضُ آثارها في الشعوبِ الراقيةِ صلحتْ بها دنياهمْ لمْ يكن لرقيهم المادي قيمةٌ عاجلةٌ، فإنَّ الذينَ فقدوا الدين عجزوا كلَّ العجزِ عن الحياةِ الطيبة والراحةِ الحاضرةِ والسعادة العاجلةِ، والمشاهدةُ أقوى شاهدٍ لذلك. ومشركو العرب ونحوهُمْ ممن عندهُمْ بعض الإيمان وبعضُ الاعتراف بالأصول الإيمانيةِ كتوحيدِ الربوبيةِ والاعترافِ بالجزاء خير لكثيرٍ من هؤلاءِ الماديين بلا ريب ولا شكٍ؛ ثُمَّ قد عُلِم بالضرورةِ أنَّ الرُّسُلَ ـ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهمْ ـ جاؤوا بالوحي والهداية جملةً وتفصيلاً، وبالنُّور والعلْم الصحيح والصلاحِ المطلقِ من جميعِ الوجوهِ، واعترفَت العقُولُ الصحيحةُ بذلك وعلِمَت أنّها في غاية الافتقارِ إليهِ، وخَضَعَتْ لِمَا جاءَتْ به الرُّسُلُ وعلِمَت العقُولُ أنَّها لو اجْتَمَعَتْ من أوَّلها إلى آخرها لمْ تصلْ إلى درجةِ الكُتُبِ. . إلى الحقائقِ النافعةِ التي جاءتْ بها الرُّسُلُ، ونزلتْ بها الكتُبُ. . وأنَّهُ لولاها لكانتْ في ضلالٍ مبينٍ وعمى عظيمٍ وشقاءٍ وهلاكٍ مستمرٍّ.

﴿لقدْ منَّ اللَّهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَث فيهمْ رسُولاً من أنفسهم يتلو عليهمْ آياته ويُزكّيهمْ ويعلّمُهُم الكتابَ والحكمةَ وإنْ كانوا من قبْلُ لفي ضلالٍ مبين﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٦٤]

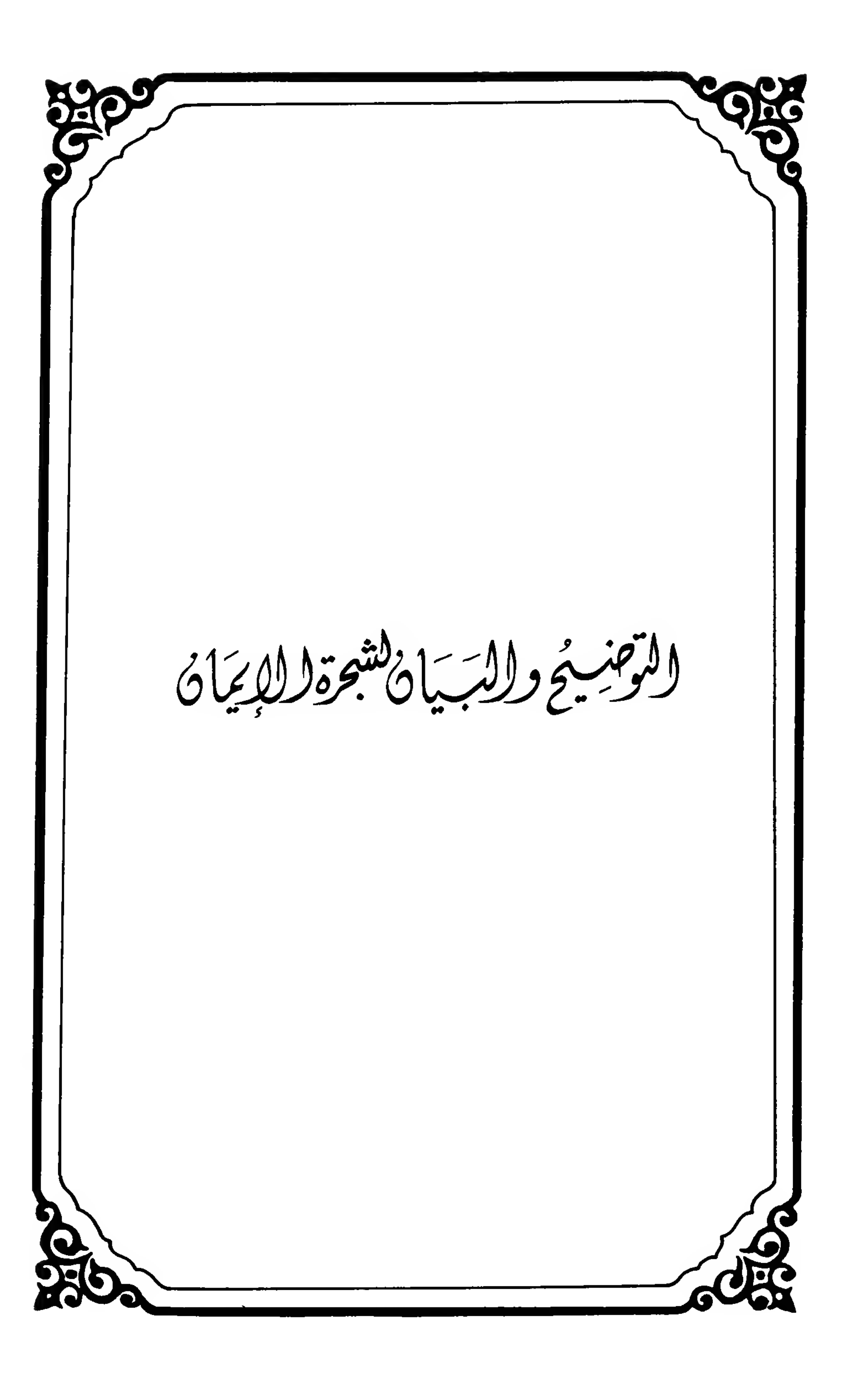
فالعقُولُ لمْ تبْلغِ الرُّشدَ الصحيحَ ولم تنضج إلاّ بما جاءتْ به الرُّسُلُ، ومنْ ذلك انخداعُ أكثرِ النَّاسِ بالألفاظِ التي يزوَّقُ بها الباطلُ ويردُّ بها الحق من غيرِ بصيرةٍ ولا علمٍ صحيحٍ، وذلك لتسْميتهِ علوم الدين وأخلاقِه العاليةِ رجعيةً وسميتهم العلومَ والأخلاق الأخر المنافيةَ لذلك ثقافةً وتجديداً. ومن المعلومِ لكلِّ صاحبِ عقلٍ صحيحٍ أنَّ كل ثقافةٍ وتجديدٍ لمْ يستندْ في أُصولهِ إلى هدايةِ الدينِ وإلى توجهات الدين فإنهُ شرٌّ وضررٌ عاجلٌ وآجلٌ ومن تأمّل أدْنى تأمُّلٍ ما عليه من يسمون المثقفينَ الماديينَ من هبوطِ الأخلاقِ والإقبالِ على

كلِ ضارٍّ وتركِ كل نافع عرف أنَّ الثقافَةَ الصحيحة تثقيفُ العقولِ بهدايةِ الرُسُّل وعلومهمُ الصحيحةِ وتثقيفُ الأخلاقِ وتهذيبُها بالأخلاقِ الحميدة الجميلةِ والتوجيهات النافعَةِ التي تشتمل على الصلاحِ المطلَق والاستعانة بعلومِ المادة الصحيحةِ على الخير والصلاحِ والنجاحِ. فالإسلامُ يأمرُ ويحثّ على تحصيل السعادتين، وتكميلِ الفضيلتينِ. ومن تأملَ ما جاءَ به الدينُ الإسلامي من الكتابِ والسُّنَّة، جملةً وتفصيلاً، عرفُ أنَّهُ كما أصْلَحَ العقائدَ والأخلاقَ والأعمالَ فَقَدْ أصْلَحَ أمور الدُّنيا وأرشد إلى كلّ ِ ما يعودُ إلى الخير والنفعِ العام والخاص، واللَّهُ الموفقُ الهادي، وصلّى اللَّهُ على محمد وسلَّم.









التوضيح والبيان لشجرة الإيمان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي غرس شجرة الإيمان في قلوب عباده الأخيار، وسقاها وغذاها بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، واللهج بذكره آناء الليل والنهار؛ وجعلها تُؤتي أكلها وبركتها كل حين من الخيرات والنعم الغزار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الواحد القهار، الكريم الرحيم الغفار؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الرسول المصطفى المختار. اللهم صلِّ وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار.

أما بعد: فهذا كتاب يحتوي على مباحث الإيمان التي هي أهم مباحث الدين، وأعظم أصول الحق واليقين؛ مستمداً ذلك من كتاب الله الكريم ـ الكفيل بتحقيق هذه الأصول تحقيقاً لا مزيد عليه ـ ومن سنة نبيه محمد ﷺ: التي توافق الكتاب وتفسره، وتعبر عن كثير من مجملاته، وتفصل كثيراً من مطلقاته. مبتدئاً بتفسيره، مثنياً بذكر أصوله ومقوماته، ومن أي شيء يستمد؟ مثلثاً بفوائده وثمراته، وما يتبع هذه الأصول.

قال الله تعالى[1]: **﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا: كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ: أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا؛ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: [١٤/٢٤ ـ ٢٥].**

(١) عبارة الأصل: «قال الله تعالى ومثل كلمة طيبة كشجرة»... إلخ. وهي سبق قلم.

فمثل الله كلمة الإيمان ــ التي هي أطيب الكلمات ــ بشجرة هي أطيب الأشجار، موصوفة بهذه الأوصاف الحميدة: أصولها ثابتة مستقرة، ونماؤها مستمر، وثمراتها لا تزال، كل وقت وكل حين، تغل على أهلها وعلى غيرهم المنافع المتنوعة، والثمرات النافعة.

وهذه الشجرة متفاوتة في قلوب المؤمنين تفاوتاً عظيماً، بحسب تفاوت هذه الأوصاف التي وصفها الله بها. فعلى العبد الموفق أن يسعى لمعرفتها، ومعرفة أوصافها وأسبابها، وأصولها وفروعها؛ ويجتهد في التحقق بها: علماً وعملاً. فإن نصيبه ــ من الخير والفلاح، والسعادة العاجلة والآجلة ــ بحسب نصيبه من هذه الشجرة.

عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي

الفصل الأول
في حد الإيمان وتفسيره

حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها؛ فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور ـ قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره ـ أخطأ خطأً فاحشاً.

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به؛ والانقياد ظاهراً وباطناً. فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن. وذلك شامل للقيام بالدين كله.

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله.

فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى ـ من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته ـ هو من أعظم أصول الإيمان.

وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة ـ وهو التأله والتعبد لله ظاهراً وباطناً ـ من أصول الإيمان.

والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان.

وكذلك الإيمان بجميع الرسل ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة؛ كل هذا من أصول الإيمان.

كما أن من أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والألوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والقيام بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة. كل هذا من أصول الإيمان.

ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة. ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح. لأنه متى فات شيء من ذلك: حصل ــ من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب ــ بحسبه.

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة؛ فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾: [١٩/٥٧]. والصديقون هم أعلى الخلق درجة بعد درجة الأنبياء: في الدنيا، وفي منازل الآخرة. وأخبر في هذه الآية: أن من حقق الإيمان به وبرسله، نال هذه الدرجة.

ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، قال: (إنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ في الجَنَّةِ[١]، كما تَرَاءَوْنَ الكوكبَ الشرقيَّ أو الغربيَّ في الأفُق؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ)؛ فقالوا: «يا رسول [الله]؛ تلكَ

---

(١) قوله: «في الجنة»، لفظ مسلم من طريق سهل بن سعد. واللفظ المتفق عليه ــ من طريق أبي سعيد ــ هو: «من فوقهم». وقد أخرجه أحمد من هذا الطريق، والترمذي من طريق أبي هريرة. وفي سائر اللفظ الوارد هنا اختلاف واختصار، كما في سائر الروايات، فراجع: صحيح البخاري (١١٩/٤ أو الفتح: ٢٠٦/٩)، ومسلم (١٤٤/٨ ــ ١٤٥ أو الشرح: ١٦٨/١٧ ــ ١٦٩)، وهداية الباري (١٧٢/١ ــ ١٧٣: ط ثانية)، والجامع الصغير (٨٨/١: ميمنية)، والفتح الكبير (٣٨٠/١ ــ ٣٨١)، ومصابيح السنة (١٥٩/٢: بولاق).

مَنَازِلُ الأنبياء لا يَبْلُغُها غيرُهم»؛ قال: (بَلَى ــ والذي نَفْسِي بيَدِه ــ رِجَالٌ آمَنُوا باللَّهِ، وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ).

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسله. فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين.

وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام؛ وأثنى على من قام به؛ فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿**قُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَمَا أُنْزِلَ إِلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ؛ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ؛ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾: [٢/١٣٦].

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة؛ والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله؛ وبالإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده ــ بقوله: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

كما أثنى على المؤمنين ــ في آخر السورة ــ بالقيام بذلك: فقال: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالمُـؤْمِنُونَ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ؛ وَقَالُوا: سَمِعْنَا وأَطَعْنَا، غفرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ**﴾: [٢/٢٨٥].

فأخبر: أن الرسول ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء؛ بل آمنوا بهم جميعاً، وبما أوتوه من عند الله؛ وأنهم التزموا طاعة الله، فقالوا: سمعنا وأطعنا؛ وطلبوا من ربهم: أن يحقق لهم ذلك وأن يعفو عن تقصيرهم ببعض حقوق الإيمان؛ وأن مرجع الخلائق كلهم ومصيرهم إلى الله: يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان، وما ضيعوه منها. كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء ــ عيسى وغيره ــ: إنهم قالوا: ﴿**رَبَّنَا**

آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ، وَٱتَّبَعْنا الرَّسُولَ؛ فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾: [٣/٥٣]. فآمنوا بقلوبهم، والتزموا بقلوبهم، وانقادوا بجوارحهم؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به: قولاً، وعملاً، واعتقاداً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا المُـؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إذا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيْماناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ؛ ٱلَّذِينَ يُقيمُونَ الصَّلاَةَ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ؛ أُولَئِكَ هُمُ المُـؤْمِنُونَ حَقّاً؛ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ، وَمَغْفِرَةٌ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: [٨/٢ ـ ٤].

فوصف الله المؤمنين بهذه الصفات المتضمنة للقيام بأصول الدين وفروعه، وظاهره وباطنه. فإنه وصفهم بالإيمان به إيماناً: ظهرت آثاره في عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة، وأنه ـ مع ثبوت الإيمان في قلوبهم ـ يزداد إيمانهم كلما تليت عليهم آيات الله، ويزداد خوفهم ووجلهم كلما ذكر الله؛ وهم في قلوبهم وسرهم متوكلون على الله، ومعتمدون في أمورهم كلها عليه، ومفوضون أمورهم إليه. وهم مع ذلك يقيمون الصلاة فرضها ونفلها: يقيمونها ظاهراً وباطناً؛ ويؤتون الزكاة، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة. ومن كان على هذا الوصف: فلم يبق من الخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً. ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُـؤْمِنُونَ حَقّاً﴾؛ الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً. ثم ذكر ثوابهم الجزيل: المغفرة المتضمنة لزوال كل شر ومحذور، ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ المُـؤْمِنُونَ: ٱلَّذِينَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فَاعِلُونَ، وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ؛ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ العَادُونَ؛ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ[1]، **وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ؛ أولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ؛ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾**: [٢٣/١ ـ ١١].

ففسر الله الإيمان ـ في هذه الآيات ـ بجميع هذه الخصال. فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: **﴿الَّذِينَ هُمْ في صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾**؛ إلى آخر الآيات المذكورة. فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً. ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات. وبتكميلهم للإيمان استحقوا وراثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات؛ كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات.

وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة. ويترتب ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف.

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مقربون، وهم: الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات. ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات. وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات. كما ذكرهم الله بقوله: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا؛ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ؛ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾**: [٣٥/٣٢].

وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر،

---

(١) ورد في الأصل بعد ذلك، زيادة: ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾؛ كما وردت فيه الآية التالية بلفظ: ﴿... صلاتهم...﴾. وهو خطأ وزيادة نشأ من الاشتباه بآيات سورة المعارج: [٧٠/٢٩ ـ ٣٤].

للحاجة إلى ذكر المعطوف. لئلا يظن الظان: أن الأيمان يكتفى فيه بما في القلب. فكم في القرآن من قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ ثم يذكر خبراً عنهم. والأعمال الصالحات: من الإيمان، ومن لوازم الإيمان. وهي التي يتحقق بها الإيمان. فمن ادعى أنه مؤمن ــ وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله: من الواجبات، ومن ترك المحرمات ــ فليس بصادق في إيمانه.

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: [١٠/٦٢ ــ ٦٣].

فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب: من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة. ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله: من الكفر والفسوق والعصيان. ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وكانُوا يَتَّقُونَ﴾. كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ؛ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ؛ أولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ؛ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً؛ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: [٤٩/٧ ــ ٨).

فهذه أكبر المنن: أن يحبب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويذيقه حلاوته؛ وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام؛ ويبغض الله إليه أصناف المحرمات. والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به.

كما ثبت في الصحيح ــ من حديث أنس رضي الله عنه ــ أنه ﷺ،

---

(١) كما في سورة البقرة: [٢/٢٧٧] ويونس: [١٠/٩]، وهود: [١١/٢٣]، والكهف: [١٨/٣٠ و١٠٧)، ومريم: [١٩/٩٦]، ولقمان: [٣١/٨]، وفصلت: [٤١/٨]، والبروج: [٨٥/١١]، والبينة: [٩٨/٧].

قال[1]: (ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلاَّ لِلَّهِ، وأَنْ يَكرهَ أن يَرْجِعَ عن دينه، كما يَكْرهُ أَنْ يُقْذَفَ في النار).

فذكر أصل الإيمان الذي هو: محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة الله مقدمة على جميع المحاب. وذكر تفريقها: بأن يحب لله، ويبغض لله. فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا بمحاب الله، واختصهم من بين خلقه. وذكر دفع ما يناقضه وينافيه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار.

وأخبر في هذا الحديث: أنّ للإيمان حلاوةً في القلب، إذا وجدها العبد سلته عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأغراض النفسية؛ وأوجبت له الحياة الطيبة. فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً ـ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ـ واجتهد في متابعة الرسول، وقدم متابعته على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها. من كان كذلك: فنفسه مطمئنة مستحلية للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام؛ فهو على نور من ربه. وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية؛ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا[2]﴾.

وكذلك في الصحيحين ـ من حديث أبي هريرة ـ أنه ﷺ قال[3]:

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/٨ ـ ٩ و٨/١٤ و٩/٢٠)، ومسلم: (١/٤٨)، والترمذي: (١٠/٩١)، والمصابيح: (١/٣)، ببعض اختلاف. وقد أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه، كما في الفتح الكبير: (٢/٤٩)، وأبو داود كما في هداية الباري: (١/٣٢٣) وانظر: سننه (٤/١٩٨).

(٢) اقتباس من سورة الأنعام: [٦/١٣٢]، والأحقاف: [٤٦/١٩].

(٣) كما في صحيح مسلم: (١/٤٦)، والمصابيح (١/٣) ببعض اختلاف. وورد في مسلم أيضاً مختصراً، كما ورد في البخاري بلفظ: «وستون». وقد أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه. انظر: الجامع الصغير (١/١٢٣)، والفتح الكبير (١/٥١٠)، وهداية الباري (١/٢٨٠)، وسنن أبي داود (٤/٢١٩).

(الإيمانُ بِضْـعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أعلاَها قولُ: لَا إِلَهَ إلَّا ٱللَّهُ؛ وأدْناها: إمَاطَةُ الأذَى عنِ الطَّريقِ. والحياءُ شُعْبَةٌ من الإيمَانِ).

وهذا صريـح: أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه. فجمـع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته ـ وهو قول: لا إلـه إلا الله؛ اعتقاداً، وتألهاً، وإخلاصاً لله ـ وبين أدناه، وهو: إماطة العظم والشوكة وكل ما يؤذي، عن الطريق. فكيف بما فـوق ذلك: من الإحسـان. وذكر الحيـاء ـ والله أعلم ـ: لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه يدع العبد كل فعل قبيـح. كما به يتحقق كل خلق حسن. وهذه الشعب ـ المذكورة في هذا الحديث ـ هي جميـع شرائـع الدين الظاهرة والباطنة.

وهذا ـ أيضاً ـ صريـح: في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائـع والشعب، واتصاف العبد بها أو عدمه. ومن المعلوم: أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً. فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ فقد خالف الحس، مـع مخالفته لنصوص الشارع كما ترى.

وقـد ذكر النبـي ـ ﷺ ـ الإسـلام والإيمـان في حـديث جبـريـل المشهور[1]، حيث سأله جبريل بحضرة الصحابة عن الإيمان، فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر)؛ وفسر الإسلام بالشرائـع الخمس الظاهرة. لأنه ـ كما تقدم ـ إذا قرن بالإيمان غيره، فسر الإيمان بما في القلب من العقائد الدينية؛ والإسلام أو الأعمال الصـالحة

---

(١) المـروي ـ باختـلاف أو اختصـار ـ من طـريق أبي هريـرة: في صحيح البخـاري (١/١٥، ٦/١١٥) ومسلم (١/٣٠ ـ ٣١)، ومسند أحمد، وسنن ابن ماجه. ومن طريق عمر: في صحيح مسلم (ص ٢٩)، والمصابيح (١/٣)، وسنن أبي داود (٤/٢٢٤)، والترمذي والنسـائي وشعب الإيمان للبيهقي. انـظر: الجـامـع الصغـير (١/١٢٣)، والفتـح الكبـير (١/٥٠٩ ـ ٥١٠) وهداية الباري (٢/١٢٥).

بالشرائـع الظاهرة. وأما عند الإطلاق إذا أطلق الإيمان، فقد تقدم أنه يشمل ذلك أجمـع.

وفي الصحيحين ـ من حديث أنس ـ أن النبـي ﷺ قال[1]: (لا يؤمن أحدكم: حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).

فأخبر ﷺ: أنه إذا تعارضت المحبتان؛ فإن قدم ما يحبه الرسول: كان صادق الإيمان؛ وإلا: فهو ناقص الإيمان. كما قال تعالى: ﴿**فَلا ـ وَرَبِّكَ ـ لَا يُـؤْمِنُونَ: حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾: [٤/٦٥].

فأقسم تعالى: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسـوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً، وينشرحوا لحكمه. وهذا شامل في تحكمه: في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية.

وفي الصحيحين[2] أيضاً ـ عن أنس مرفوعاً ـ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامة؛ فإنه من الإيمان. ومن لم يقم بذلك ويحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه.

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/٨) ومسلم: (١/٤٩) والمصابيـح: (١/٣)، وهداية الباري: (٢/٣٠٨)، ومسند أحمد وسنن النسائي وابن ماجه، كما في الجامع الصغير: (٢/٣٠٢) والفتح الكبير (٣/٣٠). وقد أخرجه البخاري أيضاً ـ من طريق أبـي هريرة ـ باختصار من آخره، وزيادة في أوله.

(٢) والمصابيح (٢/١١٥)، ومسند أحمد، وسنن الترمذي وابن ماجه. انظر: صحيح البخاري (١/٨)، ومسلم (١/٤٩)، وقد ورد فيه بلفظ: «أو لجاره». وهداية الباري (٣/٣٠٨)، والجامع الصغير (٢/٢٥٣)، والفتح الكبير (٣/٣٥١).

وفي صحيح مسلم[1] ـ من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً).

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تدبيره وأقضيته عليه، و[أن[2]] يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن: حيث رضي الله له[3] الإسلام ووفقه له، واصطفاه له؛ ويرضى بمحمد ﷺ نبياً: إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال. وأمته وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، وأتباعه: من أعظم ما يثمر الإيمان، ويذوق به العبد حلاوته. قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى المـؤْمِنِينَ: إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ[4] يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ: وَإِنْ كانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**: [٣/١٦٤]، **﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم؛ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُـؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾**: [٩/١٢٨].

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم، الرؤوف الرحيم؛ الذي أقسم الله[5] أنه لعلى خلق عظيم؛ وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله،

---

(١) ١/٤٦، والترمذي (٩١/١٠) والمصابيح: (٣/١)، ومسند أحمد. كما في الجامع الصغير: (١٧/٢) والفتح الكبير: (١١٨/٢). وقوله: «نبياً» لفظ الترمذي. ولفظ مسلم وغيره: «رسولاً».

(٢) هذه الزيادة متعينة.

(٣) عبارة الأصل: «.. لك الإسلام ووثقك له واصطفاك له واصطفاه له». والظاهر أن أصلها ما أثبتنا، وهو الملائم للسابق واللاحق.

(٤) في الأصل: «رسولاً منهم»؛ وهو اشتباه بآية الجمعة [٦٢/٢].

(٥) في سورة القلم: [٦٨/٤].

واقتداؤه برسوله، ومحبته واتباعه؛ وهذا علامة محبة الله؛ وباتباعه تتحقق المحبة والإيمان!

قال تعالى: ﴿قُلْ: إن كنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ، فَاتَّبِعُونِي[1] يُحْبِبْكُم اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم﴾: [٣/٣١].

وفي صحيح مسلم[2] ــ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ــ قال: (قلت: يا رسول الله؛ قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: قل: آمنت بالله؛ ثم استقم).

فبيّن ﷺ ــ بهذه الوصية الجامعة ــ: أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً، ثم استقام عليه ــ قولاً وعملاً، فعلاً وتركاً ــ: فقد كمل أمره، واستقام على الصراط المستقيم، ورجي له أن يدخل مع من قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ؛ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ــ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلاَئِكَةُ: أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ؛ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ؛ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾: [٤١/ ٣٠ ــ ٣٢].

وفي حديث ابن عباس ــ المتفق عليه ــ في وفد عبد القيس، حين وفدوا على النبي ﷺ؛ حيث قالوا: (مرنا بأمر فصل: نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة)؛ وسألوه عن الأشربة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع؛ أمرهم: بالإيمان بالله وحده؛ [و] قال: (أتدرون: ما الإيمان بالله وحده؟)؛ قالوا: (الله ورسوله أعلم)؛ قال: (شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان؛ وأن تعطوا من المغنم

---

(١) بالأصل: «فاتبعون»؛ وهو خطأ وتحريف.

(٢) ٤٧/١، والمصابيح: ٤/١؛ ومسند أحمد، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه كما في الجامع الصغير: (٨٦/٢)، والتفح الكبير: (٣٠٠/٢). وفي بعض الروايات بلفظ: «أحداً غيرك».

الخمس)؛ ونهاهم عن أربـع: (عَنِ الْحَنْتَمِ، والدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْمُزَفَّتِ[1])؛ وقال: (احْفظوهنَّ، وأخْبروا بهنَّ مَن وَرَاءَكم).

فهذا ـ أيضاً ـ صريـح في إدخاله الشرائـع الظاهرة بالإيمان؛ مثل الصلاة والزكاة والصيام، وإعطاء الخمس من المغنم. وكل هذا يفسر لنا الإيمان تفسيراً يزيل الإشكال، وأنه كما يدخل فيه العقائد القلبية، فتدخل فيه الأعمال البدنية فكل ما قرب إلى الله ـ من قول وعمل واعتقاد ـ فإنه من الإيمان.

وفي سنن أبـي داود[2]، عن أبـي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ أَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأعطَى لله، وَمَنَـعَ لله: فقد اسْتَكْمَلَ الإيمانَ).

فالحب والبغض: في القلب والباطن؛ والعطاء والمنـع: في الظاهر. واشترط فيها كلها: الإخلاص الذي هو روح الإيمان ولبه وسره.

فالحب في الله: أن يحب الله، ويحب ما يحبه: من الأعمال والأوقات والأزمان والأحوال؛ ويحب من يحبه: من أنبيائه وأتباعهم.

والبغض في الله: أن يبغض كل ما أبغضه [الله]: من كفـر وفسوق وعصيان؛ ويبغض من يتصف بها، أو يدعو إليها.

---

(١) بالأصل: «والمؤفت»؛ وهو خطأ وتصحيف. وهذا الحديث قد أخرجه الشيخان باختلاف كبير ـ من طرق مختلفة عن ابن عباس. وأخرجه عنه الترمذي والنسائي، كما في هداية الباري: (٧/١). كما أخرجه عنه مختصراً أبو داود في السنن: (٢١٩/٤)، والبغوي في المصابيح: (٤/١) وأخرجه مسلم وأحمد عن أبـي سعيد الخدري. فانظر: صحيـح البخاري (١٦/١ و٢٥ و١٠٧، و١٠٥/٢، و٨١/٤، و١٦٨/٥ ـ ١٦٩، و٤١/٨، و٩٠/٩ و١٦٠)، ومسلم (٣٥/١ ـ ٣٧)، والفتـح الكبير (١٢/١ ـ ١٣).

(٢) ٢٢٠/٤، والمصابيـح: (٥/١)، والأحاديث المختارة للضياء المقدسي، كما في الجامـع الصغير: (١٥٩/٢)، والفتـح الكبير: (١٤٩/٣). وأخرج أحمد والترمذي ـ عن معاذ بن أنس مثله. وهو ضعيف كما قال المناوي في فيض القدير: (٢٩/٦).

والعطاء يشمل عطاء العبد من نفسه كل ما أمر به؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾: [٩٢/٥ ـ ٧]؛ وهذا يشمل جميع ما أمر به العبد: لا يختص بالعطاء المالي؛ بل هو جزء من العطاء. وكذلك مقابله المنع.

وبهذه الأمور الأربعة، يتم للعبد إيمانه ودينه.

وكذلك ما رواه الترمذي والنسائي ـ من حديث أبي هريرة مرفوعاً[1] (المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم)؛ يدل: على أن الإيمان الصحيح يحمل صاحبه على رعاية الأمانة، وينهاه عن الخيانة؛ حتى يطمئن إليه الناس، ويأمنوه على أنفس الأشياء عندهم، وهي: الدماء، والأموال.

وهذه النصوص كلها تبين معنى الإيمان وحقيقته، وأنه ـ كما قال الحسن[2] وغيره: «ليسَ الإيمَانُ بالتَّمَنِّي وَالتَّحَلِّي؛ ولكِنَّه: مَا وَقَرَ في القلوبِ، وَصَدَّقَتْهُ الأعمالُ».

فالأعمال الظاهرة والباطنة تصدق الإيمان، وبها يتحقق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: [٦٤/١١].

فالعبد إذا أصابته المصيبة، فآمن: أنها من عند الله، وأن الله حكيم رحيم في تقديرها، وأنه أعلم بمصالح عبده: هدى الله قلبه هداية خاصة

---

(١) بلفظ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن» إلخ، وقد أخرجه أيضاً عنه أحمد والحاكم وابن حبان؛ وعن واثلة الطبراني في الكبير. وأخرجه باختلاف وزيادة في آخره ـ عن فضالة بن عبيد ـ ابن ماجه. وذكر المناوي: أن الترمذي أخرجه عنه أيضاً. فانظر: الجامع الصغير (٢/١٨٣، ١٨٥) والفتح الكبير (٣/٢٥١، ٢٥٧)، وفيض القدير (٦/٢٥٢ ـ ٢٥٣ و ٢٧٠).

(٢) كما هو ثابت عنه بسند جيد. وروي بمعناه ـ من طريق أنس مرفوعاً ـ: في تاريخ بغداد لابن النجار، ومسند الفردوس للديلمي وهو منكر أو ضعيف. انظر: الجامع الصغير (٢/١٣٣)، والفتح الكبير (٣/٥٧)، وفيض القدير (٥/٣٥٥ ـ ٣٥٦).

للرضا والصبر والتسليم والطمأنينة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: [٩/١٠]. فحذف المتعلق: ليشمل هدايتهم لكل خير، وهدايتهم لترك كل شر؛ وذلك بسبب إيمانهم. فالأعمال من الإيمان من جهة، ومن ثمرات الإيمان ولوازمه من جهة أخرى. والله الموفق.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ؛ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: [٢/١٤٣].

كثير من المفسرين فسّروا الإيمان هنا: بالصلاة إلى القبلة التي كانوا عليها، بيت المقدس، قبل النسخ؛ حيث مات أناس من المسلمين قبل أن تنقل القبلة إلى الكعبة، فحصل عند بعضهم اشتباه في شأنهم؛ فأنزل الله هذه الآية[1]. وذلك: أن صلاتهم إلى بيت المقدس في ذلك الوقت، التزام منهم لطاعة الله ورسوله: وذلك هو الإيمان.

وهذه الآية فيها بشارة كبرى [وهي][2]: أن الله لا يضيع إيمان المؤمنين: قل ذلك الإيمان، أو كثر. كما ورد في الصحيح: (أن الله يخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان)[3].

وبشارة لكل من عمل عملاً قصده طاعة الله ورسوله، وهو متأول أو مخطىء، أو نسخ ذلك العمل، فإنه إنما عمل ذلك العمل: إيماناً بالله، وقصداً لطاعته؛ ولكنه تأول تأويلاً أخطأ فيه، أو أخطأ بلا تأويل؛ فخطؤه معفو عنه، وأجر القصد والتوجه إلى الله وإلى طاعته، لا يضيعه الله.

---

(١) كما في صحيح البخاري: (١/١٢ ــ ١٣)، وسنن أبي داود: (٤/٢٢٠).

(٢) في الأصل: «وإن» بكسر الهمزة. وهو خطأ. ولعل الزيادة سقطت من الناسخ، أو لعل الواو زيادة منه. وما في الأصل يصح مع فتح الهمزة. ولكن الأولى ما أثبتناه.

(٣) انظر: حديث أبي سعيد الخدري، المذكور: في صحيح البخاري (١/٩ و٨/١١٥) ومسلم (١/١١٧ ــ ١١٨)، والفتح الكبير (٣/٤٢١ ــ ٤٢٢)، وحديث أنس المذكور في صحيح مسلم (١/١٢٥ ــ ١٢٧).

ولهذا قال الله عن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخطَأْنَا﴾: [٢/٢٨٦]؛ قال الله على لسان نبيه: (قَدْ فَعَلْتُ).

وفي الحديث الصحيح: (إذَا اجْتَهَدَ الْحاكِمُ فَحَكَمَ[1]، فأصاب ــ: فله أجْرانِ، وَإذا اجْتَهَد، فأخطأ ــ: فله أجرٌ واحِدٌ، وخطؤه مغفورٌ له).

وكذلك: من نوى عملاً صالحاً، وحرص على فعله، ومنعه مانع ــ: من مرض، أوسفر أوعجز أوغيرها ــ. كتب له ما نواه من ذلك العمل، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم ــ من حديث أبي موسى مرفوعاً ــ: (مَنْ مَرِضَ أوسَافَرَ كُتِبَ له ما كان يَعملُ: صَحِيحاً مُقيماً)[2]. ويدخل في ذلك من أقعده الكبر عن عمله المعتاد.

* * *

(١) الرواية: «إذا حكم الحاكم فاجتهد»، فما في الأصل روعي فيه المعنى المراد. وهذا الحديث أخرجه أحمد مع الستة عن أبي هريرة؛ ومعهم ــ ما عدا الترمذي ــ عن عمرو بن العاص. وأخرجه البخاري عن أبي سلمة. انظر: صحيح البخاري (٩/١٠٨)، ومسلم (٥/١٣٥)، وسنن أبي داود (٣/٢٩٩)، والجامع الصغير (١/٢٣)، والفتح الكبير (١/١٠٢ ــ ١٠٣)، وهداية الباري (١/٩).

(٢) هذا الحديث أخرجه البخاري وأحمد بلفظ: «إذا مرض العبد أو سافر» مع اختلاف في سائره. وأخرجه أبو داود بمعناه. ولا ذكر له في صحيح مسلم، ولم يشر أحد إلى روايته له. فانظر: صحيح البخاري (٤/٥٧)، وسنن أبي داود (٣/١٨٣)، والفتح (٦/٨٣ ــ ٨٤)، وذخائر المواريث (٣/٢٢١)، والجامع الصغير (١/٣٤)، والفتح الكبير (١/١٥٥)، وهداية الباري: (١/٦٨)، وفيض القدير (١/٤٤٤).

فصــل

إذا ثبت بدلالة الكتاب والسنّة معنى الإيمان، وأنه اسم جامع لشرائع الإسلام، وأصول الإيمان، وحقائق الإحسان؛ وتوابع ذلك من أمور الدين ـ بل هو اسم للدين كله ـ: علم أنه يزيد وينقص، ويقوى ويضعف.

وهذه المسألة لا تقبل الاشتباه بوجه من الوجوه: لا شرعاً، ولا حساً، ولا واقعاً.

وذلك: أن نصوص الكتاب والسنّة صريحة في زيادته ونقصانه؛ مثل قوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾: [٤٨/٤]، ﴿وَيَزْدَادَ[1] الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً﴾: [٧٤/٣١]، ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: [٣/١٧٣]، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا، فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: [٩/١٢٤]؛ وغيرها من الآيات.

وكذلك الحس والواقع يشهد بذلك من جميع وجوه الإيمان؛ فإن الناس في علوم الإيمان، وفي معارفه، وفي أخلاقه وأعماله الظاهرة والباطنة ـ متفاوتون تفاوتاً عظيماً: في القوة والكثرة، ووجود الآثار، ووجود الموانع، وغير ذلك. فالمؤمنون الكمل عندهم من تفاصيل علوم الإيمان ومعارفه وأعماله، ما لا نسبة إليه من علوم عموم كثير من المؤمنين، وأعمالهم وأخلاقهم. فعند كثير منهم علوم ضعيفة مجملة، وأعمال قليلة ضعيفة. وعند كثير منهم، من المعارضات والشبهات والشهوات، ما يضعف الإيمان، وينقصه درجات كثيرة. بل تجد المؤمنين يتفاوتون تفاوتاً كثيراً في نفس العلم

---

(١) بالأصل: «ليزداد»، وهو سبق قلم من الناسخ.

الذي عرفوه من علوم الإيمان؛ أحدهما: علمه فيه قوي صحيح لا ريب فيه ولا شبهة؛ والآخر: علمه فيه ضعيف، وعنده معارضات كثيرة تضعفه أيضاً. وكذلك أخلاق الإيمان يتفاوتون فيها تفاوتاً كثيراً: صفات الحلم والصبر والخلق وغيرها. وكذلك في العبادات الظاهرة: كالصلاة؛ يصلي اثنان صلاة واحدة، وأحدهما: يؤدي حقوقها الظاهرة والباطنة، ويعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه[1]. والآخر يصليها بظاهره: وباطنه مشغول[2] بغيرها. وكذلك بقية العبادات.

ولهذا كان المؤمنون ثلاث مراتب: مرتبة السابقين، ومرتبة المقتصدين ومرتبة الظالمين. وكل واحدة من هذه المراتب أيضاً، أهلها متفاوتون تفاوتاً كثيراً. والعبد المؤمن ــ في نفسه ــ له أحوال وأوقات تكون أعماله كثيرة قوية، وأحياناً بالعكس. وكل هذا من زيادة الإيمان ونقصه، ومن قوته وضعفه. وكان خيار الأمة، والمعتنون بالإيمان منهم ــ يتعاهدون إيمانهم كل وقت ويجتهدون في زيادته وتقويته، وفي دفع المعارضات المنقصة له؛ ويجتهدون في ذلك، ويسألون الله: أن يثبت إيمانهم، ويزيدهم منه: من علومه وأعماله وأحواله. فنسأل الله: أن يزيدنا علماً ويقيناً، وطمأنينة به وبذكره، وإيماناً صادقاً.

وخيار الخلق ــ أيضاً ــ يطلبون ويتنافسون في الوصول إلى عين اليقين، بعد علم اليقين، وإلى حق اليقين. كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الموْتَى؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى؛ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي؛ قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا؛ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً؛ وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ**

---

(١) هذا مأخوذ من بعض ما ورد في حديث جبريل الذي تقدم بعضه: (ص ١٤).
(٢) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «مشغولاً» وهو تحريف.

حَكِيمٌ﴾: [٢/ ٢٦٠]؛ وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾: [٦/٧٥].

والحواريون خواص أتباع المسيح بن مريم ـ حين طلبوا نزول المائدة، ووعظهم عيسى عن هذا الطلب ـ ﴿قَالُوا: نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا، وَنَعْلَمَ أن قَدْ صَدَقْتَنَا، وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]. فذكروا حاجتهم الدنيوية، وحاجتهم العلمية الإيمانية؛ إلى ذلك.

---

(١) اقتباس من سورة المائدة: [٥/١١٣].

الفصل الثاني
في ذكر الأمور التي يستمد منها الإيمان

وهذا فصل عظيم النفع والحاجة، بل الضرورة ماسة إلى معرفته والعناية معرفة واتصافاً ــ وذلك: أن الإيمان هو كمال العبد، وبه ترتفع درجاته في الدنيا والآخرة؛ وهو السبب والطريق لكل خير عاجل وآجل. ولا يحصل، ولا يقوى، ولا يتم إلا بمعرفة ما منه يستمد. وإلى ينبوعه وأسبابه وطرقه.

والله تعالى قد جعل لكل مطلوب سبباً وطريقاً يوصل إليه. والإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ وقد جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما كان له أسباب تضعفه وتوهيه.

ومواده التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل.

أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها؛ والحرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل بالحق، فجميع الأسباب مرجعها إلى الأصل العظيم.

وأما التفصيل، فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة:

منها ــ بل أعظمها ــ: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، والحرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها.

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ، أنه قال: (إن لله تسعة[1] وتسعين اسماً ـ مائة إلا واحداً ـ من أحصاها: دخل الجنة)؛ أي: من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وتعبد لله بها ـ دخل الجنة. والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون.

فعلم: أن ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته؛ ومعرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها.

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات. وهذه الأنواع هي رُوح الإيمان ورَوْحه، وأصله وغايته. فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه، وقوي يقينه. فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سالمة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل؛ اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول؛ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان. فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله.

ومنها: تدبر القرآن على وجه العموم. فإن المتدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه؛ ما يزداد به إيماناً. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ، زَادَتْهُمْ إِيمَاناً، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: [٨/٢].

---

(١) الرواية: «تسعا». وهذا الحديث أخرجه عن طريق أبي هريرة ـ باختلاف أو زيادة أو اختصار ـ الشيخان والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، والبيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الأسماء الحسنى، وكل من أبي الشيخ وابن مردويه في التفسير. وأخرج من طريق علي في الحلية، ومن طريق عمر في تاريخ ابن عساكر، وأخرجه النسائي كما في هداية الباري (١/٢٠٠)، والبغوي في المصابيح: (١/١٠٩)، وراجع: صحيح البخاري (١/١٩٨ و ٨/٩٧ و ٩/١١٨) ومسلم (٨/٦٣)، والجامع الصغير (١/٩٣، ٩٤) والفتح الكبير (١/٤٠٦ ـ ٤٠٨).

وكذلك: إذا نظر إلى انتظامه وإحكامه، وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف ــ تيقن أنه **﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾**[1]؛ وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه ــ من التناقض والاختلاف ــ أمور كبيرة. قال تعالى: **﴿أفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ؛ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾**: [٤/٨٢]. وهذا من أعظم مقويات الإيمان؛ ويقويه من وجوه كثيرة: فالمؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما ركب عليه من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة ــ يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأسراره؟!. ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: **﴿رَبَّنَا، إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإيمانِ: أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُم فَآمَنَّا﴾** الآية [٣/١٩٣].

وكذلك معرفة أحاديث النبي ﷺ، وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله ــ كلها من محصلات الإيمان ومقوياته. فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنّة رسوله، ازداد إيمانه ويقينه. وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين. فقد وصف الله الراسخين في العلم. الذين حصل لهم العلم التام القوي، الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام؛ ولهذا كانوا سادة المؤمنين: الذين استشهد الله بهم، واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين؛ كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ؛ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ: ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ؛ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ: آمَنَّا بِهِ كلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا؛ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾**: [٣/٧]. فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات؛ وردوا المتشابه من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا

---

(١) اقتباس من سورة فصلت: [٤١/٤٢].

بالجميع، فكلها من عند الله؛ وما منه، وما تكلم به وحكم به ـ كله حق وصدق.

وقال تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخونَ في الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُـؤْمِنُونَ، يُـؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ، وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾: [٤/١٦٢].

وقال: ﴿شَهِدَ الله: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ـ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ـ قَائِماً بِالْقِسْطِ؛ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾: [٣/١٨].

ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح ـ استشهد بهم في الدنيا والآخرة: كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإيمانَ: لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ؛ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ؛ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾: [٣٠/٥٦].

وأخبر تعالى في عدة آيات(١): أن القرآن آيات للمؤمنين، [وآيات] للموقنين. لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره: من العلم واليقين والإيمان. بحسب ما فتح الله عليهم منه. فلا يزالون يزدادون علماً وإيماناً ويقيناً.

فالتدبر للقرآن من أعظم الطرق والوسائل: الجالبة للإيمان، والمقوية له. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ: لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾: [٣٨/٢٩].

فاستخراج بركة القرآن ـ التي من أهمها حصول الإيمان ـ سبيله وطريقه: تدبر آياته وتأملها؛ كما ذكر: «أن تدبره يوقف الجاحد عن جحوده، ويمنع المعتدي على الدين من اعتدائه».

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَولَ؟!﴾: [٢٣/٦٨]؛ أي: فلو تدبروه

---

(١) كما في سورة البقرة [٢/٩٧]، والنساء [٤/٨٢]، والأنفال [٨/٢]، ويونس [١٠/٥٧]، والإسراء (١٧/٩ و٨٢]، والنمل [٢٧/٢ و٧٧]، ويس [٣٦/٦٩ ـ ٧٠]، والجاثية [٤٥/٢٠]، والأحقاف [٤٦/٣٠]، والجن [٧٢/١ ـ ٢).

حق تدبره، لمنعهم مما هم عليه: من الكفر والتكذيب؛ وأوجب لهم الإيمان واتباع من جاء به.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[1]: [٣٩/١٠]، أي: فلو حصل لهم الإحاطة بعلمه، لمنعهم من التكذيب، وأوجب لهم الإيمان.

* * *

ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه ـ معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما هو عليه: من الأخلاق العالية، والأوصاف الكاملة.

فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه، وصدق ما جاء به: من الكتاب والسنة، والدين الحق. كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ؟! فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾: [٦٩/٢٣] أي: فمعرفته ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن يؤمن، وزيادة الإيمان ممن آمن به.

وقال تعالى حاثًّا لهم على تدبر أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ. إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ: أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا؛ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ؛ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾: [٤٦/٣٤].

وأقسم تعالى بكمال هذا الرسول، وعظمة أخلاقه، وأنه أكمل مخلوق ـ بقوله: ﴿نٓ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ: مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: [٦٨/١ ـ ٤].

فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة، وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة. فهو: الإمام الأعظم، والقدوة الأكمل، ﴿لَقَدْ كَانَ[2] لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[3].

---

(١) بالأصل: «به»، وهو سبق قلم من الناسخ.

(٢) بالأصل: «كانت»، والزيادة من الناسخ. وهو اقتباس من سورة الأحزاب: [٢١/٣٣].

(٣) اقتباس من سورة الحشر: [٧/٥٩].

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا؛ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً﴾ وهو: هذا الرسول الكريم: ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾: بقوله وخلقه، وعمله ودينه، وجميع أحواله؛ ﴿فَآمَنَّا﴾: [٣/١٩٣]؛ أي: إيماناً لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي يحبها الله ـ توسلوا بإيمانهم: أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات؛ فقالوا: ﴿رَبَّنَا: إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ: أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ؛ فَآمَنَّا؛ رَبَّنَا: فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا؛ وكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [٣:١٩٣].

ولهذا كان الرجل المنصف ـ الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه ويسمع كلامه ـ يتبادر إلى الإيمان [به ﷺ]، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم ـ مجرد ما يرى وجهه الكريم ـ يعرف: أنه ليس بوجه كذاب.

وقيل لبعضهم: «لم بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟» فقال: «ما أمر بشيء، فقال العقل: ليته نهى عنه؛ ولا نهى عن شيء، فقال العقل: ليته أمر به». فاستدل العاقل الموفق ـ بحسن شريعته، وموافقتها للعقول الصحيحة ـ على رسالته؛ فبادر إلى الإيمان [به].

ولهذا استدل ملك الروم هرقل ـ لما وصف له ما جاء به الرسول، وما كان يأمر به، وما ينهى عنه ـ استدل بذلك: أنه من أعظم الرسل؛ واعترف بذلك اعترافاً جلياً. ولكن منعته الرئاسة وخشية زوال ملكه من اتباعه؛ كما منع كثيراً ممن اتضح له: أنه رسول الله حقاً. وهذا من أكبر موانع الإيمان في حق أمثال هؤلاء.

وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات تضمحل، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق الصحيح النافع، المثمر للسعادة: عاجلاً وآجلاً.

ولهذا السبب الأعظم، كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة ــ أعظم إيماناً ويقيناً من غيرهم، وأحسن عملاً في الغالب.

* * *

ومن أسباب الإيمان ودواعيه: التفكر في الكون، في خلق السماوات والأرض وما فيهن: من المخلوقات المتنوعة؛ والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه: من الصفات.

فإن ذلك داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات: من عظمة الخلق الدال على قدرة خالقها وعظمته؛ وما فيها: من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب: الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته؛ وما فيها: من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره. وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، واللهج بذكره؛ وإخلاص الدين له. وهذا هو روح الإيمان ويسره.

وكذلك النظر إلى فقر المخلوقات كلها، واضطرارها إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفة عين؛ خصوصاً ما تشاهده في نفسك: من أدلة الافتقار، وقوة الاضطرار. وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه؛ ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه. وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد. فإن الدعاء مخ العبادة وخالصها[1].

---

(١) كما رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً، عن طريق ضعيف أو حسن. ورواه بلفظ: (الدعاء هو العبادة)، أحمد وابن أبي شيبة، والبخاري في الأدب المفرد، والأربعة وابن حبان، والحاكم ــ من طريق النعمان بن بشير. والقاضي أبو يعلى في المسند، من طريق البراء بن عازب. كما في الجامع الصغير: (٢/١٦) والفتح الكبير: (٢/١١٥) وذكر اللفظين في المصابيح (١/١٠٧).

وكذلك التفكر في كثرة نعم الله وآلائه العامة والخاصة، التي لا يخلو منها مخلوق طرفة عين. فإن هذا يدعو إلى الإيمان.

ولهذا دعا الله الرسول والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا؛ كلوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ، واشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾: [٢/١٧٢]. فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان. فكل منهما ملازم وملزوم للآخر.

* * *

ومن أسباب دواعي الإيمان: الإكثار من ذكر الله كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة.

فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب، ويغذيها وينميها. وكلما ازداد العبد ذكر الله: قوي إيمانه؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر. فمن أحب الله أكثر من ذكره؛ ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه.

* * *

ومن الأسباب الجالية للإيمان: معرفة محاسن الدين.

فإن الدين الإسلامي كله محاسن: عقائده أصح العقائد وأصدقها وأنفعها؛ وأخلاقه أحمد الأخلاق وأجملها؛ وأعماله وأحكامه أحسن الأحكام وأعدلها.

وبهذا النظر الجليل يزين الله الإيمان في قلب العبد، ويحببه إليه. كما امتن به على خيار خلقه، بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ، وَزَيَّنَهُ فِي قلوبِكُمْ﴾: [٤٩/٧]. فيكون الإيمان في القلب أعظم المحبوبات وأجمل الأشياء. وبهذا يذوق العبد حلاوة الإيمان ويجدها في قلبه؛ فيتجمل الباطن بأصول الإيمان وحقائقه، وتتجمل الجوارح بأعمال الإيمان: وفي الدعاء المأثور: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

* * *

ومن أعظم مقويات الإيمان: الاجتهاد في التحقق في مقام الإحسان، في عبادة الله، والإحسان إلى خلقه. فيجتهد: أن يعبد الله كأنه يشاهده ويراه؛ فإن لم يقو على هذا: استحضر أن الله يشاهده ويراه. فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه. ولا يزال العبد يجاهد نفسه: ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه، ويصل في ذلك إلى حق اليقين ـ الذي هو أعلى مراتب اليقين ـ فيذوق حلاوة الطاعات، ويجد ثمرة المعاملات. وهذا هو الإيمان الكامل.

وكذلك الإحسان إلى الخلق ـ بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع ـ هو من الإيمان، ومن دواعي الإيمان. والجزاء من جنس العمل. فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من بره، ما يقدر عليه ـ: أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان؛ ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورغبته في فعل الخير، والتقرب إلى ربه، وإخلاص العمل له.

وبذلك يتحقق العبد بالنصح لله وبعباده. فإن (الدين: النصيحة)[1]؛ ومن وفق للإحسان في عبادة ربه، والإحسان في معاملة الخلق ـ: فقد تحقق نصحه.

ولذلك قال النبي ﷺ: (لا يُـؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)، متفق عليه[2].

* * *

---

(١) كما أخرجه البخاري في التاريخ عن ثوبان، والبزار عن ابن عمر. كما في الجامع الصغير (٢/١٧)، والفتح الكبير (٢/١١٧). وأخرج من طريق تميم الداري ـ بزيادة مشهورة ـ : في صحيح مسلم (١/٥٣)، وسنن أبي داود (٤/٢٨٦)، والمصابيح (٢/١١٥). وذكر نحوه: في صحيح البخاري (١/١٧)، والشفا للقاضي عياض (٢/٢٧ «ط. الأستانة»).

(٢) انظر: ما تقدم (ص ٥)، وصحيح الترمذي (٩/٣١٩).

ومنها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾... الآيات [٢٣/١ ــ ١٠]. فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنمِّيه؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخلة في تفسيره. كما تقدم.

فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله ــ: من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود ــ من أسباب زيادة الإيمان ونموه.

وتقدم[1]: أن الله سمى الصلاة إيماناً، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾: [٢/١٤٣]؛ وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: [٢٩/٤٥]. فهي أكبر ناهٍ عن كل فحشاء ومنكر ينافي الإيمان؛ كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده، وهي فرضها ونفلها؛ كما قال النبي ﷺ: (والصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ)؛ أي: على إيمان صاحبها. فهي دليل الإيمان، وتغذيه وتنميه.

والإعراض عن اللغو الذي هو: كل كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه ــ بل يقولون الخير ويفعلونه، ويتركون الشر قولاً وفعلاً ــ لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان، ويثمر الإيمان.

ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض: «اجلس بنا نؤمن ساعة»؛ فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدنيوية. فيتجدد بذلك إيمانهم.

---

(١) ص ٢٠.

وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنا، لا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته. فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[1]؛ إجابة لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان.

ورعاية الأمانات والعهود وحفظها: من علائم الإيمان. وفي الحديث [2]: (لَا إيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ).

وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه، فانظر حاله: هل يرعى الأمانات كلها مالية، أو قولية؛ أو أمانات الحقوق؟ وهل يرعى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟.

فإن كان كذلك: فهو صاحب دين وإيمان. وإن لم يكن كذلك: نقص من دينه وإيمانه، بمقدار ما انتقص من ذلك.

وختمها بالمحافظة على الصلوات ــ على حدودها، وحقوقها، وأوقاتها ــ: لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري على بستان الإيمان، فيسقيه وينميه ويؤتي أُكُله كل حين.

وشجرة الإيمان ــ كما تقدم ــ محتاجة إلى تعاهدها كل وقت بالسقي ــ وهو: المحافظة على أعمال اليوم والليلة من الطاعات والعبادات ــ وإلى إزالة ما يضرها من الصخور والنوابت الغريبة الضارة؛ وهو: العفة عن المحرمات قولاً وفعلاً. فمتى تمت هذه الأمور حي[3] هذا البستان وزها، وأخرج الثمار المتنوعة.

* * *

---

(١) اقتباس من سورة النازعات: [٧٩/٤٠].

(٢) الحسن أو الصحيح عن أنس، بدون زيادة: كما في المصابيح (١/٥)، أو بزيادة مشهورة: كما في مسند أحمد، وصحيح ابن حبان. أو الضعيف عن ابن عمر، بزيادة أخرى كما في معجم الطبراني الأوسط. انظر: الجامع الصغير (١٥٧/٢)، والفتح الكبير (٣١١/٣).

(٣) كذا بالأصل. وهو صحيح بل الأكثر استعمالاً، والوارد في قوله تعالى في سورة الأنفال: [٤٢/٨]: ﴿ويحيى من حي عن بينة﴾. وهو إدغام «حيي». انظر: المختار.

ومن دواعي الإيمان وأسبابه: الدعوة إلى الله وإلى دينه، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره. كما أقسم تعالى بالعصر: أن جنس الإنسان لفي خسر، إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكميل النفس، والتواصي بالحق ـ الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق ـ وبالصبر على ذلك كله؛ وبهما يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والنصيحة لعباده، من أكبر مقويات الإيمان وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقيم الأدلة والبراهين على تحقيقها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوسل إلى الأمور من طرقها. وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه.

وأيضاً: فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكما سعى إلى تكميل العباد ونصحهم وتوصيتهم بالحق؛ وصبر على ذلك ـ لا بد أن يجازيه الله من جنس عمله، ويؤيده بنور منه، وروح وقوة إيمان، وقوة التوكل. فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل به النصر على الأعداء: من شياطين الإنس، وشياطين الجن. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: [١٦/٩٩].

وأيضاً: فإنه متصد لنصر الحق: ومن تصدى لشيء، فلا بد أن يفتح عليه فيه ـ من الفتوحات العلمية والإيمانية ـ بمقدار صدقه وإخلاصه.

* * *

ومن أهم مواد الإيمان ومقوياته: توطين النفس على مقاومات جميع ما ينافي الإيمان: من شعب الكفر والنفاق، والفسوق والعصيان.

فإنه كما أنه لا بد في الإيمان من فعل جميع الأسباب المقوية المنمية له، فلا بد مع ذلك ـ من دفع الموانع والعوائق؛ وهي: الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له؛ والشهوات المضعفة لإرادات الإيمان. فإن الإرادات التي أصلها: الرغبة في الخير ومحبته، والسعي فيه ـ لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها: من رغبة النفس في الشر؛ ومقاومة النفس الأمارة بالسوء.

فمتى حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات: تَمَّ إيمانه، وقوي يقينه؛ وصار مثل بستان إيمانه: ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ؛ فإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ: فَطَلٌّ؛ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[1].

ومتى كان الأمر بالعكس: ـ بأن استولت عليه النفس الأمارة بالسوء، ووقع في فتن الشبهات أو الشهوات، أو كليهما ـ. انطبق عليه هذا المثل وهو قوله تعالى: ﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ: أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ؛ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ؛ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ؛ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾: [٢/٢٦٦].

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسعى في أمرين:

أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها: علماً، وعملاً، حالاً.

والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقضها أو ينقصها: من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني: بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

---

(١) بالأصل: «خبير»، وهو سهو من الناسخ. وهذا اقتباس من سورة البقرة: [٢/٢٦٥].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ، تَذَكَّروا فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: [٧/٢٠١]؛ أي: مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق برتقه؛ فعادوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً؛ ﴿وإِخْوانُهُم يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ، ثُمَّ لَا يُقصرُونَ﴾[١]: الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك؛ والمستجيبون[٢] لهم لا يقصرون عن طاعة أعدائهم، والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك، ويحق عليهم الخسار.

اللهم: حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان؛ واجعلنا من الراشدين؛ بفضلك ومنتك، إنك أنت العليم الحكيم.

* * *

(١) اقتباس من سورة الأعراف: [٧/٢٠٢].

(٢) بالأصل: «المستجيبين»، وهو خطأ وتحريف.

الفصل الثالث
في فوائد الإيمان وثمراته

كم للإيمان الصحيح من الفوائد والثمرات العاجلة والآجلة، في القلب والبدن والراحة، والحياة الطيبة، والدنيا والآخرة. وكم لهذه الشجرة الإيمانية من الثمار اليانعة، والجنى اللذيذ، والأكل الدائم، والخير المستمر؛ أمور لا تحصى، وفوائد لا تستقصى. ومجملها: أن خيرات الدنيا والآخرة، ودفع الشرور كلها من ثمرات هذه الشجرة.

وذلك: أن هذه الشجرة إذا ثبتت وقويت أصولها، وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأينعت أفنانها ـ عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل.

فمن أعظم ثمارها: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأجل ما حصله الموفقون.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: [١٠/٦٢، ٦٣].

فكل مؤمن تقي، فهو لله ولي ولاية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾: [٢/٢٥٧] أي: يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ومن ظلمات

الغفلة إلى نور اليقظة والذكر. وحاصل ذلك: أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة، إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل.

وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل: بإيمانهم الصحيح، وتحقيقهم هذا الإيمان بالتقوى. فإن التقوى تمام الإيمان، كما تقدم تحقيقه.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: الفوز برضا الله، ودار كرامته.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ؛ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ؛ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ؛ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: [٩/٧١ ـ ٧٢].

فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة ـ بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله.

* * *

ومنها: أن الإيمان الكامل يمنع من دخول النار؛ والإيمان ـ ولو قليلاً ـ يمنع من الخلود فيها.

فإن من آمن إيماناً ـ أدى به الواجبات، وترك المحرمات ـ فإنه لا يدخل النار. كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ ـ في

هذا الأصل. كما تواتر عنه: أنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيراً[1].

* * *

ومن ثمرات الإيمان: أن الله يدافع عن المؤمنين جميع المكاره، وينجيهم من الشدائد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: [٢٢/٣٨] أي: يدافع عنهم كل مكروه؛ يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها، ويرفعها أو يخففها بعد نزولها.

ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنه ﴿فنادَى فِي الظُّلُمَاتِ: أن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ؛ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾: [٢١/٨٧ ـ ٨٨]، إذا وقعوا في الشدائد؛ كما أنجينا يونس. قال النبي ﷺ[2]: (دَعْوَةُ أخِي يُونُسَ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَتَهُ ـ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ أي: بالقيام بالإيمان ولوازمه؛ ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [٦٥/٢] أي: من كل ما ضاق على الناس؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾: [٦٥/٤].

فالمؤمن المتقي: ييسر الله أموره وييسره لليسرى، ويجنبه العسرى؛

---

(١) كما يفيده حديث أبي ذر المذكور: في صحيح البخاري (٧/١٤٩))، ومسلم (١/٦٦)، والترمذي (١٠/١١٣)، والمصابيح (١/٥). وحديثا جابر وابن مسعود المذكوران: في صحيح مسلم (١/٦٥ ـ ٦٩). وانظر هامش ما تقدم: (ص ٢٠).

(٢) كما في مسند أحمد، وسنن الترمذي والنسائي، والمستدرك للحاكم، والشعب للبيهقي والأحاديث المختارة للضياء المقدسي ـ من طريق سعد ـ: باختلاف وزيادة. انظر: الجامع الصغير (٢/١٤) والفتح الكبير (٢/١١٢).

ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب. وشواهد هذا كثير، من الكتاب والسنة.

* * *

ومنها: أن الإيمان والعمل الصالح ـ الذي هو فرعه ـ يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار.

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً ـ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: [١٦/٩٧].

وذلك: أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته، وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره. وهذه هي الحياة الطيبة. فإن أصل الحياة الطيبة: راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح.

* * *

ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها: من الإيمان والإخلاص.

ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل؛ مثل قوله: ﴿فَمَنْ[1] يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾: [٢١/٩٤]؛ أي: لا يجحد سعيه، ولا يضيع عمله؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه.

وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ـ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ـ: فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾: [١٧/١٩]. والسعي للآخرة: هو العمل بكل

(١) بالأصل: «ومن» بالواو. وهو سهو من الناسخ.

ما يقرب إليها، ويدني منها: من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ.

فإذا تأسست على الإيمان، وانبنت عليه، كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة.

وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليله ونهاره: فإنه غير مقبول. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ، فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾: [٢٥/٢٣].

وذلك: لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله، الذي روحه: الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

وقال تعالى: ﴿قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً؟: الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ، فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾: [١٨/١٠٣ ــ ١٠٥]؛ فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محله الكفر بالله وآياته: حبطت أعمالهم.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾: [٣٩/٦٥]، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: [٦/٨٨].

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجبُّ ما قبله: من السيِّئات وإنْ عظمت؛ والتوبة من الذنوب المنافية للإيمان والقادحة فيه، والمنقصة له ــ تجبُّ ما قبلها.

* * *

ومنها: أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وبهديه[1]

---

(١) بالأصل: «ويهديه (بالياء) في الصراط»... إلخ. والظاهر أن التصحيف والزيادة من الناسخ. انظر: المختار، والمصباح، والقاموس (مادة: هدى).

الصراط المستقيم، يهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به؛ وإلى تلقي المحاب والمسار[1] بالشكر، وتلقي المكاره والمصائب بالرضا والصبر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: [١٠/٩].

وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ؛ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: [٦٤/١١]؛ قال بعض السلف[2]: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها...[3]؛ وذلك: لقوة إيمانه، وقوة توكله؛ ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله. فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ، فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ؛ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾: [٤/١٠٤].

ولهذا تجد اثنين: تصيبهم مصيبة واحدة أو متقاربة ـ وأحدهما عنده إيمان، والآخر فاقد له ـ تجد الفرق العظيم بين حاليهما، وتأثيرها في ظاهرهما وباطنهما. وهذا الفرق راجع إلى الإيمان والعمل بمقتضاه.

---

(١) جمع «مسرة»: ما يسر به الإنسان؛ كما في المصباح: (٤١٨/٢). وعبارة الأصل: «والسرور بالشكر». وأصلها ما ذكرناه، أو: «بالسرور والشكر». على ما يظهر.

(٢) هو: علقمة بن قيس النخعي؛ كما في تفسير الطبري: ٢٨/٧٩ ـ ٨٠: بولاق. وروي نحوه عن مقاتل بن حبان، في تفسير الشوكاني: (٥/٢٣١).

(٣) لم يرد في الأصل ذكر لجواب «لو». والظاهر أنه حذف للعلم به، أي: لكان ذلك أكبر داع للتمسك به والحرص عليه. وكثيراً ما يحذف لذلك، ولتذهب النفس فيه كل مذهب. كما في سورة الأنعام: [٦/٢٧ و ٣٠]، والأنفال: [٨/٥٠]، والسجدة: [٣٢/١٢]، وسبأ: [٣٤/٣١ و ٣٥].

وكما أنه يسلِّي عند ورود المصائب والمكاره، فإنه يسلِّي عند فقد المحاب. فإذا فقد مؤمن حبيبه الذي تمكن حبه من قلبه ـ من أهل وولد، ومال، وصديق، وشبهها ـ تسلى بحلاوة إيمانه؛ والإيمان خير عوض للمؤمن عن كل مفقود، كما هو مشاهد مجرب.

وفقد المحبوب ـ في الحقيقة ـ معدود من المصائب. ولولا أن يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ عنده من الإيمان ما يهون عليه مصيبته في فقد يوسف مع شدة حبه العظيم: بحيث قال لإخوته ـ لما طلبوا منه بعض يوم، أن يذهب معهم ليرتع ويلعب ـ ﴿قَالَ: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾[1]؛ فأخبر أن المانع له من إرساله: أنه لا يصبر على فراقه ولا ساعة من نهار. ولكنهم عالجوه، وذكروا له الأسباب التي توجب له أن يرسله معهم؛ فأرسله ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾[2]. فمن هذه حاله، وهذا حبه البليغ الذي لا يمكن المعبر أن يعبر عنه ـ هل يدخل في الذهن أنه يبقى هذه المدة الطويلة على الوجود؟! بل يغلب على الظن أن الحب يفتت كبده بأسرع وقت. ولكن: قوة الإيمان، وقوة الرجاء بالله ـ أوجب له أن يتماسك كل هذه المدة، حتى جاء الله بالفرج الذي وعد به المؤمنون.

وكذلك: أم موسى ـ حين ذهبت اليم بموسى، وأصبح فؤادها فارغاً من كل شيء إلا من الحزن على موسى ـ لولا أن الله ربط على قلبها بالإيمان، وعلمت أن وعد الله حق ـ لكادت تبدي بما في قلبها، وتصرح بمصيبتها[3]. ولكن هو الإيمان: المثبِّت عند الشدائد، المسلِّي عند المصائب؛ المقوِّي إذا وهنت القوى، المعزِّي إذا عز العزا.

---

(١) اقتباس من سورة يوسف. [١٢/١٣] وجواب «لولا» قد حذف هنا أيضاً للعلم به؛ أي: لهلك أسفاً وحزناً. كما حذف في آية القصص: [٢٨/١٠].

(٢) اقتباس من سورة الأنفال: [٨/٤٢ و ٤٤].

(٣) راجع: سورة طه [٢٠/٣٨ ـ ٤٠]، والقصص [٢٨/٧ ـ ١٣].

وقال النبي ﷺ، في وصيته العظيمة ــ في حديث ابن عباس، الصحيح الذي في السنن: «تعرَّفْ إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»[1]؛ أي تعرف إلى الله بالإيمان وأعمال الإيمان ــ وأنت صحيح غني[2] قوي ــ يعرفك الله في الشدة؛ يقويك[3] الله على مباشرتها، ويعينك على معالجتها. وأعظم شدة ــ تنزل بالمؤمن ــ شد الموت وسكراته.

فهذا الحديث بشرى لكل مؤمن ــ قد تعرف إلى ربه في رخائه ــ : أن يعينه في ذلك المقام الحرج، والشدة المزعجة، وضعف القوى، وتكاثف الشياطين الذين يريدون أن يحولوا بين العبد وبين ختم حياته بالخير. فإن الله يعينه بتأييده، وروحه ورحمته؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

ومن ثمرات الإيمان ولوازمه ــ من الأعمال الصالحة ــ ما ذكره الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [١٩/٩٦] أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان، يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين. ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والاقتداء به، وحصول الإمامة في الدين.

---

(١) قد أخرج أحمد في المسند، والترمذي والحاكم والبغوي وغيرهم، هذه الوصية بدون هذا القول. وأخرجها أحمد ــ في كتاب الزهد على ما يظهر ــ متضمنة له. وقد رواه من طريق أبي هريرة ــ أبو القاسم بن بشران في أماليه، والقضاعي في الشهاب، وغيرهما. راجع: نور الاقتباس (شرح الوصية) لابن رجب (ص ٥ ــ ٩ و٣٦: ط. مصر)، وسنن الترمذي (٩/٣١٩ ــ ٣٢٠)، والمصابيح (٢/١٣٠)، والجامع الصغير (١/١٣٠)، والفتح الكبير (٢/٣١ و٣/٤٠٠)، وفيض القدير (٣/٥١).

(٢) بالأصل: «شحيح»؛ ولا معنى له هنا. ولعله زائد من الناسخ، أو مصحف عن نحو ما ذكرنا.

(٣) بالأصل ــ هنا وفي «يعينك» ــ: بزيادة الياء وهو صحيح: لأنه الغرض مجرد التفسير، بقطع النظر عن الموقع الإعرابي.

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله المؤمنين الذين كملوا إيمانهم بالعلم والعمل ـ لسان صدق ـ ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا منهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا؛ وَكانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾: [٣٢/٢٤]، فبالصبر واليقين ـ اللذين هما رأس الإيمان وكماله ـ نالوا الإمامة في الدين.

ومنها: قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾: [٥٨/١١].

فأهل الإيمان والعلم يرفعهم الله في الدنيا والآخرة؛ فهم أعلى الخلق درجة عند الله، وعند عباده: في الدنيا والآخرة.

وإنما نالوا هذه الرفعة: بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم؛ والعلم، واليقين من أصول الإيمان.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: حصول البشارة بكرامة الله، والأمن التام من جميع الوجوه.

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]؛ فأطلقها: ليعم الخير العاجل والآجل: وقيدها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ: أن لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: [٢/٢٥] فلهم البشارة المطلقة والمقيدة.

ولهم الأمن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ـ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ، وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾: [٦/٨٢].

---

(١) المراد: آية البقرة [٢/٢٢٣]، والتوبة [٩/١١٢]، ويونس [١٠/٨٧]، والصف[٦١/١٣]، لا آية الأحزاب: [٣٣/٤٧].

ولهم الأمن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ: فَلا خَوْفٌ عَلَيهم، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: [٦/٤٨]. فنفى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن مما مضى عليهم. وبذلك يتم لهم الأمن.

فالمؤمن له الأمن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من جميع المكاره والشرور. وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَفِي الآخِرَةِ﴾: [١٠/٦٤]. ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ: أَلَّا تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا، وَأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ؛ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ؛ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ؛ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾: [٤١/٣٠ ـ ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا؛ اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمتِهِ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ؛ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: [٥٧/٢٨].

فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ: يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ؛ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ: جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[١]؛ فالمؤمن يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه؛ وإذا طفئت الأنوار يوم القيامة: مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والنعيم.

وكذلك رتب المغفرة على الإيمان؛ ومن غفرت سيئاته: سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب.

* * *

(١) اقتباس من سورة الحديد: [٥٧/١٢].

ومن ثمرات الإيمان: حصول الفلاح ـ الذي هو: إدراك غاية الغايات؛ فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب ـ والهدى الذي هو: أشرف الوسائل.

كما قال تعالى ـ بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد وما أنزل على من قبله: والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: اللتين هما من أعظم آثار الإيمان ـ قال[1]: ﴿**أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِن رَبِّهِمْ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

فهذا هو الهدى التام، والفلاح الكامل.

فلا سبيل إلى الهدى والفلاح ـ اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما ـ إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله. فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات.

* * *

ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير والآيات.

قال تعالى: ﴿**وَذَكِّرْ؛ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾: [٥١/٥٥]، ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً**[2] **لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وهذا: لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه؛ علماً وعملاً. وكذلك معه الآلة العظمة، والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق؛ وليس عنده مانـع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد. ومن كان كذلك: انتفـع بالآيات.

---

(١) كما في سورة البقرة [٢/٥]، ولقمان [٣١/٥].

(٢) كذا في سورة الحجر [١٥/٧٧]، والعنكبوت [٢٩/٤٤]. وبالأصل «لآيات». وهو خطأ ناشىء عن الاشتباه بآية الحجر [١٥/٧٥]، والمؤمنون [٢٣/٣٠].

ومن لم يكن كذلك: فلا يستغرب عدم قبوله للحق، واتباعه له. ولهذا يذكر الله ـ في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول، وقبول الحق الذي جاء به ـ السبب الذي أوجب لهم ذلك، وهو: الكفر الذي في قلوبهم. يعني: لأن الحق واضح وآياته بينة واضحة؛ والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه. أي فلا تستغربوا هذه الحالة: فإنها لم تزل دأب كل كافر.

* * *

ومنها: أن الإيمان يحمل صاحبه على الشكر في حالة السراء، والصبر في حالة الضراء، وكسب الخير في كل أوقاته.

كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ، أنه قال: (عَجَباً لِأَمْرِ الْمُـؤْمِنِ! إنَّ أمرَه كلّه خيرٌ: إنْ أصابَتْه سَرَّاء شَكر، فكان[1]، خَيْراً له؛ وإنْ أصابَتْه ضَرَّاء صَبَرَ، فكان خيْراً له).

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. والشكر والصبر هما جماع كل خير، فالمؤمن مغتنم للخيرات في كل أوقاته، رابح في كل حالاته.

وفي الصحيح عنه ﷺ: (لا يصيب المؤمن من هم، ولا غم ولا أذى ـ إلا كفر الله عنه بها من خطاياه)[2].

---

(١) بالأصل ـ في الموضعين ـ: «كان»؛ وهو تحريف. والتصحيح من صحيح مسلم: (٢٧٢/٨)، والمصابيح: (١٢٩/٢ ـ ١٣٠). وقد أخرجاه بزيادة من طريق وصهيب. وأخرجه أحمد أيضاً، كما في الجامع الصغير: (٥٧/٢)، والفتح الكبير: (٢٢٢/٢)، انظر: فيض القدير (٣٠٢/٤).

(٢) قد أخرجه ـ ببعض اختلاف، أو بمعناه ـ الشيخان: عن أبي هريرة؛ ومع النسائي عن ابن مسعود، ومع أحمد والترمذي وابن حبان: عن عائشة. وأخرجه البخاري والترمذي: عن أبي سعيد الخدري، كما أخرجه أحمد والحاكم: عن معاوية. انظر: صحيح البخاري (١١٤/٧ ـ ١١٥)، ومسلم (١٤/٨ ـ ١٦)، والترمذي (١٨٦/٤ ـ ١٨٨)، والجامع الصغير (٢٤٩/٢ و١٥١ ـ ١٥٢)، والفتح الكبير (١١٢/٣ و١١٩ ـ ٢١٢)، وفيض القدير (٤٨٣/٥ ـ ٤٨٤ و٤٩٧ و٥٠١)، وهداية الباري (١٧٨/٢).

فيجتمع للمؤمن عند النعم والسراء، نعمتان: نعمة حصول ذلك المحبوب، ونعمة التوفيق للشكر الذي هو أعلى من ذلك. وبذلك تتم عليه النعمة. ويجتمع له عند الضراء، ثلاث نعم: نعمة تكفير السيئات، ونعمة حصول مرتبة الصبر التي [هي] أعلى من ذلك، ونعمة سهولة الضراء عليه. لأنه متى عرف حصول الأجر والثواب، والتمرن على الصبر، هانت عليه وطأة المصيبة، وخف عليه حملها.

* * *

ومنها: أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتضر بدينهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾: [٤٩/١٥]؛ أي: دفع الإيمان الصحيح الذي معهم الريب والشك الموجود، وأزاله بالكلية؛ وقاوم الشكوك التي تلقيها شياطين الإنس والجن؛ والنفوس الأمارة بالسوء. فليس لهذه العلل المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان.

ولهذا ثبت في الصحيحين ــ من حديث أبي هريرة ــ أن النبي ﷺ، قال: (لا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ [حتى يقال[1]] هذا: اللَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ؛ فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ؟. فمَنْ وَجَدَ ذلك، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ باللَّهِ؛ وَلْيَنْتَهِ، وَلْيَتَعَوَّذْ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ).

---

(١) هذه الزيادة جيدة، ثابتة في رواية لمسلم. ولم يرو البخاري هذا الحديث، بهذا اللفظ والرواية المتفق عليها ــ من طريق أبي هريرة ــ هي: (يأتي الشيطان أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه: فيستعذ بالله، ولينته). انظر: صحيح البخاري (٤/١٢٣)، ومسلم (١/٨٤)، والفتح الكبير (٣/٤٠٦). وقد تعرضنا لتخريج هذا الحيدث: في هامش «الدرة البهية» للمؤلف: (ص ٣٤). وقد أخرجه أيضاً النسائي، كما في هداية الباري: (٢/٢٤٣).

فذكر ﷺ، هذا الدواء النافع، لهذا الداء المهلك، وهي ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوساوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها: ليضل بها العباد؛ والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به: كان من الآمنين.

وذلك: لأن الباطل يتضح بطلانه بأمور كثيرة؛ أعظمها: العلم أنه مناف للحق؛ وكل ما ناقض الحق فهو باطل، **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾**(١).

* * *

ومنها: أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلم بهم: من سرور وحزن وخوف وأمن؛ وطاعة ومعصية؛ وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكل أحد منها.

فعند المحاب والسرور، يلجأون إلى الإيمان: فيحمدون الله، ويثنون عليه، ويستعملون النعم فيما يحب المنعم.

وعند المكاره والأحزان يلجأون إلى الإيمان من جهات عديدة: يتسلون بإيمانهم وحلاوته، ويتسلون بما يترتب على ذلك: من الثواب؛ ويقابلون الأحزان والقلق: براحة القلب، والرجوع إلى الحياة الطيبة المقاومة للأحزان والأتراح.

ويلجأون إلى الإيمان عند الخوف: فيطمئنون إليه، ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة؛ ويضمحل الخوف الذي أصابهم. كما قال تعالى عن خيار الخلق: **﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ؛ فَزَادَهُمْ إيماناً، وقالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ؛ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ**

---

(١) اقتباس من سورة يونس: [١٠/٣٢].

وَفَضْلٍ﴾: [٣/١٧٣ ـ ١٧٤]؛ لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار؛ وخلفه قوة الإيمان وحلاوته، وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده.

ويلجأون إلى الإيمان عند الأمن: فلا يبطرهم، ولا يحدث لهم الكبرياء؛ بل يتواضعون، ويعلمون أنه من الله، ومن فضله وتيسيره. فيشكرون الذي أنعم بالسبب والمسبب: الأمن وأسبابه. ويعلمون أنه إذا حصل لهم ظفر بالأعداء وعز، أنه بحول الله وقوته وفضله، لا بحولهم وقوتهم.

ويلجأون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة: فيعترفون بنعمة الله عليهم بها، وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق. وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها، وعم ردها أو نقصها. ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها: أن يتم عليهم نعمته بقبولها؛ والذي تفضل عليهم بحصول أصلها: أن يتمم لهم منها ما انتقصوه منها.

ويلجأون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي: بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدرون عليه من الحسنات لجبر نقصها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا: إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ، تَذَكَّرُوا، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾: [٧/٢٠١].

وقالﷺ: (مَثَلُ المُؤْمِنِ [ومثل الإيمان[١]] كالفَرَسِ المَرْبُوطِ في آخِيَّتِهِ: يَجُولُ مَا يَجُولُ، ثُمَّ يَعُودُ إلى آخِيَّتِهِ).

---

(١) هذه الزيادة عن المصابيح. وقد أخرج هذا الحديث فيه (٢/٨٢ ـ ٨٣) ـ من طريق أبي سعيد الخدري ـ بزيادة أخرى مفيدة، هي: (فإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان؛ فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين). وأخرج مختصراً: في النهاية (١/٢)، ولسان العرب (١٨/٢٤). وأخرج القسم الثاني منه: ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان، وأبو يعلى في المسند، والديلمي وابن المبارك في البر والصلة. انظر: الجامع الصغير (١/٤٣)، والفتح الكبير (١/١٩٢) وفيض القدير (١/٥٣٨) و(الآخية): العروة تشد بها الدابة مثنية في الأرض.

كذلك المؤمن: يجول ما يجول في الغفلة والتجرؤ على بعض الآثام، ثم يعود سريعاً إلى الإيمان الذي بنى عليه أموره كلها.

فالمؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان، ومفزعهم إلى تحقيقه، ودفع ما ينافيه ويضاده. وذلك من فضل الله عليه، ومنه.

* * *

ومنها: أن الإيمان الصحيح يمنع العبد من الوقوع في الموبقات المهلكة.

كما ثبت في الصحيح[1] ــ عن النبي ﷺ ــ أنه قال: (لَا يَزْنِي الزَّانِي ــ حِينَ يَزْنِي ــ: وهو مُؤْمِنٌ؛ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ ــ حِينَ يَسْرِقُ ــ: وهو مُؤْمِنٌ؛ ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ ــ حِينَ يَشْرَبُ ــ: وهو مُؤْمِنٌ) الحديث.

فأخبر: أن الإيمان إذا صحبه ــ عند وجود أسباب هذه الفواحش ــ: فإن نور إيمانه يمنعه من الوقوع فيها؛ فإن النور الذي يصحب الإيمان الصادق، ووجود حلاوة الإيمان، والحياء من الله ــ الذي هو من أعظم شعب الإيمان، بلا شك ــ يمنع من مواقعة هذه الفواحش. ومن وقعت منه: فإنه لضعف إيمانه، وذهاب نوره، وزوال الحياء ممن يراه حيث نهاه. وهذا معروف مشاهد.

والإيمان الصادق الصحيح، يصحبه الحياء من الله، والحب له، والرجاء القوي لثوابه، والخوف من عقابه؛ والنور الذي ينافي الظلمة. وهذه

---

(١) الذي أخرجه أحمد والبغوي مع الستة: من طريق أبي هريرة؛ ومع البخاري والنسائي من طريق ابن عباس باختلاف أو زيادة أو اختصار. راجع: صحيح البخاري (٣/١٣٦ و٧/١٠٤ و٩/١٥٧ و١٦٤)، ومسلم (١/٥٤ ــ ٥٦)، وسنن أبي داود، (٤/٢٢١)، والترمذي (١٠/٩١ ــ ٩٢)، والفتح الكبير (٣/٣٦٣) والمصابيح (١/٦)، وهداية الباري (٢/٣١٦).

الأمور ـ التي هي من مكملات الإيمان ـ لا ريب أنها تأمر صاحبها بكل خير، وتزجره عن كل قبيح.

* * *

ومنها: أنه ثبت عنه [ﷺ] في الصحيحين ـ من حديث أبي موسى رضي الله عنه ـ أنه قال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القرآنَ، كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُها طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ. وَ[مَثَلُ الْمُؤْمِنِ[1]] الَّذِي لا يَقْرَأُ الْقُرآنَ، كَمَثَلِ التَّمْرَةِ: طَعْمُهَا طَيِّبٌ، ولا ريحَ لها».

وهؤلاء القسمان هم خير الخليقة؛ فإن الناس أربعة أقسام:

[الأول]: خير في نفسه، متعد خيره إلى غيره. وهو خير الأقسام. فهذا المؤمن الذي قرأ القرآن، وتعلم علوم الدين. فهو نافع لنفسه، متعد نفعه إلى غيره؛ مبارك أينما كان. كما قال الله تعالى: عن عيسى [عليه السلام]: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَما كُنْتُ﴾: [١٩/٣١].

(والثاني): طيب في نفسه، صاحب خير. وهو: المؤمن الذي ليس عنده من العلم، ما يعود به على غيره.

فهذان القسمان هما خير الخليقة؛ والخير الذي فيهم عائد إلى ما معهم: من الإيمان القاصر، والمتعدي نفعه إلى الغير بحسب أحوال المؤمنين.

---

(١) هذه الزيادة مفيدة، ثابتة: في المصابيح (١/١٠١)، وغيره. والحديث أخرجه أحمد والستة: من هذا الطريق، وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه: من طريق أنس باختلاف أو زيادة أو اختصار. انظر: صحيح البخاري (٦/١٩١ ـ ١٩٢ و١٩٨، و٧/٧٧ و٩/١٦١)، ومسلم (٢/١٩٤)، وسنن أبي داود (٤/٢٥٩)، والترمذي (١٥/٣٠٨ ـ ٣٠٩)، والجامع الصغير (٢/١٥٣)، والفتح الكبير (٣/١٣٠)، وفيض القدير (٥/٤٥٤ ـ ٤٥٥)، وهداية الباري (٢/٢٣٨).

(والقسم الثالث): من هو عادم للخير؛ ولكنه لا يتعدى ضرره إلى غيره.

(والرابع): من هو صاحب شر على نفسه، وعلى غيره. فهذا شر الأقسام: **﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾**(١).

فعاد الخير كله إلى الإيمان وتوابعه؛ وعاد الشر إلى فقد الإيمان، والاتصاف بضده. والله الموفق.

وشبيه بهذا المعنى، قوله ﷺ(٢): (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف؛ وفي كل خير).

فقسم ـ ﷺ ـ المؤمنين، إلى قسمين: قسم قوي في عمله وقوة إيمانه، وفي نفعه لغيره. وقسم ضعيف في هذه الأشياء.

ومع ذلك، ففي كل من القسمين خير: لأن الإيمان وآثاره كله خير، وإن تفاوت المؤمنون في هذا الخير.

ومثل هذا قوله ﷺ(٣): (المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المؤمن: الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم).

ومفهوم هذه النصوص الصحيحة المحكمة: أن فاقد الإيمان لا خير فيه؛ لأنه إذا عدم الإيمان: فإما أن يكون الشخص أحواله كلها شر وضرر على

---

(١) اقتباس من سورة النحل: (١٦/٨٨).

(٢) كما في المصابيح (٢/١٣٠): بزيادة مشهورة. وقد أخرجه ـ من طريق أبي هريرة مسلم (٨/٥٦)، وأحمد وابن ماجه. كما في الفتح الكبير: (٣/٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٣) كما في سنن الترمذي: (٩/٣١٢ ـ ٣١٣)، والمصابيح: (٢/١٢٠ ـ ١٢١) ومسند أحمد، وسنن ابن ماجه، والأدب المفرد للبخاري ـ كما في الفتح الكبير: (٢/٢٥١)، والجامع الصغير: (٢/١٨٤) ـ من طريق ابن عمر: باختلاف يسير. وانظر فيض القدير (٦/٢٥٥ ـ ٢٥٦).

نفسه، وعلى المجتمع من جميع الوجوه؛ وإما أن يكون فيه بعض الخير الذي قد انغمر بالشر. وغلب شره خيره. والمصالح إذا انغمرت واضمحلت في المفاسد، صارت شراً .لأن الخير الذي معه، يقابله شر نظيره: فيتساقطان؛ ويبقى الشر ــ الذي لا مقابل له من الخير ــ يعمل عمله.

ومن تأمل الواقع في الخلق، رأى الأمر كما ذكر النبي ﷺ.

* * *

فتبين مما تقدم: أن هذه الشجرة المباركة ــ شجرة الإيمان ــ أبرك اشجار وأنفعها وأدومها.

وأن عروقها وأصولها وقواعدها: الإيمان وعلومه ومعارفه؛ وساقها وأفنانها: شرائع الإسلام، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة؛ المؤيدة والمقرونة بالإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله.

وأن ثمارها وجناها الدائم المستمر: السمت الحسن، والهدى الصالح، والخلق الحسن، واللهج بذكر الله وشكره، والثناءعليه، والنفع لعباد الله ــ بحسب القدرة ــ: نفع العلم والنصح، ونفع الجاه والبدن، ونفع المال. وجميع طرق النفع. وحقيقة ذلك كله: القيام بحقوق الله، وحقوق خلقه.

وأن هذه الشجرة ــ في قلوب المؤمنين ــ متفاوتة تفاوتاً عظيماً، بحسب ما قام بهم، واتصفوا به: من هذه الصفات.

وأن منازلهم في الآخرة تابعة لهذا كله.

وأن الفضل في ذلك كله لله وحده، والمنة كلها [له سبحانه]. ﴿**بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمانِ؛ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ**[1]﴾.

---

(١) اقتباس من سورة الحجرات: (٤٩/ ١٧).

وقال أهل الجنة بعد ما دخلوها، وتبوَّأوا منازلها ـ معترفين بفضل ربهم العظيم ـ ﴿وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهذا، وَمَا كنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ؛ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ؛ وَنُودُوا: أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: [٧/٤٣].

فجمع في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بنعمه وفضله: حيث وصلوا إلى هذه المنازل العالية؛ وبين ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك بمنة الله عليهم به؛ وهو: العمل الصالح الذي هو: الإيمان وأعماله.

* * *

فنسأل الله تعالى: أن يمن علينا بالإيمان الصادق؛ وأن لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ ويهب لنا من لدنه رحمة. إنه هو الوهاب.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً.

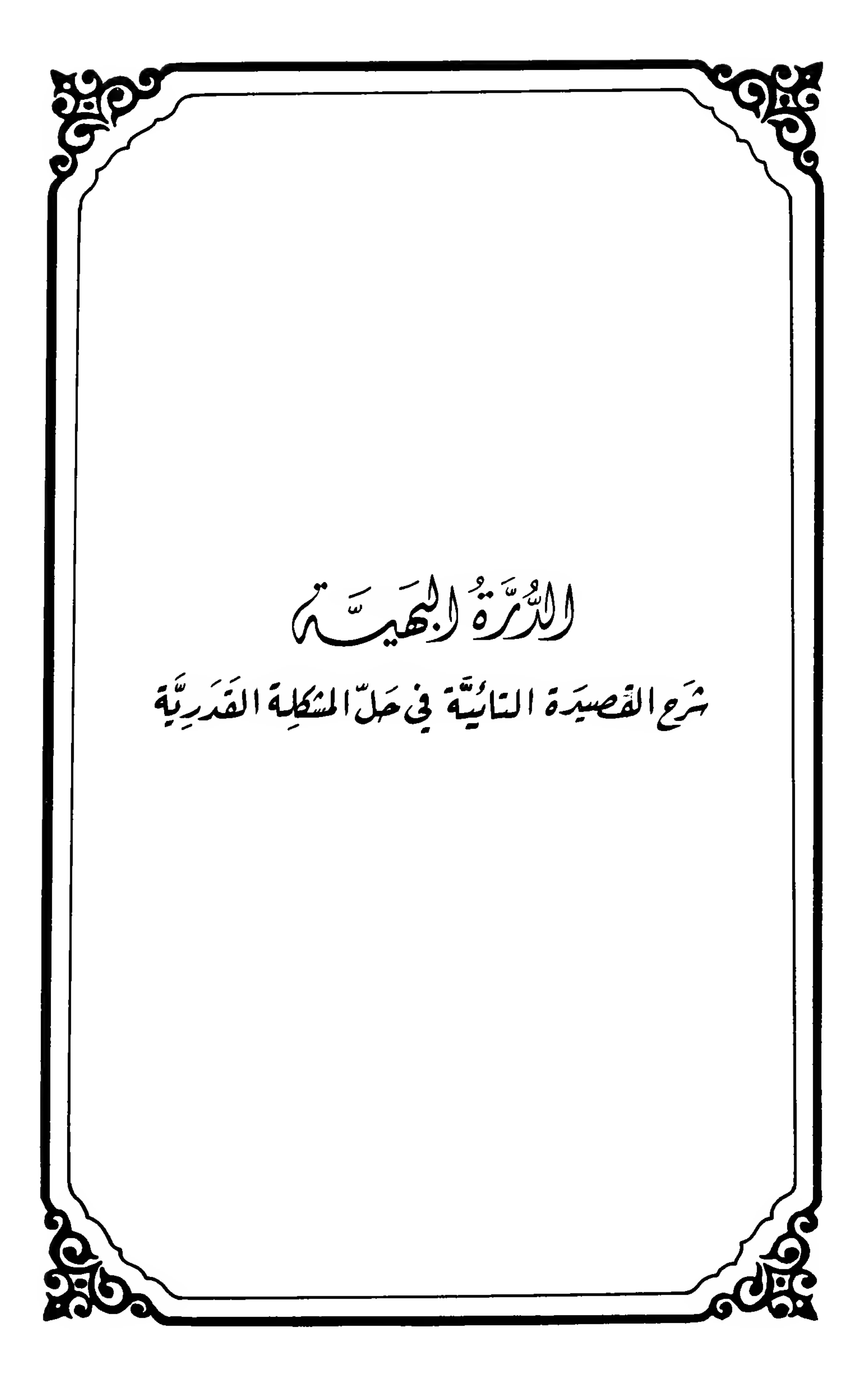
* * *

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي؛ غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين.

حرر: في ٨ شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٤، والحمد لله رب العالمين. وتم نقله: في ١٤ من جمادى الثانية سنة ١٣٧٦هـ؛ بقلم: عبد الله السليمان السلمان؛ فلله الحمد من قبل ومن بعد.

* * *

الدُّرَّةُ البَهِيَّة



الدُّرَّةُ البَهِيَّة

شرح القصيدة التائيَّة في حلّ المشكلة القَدَرِيَّة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين؛ وأشهد أن لا إلـه إلا الله الملك الحق المبين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين؛ اللهم: صلِّ وسلم على محمد وآله وصحبه؛ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد طلب مني بعض الإخوان: أن أشرح «المنظومة التائية في القدر» لشيـخ الإسلام والمسلمين: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية؛ لما فيها: من التحقيق العظيم في مسألة القضاء والقدر، ولمتانتها وصعوبة فهمها، واحتياجها إلى شرح متوسط: يوضحها ويكشف عن معانيها؛ ولكون المقام والموضوع مقاماً مهماً جداً، والحاجة ـ بل الضرورة ـ داعية إلى علمه؛ والتحقق به: معرفة واعتقاداً.

وهذا النظم: قـد أتى فيه الشيـخ بـالعجب العجاب، وبين الحق الصريـح، وكشف الشكوك والشبهات: التي طالما خالـطت قلوب أذكياء العلماء، وحيرت كثيراً من أهل العلم الفضلاء.

لذلك، أجبت السائل لما طلبه. وأرجو الله وأسأله: أن يعين على تحقيقه وتوضيحه. فإن التوضيـح والبيان ـ خصوصاً في هذا المقام ـ أولى من الاختصار؛ وذكر الشواهد والأمثلة الموضحة أولى من الاقتصار. وأسأله تعـالى: أن يجعل الـداعي إليه إرادة وجهـه الكـريم، وإرادة النفـع بـه للمشتغلين.

* * *

والشيـخ ـ رحمه الله، وقدس روحه ـ نظمها جواباً لسؤال أورده عليه من قال: «إنه ذمي»، ليشبه على المسلمين، وليشككهم في أصول الدين. فإن الإيمان بالقضاء والقدر أحد أصول الإسلام، ومبانيه العظام.

وهذا نص السؤال:

أَيَـا عُلَمَـاءَ آلـدِّينِ: ذِمِّيُّ دِينِكمْ ... تَحَيَّـرَ؛ دُلُّـوهُ بـأَوْضَحِ حُجَّـةِ

إذَا مَا قَضَى رَبِّـي بكُفْرِي ـ بِزَعْمِكمْ ـ ... ولَم يَرْضَهُ مِنِّي، فَمَا وَجْهُ حِيلَتِي؟

دَعَانِي، وَسَدَّ آلْبَابَ دُونِي؛ فَهَلْ إلَى ... دُخُـولِي سَبِيلٌ؟ بَيِّنُـوا لِي قَضِيَّتِي

قَضَى بِضَلاَلِي، ثُمَّ قَالَ: آرْضَ بِالْقَضَا؛ ... فَهَلْ أنَا رَاضٍ بالَّذِي فيهِ شِقْوَتِي؟!

فَإِنْ كُنْتُ بالمقضِيِّ ـ يَا قَوْمُ ـ رَاضِياً، ... فَـرَبِّـيَ لَا يَـرْضَى بِشُـؤمِ بَلِيَّتِي

وَهَلْ لِي رِضَا مَا لَيْسَ يَرْضَاهُ سَيِّدِي؟ ... فَقَدْ حِرْتُ؛ دُلُّونِي عَلَى كَشْفِ حَيْرَتِي

إذَا شَاءَ رَبِّـي آلْكُفْرَ مِنِّي مَشِيئَةً، ... فَهَلْ أنَا عَاصٍ فِي آتِّبَاعِ الْمَشِيئَةِ؟

وَهَلْ لِي اخْتِيَارٌ: أنْ أُخَالِفَ حُكْمَهُ؟ ... فَبِاللَّهِ: فَاشْفُـوا بـالْبَرَاهِينِ غُلَّتِي

هذا آخر السؤال المذكور. وحاصله أنه إيراد على مذهب الجبرية القائلين: «إن العبد مجبور مقهور على جميـع أقواله وأفعاله؛ وإنه لا قدرة له على شيء منها»؛ بل هي ـ عندهم ـ واقعة بغير اختياره.

وهذا القول باطل بالكتاب والسنة، وباطل بالعقل والحس. كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

وجميـع المسلمين من جميـع الطوائف ـ أهل السنة، وغيرهم ـ ينكرون هذا المذهب، ويتبرءون منه.

فيقول هذا المشبه على المسلمين ـ المشكك لهم ـ بانياً على مذهب الجبرية الذي يتبرأ منه جميـع الطوائف سوى غلاة الجهمية من الجبرية ـ يقول:

«إذا كان الله قضى علي بالكفر، وقدر عليَّ أن لا أكون مسلماً؛ أو قدر عليَّ المعاصي وأن لا أكون طائعاً ـ: فكيف لي الخلاص من الكفر والمعاصي؟ وكيف أتمكن من الإيمان والطاعة، بعد ما قضى عليَّ الكفر والمعصية؟ فهل أكون معذوراً إذا تجرأت على الكفر والفسوق والعصيان: وأنا لا حيلة لي في الانفكاك عنها؟ وكيف أجمع بين الرضا بالقضاء، وبين الرضا بالمقضيِّ: من الكفر والمعاصي؟. فإن الله لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان، فكيف قدرها عليَّ: وهو لا يرضاها؟».

هذا حاصل هذا السؤال. وجوابه على وجه الإجمال، بسيط ولله الحمد. فإنه لا يرد على مذهب جمهور طوائف المسلمين: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الهدى المشهود لهم بالعلم والإيمان. بل ولا على مذهب المعتزلة والقدرية والخوارج، وغيرهم: من أهل البدع. فإن الجميع يقولون بما جاء به الكتاب والسنة، من إثبات الأصلين:

(أحدهما): الاعتراف بأن جميع الأشياء كلها ـ أعيانها، وأوصافها، وأفعالها ـ بقضاء وقدر، لا تخرج عن مشيئة الله وإرادته، بل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

(والأصل الثاني): أن أفعال العباد ـ من الطاعات، والمعاصي، وغيرها ـ واقعة بإرادتهم وقدرتهم؛ وأنهم لم يجبروا عليها؛ بل هم الذين فعلوها بما خلق الله لهم: من القدرة؛ والإرادة.

ويقولون: لا منافاة بين الأمرين؛ فالحوادث كلها ـ التي من جملتها أفعال العباد ـ بمشيئة الله وإرادته؛ والعباد هم الفاعلون لأفعالهم، المختارون لها. فهم الذين اختاروا فعل الخيرات وفعلوها، واختاروا ترك المعاصي فتركوها. والآخرون اختاروا فعل المعاصي وفعلوها، واختاروا ترك الأوامر فتركوها. فاستحق الأولون المدح والثواب، واستحق الآخرون الذم والعقاب. ولم يجبر الله أحداً منهم على خلاف مراده واختياره. فلا عذر للعاصين إذا

عصوا وقالوا: إن الله قدرها علينا، فلنا بذلك العذر. فيقال لهم: إن الله قد أعطاكم المكنة[1] والقدرة على كل ما تريدون؛ وأنتم ــ بزيغكم وانحرافكم ــ أردتم الشر ففعلتموه؛ والله قد حذركم، وهيأ لكم كل سبب يصرف عن معاصيه؛ وأراكم سبيل الرشد فتركتموه، وسبيل الغي فسلكتموه.

وإذا أردت زيادة إيضاح لهذا المقام: فإنه من المعلوم لكل أحد: أن كل فعل يفعله العبد، وكل كلام يتكلم به ــ فلا بد فيه من أمرين: قدرة منه على ذلك الفعل والقول؛ وإرادة منه. فمتى اجتمعا: وجدت منه الأقوال والأفعال. والله تعالى هو الذي خلق قدرة العبد، وإرادة العبد؛ وخالق السبب التام، خالق للمسبب. فالله تعالى خالق أفعال العباد، والعباد هم الفاعلون لها حقيقة.

فهذا الإيراد الذي أورده هذا المشكك، وما أشبهه ــ: من الإيرادات التي يحتج بها أهل المعاصي، بالقدر ــ يجيبونهم بهذا الجواب، المفحم، فيقولون: دلت أدلة الكتاب والسنة الكثيرة: على أن الله خالق كل شيء وعلى كل شيء قدير وأن كل شيء بقضاء وقدر: الأعيان، والأوصاف، والأفعال. ودلت ــ أيضاً ــ أدلة الكتاب والسنة: أن العباد هم الفاعلون لفعلهم حقيقة، بقدرتهم واختيارهم. فإنه تعالى نسب إليهم، وأضاف إليهم كل ما فعلوه: من إيمان وكفر، وطاعة ومعصية. وإنه تعالى مكنهم من هذا، ومن هذا. ولكنه تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان؛ وولى الآخرين ما تولوا لأنفسهم: حيث اختاروا الشر على الخير؛ وأسباب العقاب على أسباب الثواب.

وهذا ــ كما أنه معلوم بالضرورة من الشرع ــ فهو معلوم بالحس الذي

---

(١) ضبط في الأصل: بكسر الميم وسكون الكاف. وهو خطأ على ما في المصباح: ٨٩٢/٢. والصواب: فتح الميم وكسر الكاف.

لا يمكن أحداً المكابرة فيه: فإن العبد يفرق بين أفعاله التي يقسر ويجبر ويقهر عليها، وبين أفعاله التي يختارها ويريدها، ويحب حصولها.

* * *

فهذا: الجواب المجمل. وأما الجواب المفصل، فقد ذكره الشيخ ـ قدس الله روحه ـ فقال:

سُؤالُكَ ـ يا هذا ـ سُؤالُ معانِدٍ   مُخَاصِمِ ربِّ الْعَرْشِ بارِي الْبَرِيَّةِ
فهذا سؤالٌ: خاصَمَ الْمَـلأَ الْعُلاَ   ـ قَديماً ـ به، إبْليسُ أصْلُ الْبَلِيَّةِ
ومَن يَكُ خَصْماً لِلْمُهَيْمِنِ: يَرْجِعَنْ   علَى أُمِّ رأْسٍ، هاوِياً في الْحُفَيْرَةِ

بين الشيخ ـ في أول الجواب ـ : أن هذا السؤال والإيراد إنما صدر عن رجل معاند مكابر، مخاصم لله.

فإن هذا السؤال ـ في الحقيقة ـ موجه إلى الله؛ والسائل قد أورده على ربه، واعترض عليه، وزعم أن الله ظالم له؛ حيث قدر عليه الكفر والمعاصي، وعذبه عليه. وكل من عاند الله: فحجته داحضة باطلة، وهو مخصوم محجوج.

وهذا السؤال من جنس سؤال إبليس؛ حيث قال: **﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم[1]﴾**. فقال: «فبما أغويتني»، ولم يقل: «غويت». وإبليس هو الذي غوى واستكبر عن أمر ربه: حيث أمره بالسجود لآدم، فقال: **﴿أأسجد لمن خلقت طيناً؟! قال: أرأيتك هذا الذي كرمت علي، لئن أخرتن إلى يوم القيامة: لأحتنكن ذريته إلا قليلا[2]﴾**. فإبليس خاصم الله، وباداه بالمعصية؛ واستكبر عن أمره، واستكبر على آدم.

---

(١) انظر: سورة الأعراف (٧/١٦).
(٢) انظر: سورة الإسراء (١٧/ ٦١ ـ ٦٢).

فكل من خاصم عن نفسه، أو عن غيره ـ في معصية الله ـ فهو: وارث إبليس، وعنه أخذ هذه الخصومة.

فكل من خاصم الحق: فلج وخصم؛ كما أن كل من خاصم بالحق: فلج وغلب. ﴿وقل: جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا[1]﴾. وكل من نصر الباطل: فهو من خصوم الله.

* * *

ولكن: أصناف القدرية الثلاثة، هم أحق الناس بهذا الوصف. فلهذا، قال الشيخ:

وَتُدْعَى خُصُومُ اللَّهِ ـ يومَ مَعَادِهِمْ ... إلى النّار، طُرًّا: مَعْشَرُ الْقَدَرِيَّةِ
سَوَاءٌ: نَفَوْهُ، أَوْ سَعَوْا لِيُخَاصِمُوا ... بِهِ اللَّهَ، أَوْ مَارَوْا بِهِ لِلشَّرِيعَةِ

يشير الشيخ إلى ما رواه ابن ماجه[2] عن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: (من تكلم في شيء من القدر؛ سئل عنه يوم القيامة)، أي: سؤال تقريع وتوبيخ.

وهو ـ كما ذكر الشيخ ـ يشمل طوائف القدرية الثلاث: القدرية النفاة؛ والقدرية المجبرة، والقدرية المشركين. فكل الطوائف الثلاث: خاضوا في القدر خوضاً منحرفاً، وبعضهم أغلظ من بعض. وكلهم عن الصراط ناكبون.

فأما القدرية النفاة، فهم: الذين يطلق عليهم أكثر العلماء اسم

---

(١) اقتباس من سورة الإسراء: (١٧/ ٨١).
(٢) في السنن: (١/ ٢٣ ط العلمية). وانظر: الفتح الكبير في ضم الزيادة على الجامع الصغير (٣/ ١٨٠).

«القدرية» وهم الذين ورد فيهم الحديث ـ الذي في السنن[1] ـ : «أنهم مجوس هذه الأمة». وأكثر المعتزلة على هذا المذهب الباطل.

وحقيقة مذهبهم: أنهم يقولون: «إن أفعال العباد وطاعاتهم ومعاصيهم، لم تدخل تحت قضاء الله وقدره». فأثبتوا قدرة الله على أعيان المخلوقات وأوصافها؛ ونفوا قدرته على أفعال المكلفين، وقالوا: إن الله لم يردها ولم يشأها منهم؛ بل: هم الذين أرادوها وشاءوها، وفعلوها: استقلالاً بدون مشيئة الله.

ويزعمون: أنهم ـ بهذا القول ـ ينزهون الله عن الظلم؛ لأنه لو قدر المعاصي عليهم، ثم عذبهم عليها ـ : لكان ظالماً لهم؛ وللزم من إثبات قدرة الله على أفعالهم، الجبر. الذي هو باطل بالشرع والعقل. كما تقدمت الإشارة إليه[2].

ولكنهم ـ بهذا القول الباطل ـ ردوا نصوصاً كثيرة من الكتاب والسنة، تثبت وتصرح: أن جميع أعمال العباد ـ : من خير وشر، وطاعة ومعصية. ـ بقضاء الله وقدره. كما أجمع المسلمون: أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وسموا «مجوس هذه الأمة»: لأنهم أشبهوا المجوس الذين أثبتوا خالقاً للخير وهو الله، وخالقاً للشر وهو إبليس، على زعم المجوس.

وهؤلاء القدرية أثبتوا: أن الله خالق للعباد: لأعيانهم وأوصافهم؛ ولم

---

(١) من طريق جابر: كما في سنن ابن ماجه (١/٢٥). ومن طريق حذيفة وابن عمر: كما في سنن أبي داود (٤/٢٢٢ و٢٢٨ ط التجارية أولى). وقد أخرجه الحاكم في المستدرك. وحقق الحافظ ابن حجر: أنه صحيح على شرط مسلم؛ كما قال السندي في حاشية سنن ابن ماجه. وانظر: سنن الترمذي (٨/٣١٦)، ومصابيح السنة للبغوي (١/٩ ـ ١٠ ط بولاق) والجامع الصغير (٢/٨٨ ط اليمنية).

(٢) ص ١٤ ـ ١٧.

يثبتوا أنه خالق لأفعالهم. فأخرجوا أفعال العباد عن قدر الله، ولم يهتدوا إلى ما اهتدى إليه أهل السنة: من أن الله كما أنه الذي خلقهم، خلق[1] ما به يفعلون من قدرتهم وإرادتهم؛ ثم فعلوا الأفعال المتنوعة ــ: من طاعة، ومعصية ــ. بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله باتفاق المسلمين، حتى هؤلاء القدرية يثبتون أن قدرة العباد وإراداتهم مخلوقة له.

وحيث وقعت أفعال العباد بقدرتهم وإرادتهم اللتين خلقهما الله في العبد، ليتمكن بهما من كل ما يريده: من أقواله وأفعاله؛ وخالق السبب التام خالق للسبب ــ: فالعبد المؤمن هو الذي يصلي ويصوم، ويتصدق ويحج، ويعمل أعمال البر بما مكنه الله وأعطاه: من قدرة وإرادة يتمكن بهما[2] من أفعال الخير. والعبد الكافر أو الفاجر هو الذي يشرك ويقتل، ويزني ويسرق، ويعمل أجناس المعاصي بما مكنه الله به وأعطاه: من قدرة وإرادة يفعل بهما[2] تلك الأفعال.

والقدرة والإرادة ــ اللتان أعطاهما الله للعبد ــ هما خير ونعمة، وفضل من الله. لكن العبد العاصي هو الذي وجه قواه وأفعاله إلى أعمال الشر؛ فلم يكن له على الله حجة. بل لله عليه الحجة البالغة: نهج الله له طريق الخير فأباه، وسلك بنفسه طريق الشر وارتضاه. فلا يلومن ــ من بعد ذلك ــ إلا نفسه.

فمن احتج ــ مع ذلك ــ على ربه، وقال: «إنه قدر عليَّ المعاصي، فلا لوم علي»؛ قيل له: هذه حجة أبطلها الله في كتابه؛ حيث قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنا؛ وَلَا حَرَّمْنَا[3] مِنْ شَيْءٍ.

---

(١) بالأصل: «وخلق»؛ والزيادة من الناسخ. وإلا كان قوله: كما أنه؛ زائداً.

(٢) بالأصل: «بها»؛ وهو تحريف.

(٣) في الأصل بعد ذلك زيادة: «من دونه». والظاهر أنها من الناسخ، وأنها لم تذكر ــ معترضة ــ على سبيل التوضيح. والآيتان من سورة الأنعام: (٦/١٤٨ ــ ١٤٩).

كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، حَتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا. قُلْ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنَ عِلْمٍ، فَتُخْرِجُوهُ لنا؟ إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ، وَإنْ أنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصُونَ. قُلْ: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعِينَ﴾.

فتضمنت هاتان الآيتان: أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي باطل؛ من وجوه:

منها: أن هذا هو احتجاج المشركين.

ومنها: أن هذا الاحتجاج بالقدر على الشر، لم يمنعهم من عذاب الله. حيث قال: ﴿كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

ومنها: أن الله وبخهم على ذلك، وطالبهم بالبرهان في قوله: ﴿قُلْ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ، فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟﴾. فنفى عنهم العلم، وأخبر[1]: أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً.

ومنها: أنه أخبر: أن له الحجة البالغة على جميع من تجرأ على معاصيه. فمن احتج بالقدر على المعاصي، فهو من أظلم الظالمين.

وأيضاً: فهذا المحتج بالقدر، المقيم لعذر نفسه على ربه ــ هو يكذب نفسه بنفسه. فإنه لو تجرأ عليه أحد بتعد على ماله أو بدنه أو محبوباته، واعتذر بالقدر ــ : لم يقبل عذره. فكيف يقبل عذر نفسه على تجريه على ربه؟!.

فالمحتجُّ بالقدر على المعاصي: يكذبه الكتاب والسنة والعقل؛ وضميره يكذبه كما ذكرنا. وإنما يقصد باحتجاجه، دفع الشناعة عن نفسه.

وكانت طائفة القدر ــ في أول أمرهم ــ : ينكرون العلم، وينكرون القدر. فيقولون: «إن الله لا يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها؛ ولا تعلقت

(١) كما في سورة يونس: (١٠/٣٦)، وسورة النجم: (٥٣/٢٣ و٢٨).

بها مشيئة الله». فلما شنـع عليهم المسلمون، وكفروهم بذلك ـ : تحولوا عن قولهم الأول؛ فأثبتوا العلم، وأنكروا القدر.

ولهذا، كان الأئمة ـ كالإمام أحمد، وغيره ـ يقولون: «ناظروا القدرية بالعلم؛ فإن أنكروا العلم كفروا، وإن اعترفوا به خصموا».

يعني: أن القدرية النافين لعلم الله بأفعال عباده، جاحدون لنصوص الكتاب والسنة: المصرحة بإحاطة علم الله، بما كان وما يكون: من أعيان وأوصاف وأفعال، مما دق وجل. فمن أنكر ذلك: فقد كذب الكتاب والسنة صريحاً؛ وذلك هو الكفر. وإن اعترفوا بإحاطة علم الله بكل شيء، وبأفعال العباد قبل وقوعها ـ كما هو القول الذي استقر عليه مذهبهم ـ : خصموا.

ووجه ذلك أنهم يقولون: «إن أفعالهم لا تتعلق بها مشيئة الله وإرادته؛ وإنما هم مستقلون بها من كل وجه». إذا كان هذا قولهم في مشيئة الله، مـع قولهم: «إن الله يعلم أعمال العباد قبل أن يعملوها»؛ فهذا تناقض محض: كيف يعلمها وهو لم يقدرها ولم يردها؟ : هذا محال. ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[1]﴾.

فيلزمهم أحد أمرين: إما أن لا يتناقضوا، فينفوا الأمرين ـ : علم الله بأفعالهم، ومشيئته لها. ـ فيتضـح كفرهم.

وإما أن يرجعوا إلى الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة، وأجمـع عليه المسلمون. وهو: أنه [تعالى] كما أنه بكل شيء عليم، وبكل شيء محيط ـ فإنه على كل شيء قديـر. ومن جملة الأشياء، أفعـال العباد: طـاعتهم ومعاصيهم. فهو تعالى يعلمها ـ إجمـالاً وتفصيلاً ـ قبـل أن يعملوها. وأعمالهم وأفعالهم داخلة تحت مشيئة الله وإرادته: فقد شاءها منهم وأرادها؛ ولم يجبرهم: لا على الطاعات، ولا على المعاصي. بل هم الذين فعلوها

(١) اقتباس من سورة الملك: ٦٧/١٤.

باختيارهم. كما قال تعالى: ﴿لِمنْ شاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشاؤونَ إِلَّا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالمِينَ[1]﴾.

فهذه الآية فيها رد على القدرية النفاة وعلى القدرية المجبرة؛ وإثبات للحق الذي عليه أهل السنة والجماعة.

فقوله: ﴿لمنْ شَاءَ مِنْكُمْ أنْ يَسْتَقِيمَ﴾؛ أثبت: أنه لهم مشيئة حقيقية، وفعلاً حقيقياً ــ وهو الاستقامة ــ باختيارهم. فهذا رد على الجبرية.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَاؤونَ إِلَّا أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ أخبر: أن مشيئتهم تابعة لمشيئة الله، وأنها لا توجد بدونها. فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. ففيها[2] رد على القدرية القائلين: «إن مشيئة العباد مستقلة، ليست تابعة لمشيئة الله»؛ بل عندهم. يشاء العباد ويفعلون ما لا يشاؤه الله، ولا يقدره.

ودلت الآية على الحق الواضح، وهو: أن العباد هم الذين يعملون الطاعات والمعاصي حقيقة، ليسوا مجبورين عليها؛ وأنها ــ مع ذلك ــ تابعة لمشيئة الله. كما تقدم كيفية وجه ذلك. والآيات الدالات على هذا كثيرة جداً.

فهذه إحدى الطوائف الثلاث المخاصمين لله: فإنهم أنكروا عموم مشيئته وقدره، وجحدوا ما قرره الله ــ في كتابه، وعلى لسان رسوله ــ: من شمول قدره لكل شيء. فزعموا: أن أفعال العباد خارجة من هذا العموم.

* * *

وأما الطائفة الثانية، فهم الجبرية الذين يقال لهم: «القدرية المجبرة».

---

(١) سورة التكوير: (٨١/٢٨ ــ ٢٩).

(٢) بالأصل: «فيها». والظاهر أن نقص الفاء من الناسخ.

وهم غلاة الجهمية الذين إمامهم ـ في هذا وغيره ـ : «جهم بن صفوان»؛ المتفق على بدعته، بل بدعه الخبيثة المتنوعة.

فزعموا: أن عموم مشيئة الله، وعموم إرادته يقتضي[1]: أن العبد مجبور على أفعاله، مقسور مقهور على أقواله وأفعاله: لا قدرة له على شيء من الطاعات، ولا على ترك المعاصي. ومع أنه لا قدرة له على ذلك عندهم، فهو مثاب معاقب على ما لا قدرة له عليه.

وهذا القول من أشنع البدع وأنكرها، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأئمة المهتدين: من الصحابة والتابعين لهم بإحسان؛ ومخالف للعقول والفطر؛ ومخالف للمحسوس.

وكل قول يمكن صاحبه أن يطرده، إلا هذا القول الشنيع. فإنه لا يمكن أن يعمل به ويطرده؛ كما تقدم: أنه لا يعذر من ظلمه وتعدى عليه، مع اعتذار المتعدي بالقدر. فإن الجبري لا يعذره، بل يرى اعتذاره بالقدر: زيادة ظلم، وتهكماً به. فكيف يسلك هذا المسلك مع ربه، وهو لا يرتضيه لنفسه من غيره؟!.

والمقصود: أن هذه الطائفة خالفت المنقول والمعقول؛ ونصوص الكتاب والسنة تبطل قولهم. فإن الله نسب أعمال العباد إليهم ـ : من الطاعات المتنوعة، والمعاصي الكثيرة. ـ كلها يضيفها إلى الفاعلين، ويخبر: أنهم هم الفاعلون لها، ويستحقون جزاءها من خير وشر.

فلو كانوا مجبورين عليها: لم ينسبها لهم، ولم يضفها إليهم؛ بل: ينسب الأفعال إلى نفسه. حاشاه وتعالى عن ذلك. فلا يقال: «الله: الذي فعل الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية»؛ بل يقول كل أحد: العبد هو الذي فعلها، والله هو الذي قدرها من غير أن يجبره عليها.

---

(١) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «تقتضي» بالتاء.

ويلزم على قول الجبرية ـ أيضاً ـ: إسقاط الأمر والنهي. لأنه كيف يؤمر وينهى من لا قدرة له على امتثال الأمر، واجتناب النهي؟!.

ويلزم أيضاً ـ على قولهم ـ: إسقاط الحدود عن جميع أهل الجرائم. إذ كيف يعاقبون وتقام عليهم الحدود: وهم غير قادرين، بل مجبورون؟!.

فهذا القول الباطل مخالف لجميع أصول الدين وفروعه.

ويلزم أيضاً ـ على قول الجبرية ـ: تعطيل الأسباب الدينية والدنيوية. وذلك: أن الله تعالى جعل الأسباب موصلة إلى مسبباتها؛ وأمر العباد بسلوك كل سبب نافع لهم في دينهم ودنياهم. فكيف يؤمرون: وهم مجبورون غير قادرين؟!.

فالقول بالجبر فيه فساد الدين والدنيا. والذي حملهم على هذا القول ـ مع ظهور فساده ـ ظنهم: أنه لا يمكنهم إثبات عموم مشيئة الله وقدره، حتى يسلبوا العبد قدرته.

وقد غلطوا بهذا الظن. فإنه ـ كما تقدم ـ يتمكن العبد من إثبات عموم القدر، ومن إثبات أن الأعمال هي أعمال العباد حقيقة. لأن الله خلقهم، وخلق كل ما فيهم: من القوى الظاهرة والباطنة؛ وبقدرتهم وإرادتهم ـ اللتين خلقهما الله، ومكن العبد بها من كل ما يريده: من خير، وشر. ـ فعلوا الأمرين باختيارهم من غير إجبار.

***

وقد تصل الحال بهذه الطائفة، وتغلو في القدر ـ حتى يعتقدوا: أن معاصيهم طاعات؛ لأنها بمشيئة الله.

فيشاركون الطائفة الثالثة، وهم: القدرية المشركون الذين اعتذروا عن شركهم وتحريمهم ما أباح الله ـ: بالمشيئة؛ وجعلوا مشيئة الله هى محبته.

فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا، وَلَا حَرَّمْنَا[1] مِنْ شَيْءٍ﴾
[سورة الأنعام: الآية ١٤٨]

وفي الآيةِ الأخرى:
﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا: لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ... كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم؛ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ؟!﴾[2].

* * *

فهذه الطوائف الثلاث هم خصماء الله في قضائه وقدره؛ منهم: من نفاه؛ ومنهم: من غلا فيه غلواً أوقعه في الباطل.

وهدى الله أهل السنة والجماعة، لما اختلفوا فيه بإذنه؛

﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[3]؛

فأثبتوا عموم قضاء الله، ونفوذ مشيئته في كل شيء. وأثبتوا ـ مع ذلك ـ أفعال العباد: من الطاعات والمعاصي؛ وقالوا: إنها واقعة باختيارهم؛ ولا حجة للعاصين على الله إذا احتجوا على معاصيهم بقدره؛ بل حجتهم داحضة باطلة. وقالوا: إن مشيئة الله غير محبته؛ فمشيئته تعلقت بكل شيء موجود: من خير وشر، وطاعة ومعصية؛ ومحبته خاصة للطاعات وأهلها. كما أخبر بذلك في كتابه، وفي سنة رسوله ﷺ.

***

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ:

وَأَصْلُ ضلالِ الخَلْقِ فِي كلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ: الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ
فَـإِنَّ جَمِيـعَ الْكَـوْنِ أَوْجَبَ فِعْلَهُ ... مَشِيئَةُ رَبِّ الْخَلْق، بَارِي الْخَلِيقَةِ
وَذَاتُ إِلـهِ الْخَلْقِ وَاجِبَـةٌ بِمَـا ... لَهَا: مِنْ صِفَاتٍ وَاجِبَاتٍ قَدِيمَةِ

---

(١) ورد بالأصل ـ بعد ذلك ـ زيادة: «من دونه». وهو يؤكد ما استظهرناه فيما سبق: (ص ٢٠).
(٢) سورة النحل: (١٦/٣٥).
(٣) اقتباس من سورة البقرة: (٢/٢١٣)، والنور: (٢٤/٤٦). وانظر: سورة البقرة (١٤٢)، والمائدة (٥/١٦)، ويونس (١٠/٢٥).

مَشِيئَتُهُ مَعْ عِلْمِهِ، ثُمَّ قُدْرَةٌ ـ لَوَازِمُ ذَاتِ اللَّهِ قَاضِي الْقَضِيَّةِ
وَإِبْدَاعُهُ مَا شَاءَ: مِنْ مُبْدَعَاتِهِ؛ بِهَا حِكْمَةٌ فِيهِ، وَأَنْوَاعُ رَحْمَةِ

يذكر الشيخ: أن أصل ضلال الخلق ـ من جميع فرق الضلال ـ هو: الخوض في فعل الرب.

وذلك: أن جميع الكون ـ العالم العلوي والسفلي ـ وما فيهن من المخلوقات، خلقها الله وأوجدها بمشيئته وقدرته. فإنه تعالى هو الواجب بأسمائه وصفاته القديمة التي لا أول لها: لأنه الأول الذي ليس قبله شيء، ولم يزل بأسمائه وصفاته كذلك.

فإذا كانت أوصافه كلها قديمة واجبة ـ: لأنه واجب الوجود. ـ فمن لوازم صفاته اللازمة لذاته: العلم المحيط بكل شيء، والقدرة الشاملة لكل شيء، والمشيئة العامة لكل موجود. فهو تعالى لم يزل عليماً فعالاً لما يريد. وأفعاله تعالى وإبداعه لمبتدعاته، تابعة لحكمته التي هي: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها. فلم يخلق ـ ولن يخلق ـ شيئاً عبثاً؛ بل خلق المخلوقات، وأبدع المبدعات بالحق وللحق؛ فهي صدرت، عن الحق، واشتملت على الحق، وكانت غاياتها المقصودة الحق.

فهذا: التقرير الصحيح لمذهب أهل السنة والجماعة؛ وهو الذي دلت عليه الأدلة الكثيرة.

فكما أنه تعالى أخبر[1]: أنه على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه إذا أراد أمراً قال له: «كن» فيكون؛ وأن كل شيء خلقه بقدر، وكل صغير

---

(١) كما في سورة البقرة: (٢/١٤٨ و٢٨٤)، والمائدة: (٥/١٧ و١٩ و٤٠)، وهود: (١١/٤)، والنور: (٢٤/٤٥) والعنكبوت: (٢٩/٢٠)، والشورى: (٤٢/٩). وفي سورة هود: (١٠٧)، والحج: (٢٢/١٤)، والبروج: (٨٥/١٦) وفي سورة آل عمران: (٣/٤٧)، ومريم: (١٩/٣٥)، ويس: (٣٦/٨٢). وفي سورة القمر: (٥٤/٤٩ و٥٣).

وكبير مستطر ـ فكذلك قد أخبر: أنه الحكيم الذي شملت حكمته كل شيء[1]؛ وأنه خلق السموات والأرض ومن فيهن بالحق[2]، ولم يخلقهما باطلاً. ﴿ذلك ظن الذين كفروا﴾[3]، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَا كُمْ عَبَثاً؛ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ؟!﴾[4]، ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى؟!﴾[5]. إلى غير ذلك: من الآيات الدالات على الأصلين[6]؛ وهما: عموم مشيئته لكل موجود، وشمول حكمته للخلق والأمر.

هذا: الذي يتعين على المكلفين الاعتراف به واعتقاده.

أما مذهب الجبرية، فإنهم زعموا: أن فعل الرب وإبداعه لجميع المبتدعات لغير حكمة؛ بل أوجدها ـ عندهم ـ بمشيئة مجردة. وقالوا: إنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[7].

ولا حجة لهم بالآية الكريمة، بل هي حجة عليهم. فإنه لا يسأل عما يفعل: لكمال حكمته؛ فلا يمكن مخلوقاً أن يعترض على الله ـ اعتراضاً صحيحاً ـ في شيء من مخلوقاته. بل: لو اجتمعت عقول الخلق ـ من أولهم وآخرهم ـ ليقترحوا أحسن من خلقه وإبداعه وتكوينه، لعجزت عقولهم وقواهم. وإنما حسب العقول الكاملة: أن تدرك حكمة الله، وأن تفهمها. وما يخفى عليهم ـ من الحكم ـ أعظم وأكثر.

---

(١) كما يؤخذ من مجموع آيات كثيرة مشهورة.

(٢) كما في سورة الأنعام: (٧٣/٦)، والنحل: (٣/١٦)، والزمر: (٥/٣٩) والجاثية: (٢٢/٤٥)، والأحقاف: (٣/٤٦)، والتغابن: (٣/٦٤).

(٣) اقتباس من سورة صٓ: (٢٧/٣٨).

(٤) اقتباس من سورة المؤمنون: (١١٥/٢٣).

(٥) اقتباس من سورة القيامة: (٣٦/٧٥).

(٦) وهي أكثر من الكثرة، وأشهر من الشهرة.

(٧) اقتباس من سورة الأنبياء: (٢٣/٢١).

قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1].

وقال: ﴿الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ؛ فَارْجِعِ الْبَصَرَ: هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ؟!﴾ أي: نقصٍ وَخُلُوٍّ من الحكمة؛ ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ، يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ: خَاسِئاً، وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[3].

ومن تأمل في المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المصنوعات؛ ورأى ما فيها من الحسن والانتظام والإتقان. وشاهد ما فيها: من المنافع التي لا تحصى ـ: شهد لله بكمال الحكمة، وعموم الرحمة.

***

فَتَبًّا لمن زعم: أن أفعال الباري صادرة عن محض المشيئة الخالية من الحكمة والرحمة؛ وأنه يرجح مثلاً على مثل، بلا معنى ولا سبب مرجح. لقد ضلت أفهامهم: حيث أنكروا أظهر الأشياء وأوضحها.

ولهذا، قال الشيخ:

وَلَسْنَا إِذَا قُلْنا: جَرَتْ بِمَشِيئَةٍ؛ مِنَ الْمُنْكِـرِي آيَـاتِـهِ الْمُسْتَقِيمَـةِ
بَلِ الْحَقُّ: أَنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَهُ الْخَلْقُ، والْأَمْرُ الذي في الشَّرِيعَةِ

أي: إذا قلنا: «إن جميع الكائنات جرت بمشيئة الله وإرادته»؛ فلسنا ننكر حكمته وآياته المستقيمة، الدالة على الغايات المحمودة؛ بل نجمع بين إثبات الأمرين، ونعتقد شمول الأصلين لكل ما خلقه وشرعه. لأنه تعالى له الحكم وحده؛ ﴿أَلَا لَهُ الخلق والأمر﴾[4]. أي: له ـ وصفاً وفعلاً ـ الخلق الشامل لكل مخلوق، والأمر الشامل لجميع الأحكام الشرعية.

(١) سورة النمل: (٢٧/٨٨).
(٢) سورة السجدة: (٣٢/٧).
(٣) سورة الملك: (٦٧/٣ ـ ٤).
(٤) اقتباس من سورة الأعراف: (٧/٥٤).

فكما [أنه] لا خالق سواه، فلا حاكم بين العباد سواه. وكما أن مخلوقاته مملوءة من الحكمة والرحمة، فشرعه العظيم أعظم وأعظم: كله حكمة، وكله رحمة. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقومٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

فلهذا، قال:

لَهُ الْمُلْكُ: مِنْ غَيْرِ انْتِقَاصٍ بِشِرْكَةٍ	هُوَ الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ فِي كلِّ حَالَةٍ؛

أي: له الملك كله، وله الحمد كله؛ لا شريك له في ملكه، ولا في حمده. فهو المحمود على ما له: من الأسماء الحسنى؛ وعلى ما له: من الصفات الكاملة العليا. وهو المحمود على فضله الشامل ورحمته الواسعة، وعلى عدله وحكمته التي وضع بها الأشياء مواضعها. فيحمد على عدله، كما يحمد على فضله. كما قال الشاعر:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ؛	ـ كَلَّا ـ وَلا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُـذبُوا: فَبِعَـدْلِهِ؛ أَوْ نُعِّمُـوا:	فَبِفَضْلِهِ؛ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

* * *

وقد قرر الشيخ هذا المقام، فقال ـ مقرراً، مكرراً للمعاني بعبارات مختلفة؛ لأن المقام مهم جداً ـ :

فَمَا شَاءَ مَوْلانَا الإلٰهُ: فَإِنَّهُ	يَكُونُ؛ وَمَا لا: لَا يَكُونُ بِحِيلَةِ
وَقُدْرَتُهُ لَا نَقْصَ فيهَا، وَحُكْمُهُ	يَعُمُّ؛ فَلَا تَخْصِيصَ فِي ذِي الْقَضِيَّةِ
أُرِيدُ بِذَا: أَنَّ ٱلْحَوَادِثَ كُلَّهَا	بِقُدْرَتِهِ كَانَتْ، وَمَحْضِ ٱلْمَشِيئَةِ
وَمَالِكنَا ـ فِي كلِّ مَا قَدْ أَرَادَهُ ـ	لَهُ الْحَمْدُ حَمْداً: يَعْتَلِي كلَّ مِدْحَةِ
فَإِنَّ لهُ ـ فِي الْخلقِ ـ رَحْمَتَهُ سَرَتْ،	وَمِنْ حِكَمٍ فَوْقَ الْعُقُولِ الْحَكِيمَةِ
أُموراً: يَحَارُ الْعَقْلُ فيهَا، إِذَا رَأى	مِنَ الْحِكَمِ الْعُلْيَا، وَكلِّ عجيبَةِ

---

(١) اقتباس من سورة المائدة: (٥/٥٠).

يعني: أنه ما شاء الله كان؛ لا مانـع من كونه ووجوده إذا شاءه الله. وما لم يشأ لم يكن؛ فلا يدرك بحيلة: ولو اجتمع عليه جيـع الخلق.

وفي حديث ابن عباس[1]، أنـه ـ ﷺ ـ قال: (واعلم: أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلابشيء: كتبـه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء: قـد كتبه الله عليك).

فقدرة الباري تعالى كاملة لا نقص فيها: حدثت جميـع الحوادث، ووجدت الموجودات بها وبمشيئته. وله ـ في ذلك الخلق والإيجاد ـ كمال الحكمة، وسعة الرحمة؛ التي تحار العقول في كثرتها وسعتها وعظمتها. وهو المحمود ـ تعالى ـ على ذلك كله.

***

ثم قال أيضاً:

فَنُؤْمِـنُ: أنَّ اللَّهَ عَـزَّ بِقُـدْرَةٍ،	وَخَلْقٍ، وَإِبْـرَامٍ لِحُكْمِ الْمَشِيئَـةِ
فَنُثْبِـتُ هَـذا كُلَّهُ لإلـهِـنَـا،	وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ: مِنْ كلِّ حِكْمَةِ
وَهَـذَا مَقَامٌ: طَـالَمَا عَجِـزَ الألى	نَفَـوْهُ، وكَـرُّوا: رَاجِعِين بِحَيْرَةِ
وَتَحْقِيقُ مَـا فِيـهِ ـ بِتَبْيِين غَـوْرِه،	وَتَحْرِيرِ حَقِّ الحَقِّ فِي ذِي الْحَقِيقَةِ ـ
هُوَ: الْمَطْلَبُ الأَقْصَى لِرُوَّادِ بَحْرِهِ؛	وَذَا عَسِرٌ في نَظْمِ هَذِي الْقَصِيدَةِ:
لِحاجَتِهِ تَبْيِينَ[2] عِلْمٍ مُحَقَّقٍ،	لِأَوْصَافِ مَوْلاَنَا الإلـهِ، الْكَرِيمَةِ
وَأَسْمَـائِهِ الْحُسْنَى وَأَحْكَـامِ دِينِه،	وَأَفْعَـالِهِ فِي كُـلِّ هَـذِي الْخَلِيقَـةِ
وَهَذَا ـ بِحَمْدِ اللَّهِ ـ قَدْ بَانَ ظاهِراً،	وَإِلْهَـامُـهُ لِلْخَلْقِ أَفْضَـلُ نِعْمَـةِ

---

(١) الذي أخرجه الترمذي في صحيحه: (٩/٣١٩ ـ ٣٢٠)، وأحمد في المسند، والحاكم في المستدرك: كما في الفتح الكبير (٣/٤٠٠). وانظر: المصابيح (٢/١٣٠)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٧).

(٢) بالأصل: «إلى تبيين»؛ وهذه الزيادة مقدرة، وإثباتها مخل بالوزن.

وَقَدْ قِيلَ فِي هَذا، وَخُطَّ كِتَابُهُ، بَـانَ شِفَـاءٌ لِلنُّفُـوسِ السَّقِيمَـةِ

كرر المؤلف هذه المعاني بهذه العبارات، لما ذكره: أن المقام مقام عظيم، طالما عجز الذين نفوه ولم يفهموه، وبقوا حائرين غير مهتدين.

ومسائله العظيمة مستمدة من أسماء الله وأوصافه وأفعاله، ومعرفة دينه، والتدبر لكتابه.

فمن تفقه في الأسماء الحسنى، واعترف بما لله: من الصفات العليا؛ وعرف: أن أفعاله تعالى مشتملة على الحق، والحق غايتها ومقصودها؛ وتدبر كتاب الله الذي فيه الهدى والشفاء، وسنة نبيه ﷺ ـ من عرف ذلك كله، واعترف به: جزم جزماً ـ لا تردد فيه ـ بأنه تعالى خلق المخلوقات وأوجدها ودبرها بمشيئة نافذة، وحكمة شاملة، ورحمة واسعة.

وذلك: أن عظمة المخلوقات تدل على عظمة خالقها ومبدعها، وكمال قدرته.

وما فيها ـ: من التخصيصات المتنوعة من كل وجه ـ يدل[1] على نفوذ مشيئته وإرادته.

وما فيها ـ: من الحكم والانتظام، والحسن والالتئام؛ والخلق الغريب، والإبداع العجيب. ـ يدل على شمول علمه وإحاطته، وشمول حكمته وحمده.

وما فيها ـ: من الخيرات الكثيرة، والمنافع الغزيرة؛ والصلاح والإصلاح ـ يدلُّ ذلك على سعة رحمته وبره، وكرمه وإحسانه.

وتحقيق هذه المقامات، هو: المطلب الأقصى لرواد الحقيقة. ولا سبيل

---

(١) هذا هو الظاهر المناسب. وفي الأصل: «تدل» بالتاء. ولعله ـ مع صحته ـ مصحف.

لذلك إلا الاستمداد من كلام الله وكلام رسوله، والاستنارة بهداية الأئمة المهتدين.

ومعرفته وإلهامه للعباد: من أجل نعم الله عليهم. والقرآن شفاء لما في الصدور: من أمراض الشكوك، والشبهات، والشهوات.

***

ثم قال الشيـخ مجيباً للمعترض:

فَقَوْلُكَ: «لِمْ قَدْ شَاءَ؟» مِثْلُ سُؤَالِ مَنْ يَقولُ: فَلِمْ قَدْ كـانَ في الْأَزَلِيَّةِ؟
وَذَاكَ سؤالٌ: يُبطِلُ الْعَقْلُ وَجهَهُ، وَتَحْريمُهُ قَدْ جَاءَ في كُلِّ شرعَةِ

يعني ــ رحمه الله ــ: أن سؤال السائل، واعتراض المعترض بقوله: «لم شـاء؟ وكيف شاء كفر الكافرين، ووقوع العصيان من العاصين؟»؛ ونحوها من الأسئلة المشابهة لذلك، كلها محظورة ممنوعة: لأن الله تعالى هو الحاكم ليس محكوماً عليه؛ ولا يلزم أن يبدي لعباده كل حكمة اشتملت عليها مراداته ومفعولاته، فقد أخبر عباده بالأمر العام، وهو: أنه حكيم في كل ما خلق، وكل ما شرع.

وأما دقائق الخلق وأسرارها، وأسرار أفعاله ــ فعنده علمها: لا يلزم أن يطلـع العباد عليها، إلا ما شاء منها.

وهـذا مثل سؤال السـائل: «لم قـدم الله هذا المخلوق على هـذا المخلوق؟ ولم كان هذا المخلوق سابقاً، وهذا المخلوق لاحقاً؟». فإنه تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ؛ وهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

فالعقل والشرع لا يبيـح أمثال هذه الأسئلة التي يعترض بها العبد الحقير، على الرب العظيم. فإنه محرم في جميع الشرائـع.

---

(١) اقتباس من سورة الأنبياء: (٢١/٢٣).

حتى وصلت بهم الحال إلى ما قاله النبي ـ ﷺ ـ : (لا يزال الناس يتساءلون، حتى يقولوا[1] هذا: الله خلق هذا الخلق؛ فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك: فليستعذ بالله من الشيطان، ولينته)؛ وفي رواية: (فليقل: آمنت بالله).

فأمر ﷺ ـ عند هذه الشكوك والأسئلة المحرمة ـ بثلاثة أشياء: بالإيمان بالله؛ لأن الإيمان الصحيح يدفع هذه الشبهات؛ لعلم العبد المؤمن: أنه تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، وأنه لا منتهى لأوليته، كما لا منتهى لآخريته. وبالاستعاذة بالله من الشيطان: الموسوس، الموقع لهذه الشكوك والشبهات. وأمره: أن ينتهي، وأن يعلم: أن هذا سؤال باطل: شرعاً وعقلاً؛ وهو من باب المكابرة والمباهتة. لأنه تعالى واجب الوجود، ووجود كل شيء بإيجاده.

***

وَفي الْكَوْنِ تَخْصِيصٌ كَثِيرٌ يَدُلُّ مَنْ ... لَـهُ نَـوْعُ عَقْـلٍ: أَنَّـهُ بِـإِرَادَةِ
وَإِصْـدَارُهُ عَنْ وَاحِدٍ بَعْـدَ وَاحِدٍ، ... أَوِ الْقَوْلُ بِالتَّجْـوِيزِ ـ رَمْيَـةُ حَيْرَةِ
وَلَا رَيْبَ فِي تَعْلِيقِ كـلِّ مُسَبَّبٍ، ... بِمَـا قَبْلَهُ: مِنْ عِـلَّةٍ مُـوجِبِيَّـةِ
بَلِ الشَّأْنُ فِي الْأَسْبَابِ ـ أَسْبابِ مَا تَرَى ... ـ وَإِصْدَارِهَا عَنْ حُكْمِ مَحْضِ مَشِيئَةِ

يقول: إن في العالم العلوي والسفلي، تخصيصات كثيرة جداً، تدل ـ دلالة عقلية صريحة ـ: أنها بإرادة العزيز الحكيم.

مثل جعل بعضها عالياً وبعضها سافلاً، وبعضها كبيراً وبعضها صغيراً،

---

(١) هذا اللفظ ورد في بعض روايات مسلم، كرواية: (لا يزال الناس يسألونكم عن العلم) أو (لا يزالون يسألونك يا أبا هريرة) أو (ليسألنكم الناس عن كل شيء). وأما لفظ هذه الرواية ـ وهي المشهورة ـ فهو: (يقال): والحديث أخرج من طرق عدة عن أبي هريرة، كما أخرج نحوه عن أنس أيضاً: في صحيح مسلم (١/٨٣ ـ ٨٥ أو ٢/١٥٣ و ١٥٦ من شرح النووي)، وسنن أبي داود (٤/٢٣١). وانظر: المصابيح (١/٧) والفتح الكبير (٣/٣٦٢).

وبعضها متصلاً بغيره وبعضها منفصلاً، وبعضها على صفة وبعضها على صفة أخرى. مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ؛ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّنْ يَمْشِي على أَرْبَعٍ. يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء﴾[1].

والتخصيصات لا يحيط بها الوصف؛ وكلها تدل على أنها متعلقة بإرادة الله ومشيئته، وأنه الفعال لما يريد.

ومن الغلط العظيم، والحيرة والضلال ـ قول الفلاسفة: «إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد». . فإن هذا باطل ـ شرعاً وعقلاً ـ من وجوه كثيرة: ذكرها الشيخ في كتاب «العقل والنقل»[2]، وفي «المنهاج»، وغيرهما من كتبه.

لكن الأمر الذي لا ريب فيه: أن كل مسبب لا بد له من سبب، وكل معلول لا بد له من علة موجبة، وكل شيء لا بد له من مادة: قد خلق منها.

ولكن جميع الأسباب تنتظم في قضاء الله وقدره، وهي من القضاء والقدر.

ولهذا، لما قالوا للنبي ﷺ[3]: (يا رسول الله: أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقيها، وتقاة نتقيها؛ هل ترد من قدر الله شيئاً؟)؛ قال: (هي من قدر الله).

---

(١) سورة النور: (٢٤/٤٥).

(٢) الظاهر أن المراد: كتاب «موافقة صريح المعقول، لصحيح المنقول» المطبوع بهامش كتاب «منهاج السنة النبوية»، ثم على حدة طبعة محرفة غير محققة.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٨/٣١٥): من طريق أبي خزامة. وانظر: المصابيح (١/٩).

وثبت في الصحيحين[1]: أن الصحابة رضي الله عنهم ـ حين ذكر لهم النبي ﷺ، القدر السابق ـ قالوا: (يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا الأول، وندع العمل؟)؛ فقال: (اعملوا: فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة، فسييسر لعمل أهل السعادة. وأما من كان من أهل الشقاوة، فسييسر لعمل أهل الشقاوة) ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية: **﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وكذَّبَ بِالْحُسنَى؛ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾**[2].

فبين ﷺ: أن السعادة والشقاوة ـ وإن كانت مقدرة مفروغاً منها ـ فإن الله قدرها بأسبابها؛ وهو: أن الله ييسر أهل السعادة لليسرى، بما فعلوه من الأسباب الثلاثة؛ وهي قوله: **﴿فأمَّا مَنْ أعْطَى، وَٱتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ـ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾**؛ وأنه ييسر أهل الشقاوة للعسرى، بما فعلوه من الأسباب الثلاثة؛ وهي قوله: **﴿وَأمَّا مَن بَخِلَ، وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ـ فَسنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾**.

ومشيئته تعالى لا تنافي ما جعله: من الأسباب الدنيوية والأخروية. فقد أخبر في عدة آيات: أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي آيات أخر، أخبر[1] بالأسباب التي تنال بها هداية الله، أو يستحق العبد أن يبقى على ضلاله:

---

(١) وغيرهما: من طريق علي. وأخرج نحوه مختصراً: من طريق عمر وجابر، وحذيفة بن أسيد، وعمران بن حصين، وسراقة بن جعشم. انظر: صحيح البخاري (٦/١٧٠ ـ ١٧١ و٨/١٢٣ ـ ١٢٤ و٩/١٥٩: بولاق)، وصحيح مسلم (٨/٤٦ ـ ٤٨)، وسنن أبي داود (٤/٢٢٣ ـ ٢٢٤ و٢٢٨) والترمذي (٨/٢٩٩ ـ ٣٠٠) وابن ماجه (١/٢١ ـ ٢٢ و٢٥)، والمصابيح (١/٨)، والجامع الصغير (١/٤٧)، وشرح مسلم (١٦/١٩٥ ـ ١٩٨)، وفتح الباري (٨/٥٠٠ ـ ٥٠١ و١١/٣٩٤ ـ ٣٩٧ و٣٩٩ ـ ٤١١، و١٣/٤٠٠ ـ ٤٠١ الخشاب)، ومجموعة رسائل ابن تيمية الكبرى (٢/٨٢)، وشفاء العليل (٨ و٢٤ ـ ٢٥).

(٢) سورة الليل: (٩٢/٥ ـ ١٠).

(٣) في الأصل زيادة: «بها». وهي من الناسخ.

كقوله [في الهداية]: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه سُبُلَ السَّلامِ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ﴾[1]. وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[2]؛ وقولِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا: إنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقاناً﴾[3]، وقولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾[4]؛ ونحوها.

وقولِه في الضلال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[5]، وقولِه: ﴿في قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ، فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾[6]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ، كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[7]، ﴿وَمَن يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحمنِ، نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً؛ فَهوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[8].

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر ــ في هداية من يهديه، وإضلال من يضله ــ ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

وكذلك أخبر في عدة آيات[9]: أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء. وفي آيات أخر، أخبر عن الأسباب التي تنال بها مغفرة الله ــ مثل قوله: ﴿وَإنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[10] ــ والأسباب التي

(١) سورة المائدة: (٥/١٦).
(٢) سورة العنكبوت: (٢٩/٦٩).
(٣) سورة الأنفال: (٨/٢٩).
(٤) سورة التغابن: (٦٤/١١).
(٥) سورة الصف: (٦١/٥).
(٦) سورة البقرة: (٢/١٠).
(٧) سورة الأنعام: (٦/١١٠).
(٨) سورة الزخرف: (٤٣/٣٦).
(٩) كما في سورة البقرة: (٢/٢٨٤)، وآل عمران (٣/١٢٩)، والنساء (٤/٤٨ و١١٦)، والمائدة: (٥/١٨ و٤٠)، والعنكبوت: (٢٩/٢١).
(١٠) سورة طه: (٢٠/٨٢). وانظر: سورة البقرة (٢/٥٨)، وآل عمران (٣/٣١ و١٣٥ ــ ١٣٦)، والأعراف (٧/١٦١)، والأنفال (٨/٢٩ و٦٩ و٧٠) والتغابن (٦٤/١٤).

يُستحَقُّ بها العذابُ، مثلُ قوله: ﴿إنَّا قَدْ أوحِيَ إلَيْنا: أنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾[1].

وكذلك أخبر في آيات كثيرة[2]: أنه يرزق لمن يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء. وفي آيات أخر، ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه؛ مثل قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ: يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَمَن يتوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ، فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[3]؛ وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهِ: يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[4]. كما ثبت في الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: (مَنْ أَحَبَّ[5] أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، ويُنْسَأ له أَجَلُهُ، فليَصِلْ رحِمَهُ).

وكذلك الأسبابُ الماديَّة، مثلُ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا، وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ. وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[6].

وجميع المطالب الدنيوية والأخروية، جعل لها أسباباً: متى سلكها الإنسان، حصل له مطلوبه.

---

(١) سورة طه: (٢٠/٤٨). وانظر: سورة النساء (٤/١٣٧ ـ ١٣٨ و١٦٨ ـ ١٦٩) والأعراف (٧/١٦٢ ـ ١٦٧).

(٢) كما في سورة الرعد: (٣/٢٦)، والإسراء: (١٧/٣٠)، والعنكبوت: (٢٩/٦٢)، وسبأ: (٢٤/٣٩). والشورى: (٤٢/١٢ و١٩).

(٣) سورة الطلاق: (٦٥/٢ ـ ٣).

(٤) سورة الطلاق: (٦٥/٤).

(٥) أو: «من سره». وقوله: أجله؛ الرواية: «أثره» أو«في أثره»؛ كما سيأتي في أواخر الرسالة. والمعنى واحد. والحديث أخرج ـ باختلاف لفظي ـ من طريق أنس: في صحيح البخاري (٣/٥٦ و٨ /٥) ومسلم (٨/٨)، وسنن أبي داود (٢/١٣٢ ـ ١٣٣) والنسائي. ومن طريق أبي هريرة: في صحيح البخاري (٨/٥)، ومسند أحمد. وانظر: المصابيح (٢/١١٤)، وشرح مسلم (١٦/١١٤)، والفتح (٤/٢١٠ و١٠/٣٢٠)، والجامع الصغير (٢/١٥٩).

(٦) سورة الملك: (٦٧/١٥).

وقد جمع النبي ـ ﷺ ـ ذلك، في كلمة واحدة[1]؛ فقال: (احْرِصْ على ما يَنْفعُكَ، وَاسْتَعِنْ بالله).

فقوله: (احرص على ما ينفعك)؛ أي: في دينك ودنياك، واسلك كل طريق يوصلك إلى هذه المنفعة. ولكن: لا تتكل على حولك وقوتك؛ بل: توكل على الله، واستعن به. فمن فعل ذلك: فهو عنوان سعادته ونجاحه؛ وإلا: فلا يلم العبد إلا نفسه.

***

وَقَوْلُكَ: لِمْ شَاءَ الْإِلَٰهُ؟ هُوَ الَّذِي ... أَضَلَّ[2] عُقُولَ الْخلقِ في قَعْرِ حُفْرَةِ

فَإِنَّ الْمَجُوسَ الْقَائِلِينَ بِخَالِقٍ ... لِنَفعٍ، ورَبٍّ مُبْدِعٍ لِلْمَضَرَّةِ ـ

سُؤَالُهُمُ عَنْ عِلَّةِ السِّرِّ، أَوْقَعَتْ ... أَوَائِلَهُمْ، فِي شُبهَةِ الثَّنَوِيَّةِ

يعني: أن هذا السؤال ـ الذي مضمونه الاعتراض على الله؛ ومضمونه أيضاً الدخول فيما ليس للعقل سبيل إليه ـ لم يزل يضل عقول الخلق، ويلقيهم في الهلاك. وهو الذي أوقع المجوس القائلين: «إن الخالق اثنان: خالق الخير ـ هو الله ـ وخالق الشرور؛ هو الشيطان». فأشركوا بالربوبية، بعد شركهم في الإلهية. فكانوا يعبدون النار، ويستحلون المحارم.

فزاد شرهم على المشركين: من جهة استحلال المحارم، ومن جهة اعتقادهم: أن إبليس خالق الشر. فجعلوا رب العالمين اثنين؛ ولهذا يقال لهم: «الثنوية».

والذي أوقعهم في هذا الشر العظيم ـ الذي لم يصل إليه المشركون ـ

---

(١) في الحديث الذي أخرج من طريق أبي هريرة ـ ببعض اختلاف ـ: في صحيح مسلم (٨/٥٦ أو ١٦/٢١٥ من الشرح)، وسنن ابن ماجه (١/٢٢ و٢/٢٨١)، ومسند أحمد كما في الفتح الكبير: (٣/٢٥٠ ـ ٢٥١). وانظر: المصابيح (٢/١٣٠).

(٢) ورد بهامش الأصل: «في المطبوعة: أزل». ولا خلاف في المعنى المراد.

هذا السؤال؛ فقالوا: «كيف يخلق الله الشر؟ ! فعلينا أن ننزه الله عن خلق الشر». فأتوا بهذه الطامة الكبرى، والمقالة الشنعاء.

يقول الشيخ ــ رحمه الله ــ: فهؤلاء المشككون ــ الذين يقولون: «كيف يقدر الله علينا الكفر والمعاصي، ويعذبنا على ذلك؟» ــ قد تابعوا في اعتراضهم، كل كفار عنيد: من المجوس الثنوية؛ وكذلك من هم أعظم منهم ــ شراً وجرماً ــ ملاحدة الفلاسفة.

***

فلهذا، قال الشيخ:

وَإنَّ مَـلاحِيدَ الْفَـلاَسِفَـةِ الأُلى يَقُـولُـونَ بِـالْفِعْـلِ الْقَـدِيمِ لِعِلَّةِ

بَغَوْا عِلَّةً فِي الْكَوْنِ بَعْدَ آنْعِدَامِهِ، فَلَمْ يَجِـدُوا ذَاكُمْ: فَضَلُّوا بِضَلَّةِ

يعني: أن ملاحدة الفلاسفة ــ المعطلين لله ولكتبه ورسله، المكذبين لهم ــ أوقعتهم عقولهم الفاسدة في الهلاك: حيث حكموها في البحث عن علة إيجاد هذا الكون، فلم تهتد لذلك: لقصورها وتقصيرها.

فزعم كثير منهم: «أن هذا العالم قديم، وأنه لم يـزل ولا يزال». وبذلك، أنكروا وجود الرب العظيم. ومن باب أولى: أنكروا رسله وكتبه. وتضاربت نظرياتهم الفاسدة: فضلوا، وأضلوا.

وَلقد صدَقَ عليهم قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلهُمْ بِالْبينَاتِ، فَرِحوا بمَا عِنْدهُمْ: مِنَ الْعِلمِ ؛ وَحَاقَ بِهِم مَا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

ثم: إن هؤلاء الفلاسفة الملاحدة ــ في هذه الأوقات ــ أبطلوا بأنفسهم نظرية أسلافهم، وأحدثوا لهم نظريات متعددة متضاربة: مبنية على الخرص والجهل المركب. ولم يزالوا في اضطراب.

***

(١) سورة غافر: (٨٣/٤٠).

وهذه حالة كل من ترك الحق واستكبر عنه، وتاه بعقله. قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ: فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[1].

ولهذا، قال الشيخ:

وَإنَّ مَبَادِي الشَّرِّ فِي كُلِّ أُمَّةٍ — ذَوِي مِلَّةٍ مَيْمُونَةٍ نَبَوِيَّةٍ —
لخَوْضِهِمُ في ذَاكُمُ صارَ شِرْكُهُمْ، وَجَاءَ رُؤوسُ الْبَيِّنَاتِ بِقَتْرَةِ[2]

يعني: وكذلك الأمم الذين ينتسبون للأنبياء ـ كاليهود والنصارى ـ مبادي شرهم وشركهم: جنس هذا السؤال، وخوضهم بالباطل. فانحرفوا عن أديان الأنبياء، واتبعوا كل شيطان مريد.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ، مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ـ: نَبَذَ فَرِيقٌ، مِنَ ٱلَّذِينَ أوتُوا ٱلْكِتَـابَ، كِتَابَ الله وَرَاءَ ظُهُـورِهِمْ؛ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلمونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشياطينُ عَلَى مُلكِ سُلَيْمَانَ﴾ الآية[3].

فأخبر: أنهم تركوا الإيمان بسيد الرسل محمد ـ ﷺ ـ وأفضل الكتب، وتعوضوا عن ذلك بالعلوم الباطلة، التي هي: السحر؛ ونحوها.

فكل من ترك الأمور النافعة، ابتلي بالأمور الضارة. وكل من زهد بالحق، وقع في الباطل. وهذا مطرد: في كل زمان ومكان، وكل أمة.

***

وَيَكْفِيكَ نَقضاً: أنَّ مَا قَدْ سَأَلْتَهُ — مِنَ الْعُذْرِ ـ مَرْدُودٌ لَدَى كلِّ فِطْرَةِ
فَأنْتَ تَعِيبُ الطَّاعِنِينَ ـ جَمِيعَهُمْ ـ عَلَيْكَ، وَتَرْمِيهِمْ بِكُلِّ مَذَمَّةِ
وَتَنْحَلُ مَنْ وَالاَكَ صَفْوَ مَوَدَّةٍ، وَتُبغضُ مَنْ نَادَاكَ: مِن كلِّ فِرْقَةِ

(١) سورة ق: (٥٠/٥).

(٢) القترة (بفتح القاف): الغبرة. وبالكسر: علم للشيطان. (كما في القاموس: ٢/١١٣ ـ ١١٤). ولعل الثاني هو المراد في البيت.

(٣) سورة البقرة: (٢/١٠١ ـ ١٠٢).

وَحَـالُهُمُ فِي كـلّ قَـوْلٍ وَفِعْلَةٍ، كَحَالِكَ ـ يَا هَذا ـ بِأرْجَـحِ حُجَّةِ

وهذا ـ كما تقدم ـ إلزام ونقض واضح، على من اعتذر عن مخالفته ومعاصيه بالقدر. فإنه ـ في فطرة كل عاقل[1] ـ: أن من ذمك ذممته، ومن عابك عبته؛ ومن ظلمك في نفسك أو مالك، عاملته معاملة الظالم. فكيف تعذر نفسك: إذا عصيت الله؛ ولا تعذرهم: إذا ذموك أو ظلموك؛ بل: تبغضهم وتذمهم، وتقابلهم ـ على ظلمهم ـ بما تقدر عليه؟!. وهذا شيء كل أحد يعرفه.

فاتضح بهذا: أن المحتج بالقدر على المعاصي، كما أنه مخالف للشرع والعقل، فهو مخالف للفطرة التي فطر عليها كل أحد. بل هو مكابر مستهزىء.

***

ثم أعاد هذه المعاني بذكر أمثلة توضح المقام ـ: لكونه من أهم المهمات. ـ فقال:

وَهَبْكَ: كَفَفْتَ اللَّوْمَ عَنْ كُلِّ كافِرٍ وَكُـلِّ غَـوِيٍّ خَـارِجٍ عَنْ مَحَجَّـةِ
فَيَلْزَمُكَ الْإِعْرَاضُ عَنْ كُـل ظَالِمٍ عَلَى النَّاسِ: فِي نَفْسٍ، وَمَالٍ، وَحُرْمَةِ
فَلَا تَغْضَبَنْ يَوْماً عَلَى سَافِكٍ دَماً، وَلا سَـارِقٍ مَـالاً لِصَـاحِبِ فَـاقَـةِ
وَلا شَاتِمٍ عِرْضاً مَصُوناً وَإنْ عَلَا، وَلا نَاكِـحٍ فَرْجـاً عَلَى وَجْهِ غَيَّـةِ
وَلا قَاطِـعٍ لِلنَّاسِ نَهـجَ سَبِيلِهِمْ، وَلا مُفْسِدٍ فِي الأرْضِ مِنْ كلّ وِجْهَةِ
وَلا شَـاهِدٍ بـالزُّور إفْكـاً وَفِرْيَـةً؛ وَلا قَـاذِفٍ لِلْمُحْصَنَـاتِ بِـزَنْيَـةِ
وَلا مُهْلِكٍ لِلْحَرْثِ وَالنَّسْلِ عَامِداً، وَلا حَـاكِمٍ لِلْعَـالِمِينَ بِـرِشْـوَةِ
وَكُفَّ لسانَ اللَّوْمِ عَنْ كُل مُفْسِدٍ، وَلا تَـأْخُـذَنْ ذَا جُـرْمَـةٍ بِعُقُـوبَـةِ
وَسَهِّلْ سَبِيلَ الْكَاذِبِينَ ـ تَعَمّداً ـ عَلَى رَبِّهِمْ: مِنْ كـلّ جَاء بِفِـرْيَةِ

---

(١) في الأصل: «في كل فطرة عاقل». والظاهر أن التقديم من الناسخ.

وَإنْ قَصَدُوا إضْلاَلَ مَنْ يَسْتَجِيبُهُمْ: بِرومِ فَسَادِ النَّوْعِ، ثُمَّ الرِّيَاسَةِ
وَجَادِلْ عَنِ الْمَلْعُونِ فِرْعَوْنَ: إذْ طغَى فَأغْرِقَ فِي الْيَمِّ، انْتِقَاماً، بِغُصَّةِ
وَكُلِّ كفورٍ مُشْرِكٍ بِإلَهِهِ، وَآخَرَ طَاغٍ كَافِرٍ بِنُبُوَّةِ:
كَعَادٍ، وَنُمْرُوذٍ، وَقَوْمٍ لصالحٍ، وَقَوْمٍ للوطٍ، ثُمَّ أصْحَابِ أيْكَةِ
وَخَاصِمْ لِموسَى، ثُمَّ سَائِرِ مَنْ أتَى: مِنْ الْأنبياءِ؛ مُحْيِياً لِلشَّرِيعَةِ ـ
عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ جاهدوا النَّاسَ: إذْ بَغَوْا؛ وَنَالُوا مِنَ الْعَاصِي بَلِيغَ الْعُقُوبَةِ
وَإلَّا: فَكُلُّ الْخلْقِ ـ فِي كلِّ لفْظةٍ، وَلحظَةِ عَيْنٍ، أوْ تَحَرُّكِ شَعْرَةِ
وَبَطْشَةِ كَفٍّ، أوْ تَخَطِّي قَدِيمَةِ، وَكُلِّ حِرَاكٍ، بَلْ وَكُلِ سَكِينَةِ ـ
هُمُ تَحْتَ أقْدَارِ الْإلَهِ وَحُكْمِهِ؛ فَمَا أنْتَ ـ فِيما قَدْ أتَيْتَ ـ بِحُجَّةِ،

هذه الإلزامات ـ التي ذكرها الشيخ ـ في غاية القوة والوضوح: يبطل كل واحد منها، اعتذار المعتذرين بالأقدار.

ومثل بأمثلة كثيرة يعرفها كل أحد: لأن كثرة الأمثلة توضح المعاني، وتصور المقالات القبيحة بأشنع صورة. ولأنه لو فرض أنه تأول من ألزم بها بعض هذه الأمثلة، باحتمالات ضعيفة ـ: لم يكن له سبيل إلى بقيتها.

فالشيخ يقول لهؤلاء المعارضين المعترضين بأقدار الله على المعاصي: يلزمكم أن تعرضوا عن كل ظالم للناس في دمائهم وأعراضهم وأموالهم. فلا تغضبون على من سفك الدماء، وأخذ الأموال بالغصب والسرقة؛ ولا من شتم الأعراض؛ ولا على الزناة وقطاع الطرق والمفسدين في الأرض؛ ولا على قاذف أو شاهد بالزور؛ ولا من سعى في الأرض: ليهلك الحرث والنسل؛ ولا على من حكم بالرشوة وجار في حكمه. بل يجب عندهم كف اللسان عن كل مفسد معتد على الخلق. بل عليك: أن تسهل سبيل الكاذبين على ربهم، وتعتذر عنهم: وإن سعوا في إضلال الناس. بل: وجادل عن أئمة الكفر: كفرعون وقارون وهامان؛ وكل مشرك وكافر: كعاد وثمود، ونمروذ، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة. وما أشبههم: من الكفار المعاندين. بل على قول

هؤلاء، عليك: أن تخاصم جميع الرسل والأنبياء؛ حيث جاهدوا الناس على الإيمان، وعاقبوا أهل الجرائم. لأن الخلق كلهم ــ في جميع حركاتهم وسكناتهم، ولفظاتهم ولحظاتهم ــ تحت أقدار الله.

وهذا القول الفظيع ــ الذي يفضي إلى هذه المكابرات، والمجاهرة بتكذيب الله ورسله وكتبه ــ حسب الناظر لهذا القول: أن يتصور هذه اللوازم التي هي غاية المشاقة لله ولرسله، وفيها[1] فساد الدين والدنيا والآخرة.

***

وَهَبْكَ رَفَعْتَ اللَّومَ عَنْ كلّ فَاعِلٍ ... فِعَالَ رَدى، طَرْداً لِهَـذي الْمَقيسَةِ
فَهَلْ يُمْكِنَنْ رَفْـعُ الْمَلَامِ جَمِيعِهِ، ... عَنِ النَّاسِ طُرًّا، عِنْدَ كلِّ قَبِيحَةِ
وَتَرْكُ عُقُوبَاتِ الَّذِينَ قَـدِ اَعْتَدَوا، ... وَتَرْكُ الْوَرَى الْإِنْصَافَ بَيْنَ الرَّعِيَّةِ؟
فَــلَا تُضْمَنَنْ نَفْسٌ وَمَـالٌ بمِثْلِهِ، ... وَلَا يُعْقَبَنْ عَـادٍ بمِثْـلِ الْجَـرِيمَـةِ
وَهَلْ فِي عُقُولِ النَّاسِ، أَوْفِي طِبَاعِهِمْ ــ ... قَبُولٌ لِقَوْلِ النَّذْلِ: مَاوَجْهُ حِيلَتِي؟!

لما ذكر الشيخ تلك الإلزامات التي لا محيد لهم عنها، ألجأهم ــ أيضاً ــ إلى إلزامات اخر، فقال: فلو فرض وقدر أنك ــ أيها المعتذر بالقدر على المعاصي ــ رفعت اللوم عن العاملين لمعاصي الله، المتجرئين على محارمه ــ: فهل يمكنك طرد ذلك، وترك عقوبات المعتدين، وترك الحدود عن أهل الجرائم: بحيث لا يضمن القاتل نفساً، ولا الغاصب والمتلف مالا؛ ولا ينصف الحكام بين رعاياهم إذا قالوا وادعوا أنهم معذورون بالقدر؟!. وهل في عقل أحد أو فطرته، قبول قول الواحد من هؤلاء المجرمين: «ما وجه حيلتي: وأنا معذور؟ فإني ــ وإن خالفت الشرع ــ فقد وافقت القدر»؟! وهل هذا إلا تلاعب محض، وتهكم صرف؟!.

***

(١) هذا هو الظاهر. وفي الأصل: «وفيه»، ولعله مصحف عما أثبتناه.

ثم قال:

ويكفيك نقضاً مَا بجِسْمِ آبْنِ آدَمٍ — صَبِيٌّ، وَمَجْنُونٍ — وَكلِّ بَهِيمَةِ:
مِنَ الْأَلَمِ الْمَقضِيِّ مِنْ غَيْرِ حِيلَةٍ؛ وَفِيمَا يَشَاء اللَّهُ، أَكْمَلُ حِكْمَةِ
إِذَا كَانَ فِي هَذا لَهُ حِكْمَةٌ، فَمَا يُظَنُّ بِخَلْقِ الْفِعْلِ، ثُمَّ الْعُقُوبَةِ؟
فَكَيْفَ: وَمِنْ هَذا عَذابٌ مُولَّدٌ عَنِ الْفِعْلِ ــ فِعْلِ الْعَبْدِ ــ عِنْدَ الطَّبيعَةِ؟!
كَآكِلِ سُمٍّ أَوْجَبَ الْمَوْتَ أَكْلُهُ؛ وَكُلٌّ بِتَقْدِيرٍ لِرَبِّ الْمَشِيئَةِ
فَكُفْرُكَ ــ يَاهَذَا ــ كُسمٍّ أَكَلْتَهُ؛ وَتَعْذِيبُ نَارٍ: مِثْلُ جُرْعَةِ غُصَّةِ
أَلَسْتَ تَرَى ــ فِي هَذِهِ الدَّارِ ــ مَنْ جَنَى يُعَاقَبُ: إِمَّا بِالْقَضَا أَوْ بِشِرْعَةِ؟!
وَلا عُذْرَ لِلْجَانِي بِتَقْدِيرِ خَالِقٍ؛ كَذلِكَ فِي الأُخْرى بِلَا مَثْنَوِيَّةِ

يعني: أنه يكفيك ــ نقضا لقولك، وإبطالاً له ــ: أن الله تعالى يقضي بحكمته الآلام، على غير المكلفين: من الصبيان، والمجانين، والبهائم. وهذه الآلام من لوازم الطبيعة؛ فلا تنفك الطبائع إلا أن تكون على هذه الصفة: تكون صحيحة ومريضة، ومرتاحة ومتألمة؛ بحسب ما يعرض للطبيعة: من استقامة وانحراف.

فإذا كانت أسباب الآلام، إذا وجدت: تولدت عنها الآلام، وترتبت عليها الأسقام ــ كمن أكل سما ترتب عليه الهلاك، أو ألقى نفسه في نار أو مهلكة ــ: فكفر الكافرين، وإجرام المجرمين بمنزلة من أكل سماً، أو قذف نفسه في نار أو مهلكة ــ لا بد أن يترتب عليه مقتضاه وأثره.

فإذا كنت لا تعذر من أكل سماً أو ألقى نفسه في تهلكة[1]، وتنسب هلاكه إلى عمله: فالكفر والمعاصي كذلك، بل أبلغ. لأن آكل السم

(١) كذا بالأصل. وهو صحيح: من باب إطلاق المصدر على المهلكة أي: المفازة ومكان الهلاك (انظر المختار: هلك). على حد قوله تعالى ــ في سورة البقرة ٢/١٩٥ ــ : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

والملقي نفسه بالهلكة[1]، ربما يعرض بعض العوارض المانعة من الهلاك. بخلاف الكفر وتوابعه: فإن آثاره مترتبة عليه قطعاً، إلا إذا رفعها العبد بتوبة نصوح.

ومما يؤيد هذا: أنك تشاهد في هذه الدار عقوبات الباغين والظالمين والمعتدين، عقوبات يشاهدها كل أحد، إما عقوبات قدرية يوقعها الله بالمجرمين: كما أهلك الأمم السابقة بالعقوبات المتنوعة؛ وكما يشاهده من سبر أحوال الخلق، وتتبع ما جرياتهم، وكيف كانت عواقب الباغين والمجرمين أشنع العواقب. وإما عقوبات[2] شرعية: يقتل القاتل، ويقطع السارق، ويقام الحد ــ بالرجم أو الجلد ــ على الزاني، ويجلد الشارب للخمر، ويعذر في كثير من المعاصي. وهذه عقوبات قدرية شرعية.

فهل تقول ــ أيها المعتذر عن العاصين بالقدر ــ: إن جميع هؤلاء قد ظلمهم الله؛ حيث أوقع بهم هذه العقوبات، وحيث أحل بهم المثلات؟.

فإن قلت ذلك: فقد بلغت من عداوة الله وعداوة رسله، ومحاربة الله ــ مبلغاً ما بلغه أحد.

وإن رجعت إلى الحق، وقلت: إن هذه العقوبات القدرية والشرعية، هي عدل الله بين عباده، وهي حكمته التي وضعها الله موضعها، وجعلها في محلها اللائق بها، وليس لهؤلاء الجناة المعاقبين عذر ــ بل «ما أصابهم من مصيبة فبما كسبت أيديهم؛ ويعفو عن كثير»[3] ــ: فالرجوع إلى الحق أحق.

وبذلك وغيره، يتضح بطلان الاعتذار بالقدر عن المجرمين.

* * *

---

(١) كذا بالأصل. أي: الهلاك؛ مراداً به المهلكة، على ما سبق.

(٢) بالأصل: (بعقوبات)، والظاهر أن الزيادة من الناسخ.

(٣) اقتباس بتصرف من سورة الشورى: (٤٢/ ٣٠).

وشبيه بهذا ـ أيضاً ـ قول الشيخ:

وَتَقْدِيرُ رَبِّ الْخَلْقِ لِلذنْبِ مُوجِبٌ   لِتَقْدِيرِ عُقبَى الذَّنْبِ، إلَّا بِتَوْبَةِ
وَمَا كانَ مِنْ جِنْسِ الْمَتَابِ؛ لِرَفْعِهِ   عَوَاقِبَ أفْعَالِ الْعِبَادِ الْخَبِيثَةِ؛
كَخَيْرٍ بِهِ تُمْحَى الذُّنُوبُ، وَدَعْوَةٍ   تُجَابُ مِنَ الْجَانِي وَرَبِّ الشَّفَاعَةِ
وَتَقْدِيرُهُ لِلْفِعلِ يَجْلِبُ نِعْمَةً،   كَتَقْدِيرِهِ الأشْيَاءَ طُرًّا بِعِلَةِ

يعني: كما جعل الله الذنوب والجرائم أسباباً للعقوبات، فقد جعل الله التوبة وأعمال الخير، والدعوات والشفاعات ـ تمحى بها الذنوب، وتكشف بها الكروب.

فالله تعالى ـ بحكمته ورحمته ـ جعل أعمال العباد، خيرها وشرها، تترتب عليها آثارها، وتحصل موجباتها: عاجلاً وآجلاً.

فكم جلبت أفعال الخير من نعم، وكم دفعت من نقم. كذلك أفعال الشر: كم حصل بها من عقوبات، وكم ترتب عليها من شرور ومصائب. فهذه أمور لا بد منها: في قدر الله، وفي حكمه الشرعي، وحكمه الجزائي الذي يحمد عليه؛ لما فيه: من العدل والفضل.

* * *

ثم قال الشيخ ـ رحمه الله ـ:

وَقَوْلُ حَلِيفِ الشَّرِّ: «إنِّي مُقَدَّرٌ   عَلَيَّ»؛ كَقَوْلِ الذِّئْبِ: هَذِي طَبِيعَتِي
فَهَلْ يُرْفَعَنْ ذَمُّ الْمَلُومِ، بِأَنه   كَذَا طَبْعُهُ؟ أمْ هَلْ يُقَالُ لِعَثْرَةِ؟!
أمِ الذَّمُّ وَالتَّعْذِيبُ أوْكَدُ لِلَّذِي   طَبِيعَتُهُ فِعْلُ الشُّرُورِ الشَّنِيعَةِ؟!

يعني: أن المجرم إذا اعتذر بذلك العذر المردود، وقال: «إن الذنب مقدر علي»؛ فهو مثل قول الذئب والسبع المفترس، ومثل الشرير: إذا فعل الشر والعدوان والبغي، وقال: «هذه طبيعتي؛ فلا لوم علي».

فهل يرفع هذا القول عنه الملام والعقاب؛ أم يكون لومه أشد، وعقوبته أوكد؟: لأنه عمل العمل القبيح، واتصف بالخلق القبيح؛ فكان أغلظ جرماً، وأشد عقوبة ممن فعل جرماً عارضاً: فإنه يرجى له الرجوع والتوبة؛ بخلاف الشرير: الذي طبيعته وقوته متوجهة إلى الشرور والمعاصي.

* * *

ثم ذكر الشيخ ما ينجي العبد من هذا المأزق الحرج، فقال:

فَإِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تُجَابَ بِمَا عَسَى ... يُنَجِّيكَ مِنْ نَارِ الإِلَهِ الْعَظِيمَةِ:

فَدُونَكَ رَبَّ الْخَلْقِ: فَاقْصِدْه ضَارِعاً ... مُرِيداً لِأَنْ يَهْدِيكَ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ

وَذَلِّلْ قِيَادَ النَّفْسِ لِلْحَقِّ، وَاسْمَعَنْ؛ ... وَلا تَعْصِ مَنْ يَدْعُو لِأَقْوَمِ شِرْعَةِ

وَدَعْ دِينَ ذِي الْعَادَاتِ: لَا تَتْبَعَنَّهُ؛ ... وَعُجْ عَنْ سَبِيلِ الأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ

وَمَا بَانَ ـ مِنْ حَق ـ : فَلَا تَتْرُكَنَّهُ؛ ... وَلَا تُعْرِضَنْ عَنْ فِكْرَةٍ مُسْتَقِيمَةِ

وَمَنْ ضَلَّ عَنْ حَقٍّ ـ : فَلَا تَعْذُرَنَّهُ؛ ... وَزِنْ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ بِالْمَعْدَلِيَّةِ

هُنَالِكَ تَبْدُو طَالِعَاتٌ مِنَ الْهُدى ... بِتَبْشِيرِ مَنْ قَدْ جَاءَ بِالْحَنَفِيَّةِ

بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ـ ذَاكَ إِمَامُنَا ـ ... وَدِينِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ

فَلَا يَقْبَلُ الرَّحْمَنُ دِيناً سِوَى الَّذِي ... بِهِ جَاءَتِ الرُّسْلُ الْكِرَامُ السَّجِيَّةِ

وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْحَاشِرُ الْخَاتَمُ الذِي ... حَوَى كُلَّ خَيْرٍ فِي عُمُومِ الرِسَالَةِ

وَأَخْبَرَ عَنْ رَبِّ الْعِبَادِ: بِأَنَّ مَنْ ... غَدَا[1] عَنْهُ، فِي الأُخْرَى بِأَقْبَحِ خَيْبَةِ

فَهَذِي دَلَالَاتُ الْعِبَادِ لِحَائِرٍ، ... وأَمَّا هُدَاهُ، فَهُوَ فِعْلُ الرُّبُوبَةِ[2]

وَفَقْدُ الْهُدَى عِنْدَ الْوَرَى لا يُفِيدُ مَنْ ... غَدَا عَنْهُ، بَلْ يَجْرِي بِلَا وَجْهِ حُجَّةِ

---

(١) كذا في الأصل: بالغين المعجمة. يعني: أن من أصبح بعيداً عن دينه، لحقته أقبح خيبة في آخرته. فتأمل.

(٢) بالأصل: «الربوبية»: وإثبات الياء مخل بالوزن. على أن هذا الاسم قد ورد أيضاً بدون الياء، كما في اللسان: (١/٣٨٥)، والقاموس: (١/٧٠)، أو التاج.

هذه نصائح نفيسة ـ من نصائح الشيخ ـ مستندة إلى الكتاب والسنة.

يقول: إذا كنت ـ أيها العبد ـ تريد نجاتك من عذاب الله والفوز بثوابه، فاقصد ربك: متضرعاً له آناء الليل والنهار؛ واسأله: أن يهديك الصراط المستقيم؛ ووطن نفسك للانقياد للحق، واقبله ممن قاله؛ وكن ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

ودع عنك دين العادات، والاقتداء بأهل الغضب والضلال.

وأكثر من التدبر لكتاب الله وسنة نبيه؛ ثم ما بان لك ـ: من الحق. ـ فاتبعه: غير مبال بخلاف المخالفين.

واجعل كتاب الله وسنة نبيه نصب عينيك، وزن بهما أحوالك وأحوال غيرك. فإنهما الميزان العادل، غير العائل[1]. فإنك إذا فعلت ذلك: حصلت لك تباشير الخير، وأمارات السعادة.

واتبع ملة إبراهيم حنيفاً: مائلاً عن جميع الأديان والبدع، إلى دين محمد ﷺ. فإن الله لا يقبل من أحد ديناً، سوى الدين الذي ارتضاه لرسله وأتباعهم، حتى ختمهم بإمامهم وسيدهم: محمد ﷺ؛ الذي جمع الله به وله ـ: من المحاسن والكمالات. ـ ما لم تجتمع في غيره. وقد أخبر عن ربه أن من اتبعه فهو المهتدي السعيد، ومن تولى عنه فهو الضال الطريد.

ثم قال: وهذا الذي بينته في هذه الأبيات؛ فيه الدلالة للحيران، والتفاصيل التي يحصل بها الفرقان. والهداية بيد الله؛ لكنه: من أقبل على ربه صادقاً، وعمل بأسباب الهداية ـ: فلا بد أن يقبله الله، ويسلك به الصراط المستقيم.

* * *

(١) أي: غير المائل. انظر: المختار (مادة: عول).

وَحُجَّــةُ مُحْتَـجٍّ بِتَقْــدِيــرِ رَبِّــهِ، يَـزِيدُ عَـذَاباً، كَـاحْتِجَاجِ مَـرِيضَةِ

وذلك: لأنه عمل في الحقيقة جرمين بل ثلاثة؛ (أحدهـا): فعله للذنب.

(ثانياً): احتجاجه عليه بالقدر؛ وهو كذب: فإن مضمون[1] الاحتجاج بالقدر، يعني: أن الله اضطره وألجأه إليه، وأكرهه عليه؛ وهو لا يريد الذنب. وهو كذب صريـح: فإن الله مكنه من الترك، بل فتـح له كل باب يصده عن الذنب؛ وقد أبت نفسه الأمارة بالسوء إلا أن توقعه في الذنب. فالملام عليه لا على ربه.

(ثالثاً): أنه بهذا الاعتذار، يمهد لنفسه الإصرار على الذنوب، والإقامة على ما يسخط علام الغيوب. فإن هذا الاعتذار يهون عليه كل ذنب، كما هو مشاهد.

* * *

وَأَمَّا رِضَـانَـا بِـالْقَضَـاءِ، فَـإِنَّمـا أُمِرْنَا بأَن نَرْضَى بِمِثْـلِ الْمُصِيبَةِ:

كَسُقْمٍ، وَفَقْرٍ، ثُمَّ ذُلٍّ، وَغُرْبَـةٍ؛ وَمَا كانَ: مِنْ مُؤْذٍ بدُون جَرِيمَـةِ

فَـأَمَّا الأَفَـاعِيلُ الَّتِي كُـرِهَتْ لَنَا، فَلَا نَصَّ يَأْتِي فِي رِضَاهَا بِـطَاعَةِ

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ ـ مِنْ أُولِي الْعِلْمِ ـ: لَا رِضاً بِفِعْلِ الْمَعَاصِي، وَالذُّنوبِ الْكَبِيرَةِ

فَـإِنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ لَمْ يَـرْضَهَا لَنـا؛ فَـلَا نَرْتَضِي مَسْخُـوطَـهُ لِمَشِيئَـةِ؛

وَقَـالَ فَـرِيقٌ: نَـرْتَضِي بِقَضَـائِـهِ؛ وَلَا نَرْتَضِي الْمَقضِيَّ أَقْبَـحَ خَصْلَةِ

وَقَـالَ فَـرِيقٌ: نَـرْتَضِي بِـإِضَــافَـةٍ إِلَيْـهِ؛ وَمَـا فِينَـا: فَنَلْقَى بِسَخْـطَةِ

كَمَـا أَنَّهَـا لِلرَّبِّ خَلْقٌ، وَأَنَّـهَـا لِمَخْلُوقِـهِ كَسْبٌ، كَفِعْلِ الْغَـرِيزَةِ

فَنَرْضَى مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ خَلْقُهُ، وَنَسْخَطُ مِنْ وَجْـهِ اكْتِسَابٍ بِحِيلَةِ

---

(١) كذا بالأصل. وهو صحيح على أن خبرة قوله: يعني. فتأمل.

يعني: إذا أورد المورد علينا: «أنه يجب الرضا بقضاء الله» ــ يعني: والمعاصي من قضاء الله. ــ فقد أجاب الشيخ بأربعة أجوبة، كل واحد منها كاف شاف، فكيف إذا اجتمعت ــ:

أحدها: أن الذي أمرنا أن نرضى به: المصائب، دون المعائب. فإذا أصبنا بمرض أو فقر، أو نحوهما ــ من حصول مكروه، أو فقد محبوب ــ: فيجب علينا الصبر على ذلك ــ واختلف في وجوب الرضا؛ والصحيح: استحبابه. لأنه لم يثبت ورود[1] الأمر به على وجه الوجوب، ولتعذره على أكثر النفوس ــ لأن الصبر: حبس النفس عن التسخط، واللسان عن الشكوى، والأعضاء عن عملها بمقتضى السخط: من نتف الشعر، وشق الجيوب، وحثو التراب على الرؤوس ونحوها. وذلك واجب مقدور.

وأما الرضا ــ الذي هو مع ذلك: طمأنينة القلب عند المصيبة؛ وأن لا يكون فيه تمني أنها ما كانت. ــ فهذا صعب جداً على أكثر الخلق. فلهذا لم يوجبه الله ولا رسوله؛ وإنما هو من الدرجات العالية. وهو مأمور به أمر استحباب.

وأما الرضا بالذنوب والمعائب، فلم نؤمر بالرضا بها؛ ولم يأت نص ــ صحيح أو ضعيف ــ في الأمر بها. فأين هذا من ذاك؟!

(الجواب الثاني) ما قاله طائفة من أهل العلم: أن الله لم يرض لنا أن نكفر ونعصي؛ فعلينا: أن نوافق ربنا في رضاه وسخطه. قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ؛ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ. وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[2].

---

(١) بالأصل: وجوب؛ وهو تحريف. ولا يقال: إن المراد به الثبوت، لأنه يؤدي إلى التهافت، ويفضي إلى التكلف الذي لا ضرورة له، ولا داعي إليه.

(٢) سورة الزمر: (٣٩/٧).

فالدين: موافقة ربنا في كراهة الكفر والفسوق والعصيان، مع تركها: وموافقته في محبة الشكر والإيمان والطاعة لنا، مع فعلها.

(الجواب الثالث): أن القضاء غير المقضي؛ فنرضى بالقضاء: لأنه فعله تعالى. وأما المقضي ــ الذي هو فعل العبد ــ فينقسم إلى أقسام كثيرة: «الإيمان والطاعة»: علينا الرضا بها. و«الكفر والمعصية»: لا يحل لنا الرضا بها؛ بل علينا: أن نكرهها، ونفعل الأسباب التي ترفعها: من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية، وإقامة الحد والتعزير على من فعلها. و«المباحات»: مستوية الطرفين.

(الجواب الرابع): أن الشر والمعاصي تختلف إضافتها؛ فهي من الله: خلقاً وتقديراً وتدبيراً، وهي من العبد: فعلاً وتركاً. فحيث أضيفت إلى الله ــ قضاء وقدراً ــ نرضى بها من هذا الوجه؛ وحيث أضيفت إلى العبد: نسخطها، ونسعى بإزالتها بحسب مقدورنا.

فهذه الأجوبة عن الأمر بالرضا بالقضاء، قد اتضح أنها لا تدل على شيء من مطلوب المعترض.

* * *

ثم قال الشيخ:

وَمَعْصِيَــةُ الْعَبْـدِ الْمُكَلَّفِ تَــرْكُـهُ	لِمَــا أَمَـرَ الْمَــوْلى: وَإِنْ بِمَشِيئَةِ
فَــإِنَّ إِلَــهَ الْخَلْقِ حَقٌّ مَقَــالُــهُ:	بِـأَنَّ عِبَـادِي فِي جَحِيمٍ وَجَنَّــةِ؛
كَمَا أَنَّهُمْ ــ فِي هَذِهِ الدَّارِ ــ هَكَذا	بَلِ الْبُهْمُ فِي الآلامِ ــ أَيْضاً ــ وَنِعْمَةِ

يعني: أن معصية العبد: تركه لما أمر الله به ورسوله، وإن كان ذلك بمشيئة الله. فالله تعالى شاءه وأراده: لما له في ذلك من الحكمة، ولعلمه تعالى أن العبد يفعله باختياره ومراغمته لربه. فلا حجة له في ذلك.

وقد أخبر الله تعالى[1]: أن الأبرار لفي نعيم، وأن الفجار لفي جحيم؛ في دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار: إما الجنة أو النار.

بل البهائم في الدنيا منها: ما هو منعم؛ ومنها: ما هو مريض أو مصيبه شيء من الآلآم.

* * *

ولذلك كله أسباب وطرق معروفة: يحمد المولى بوضعه الأسباب المنوعة، مفضية إلى مسبباتها.

ولهذا، قرر الشيخ هذا المقام، بقوله:

وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا اقْتَضَتْ مَا اقْتَضَتْهُ: مِنْ ... فُـرُوقٍ بِعِلْمٍ، ثُمَّ أيْدٍ وَرَحْمَـةِ
يَسُوقُ أُولِي التَّعْذِيبِ، بالسَّبَبِ الَّذِي ... يُقَـدِّرُهُ، نَحْـوَ الْعَـذابِ ـ بِعِـزَّةِ
وَيَهْدِي أُولِي التَّنْعِيمِ نَحْوَ نَعِيمِهِمْ، ... بأَعْمَالِ صِدْقٍ: فِي رَجَاءٍ وَخَشْيَةِ
وَأمْـرُ إِلَـهِ الْخَلْقِ: بَيَّـنَ مَـا بِـهِ ... يَسُوقُ أُولِي التَّنْعِيمِ، نَحْوَ السَّعَادَةِ
فَمَنْ كانَ مِنْ أهْلِ السَّعَادَةِ: أثَّرَتْ ... أوَامِـرُهُ فِيـهِ، بِتَيْسِيـرِ صَنْعَـةِ
وَمَنْ كانَ مِنْ أهْلِ الشَّقَاوَةِ: لَمْ يُبَلْ ... بِـأَمْـرٍ وَلا نَهْيٍ، بِتَيْسِيـرِ شِقْـوَةِ
وَلا مُخرِجٌ لِلْعَبْدِ عَمَّـا بِهِ قَضَى؛ ... وَلَـكِنَّـهُ مُـخْتَـارُ حُسْنٍ وَسَـوْأةِ
فَلَيسَ بِمَجْبُورٍ عَدِيمٍ إرَادَةً؛ ... وَلَـكِـنَّـهُ شَـاءَ بِـخَـلْقِ الْإرَادَةِ

يعني: أن حكمة الرب العليا اقتضت افتراق العباد: بالعلم والجهل، والعمل والكسل، والنعيم وضده. وذلك: بحسب عملهم بالأسباب النافعة، أو الأسباب الضارة.

فإن الله دعا إلى دار السلام، وبين طريقها وأعمال البر الموصلة إليها؛

---

(١) كما في سورة الانفطار: (٨٢/١٣ ـ ١٤). وانظر: سورة الإنسان (٧٦/٥)، والمطففين (٨٩/٢٢).

التي مرجعها إلى ثلاثة أمور: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما. وأمر العباد بسلوكها؛ وأخبر بما لهم عنده: من الكرامة.

فمن كان من أهل السعادة: يسره لعمل أهل السعادة، وحبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان. فسار ــ بحسن طريقه ــ إلى سعادته الأبدية.

ومن كان من أهل الشقاوة: لم يبال بأمر الله ولا نهيه؛ بل: كذب وتولى. فاستحق العذاب بجرمه وذنوبه. بين الله له الهدى؛ وأمره بسلوكه: فأدبر وتولى؛ فولاه الله ما تولى لنفسه، ووكله إليها. ومن وكل إلى نفسه ــ الأمارة بكل سوء، الظالمة الجاهلة ــ : فقد هلك؛ وذلك بما كسبت يداه: ليس بمجبور على ذلك ولا مكره ولا مقسور، بل هو مختار مسرف كفور.

* * *

فلهذا، قال الشيخ:

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ: خَلْقُ مَشِيئَةٍ بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ

فقَوْلُكَ: هَلْ أَخْتَارُ تَرْكاً لِحُكْمِهِ؟ كَقَوْلِكَ: هَلْ أَخْتَارُ تَرْكَ مشِيئَتِي؟

وَأَخْتَارُ: لا أَخْتَارُ فِعْلَ ضَلالَةٍ؛ وَلَوْ نِلْتَ هَذا التَّرْكَ: فُزْتَ بِتَوْبَةِ

وَذَا مُمكِنٌ؛ لكِنَّهُ مُتَوَقِّفٌ عَلى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنْ ذِي الْمَشِيئَةِ

يقول الشيخ: إن من أعجب الأشياء: أن خلق الله للعبد مشيئة يتمكن بها من كل ما يريد. فيختار بها الهدى: إن كان من أهل السعادة؛ ويختار بها الضلالة: إن كان من أهل الشقاوة. والعبد هو الذي يفعل ويعمل ويكسب: من غير ممانع له عما يريده.

فقولك ــ أيها المعترض عليه ــ : «هل أختار ترك حكم الله وقدره؟»؛ مثل قولك: «هل أختار ترك مشيئتي؟».

يعني: فأنت الذي اخترت أفعال المعاصي. فلو زعمت: أنك لا تختار ولا تحب فعل الضلالة والغي؛ فأنت بين أمرين: إما أن تكون كاذباً؛ وهو الواقـع لكل من يعترض على المعاصي بالقدر؛ ولكنه يريد بهذا الكلام دفـع الشنعة عليه. وقصده معروف؛ فهو يعرف من نفسه: أنه لا يختار ولا يحب أن يترك ما باشره: من الكفر والإجرام.

فلو فرض وقدر على وجه الإمكان أنه صادق في قوله: «إني أختار: أن لا أختار فعل الضلالة»؛ وكان ذلك من صميم قلبه صادقاً في ذلك ـ لو كان الأمر كذلك: لكان هذا توبة. لأن العبد متى كانت له إرادة مصممة على فعل ما يحبه الله، وعلى ترك ما يكرهه الله ـ: أقبل بهذه الإرادة إلى الخيرات، وانصرف عن السوء والسيئات؛ وكان توبة له من جميـع الموبقات.

ولكن: من وفق لهذه الحال، كان أبعد الناس عن الاحتجاج بالقدر.

والوصول إلى هذه الدرجة العالية، ممكن في حق كل أحد. ولكنه يتوقف على مشيئة الله وإرادته. ومن لجأ إلى الله وأناب إليه، وتضرع له ـ: هداه الله، وشاء منه أن يفعل ما يحبه ويرضاه.

وأشار الشيـخ إلى هذا الفرق اللطيف، بقوله: على ما يشاء الله من ذي المشيئة وذو المشيئة هو: العبد.

وهذا الفرق اللطيف، هو: أنه إن شاء تعالى أن يعين عبده على فعل ما يحبه ويرضاه، وشاء من عبده ذلك الفعل ـ: حصل المطلوب، وفاز العبد بكل مرغوب. وإن لم يشأ تعالى إعانة عبده؛ بل أمره بالخير وأحب منه أن يفعله، ونهاه عن الشر وكره له فعله؛ ولكن لم يشأ من نفسه إعانته ـ: بقي العبد على ما اختاره لنفسه: من الإقامة على مساخط الله.

* * *

قال الشيـخ ــ بعد ما أجاب بهذه الأجوبة السديدة، والمعارف المَفيدة ــ :

فَدُونَكَ عِلْماً بِالَّذِي قَدْ أَجَبْتُ بِهِ مَعَانٍ: إذَا ٱنْحَلَّتْ بِفهْمٍ غَرِيزَةٍ،
أشَارَتْ إلى أصْلٍ يُشِيرُ إلى الْهُدَى؛ وَلِلَّهِ رَبِّ الْخَلْقِ، أكْمَـلُ مِدْحَتِي

أي: دونك هذه الأجوبة لما سألت عنه؛ سواء: كان السؤال سؤال استرشاد، أو سؤال اعتراض وعناد: كما هو الظاهر من ألفاظ السائل وفحوى كلامه. وهو الذي فهمه الشيـخ.

فهذه الأجوبة: التي تشير وتبين هذا الأصل؛ وهو: أصل القدر، الذي هو أحد أصول الإيمان.

وقد بين الشيـخ ــ في تفاصيل جوابه ــ هذا الأصل بياناً شافياً، ووضحه توضيحاً كافياً؛ لا تجد هذا التفصيل وهذا التحقيق، في كلام غير هذا الإمام العظيم.

فجزاه الله ــ عن الإسلام والمسلمين عموماً ، وأهل العلم خصوصاً ــ أفضل الجزاء، ورفعه في أعلى درجات الصديقين، ونفـع بعلومه جميـع المسلمين. آمين.

* * *

خاتمة

في ذكر أمثلة منوعة تكشف لك مسألة القضاء والقدر

حيث كان المقام من أهم الأمور، وقد حارت فيه أفهام كثير من الأذكياء، ولم يهتد إلى الصواب المحض كثير من العلماء؛ وكثير منهم يأخذ مسائله على وجه التقليد: غير مقتنع بوجه يجمع فيه بين الإيمان بشمول القضاء والقدر، مع أن العبد هو الفاعل حقيقة لفعله، وهو الممدوح أو الملوم على كسبه. مع أن الشيخ ــ رحمه الله ــ حقق هذا المقام، في هذا النظم، غاية التحقيق؛ وبين فيه الهدى من الضلال، حتى وضح الطريق. لكن الأمثلة تزيد البصير بصيرة، وتزيل عن الشاك الطالب للحق، الريب والحيرة.

لهذا، نقول في ضرب الأمثلة المتعلقة بهذه المسألة العظيمة:

(المثال الأول): رجل كان مسرفاً على نفسه، كثير الجراءة على المعاصي.

فقال له صاحبه ــ وهو يناصحه ويحاوره ــ : أما ترتدع عما أنت عليه؟ أما تتوب إلى ربك وتنيب إليه؟ أما علمت أن عقابه شديد على العاصين؟.

فقال المسرف: دعني أتمتع فيما أريد؛ فلو شاء الله لهداني، ولو أراد لي غير ذلك لما أغواني.

فقال له الناصح: بهذا الاعتذار الكاذب ازداد جرمك، وتضاعف ذنبك؛ فإن الله لم يغوك؛ بل الذي أغواك: الشيطان؛ وانقادت له النفس الأمارة بالسوء حيث قال الشيطان ــ مخاطباً لربه ــ ﴿قَالَ: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]. فالشيطان دعاك إلى المعاصي

(١) سورة ص: (٣٨/٨٢ ــ ٨٣).

فأجبته، والله دعاك إلى الهدى فعصيته. بين الله لك السعادة وطرقها، وسهل أسبابها ورغبك فيها؛ ووضح لك طريق الشقاوة، وحذرك من سلوكها واتباع خطوات الشيطان. وأخبرك بما تؤول إليه: من العذاب الشديد؛ فرضيت، واستبدلت الضلالة بالهدى، والشقاوة على السعادة. وجعل لك قدرة وإرادة: تختار بهما، وتتمكن بهما من كل ما تريد. ولم يلجئك إلى فعل المعاصي، ولا منعك من الخير. فسلكت طريق الغي، وتركت طريق الرشد. فلا تلم إلا نفسك.

أما سمعت ما يقول الداعي لأتباعه يوم القيامة ــ حيث يقوم خطيباً فيهم ــ : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ؛ وَمَا كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لِي؛ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ؛ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ الآية[1]؟!.

فقال المسرف: كيف أستطيع أن أترك ما أنا فيه: والله هو الذي قدره علي؟!. وهل يمكنني الخروج عن قضائه وقدره؟.

فقال له الناصح: نعم؛ يمكنك الخروج بقدره. فالتوبة والإقلاع عما أنت فيه ــ وأنت تعلم علماً لا تشك فيه ــ من قدر الله. فارفع قدر الله بقدره.

ثم إن قولك: «إن المعاصي الواقعة مني، من قدر الله»؛ إن أردت: أن الله أجبرك عليها وحال بينك وبين الطاعة؛ فأنت كاذب. وأول من يعلم كذبك نفسك: فإنك تعلم كل العلم أنك لو أردت ترك الذنوب لما فعلتها، ولو أردت إرادة جازمة فعل الواجبات لفعلتها. فلقد أقدمت على المعاصي برغبة منك ومحبة لها، وإرادة لا تشك ولا يشك غيرك فيها، وتعلم أن قولك: «إنها

---

(١) سورة إبراهيم: (١٤/٢٢).

بقضاء الله وقدره»؛ دفـع اللوم عنك. فهل تقبل هذا العذر: لو ظلمك ظالم، أو تجرأ عليك متجرىء؛ وقال: «إني معذور بالقدر؛ فلا تلمني». أما يزيدك كلامه هذا حنقاً وتعرف أنه متهكم بك؟!.

فقال المسرف: بلى؛ هذا الواقـع.

فقال الناصـح: كيف ترضى أن تعامل ربك ـ الذي خلقك وأنعم عليك النعم الكثيرة ـ بما لا ترضى أن يعاملك به[1] الناس؟!

وإن أردت بقولك: «إنها بقضاء وقدر»؛ بمعنى: أن الله علم مني أني سأقدم عليها، وأعطاني قدرة وإرادة أتمكن بهما من فعلها؛ وأنا الذي فعلت المعاصي بما أعطاني ربـي: من القوى التي مكنني فيها من المعاصي؛ وأعلم أنه لم يجبرني ولم يقهرني؛ وإنما أنا الذي فعلت، وأنا الذي تجرأت ـ: فقد رجعت إلى الحق والصواب، واعترفت بأن لله الحجة البالغة على عباده.

* * *

(المثال الثاني): رجل جاء لبعض العلماء، فقال له: «أحب أن ترشدني إلى أمر يطمئن له قلبـي، وتقنـع به نفسي؛ من جهة القضاء والقدر. فإني لا أشك أن جميـع الحوادث بقضاء الله وقدره؛ وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وأعلم ـ مـع ذلك ـ أن أفعالي كلها باختياري وإرادتي، وأنا الذي عملتها. هذا أمر ضروري؛ لا أشك فيه، وأعتقد أنه لا يشك فيه أحد. ولكن: أحب طريقة تهديني إلى كيفية الجمـع بين الأمرين».

فقال العالم: الجواب المقنـع في هذه المسألة: أنك إذا علمت أن الله خلقك وخلق أعضاءك الظاهرة والباطنة؛ هذا أمر لا تشك فيه ولا يشك فيه مسلم؛ ومن أعظم الأعضاء الباطنة: أن الله جعلك مريداً لكل ما تحبه، كارهاً

(١) بالأصل: «فيه»؛ والظاهر أنه مصحف عما ذكرناه.

لما تبغضه، إجمالاً وتفصيلاً؛ وأن الله أعطاك قدرة؛ توقع بها جميع ما تريد فعله، وتنكف بها عما تريد تركه؛ فأنت تعترف بذلك ولا تستريب فيه؛ وتعرف ــ مع ذلك ــ أنك إذا أردت أمراً من الأمور إرادة جازمة، وأنت تقدر عليه، فعلته من دون توقف؛ حتى إن الأمور المستقبلة التي تريد فعلها ــ إرادة جازمة ــ تقول فيها: سأفعل إن شاء الله كذا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ: إني فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً؛ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1] ــ:

فإذا اعترفت بذلك كله ــ يعني: اعترفت بأنه تعالى خلقك وخلق قواك الظاهرة والباطنة؛ ومكنك من كل ما تريد بما أعطاك: من قدرة ومشيئة؛ وأنت الذي تختار وتفعل أو تترك. ــ فقد جمعت بين الأصلين: الاعتراف بعموم قدر الله، وأن أفعالك كلها من كسبك؛ وأنه إن وفقك للخير: فبفضله وتيسيره؛ وإن لم يوفقك ــ بل وكلك إلى نفسك ــ: فلا تلومن إلا نفسك.

ومعرفة هذه المقدمات سهلة بسيطة؛ وبها يحصل لك الاقتناع التام.

ففعلك داخل في عموم قدرة الله وخلقه: لأن خالق السبب التام، هو الخالق للسبب. والسبب التام: قدرتك وإرادتك؛ والله هو الذي خلقهما، وأنت الذي تفعل بهما.

وإنما الإشكال الذي لا يمكن حله ــ لبطلان أحد أصليه ــ: اعتقادك أنك مجبور على أفعالك، فهذا الذي لا يمكن العبد أن يعترف معه: أن الأفعال أفعاله. وهذا يعلم بطلانه بالضرورة؛ كما سبق بيانه.

فقال الرجل السائل المسترشد: لقد وضحت المسألة وضوحاً لا أشك فيه؛ علمت بأن الله خلقني، وخلق جميع أوصافي؛ وخلق الأسباب التي أتمكن بها من الأفعال؛ وأنا الذي أفعل وأطيع: إن ساعدني الله بتوفيقه؛ وأعصي وأغفل: إن وكلني إلى نفسي.

---

(١) سورة الكهف: (١٨/٢٣ ــ ٢٤).

فقال العالم: وأزيدك إيضاحاً وبياناً لهذا السؤال:

قال الله لخِيار المؤمنين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ؛ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1].

فلم يقل: ولكن الله أجبركم على الإيمان؛ إلى آخره. ولكنه تعالى لما علم حالة النفس وأنها ظالمة جاهلة أمارة بالسوء، لطف بالمؤمنين، وحبب إلى قلوبهم الإيمان، وزينه فيها. فانقادت إلى الخيرات باختيارها، لما جعل في قلوبهم: من هذه الأوصاف الجليلة. ولما كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، انصرفوا عنها: لكراهتهم لها؛ وكان هذا لطفاً وكرماً منه.

وأما الآخرون: فلم يجعل لهم نصيباً من هذا اللطف؛ فانحرفوا باختيارهم، وكانوا هم السبب لأنفسهم. حيث كانت مقاصدهم فاسدة؛ وحيث عرض عليهم الخير فرفضوه، واعترض لهم الشر والغي فاختاروه؛ فولاهم الله ما تولوا لأنفسهم؛ واللوم كله عليهم، والحجة البالغة لله على العباد كلهم. ﴿قُلْ: فَلِلَّهِ الْحجَّةُ الْبَالِغَةُ؛ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وأزيدك إيضاحاً وبياناً: ألست تفرق ويفرق كل أحد بين حركة المرتعش بغير اختياره؛ وبين حركة الباطش والكاتب باختياره؛ وتعلم أن الأخير فعل العبد حقيقة، والأول مقسور عليه؛ وما أشبه ذلك ـ: من الحركات التي من هذا النوع. ـ تفرق بين الحركة الاختيارية، والحركة الاضطرارية؟!.

فمن ألحق أحد القسمين بالآخر، وساواه به ـ: فهو مختل الشعور.

فقال الرجل: جزاك الله خيراً: فلقد أزلت عني كل إشكال، واقتنعت بذلك غاية الاقتناع.

* * *

---

(١) سورة الحجرات: (٤٩/٧).

(٢) اقتباس من سورة الأنعام: (٦/١٤٩).

(المثال الثالث): قضية الرجل الجبري.

كان رجل قد غلا في الجبر والقدر غلواً عظيماً؛ فكان يعتذر بالقدر عند كل جليل وحقير: حتى آلت به الحال إلى الاستهتار، وانتهاك أصناف المعاصي. وكلما نصح وليم على أفعاله، جعل القدر حجة له في كل أحواله.

وكان له صاحب يعذله وينصحه عن هذه المقالة التي تخالف العقل والنقل والحس؛ ولا يزيده العذل إلا إغراءاً.

وكان صاحبه ينتظر وينتهز الفرصة في إلزامه بأمور تختص به وتتعلق.

وكان هذا الجبري صاحب ثروة له أموال منوعة، قد وكل عليها الوكلاء والعملة.

فصادف في وقت متقارب أن جاءه صاحب ماشيته، فقال: إن الماشية هلكت وتلفت جميعها؛ لأني رعيتها في أرض جدبة ليس فيها عود أخضر.

فقال له: فعلت ذلك وأنت تعلم أن الأرض الفلانية مخصبة؛ فما عذرك في ذلك؟.

فقال: قضاء الله وقدره.

وكان ممتلئاً غضباً قبل ذلك؛ فزاد غضبه من هذا الكلام، واستشاط غضبه، وكاد يتقطع من هذا الاعتذار.

وجاءه صاحب البضائع، فقال: إني سلكت الطريق المخوف، فاقتطع المال قطاع الطريق.

فقال له: كيف تسلك هذا الطريق المخوف ــ مع علمك أنه مخوف ــ وتترك الطريق الآمن الذي لا تشك في أمنه؟!.

فأجابه بمثل جواب الراعي للماشية، وعمل معه الجبري ما عمله مع صاحبه.

ثم جاءه وكيله على تربية أولاده وحفظهم، فقال: إني أمرتهم أن ينزلوا في البئر الفلانية ـ ليتعلموا السباحة ـ فغرقوا.

فقال: لم فعلت ذلك: وأنت تعلم أنهم لا يحسنون السباحة؟ والبئر المذكورة تعلم أن ماءها غزير؛ فكيف تتركهم ينزلون فيها وحدهم، وأنت لست معهم؟!.

فقال: هكذا قضاء الله وقدره.

فغضب عليه غضباً لا يشبه الأولين، وكاد الغضب أن يقتله. وكل واحد ـ من هؤلاء الذين وكلهم على ما ذكرنا ـ يزداد غضبه عليه، إذا قال له: هذا قضاء الله وقدره.

فحينئذ قال له صاحبه: يا عجباً يا فلان! كيف قابلت هؤلاء المذكورين بهذا الغضب البليغ، ولم تعذرهم حين اعتذروا بالقدر، بل زاد هذا الاعتذار في جرمهم عندك؛ وأنت مع ربك ـ في أحوالك المخجلة ـ قد سلكت مسلكهم، وحذوت حذوهم؟!.

فإن كان لك عذر: فهم من باب أولى أعذر وأعذر؛ وإن كانت أعذارهم تشبه التهكم والاستهزاء: فكيف ترضى أن تكون مع ربك هكذا؟!.

فانتبه الجبري حينئذ، وصحا بعد ما كان غارقاً في غلوه. وقال: الحمد لله الذي أنقذني مما كنت فيه، وجعل لي موعظة وتذكيراً من هذه الوقائع التي وقعت لي، ولمست فيها غلطي الفاحش.

والآن أعتقد: أن ما حصل لي من نعمة الهداية إلى الحق، أعظم عندي من هذه المصائب الكبيرة. كما تحققت فيها قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا

شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ؛ وَعَسَى أن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

* * *

(المثال الرابـع): مخاصمة بين القدري والجبري.

طال الخصام بين قدري يعتقد: أن أفعال العباد لا تتعلق بها مشيئة الله؛ وبين جبري يعتقد: ضد ذلك، وأنهم مجبورون على أفعالهم، واقعة بغير اختيارهم. لأنهما متباعدان في طرفي نقيض.

فاتفقا على التحاكم إلى عالم من علماء أهل السنة: يعرفان كمال معرفته، وكمال دينه.

فقال السني: ليعرض كل منكما عليَّ مقالته؛ ولكما علي: أن أدقق الحكم بينكما وأن أرد ما مـع كل واحد: من باطل؛ وأثبت ما معه: من الحق.

فقال القدري: أنا أقول: «إن الله حكم عدل، لا يظلم من عباده أحداً»؛ ومن مقتضى إثباتي لهذا الأصل، أني أنـزه ربـي عن أن تكون الفواحش الواقعة من العباد واقعة بمشيئة الله؛ بل العبد هو الذي تجرأ عليها، وهو الذي فعلها استقلالاً.

وأدلتي على هذا: جميـع النصوص الدالة على أن الله ليس بظالم لعباده مثقال ذرة، وأنه حكم عدل. لأن تعلق مشيئته بأفعالهم، ثم تعذيبهم عليها ــ ظلم من جهتين: [ظلم] من جهة إضافتها إلى مشيئته، وظلم من جهة كيف يعذبهم على أمر هو الذي شاءه وقدره؟!.

---

(١) سورة البقرة: (٢/٢١٦).

ثم إني لو قلت: إنها واقعة تحت مشيئة الله؛ لأبطلت بذلك أمر الله ونهيه. بل في ذلك إبطال للشرع.

فأنا ما رأيت السلامة من هذا المحذور المحظور، إلا بهذه الطريقة العادلة التي يرتضيها كل عاقل منزه لله.

فقال الجبري: أنا أقول: «إن الله على كل شيء قدير، وإنه خالق كل شيء؛ وإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»؛ قضايا: لا يمكن مسلماً أن ينكرها ولا ينازع فيها.

وهذا عموم: لا يخرج عنه حادثة. ومن أعظم الحوادث أفعال العباد: من طاعات، ومعاصٍ، وغيرها.

فلو أنها خارجة عن قدرة الله ومشيئته، لم يكن الله قديراً على كل شيء، ولا خالقاً لكل شيء. ومقتضى ذلك: أن العباد مجبورون على أفعالهم، غير مختارين لها. لأنهم لو اختاروها وفعلوها حقيقة، لخرجت عن مشيئة الله وقدرته.

فتعين القول بالجبر وأنهم مجبورون مقسورون على أفعالهم: قد نفذت فيهم مشيئة الله، وصرفتهم الإرادة.

وأدلتي على قولي هذا: جميع النصوص المثبتة لعموم خلق الله ومشيئته وقدرته؛ وأني لو قلت: إن العبد فاعل حقيقة لفعله؛ لأخرجت هذا القسم عن مشيئة الله وقدرته.

فقال الحاكم السني: لقد وضح كل واحد منكما مذهبه توضيحاً كاملاً؛ واستدل كل واحد منكما بأدلة لا يمكن المنازعة فيها: لكثرتها ووضوحها. ولكن كل واحد منكما لم ينظر المسألة من جميع نواحيها؛ بل لحظ جانباً، وعمي عن الجانب الآخر. وكثير من الأغلاط يأتي من هذا السبب.

وسأحكم بينكما بحكم: يستند على الكتاب والسنة، ويستند إلى العقل والفطرة. وسأقنـع كل واحد منكما: إن كان قصده طلب الحقيقة.

أما أنت ـ أيها القدري ـ فأصبت بقولك: إن أفعال العباد كلها من كسبهم وكلها من فعلهم؛ طاعاتها ومعاصيها، وغيرها من أفعالهم. وأصبت في استدلالك عليها: بأن الله نسبها وأضافها إليهم. وأصبت في تَبَرِّيك من قول يلزم منه إسقاط الأمر والنهي؛ وهو: الجبر.

ولكنك أخطأت خطأً كبيراً، حيث زعمت: أن مشيئة الله وقدرته، لا تعلق لها بأفعال العباد.

فنفيت عموم النصوص الدالة على هذا الأصل؛ وظننت: أن إثبات عموم الخلق والمشيئة لله، ينافي كون الأفعال الصادرة من العبـاد تكون باختيارهم، ومن كسبهم.

وهذا الظن غلط محض. بل المؤمن العارف يجمـع بين الأمرين: يثبت لله تعالى أنه خالق كل شيء: من الأعيان، والأوصاف، والأفعال. وأنه ـ مـع ذلك ـ الأفعال صادرة منهم حقيقة.

وأما أنت ـ أيها الجبري ـ فلقد أصبت بإثباتك: أن الله على كل شيء قدير، وأنه خالق كل شيء؛ وأنه ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن. وأصبت في هذا الاستدلال.

ولكنك أخطأت خطأً كبيراً، حيث زعمت: أن من لوازم إثبات عموم مشيئة الله، أن العبد مجبور على أفعاله: لم تقـع بمشيئته. وظننت: أن إثبات عموم القدر يقتضي منك أن تقول هذا القول.

* * *

ثم قال السني ـ أيضاً ـ لهما: لقد قال كل منكما قولاً ممزوجاً حقه

بباطله؛ وسأحكم بينكما بحكم: يتضمن إثبات ما مع كل منكما: من حق؛ وإبطال ما مع كل منكما: من باطل.

وقد دل على هذا الحكم عدة نصوص؛ منها قوله تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أن يَسْتَقِيمَ؛ وَمَا تَشَاؤونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة حكمت بينكما: فإن الله أثبت للعبد مشيئة بها يفعل ويسلك الصراط المستقيم، أو يدعه باختياره ومشيئته. وأخبر: أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، غير خارجة عنها. فمشيئة الله عامة: لا يخرج عنها شيء؛ ومع ذلك فالعباد هم الذين يعملون ويطيعون ويعصون.

ومع أن هذا هو الذي دلت عليه النصوص الشرعية ــ: من الكتاب والسنة. ــ فهو الذي يدل عليه العقل والواقع والحس. فإن الله خلق العبد، وخلق ما فيه: من جميع الأوصاف والقوى. ألستما تعترفان بذلك، وكل عاقل يعترف به؟!.

قالا: بلى.

قال السني: فإن من جملة أوصاف العبد ــ التي خلقها الله فيه ــ أنه أعطاه قدرة ومشيئة يتمكن بهما من كل ما يريده ــ: من خير وشر، وطاعة ومعصية. ــ وبهما تقع طاعاته ومعاصيه. وتعلمان: أن العبد متى أراد أمراً من الأمور التي يقدر عليها، فعله بتلك القدرة والإرادة اللتين خلقهما الله فيه.

فإذا أوقع العبد بهما فعلاً من أفعاله، دخلت[2] تحت عموم قدر الله. لأن خالق السبب التام ــ الذي هو قدرة العبد وإرادته ــ خالق للمسبب؛ يعني: لما

---

(١) سورة التكوير: (٨١/٢٨ ــ ٢٩).

(٢) كذا بالأصل؛ وهو صحيح: وإن كان الأولى حذف التاء.

يصدر عنهما. وكل منكما يعترف: أن الله خالق قدرة العبد ومشيئته؛ كما خلق جميع قواه الظاهرة والباطنة.

فإذا اتفقتما على هذا القول الذي هو الصواب ـ بما عرف من دلالة النصوص الشرعية عليه، وأنه هو المعقول المحسوس ـ: عاد الأمر إلى الوفاق.

فليتبرأ كل منكما من الباطل الذي معه، وليعترف بالحق الذي مع صاحبه.

ليتبرأ الجبري من اعتقاده: أن العبد مجبور مقهور على أفعاله؛ وليعترف: أنها واقعة بكسبه وفعله حقيقة.

وليتبرأ القدري من اعتقاده: أن أفعاله غير داخلة تحت مشيئة الله، وغير شامل لها خلق الله وقدره. وليعترف: بعموم خلق الله، وشمول قدره.

والحمد لله الذي بين الصواب، ووفق من شاء من عباده لاتباعه. ﴿وَاللَّهُ يَهدِي مَن يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيمٍ﴾[1].

***

(المثال الخامس): في الآجال والأرزاق.

اعلم: أن الآجال والأرزاق ـ كسائر الأشياء ـ مربوطة بقضاء الله وقدره. فالله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ ﴿وَلِكلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ؛ فإذا جَاءَ أَجَلُهُمْ: لا يَسْتَأخِرُونَ سَاعَةً؛ وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2].

فهذا أمر لا ريب فيه ولا شك. ومع ذلك، فهي ـ أيضاً ـ كغيرها: لها

---

(١) انظر: هامش ما تقدم (ص ٢٦).

(٢) اقتباس من سورة الأعراف: (٧/٣٤).

أسباب دينية، وأسباب طبيعية مادية، والأسباب تبع قضاء الله وقدره. ولو كان شيء سابق القضاء والقدر ــ من الأسباب ــ: لسبقته العين؛ لقوتها ونفوذها.

فمن الأسباب الدينية لطول العمر، وسعة الرزق ــ: لزوم التقوى والإحسان إلى الخلق، لا سيما الأقارب. كما ثبت في الصحيحين عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: (مَنْ أحَبَّ أنْ يبسط لَهُ في رِزْقِهِ، وَيُنْسَأ لَهُ فِي أَثَرِهِ [أي: يُطِيلَ عمُرَه]: فليَصِلْ رَحِمَهُ)[1].

وذلك: أن الله يجازي العبد من جنس عمله؛ فمن وصل رحمه: وصل الله أجله ورزقه، وصلاً حقيقياً. وضده: من قطع رحمه، قطعه الله: في أجله، وفي رزقه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّـهَ: يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[2].

ومن الأسباب الدينية لقطع طول العمر: البغي والظلم للعباد. فالباغي سريع المصرع، والظالم لا يغفل الله عن عقوبته، وقد يعاقبه عاجلاً بقصم العمر.

ومن الأسباب الدينية لمحق الرزق: المعاملات المحرمة كالربا[3] والغش، وأكل أموال الناس بالباطل. فصاحبها يظن ــ بل يجزم ــ: أنها توسع عليه[4] الرزق. ولهذا تجرأ عليها. والله تعالى يعامله بنقيض قصده. قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا، وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[5].

(١) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٧ ــ ٣٨).
(٢) سورة الطلاق: (٦٥/٢).
(٣) بالأصل: «بالربا»، ولعله مصحف عما أثبتناه وإن كان يمكن تصحيحه بجعل الباء تصويرية.
(٤) بالأصل: «عليها»، وهو تحريف.
(٥) سورة البقرة: (٢/٢٧٦).

فالمعاملة بالربا تمحق صاحبها، وتمحق ماله. وإن تمتع به قليلاً، فمآله إلى المحق والقل. كما أن المتصدق يفتح الله له ــ: من أبواب الرزق. ــ ما لا يفتحه على غيره. كما قال النبي ﷺ[1]: (ما نقصت صدقة من مال، بل تزيده [ثلاثاً]).

وكذلك الغش وأكل أموال اليتامى والأوقاف بغير حق ــ: من أكبر أسباب المحق؛ مع ما على صاحبها: من الإثم والعقوبة.

***

ومن أسباب طول العمر وقصره الطبيعية ــ: الصحة، والمرض.

فالعافية من الأسقام سبب لطول العمر؛ كما أن الأمراض بأنواعها سبب لقصره.

والمسكن والبقعة: إذا كانت صحيحة طيبة الهواء، صارت من أسباب عافية أهلها وطول أعمارهم. والعكس بالعكس: البقاع الرديئة المناخ والهواء، أو البقاع الوبيئة ــ سبب لقصر العمر، كما هو شاهد.

والتوقي عن المخاطر والمهالك، واستعمال الأسباب الواقية ــ فائدتها في طول العمر ظاهرة. والإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وسلوك المخاطر، وكل أمر فيه خطر ــ سبب ظاهر للهلاك. والأمثلة في هذا كثيرة.

***

ومن الأسباب المادية في حصول الرزق وسعته ــ: استعمال المكاسب النافعة. وهي كثيرة متنوعة: كل أحد يناسب له منها ما يوافقه ويحسنه، ويليق بحاله. كما قال تَعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلولاً؛ فَامْشُوا فِي

(١) من حديث تمامة ــ بعد قوله: مال. ــ : «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا؛ وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». وقد أخرج من طريق أبي هريرة: في صحيح مسلم (٢١/٨ أو ١٤١/١٦ من الشرح)، والترمذي (١٨٤/٨)، ومسند أحمد على ما في الجامع الصغير (١٥٢/٢). وانظر: فيض القدير للمناوي (٥٠٣/٥ ــ ٥٠٤)، والمصابيح (٩١/١) ولم يرد في شيء منها قوله: «بل تزيده» إلخ.

مَنَاكِبِهَا، وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ؛ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[1]. فيدخل في هذا العمل جميع الأسباب النافعة. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا؛ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾[2]؛ إلى غير ذلك: من الآيات.

وكل هذه الأمور تابعة لقضاء الله وقدره. فإن الله تعالى قدر الأمور بأسبابها: فالأسباب والمسببات من قضاء الله وقدره ولهذا لما قالوا للنبي ﷺ: (يا رسول الله؛ أرأيت أدوية نتداوى بها، وتُقاةً نتقيها، ورُقى نسترقيها؛ هل ترد من قضاء الله وقدره شيئاً؟)؛ فقال: (هي من قضاء الله وقدره)[3].

وكذلك: الأدعية المتنوعة سبب كبير لحصول المطلوب، والسلامة من المرهوب. وقد أمر الله بالدعاء، ووعد بالإجابة. والدعاء نفسه، والإجابة كلها داخلة في القضاء والقدر.

وقد جمع النبي ـ ﷺ ـ الأمر، بالعمل بكل سبب نافع، مع الاستعانة بالله. كما ثبت في الصحيح ـ مرفوعاً ـ: (آحْرِصْ علَى ما ينفَعُكَ، وآسْتَعِنْ باللَّهِ)[4].

فهذا أمر بالحرص على الأسباب النافعة في الدين والدنيا، مع الاستعانة بالله. لأن هذه: الاستقامة. وذلك: لأن الانحراف من أحد أمور ثلاثة: إما أن لا يحرص على الأمور النافعة؛ بل: يكسل عنها، وربما اشتغل بضدها. أو يشتغل بها، ولكن: يتكل على حوله وقوته، وينظر إلى الأسباب، ويعلق جميع قلبه بها، وينقطع عن مسببها. أو لا يشتغل بالأسباب النافعة، ويزعم: أنه متوكل على الله. فإن التوكل لا يكون إلا بعد العمل بالأسباب.

فهذا الحديث بين فيه النبي ـ ﷺ ـ الطرق النافعة للعباد.

***

---

(١) سورة الملك: (٦٧/١٥).

(٢) سورة البقرة: (٢/٢٦٧). وانظر: آية ٢٥٤ و٢٦٥ منها.

(٣) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٤ و ٣٥).

(٤) انظر: ما تقدم وهامشه (ص ٣٨).

ولنقتصر على هذا: فإنه يحصل به المقصود. والله أعلم؛ وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

***

قال ذلك وكتبه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، آل سعدي. غفر الله له ولوالديه وجميـع المسلمين.

وافق الفراغ منه: في ٣٠ ربيـع الثاني، سنة ١٣٧٦ هـ.

وتم نقله بيد راجي عفو ربه: محمد السليمان البسام؛ في ٢٢ جمادي الأول، سنة ١٣٧٦هـ.

***

الحقّ الواضح المُبين



الحقّ الواضح المُبين

في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين

من الكافية الشافية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين * اللهم يسّر وأعِن؛ يا كريم!

الحمد لله رب العالمين * وأشهد أنه الإلّه الحق الملك المبين * وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين * اللّهم صلِّ على محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

أما بعد، فقد كنت وضعت شرحاً على توحيد الأنبياء والمرسلين من (الكافية الشافية) للمحقق شمس الدين بن القيم رحمه الله، أطلت فيه وأكثرتُ فيه من النقول عن كتب المؤلف، فبدا لي أن ألخِّصه بشرح متوسط يأتي بأغراضه ومقاصده، ويحتوي على المهم من مسائله وفوائده، وأرجو الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، نافعاً لكاتبه وقارئه، إنه جواد كريم.

قال المصنف رحمه الله:

عبد الرحمٰن بن ناصر آل سعدي

فصل في توحيد الأنبياء والمرسلين
ومخالفته لتوحيد الملاحدة والمعطِّلين

وهذا التوحيد هو التوحيد على الحقيقة الذي لا يستحق هذا الاسم غيره، وهو التوحيد الوحيد في ذاته وحقيقته وأدلته وبراهينه وآثاره الجميلة وثمراته الجزيلة، وهو التوحيد الذي بعث الله به جميع رسله، وأنزل لأجله كتبه، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لإقامته، وأقام الأدلة العقلية والنقلية والآفاقية والنفسية على صحته وكماله ووجوبه، وتعينه طريقاً للنجاة من شرور الدنيا والآخرة، ووسيلة إلى السعادة والفلاح، وهو الذي لا يحصل للقلوب زكاة ولا سرور ولا طمأنينة ولا إيمان صحيح ويقين إلّا به؛ وهو الأصل والأساس لجميع الأعمال، وهو التوحيد الذي عليه خيار الخلق وأكملهم عقولاً وأزكاهم نفوساً وأجمعهم للمحاسن، وهم جميع الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى ومصابيح الدجى وأصحابهم وأتباعهم، ونَبَذَه وزهد فيه كل ملحد ومعطّل، ممن فسدت أديانهم ومَرَجت عقولهم واكتسبوا شر الأخلاق، وممّن خالفوا الأنبياء في طريقهم وتوحيدهم في الدليل والمدلول. فتوحيد الأنبياء مشتمل على الحق والصدق المزكِّي للنفوس المطهِّر للأخلاق؛ وأدلته كل دليل عقلي صريح وكل دليل نقلي صحيح، وتوحيد الملاحدة والمعطلين مشتمل على أبطل الباطل مؤيد بالشُّبَهِ التي هي على جهل أصحابها وفساد عقولهم وأفهامهم من أكبر الأدلة، ولهذا قال المصنف:

فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثم آجعله داخل كفة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان

وذلك أن الشيء يعرف بضدِّه، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ومعرفة ما يضادّه من الباطل؛ فإنك إذا وزنت ـ بميزان العقل الحقيقي والفطر السليمة التي لم تتغير والبراهين الدالّة على الحقائق ـ توحيد الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطلين، وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل. وكيف يوزن توحيد المعطلين الملحدين المشتمل على مسبّة رب العالمين، ووصفه بكل صفة ناقصة، ونفي حقائق أوصافه الكاملة، والافتراء عليه وعلى كتبه ورسله، وجعل المخلوق الناقص من جميع الوجوه مساوياً للخالق الكامل في أسمائه وصفاته من جميع الوجوه، بتوحيد الأنبياء والمرسلين المحتوي على تعظيم رب العالمين وتقديسه وتمجيده، والثناء عليه بأكمل الثناء ووصفه بكل صفة كمال، وتنزيهه عن التشبيه والتمثيل، وعن مشاركة المخلوقات في خصائص صفاته المقدسة وكماله العظيم؟ وكيف يوزن توحيدٌ يرقى أصحابه إلى أعلى عليين، بتوحيد النفاة الذي ينزل بأهله إلى أسفل سافلين، أم كيف يوزن توحيدٌ يجعل من اتصف بها هادياً مهديًّا وطاهراً مرضيًّا، بتوحيد يكسب أهله الضلال والإضلال وأرذل الخصال، ويفضي بهم إلى الشقاء الأبدي:

توحيدهم نوعان قوليٌّ وفعـ ـلي كلا نوعيه ذو برهان

يعني أن توحيد الأنبياء ينقسم قسمين: أحدهما التوحيد الفعلي، وهو إفراد الله بالمحبة والذل وسائر العبادات والتقرّبات، ويأتي آخر الفصول، وهو المسمّى (توحيد العبادة وتوحيد الإلـهية)، وسمي توحيداً فعليّاً لأنه متضمن لأفعال القلوب والجوارح، فهو توحيد الله بأفعال العبيد، وأنه لا يتخذ له شريك ولا نديد. والثاني التوحيد القولي الاعتقادي، وهو المشتمل على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان والثناء على الله بتوحيده. وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه (توحيد الربوبية). وكل واحد من النوعين له براهين وأدلة عقلية ونقلية، فبدأ المصنف بالتوحيد القولي فقال:

فـالأول القـوليّ ذو نـوعين أيـضـاً في كتـاب الله مـوجـودان
إحـداهمـا سلب وذا نـوعـان أيـضـاً فيـه حقـاً فيـه مـذكـوران
سلبُ النقـائص والعيوب جميعهـا عنـه همـا نـوعـان معقـولان

يعني أن التوحيد القولي على نوعين موجودين في كتاب الله وكذلك في السنة: أحدهما سلب، أي نفيٌ للنقائص والعيوب عن الله تعالى، والثاني إثبات صفات الكمال لله تعالى، كما سيأتي إن شاء الله. وبدأ بالسلب لأنه وسيلة ومقصود لغيره، فإن المقصود الأعظم من التوحيد إثبات صفات المدح والحمد، وكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص، فإنه متضمن للمدح وللثناء على الله، بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة. وهذا السلب على قسمين ذكرهما المصنف بقوله:

سلب لمتصـل ومنفـصـل همـا نـوعـان معـروفـان أمـا الثـاني
سلب الشريك مـع الظهير مـع الشفيـع بـدون إذن الخـالق الـديّـان
وكذاك سلب الزوج والولد الـذي نسبـوا إليـه عـابـدو الصلبـان
وكذاك نفي الكفو أيضاً والولي لنا سوى الرحمٰن ذي الغفران

يعني أن ما ينزه الله عنه من النقص نوعان: سلب لمتصل، وضابطه نفي ما يناقض ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة. وسلب لمنفصل، وضابطه تنزيه رب العالمين عن أن يشاركه أحد من الخلق في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد والتفرد بالكمال وأن يفرد بالعبودية، وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته وإلاهيته، فإنه متفرد بالملك والقدرة والتدبير، فليس له في ذلك شريك وليس له أيضاً ظهير أي معين يعاونه على خلق شيء من المخلوقات أو تدبيرها، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وعجز المخلوقين وعدم حولهم وقوّتهم إلا بالله، فالشريك والظهير منفيّان عنه مطلقاً وأما الشفيع فإنه من عظمته وكمال ملكه ينزه عن أن يشْفَع عنده أحد إلاّ بإذنه.

وأما الشفاعة عنده بإذنه من الأنبياء والأصفياء لأهل الجرائم فإنها ثابتة كما أثبتها في عدة مواضع من كتابه، وذلك لأنها دالة على كمال رحمته وعموم إحسانه، فإنها من رحمته بالشافع والمشفوع له، فالشافع ينال بها الأجر والثناء من الله ومن خلقه، والمشفوع له يرحمه الله على يد من أذن له بالشفاعة فيه. ومع هذا فلا يأذن لأحد أن يشفع إلا فيمن رضي قوله وعمله، وهو من كان مخلصاً لله متابعاً لرسول الله، قال تعالى نافياً مشاركة أحد له في الأمور الثلاثة: الملك والشركة فيه، والمعاونة، والشفاعة بغير إذنه:

﴿قلِ ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وَمَا لَهُ منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذِنَ له﴾ [سورة سبأ: الآيتان ٢٢، ٢٣]

فقطع بهذه الآية كل سبب يتوسل به المشركون لدعوة غيره، وبَيّن أن من كان بهذا الوصف ـ لا ملك له بوجه من الوجوه، ولا شركة في الملك، ولا معاونة ومظاهرة فيه، وليس له شفاعة بدون إذن الله ـ لا يستحق من العبادة مثقال ذرة. وكذلك ينزه الله عن اتخاذ الزوجة والولد الذي نسبه إليه عبادُ الصُّلبان حيث قالوا: إن المسيح ابن الله؛ وكذلك عباد الأوثان، إذ قالوا: الملائكة بنات الله؛ فكذب الله كلَّ من زعم أن له زوجة أو ولداً فقال:

﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص: الآيات ١ ـ ٤]

وقال: **﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾**
[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

وقال: **﴿بديعُ السماوات والأرض أنّى يكون له ولدٌ ولم تكن له صاحبةٌ وَخَلَقَ كلَّ شيء وهو بكل شيء عليم﴾** [سورة الأنعام: الآية ١٠١]

إلى غير ذلك من الآيات النافية عن الله أن يتخذ صاحبة أو ولداً أو شريكاً لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الغني الذي لا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه

من الوجوه، ولأنه المالك لكل شيء وكل الخلق مملوكون له فقراء إليه، فمن كان كذلك فكيف يتخذ الصاحبة والولد؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً:

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتخِرُّ الجبال هدًّا * أن دَعَوْا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً * إنْ كلُّ من في السماوات والأرضِ إلاّ آتي الرحمن عَبْدا﴾ [سورة مريم: الآيات ٨٨ ـ ٩٣]

وقول المصنف: «نسبوا إليه عابدو الصلبان»: هذا على لغة من يلحق الفعل المسند إلى الظاهر علامة التثنية والجمع، وهي لغة ضعيفة تحمل عليها الضرورة، واللغة الفصحى أن يفرد الفعل المسند إلى الظاهر مطلقاً فيقال: نسب إليه عابدو الصلبان. قوله: «وكذاك نفي الكفو أيضاً» أي يجب ويتعين أن ينفي أن يكون أحد مكافئاً لله في كماله وحقوقه، قال تعالى:

﴿ولم يكن له كفواً أَحَدُ﴾ [سورة الإخلاص: الآية ٤]

﴿هل تعلم له سميا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٥]

﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٢]

﴿ليس كمثله شيء﴾ [سورة الشورى: الآية ١١]

فليس أحد مكافئاً لله أي مساوياً له في الأسماء والصفات ولا في الأفعال، لأنه الخالق الكامل من كل وجه، وسواه مخلوق ناقص إن لم يكمِّله ربه بكمال المخلوق اللائق به، فليس لأحد صفات تقارب صفات الله ولا أفعال تشبه أفعال الله، بل ليس لأحد من الخلق استقلال بفعل شيء أصلاً حتى يعينه الله على أفعاله، ولهذا كانت أفعال العباد تابعة لمشيئة الله مع وقوعها بإرادتهم وقدرتهم، فخالق القدرة والإرادة خالق ما يكون بهما، قال تعالى في بيان الأصلين:

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله رب العالمين﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

ومما ينفي عن الله وينزه عنه أنه ليس لنا وليّ سواه يجلب لنا المنافع ويدفع عنّا المضار، فليس لنا ولي سواه، فإنه تولى خلقنا ورزقنا وتدبيرنا وتربيتنا العامة والخاصة. فالولاية العامة ولاية الخلق والتدبير الشاملة للبَرِّ والفاجر قال تعالى:

﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ [سورة الكهف: الآية ٢٦]

﴿فما له من ولي من بعده﴾ [سورة الشورى: الآية ٤٤]

والولاية الخاصة ولايته للمؤمنين المتقين يخرجهم بها من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، قال تعالى:

﴿ألَا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾

[سورة يونُس: الآيات ٦٢ ــ ٦٤]

وقال تعالى: **﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾**

[سورة البقرة: الآية ٢٥٧]

وكذلك لم يتخذ من خلقه وليًّا من الذُّل لكمال اقتداره وغناه وعظمته، وإنما يتخذ منهم أولياء رحمةً بهم وإحساناً إليهم يحبهم ويحبونه. والحاصل أنه ليس أحد مساوياً لله تعالى أو مماثلاً أو معيناً أو وزيراً أو محتاجاً إليه بوجه من الوجوه.

والأول التنزيه للرحمن عن وصف العيوب وكل ذي نقصان
كالموت والإعياء والتعب الذي ينفي اقتدار الخالق الديان
والنوم والسِّنَةِ التي هي أصله وعزوب شيء عنه في الأكوان

هذا القسم الأول من قسمي السلب المنفي عن الله، وهو التنزيه لله عن أن يتصف بعيب أو نقص يناقض لكمال أوصافه، فهو موصوف بكل صفة

كمال، منزَّه عن ضدها وعن نقصها، فهو موصوف بكمال الحياة وبكمال القدرة، منزه عما يضادّها من الموت والإعياء والتعب واللغوب، فإنه لو كان موصوفاً بشيء من هذا النقص لكان ناقص القدرة، قال تعالى:

﴿وتوكّل على الحيّ الذي لا يموت﴾ [سورة الفرقان: الآية ٥٨]

﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [سورة قٓ: الآية ٣٨]

ومنزه أيضاً عما يضادّ الحياة والقيومية من النوم والنعاس وهو السِّنَة، قال تعالى:

﴿الله لا إله إلاّ هو الحي القيوم، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوم﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

وقال النبي ﷺ: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام)، وكذلك هو موصوف بالعلم المحيط بكل شيء، يعلم ما في السماوات والأرض، ويعلم ما يُسِرُّ العباد وما يعلنون، منزَّه عما ينافي ذلك، فلا يعزب ولا يغيب عن علمه وبصره وسمعه شيء في السماوات والأرض. قال تعالى:

﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾

[سورة آل عمران: الآية ٥]

وقال تعالى: ﴿عالِمِ الغيبِ لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ﴾ [سورة سبأ: الآية ٣]

وكـذلك العبث الـذي تنفيـه حكـمتـه وحمـد الله ذي الإتـقـان
وكذاك ترك الخلق إهمالاً سدىً لا يـبـعـثـون إلـى مـعـادٍ ثـان
كـلّا ولا أمـر ولا نـهـي عـليـهـم مـن إلّـه قـادر ديّـان

أي وكذلك يجب تنزيه الله عن العبث في الخلق والأمر، فلم يخلق شيئاً عبثاً ولا باطلاً، ولا شَرَع شيئاً إلا لحكمة عظيمة لأنه حكيم حميد، فمن

تمام حكمته وحمده إتقان المصنوعات وإحكامها وإحكام الشرائع على أكمل وجه وأتمه، وهذا مشاهد في خلقه وشرعه؛ ومن تمام حكمته أنه لم يخلق خلقه سُدًى لا يؤمرون ولا يُنْهَوْن ولا يثابون ولا يعاقبون على تلك الأوامر والنواهي، فالحكمة والحمد دالان على أنه خلق المكلفين لينفذ فيهم أحكامه الشرعية ويبتليهم بالأوامر والنواهي. ثم بعد ذلك يبعثهم بعد موتهم إلى دار تجري فيها عليهم أحكام الجزاء والثواب والعقاب، قال تعالى:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملكُ الحقُّ لا إله إلاّ هو رب العرش الكريم﴾

[سورة المؤمنون: الآيتان ١١٥، ١١٦]

وقال تعالى: **﴿أيحسَبُ الإنسان أن يُترك سُدىٰ * ألم يك نُطفةً من مَنِيٍّ يمنىٰ * ثم كان علقة فخلق فسوَّى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيِي الموتى﴾**

[سورة القيامة: الآيات ٣٦ ــ ٤٠]

فالذي نقله في هذه الأطوار لا يليق به أن يتركه هملاً مهملاً لا يؤمر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يعاقب.

وكــذاك ظلم عبــاده وهــو الـغــــــــنيّ فمـا لـه والـظلم لـلإنســان

أي وكذلك ينزَّه الباري عن الظلم للعباد، بـأن يزيـد في سيئاتهم أو ينقص من حسناتهم، أو يعاقبهم على ما لم يفعلوا؛ فإن الظلم لا يفعله إلاّ من هو محتاج إليه، أو من هو موصوف بالجور، وأما الله الغني عن خلقه من جميـع الوجوه، الحَكَم العَدْل الحميد، فما له وظلم العباد، قال الله تعالى:

﴿وما ربك بظلاّم للعبيد﴾ [سورة فصلت: الآية ٤٦]

وقال: **﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإنْ تَكُ حسنة يضاعفْها﴾**

[سورة النساء: الآية ٤٠]

﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾
[سورة طه: الآية ١١٢]

وقال على لسان نبيه: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرَّماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وكذاك غفلته تعالى وهو علام الغيوب فظاهر البطلان
وكذلك النسيان جلّ إلهنا لا يعتريه قط من نسيان
وكذاك حاجته إلى طعم ورزق وهو رزّاق بلا حسبان

أي كذلك ينزه عن الغفلة والنسيان بوجه من الوجوه لأنه عالم الغيب والشهادة، وعلمه محيط لا يعرض له ما يعرض لعلم المخلوق من خفاء بعض المعلومات أو نسيانها والذهول عنها، قال تعالى:

﴿قال علمُها عند ربي في كتاب لا يضلُّ ربي ولا ينسى﴾
[سورة طه: الآية ٥٢]

وكذلك ينزه عن احتياجه إلى الطعام والرزق فإنه تعالى هو الرزاق لجميع الخلق الغني عنهم وكلهم فقراء إليه قال تعالى:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدونِ * ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أُريد أن يطعمونِ * إنَّ الله هو الرزاقُ ذو القوة المتين﴾
[سورة الذّاريات: الآيات ٥٦ ـ ٥٨]

﴿وهو يُطعِم ولا يُطعَم﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٤]

هذا وثاني نوعي السلب الذي هو أول الأنواع في الأوزان
تنزيه أوصاف الكمال له عن التشبيه والتمثيل والنكران
لسنا نشبه وصفه بصفاتنا إن المشبه عابد الأوثان
كلا ولا نخليه من أوصافه إن المعطّل عابد البهتان
من مثَّل الله العظيم بخلقه فهو النسيب لمشرك نصراني
أو عطل الرحمن من أوصافه فهو الكفور وليس ذا إيمان

هذا النوع الثاني من نوعي السلب الذي ينزَّه الله عنه الذي هو أول النوعين: الثبوتي والسلبي في الميزان، أي في هذه القصيدة؛ وتقدم النوع الأول من قسمي السلب، وهو السلب المتصل والمنفصل المتضمن تنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشاركة أحد من الخلق له في صفاته الخاصة به وعما يناقض كماله، وهذا النوع يرجع إلى حفظ كماله ونعوت جلاله عن تشبيهها بصفات الخلق، فلا يقال: علمُ الله أو قدرة الله كعلم الخلق أو قدرتهم، ولا رحمته كرحمة خلقه، فإن ذلك تشبيه لله بالخلق، ومن قال بهذا فإنه يمثل بفكره صنماً ووثناً يعبده كما فعل النصارى بالمسيح بن مريم: جعلوه إلّهَهم ومعبودهم، فالمشبّه نسيب أي مشابه للنصراني. وأما رب العالمين فهو فوق ما يظنون، وأعلى مما يتوهمون، فإنه كما أن ذاته لا تشبهها ذوات المخلوقين فصفاته لا تشبهها صفاتهم. وينزه عن تعطيل صفاته ونفيها كما فعلته الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين، فإن ذلك رد لنصوص الكتاب والسُّنّة الدالة على اتصافه بصفات الكمال، فيتوهم المعطّل أن ظاهر النصوص يدل على التشبيه، فينفيها بوهمه الفاسد، ويصير قلبه متعبِّداً للعدم المحض والنفي الصِّرف، فإنه كفر بآيات الله، وتكذيب للرسل، وردّ لما جاؤوا به. ولهذا قال المصنف «فهو الكفور وليس ذا إيمان» وسيأتي إن شاء الله كلام المصنف في الكلام على الجهمية وغيرهم من أهل البدع.

وبالجملة فالناس في هذا المقام ثلاثة أقسام: مؤمن موحد، ومشبِّه، ومعطِّل. فالمؤمن الموحِّد يصف الله بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الكمال على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته من غير تمثيل ولا تشبيه، ومن غير تحريف ولا تعطيل لشيء من أوصاف الله. والمشبِّه هو الذي يشبِّه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها غير الله. والمعطِّل هو من نفى شيئاً من صفات الله. وكلٌّ من المعطِّل والمشبِّه قد حُرِم الوصول إلى معرفة الله على وجهها، وابتلي بالتكلّف والتحريف لنصوص الوحي، وكما أنه مناقض للوحي فهو مناقض لما دلت عليه

العقول والفطر التي لم يطرأ عليها التغير، فلا معقول لديهم ولا منقول. وهدى الله أهل السنّة والجماعة لاتِّباع الحق المنقول عن الله وعن رسله، والمعقول لذوي الألباب، وذلك يظهر بتدبّر ما عليه هذه الطوائف في المسائل والدلائل وتحقيقها، ونسأل الله الهداية لأقوم الطرق.

فصل في النوع الثاني من النوع الأول وهو الثبوت

وهذا أشرف النوعين وأجلهما، وهو المقصود لذاته، ومجمله ما ذكره المصنّف في هذا البيت:

هــذا ومن تـوحيــدهم إثبـاتُ أو   صـاف الكمـال لـربِّنـا الـرحمن

أي من توحيد الأنبياء والمرسلين وأتباعهم أن يعترفوا ويثبتوا لله كل صفة للرحمن وردت في الكتب الإلّهية، وثبتت في النصوص النبوية، يتعرّفون معناها ويعقلونه بقلوبهم، ويتعبدون لله تعالى بعلمها واعتقادها، ويعملون بما يقتضيه ذلك الوصف من الأحوال القلبية والمعارف الربانية. فأوصاف العظمة والكبرياء والمجد والجلال تملأ قلوبهم هيبةً لله وتعظيماً له وتقديساً؛ وأوصاف العزّ والقدرة والجبروت تخضع لها القلوب وتذل وتنكسر بين يدي ربها؛ وأوصاف الرحمة والبر والجود والكرم تملأ القلوب رغبة وطمعاً فيه وفي فضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وأوصاف العلم والإحاطة توجب للعبد مراقبة ربه في جميع حركاته وسكناته، ومجموع الصفات المتنوعة الدالة على الجلال والجمال والإكرام تملأ القلوب محبة لله وشوقاً إليه، وتوجب له التألّه والتعبّد والتقرّب من العبد إلى ربه بأقواله وأفعاله، بظاهره وباطنه، بقيامه بحقه وقيامه بحقوق خلقه. وبهذه المعاني الجليلة وتحقيقها يرجى للعبد أن يدخل في قوله ﷺ: (ان لله تسعة وتسعين آسماً مَنْ أحصاها دخل الجنة) متفق عليه. فإحصاؤها فهمُها وعقلُها والاعتراف بها والتعبد لله بها. ثم شرع يفصلها فقال:

كعلوه سبحانه فوق السماوات العلى بل فوق كل مكان
فهو العليّ بذاته سبحانه إذ يستحيل خلاف ذا ببيان
وهو الذي حقاً على العرش استوىٰ قد قام بالتدبير للأكوان

أما علوّ الباري تعالى فوق جميع المخلوقات ومباينته لها فقد دلّ عليهما العقل والفطرة، مع النصوص الكثيرة المتواترة، فإنه علا بذاته فوق مخلوقاته، ويستحيل أن لا يكون عليًّا. فإنه يمتنع أن يكون حالاً في المخلوقات، فيتعين أن يكون فوقها مبايناً لها؛ وأما استواؤه على العرش العظيم فيستفاد من النقل: الكتاب والسنة. قال تعالى:

﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [سورة طَه: الآية ٥]

في عدة مواضع، وأخبر أنه العليّ الأعلى، وأنه فوق عباده في مواضع كثيرة.

وقد سئل الإمام مالك، رحمه الله، عن الاستواء فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب». وهكذا يجاب عن جميع ما أخبره الله به عن نفسه وأخبر عنه رسوله، فكما أنه تثبت لله صفاته العظيمة على الوجه اللائق بجلاله وعظمته، فالاستواء على العرش من جملة أوصافه، فاستوى على العرش واحتوى على الملك، يدبّر الأمر في أقطار العالم العلوي والسفلي، كما جمع بين الأمرين في قوله:

﴿**ثم استوى على العرش يدبر الأمر**﴾ [سورة يونُس: الآية ٣]

حيٌّ مريد قادر متكلم ذو رحمة وإرادة وحنان

أي هو تعالى حيٌّ حياة كاملة جامعة لجميع صفات الذات، ومن كمال حياته أنه كامل القدرة نافذ الإرادة والمشيئة. وجمع المؤلف بين القدرة والإرادة وهي المشيئة لأن جميع صفات الأفعال المتعلقة بذاته: كالاستواء على العرش، ونزوله إلى سماء الدنيا على ما وردت به النصوص، والمجيء والإتيان والقول ونحو ذلك، والمتعلقة بخلقه كالإحياء والإماتة والخَلق وأنواع

التدبيرات كلها تصدر عن القدرة والإرادة، فما وُجد عُلم أن الله أراده، وما لم يوجد علم أن الله لم يرده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حولَ ولا قوة لأحد إلاّ به لشمول إرادته وكمال قدرته. وقوله «متكلم» أي لم يزل ولا يزال بالكلام موصوفاً، فيكلم بما أراد كيف أراد وحيث أراد:

﴿وتمت كلمة ربك صِدقاً وعَدْلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

وسيأتي إن شاء الله القول في الكلام «ذو رحمة وحنان» أي قد اتصف بالرحمة وعم خلقه بالنعم وشملهم بالكرم والبر والحنان والجود والامتنان.

هو أوَّل هو آخر هو ظاهر ... هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده ... شيء تعالى الله ذو السلطان
ما فوقه شيء كذا ما دونه ... شيء وذا تفسير ذي البرهان
فانظر إلى تفسيره بتدبُّرٍ ... وتبصّر وتعقّل لِمعان
وانظر إلى ما فيه من أنواع معـ ... ـرفة لخالقنا العظيم الشان

أي هذا التفسير لهذه الأسماء الأربعة المباركة قد فسّرها به النبي ﷺ بقوله: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) إلى آخر الحديث، ففسر كل اسم بمعناه العظيم، ونفى عنه ما يضادّه وينافيه. فتدبَّرْ هذه المعاني الجليلة الدالة على تفرُّد الرب العظيم بالكمال المطلق والإحاطة المطلقة الزمانية في قوله «الأول والآخر» والمكانية في «الظاهر والباطن» فالأول يدلّ على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويوجب للعبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية، إذ السبب والمسبب منه تعالى؛ والآخر يدل على أنه هو الغاية والصَّمَد الذي تصمد إليه المخلوقات بتألُّهها ورغبتها ورهبتها وجميع مطالبها؛ والظاهر يدلّ على عظمة صفاته واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذواتٍ وصفاتٍ وعلى علوِّه؛ والباطن يدلّ على اطلاعه على السرائر والضمائر والخبايا والخفايا ودقائق الأشياء، كما يدل على

كمال قربه ودنوِّه. ولا يتنافى الظاهر والباطن لأن الله ليس كمثله شيء في كل النعوت.

وهو العليُّ فكل أنواع العلوِّ له فثابتة بلا نكران

في القرآن من أسمائه الحسنى: «العليّ، الأعلىٰ» وذلك دالٌّ على أن جميع معاني العلوّ ثابتة لله من كل وجه، فله علوّ الذات فإنه فوق المخلوقات، وعلى العرش استوى، أي علا وارتفع. وله علو القدر وهو علوّ صفاته وعظمتها فلا يماثله صفة مخلوق، بل لا يقدر الخلائق كلهم أن يحيطوا ببعض معاني صفة واحدة من صفاته، قال تعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ [سورة طٰه: الآية ١١٠].

وبذلك يعلم أنه ليس كمثله شيء في كل نعوته. وله علو القهر، فإنه الواحد القهّار، الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه، وذلك لكمال اقتداره ونفوذ مشيئته وشدة افتقار المخلوقات كلها إليه من كل وجه.

وهو العظيم بكل معنى يوجب التعظيم لا يحصيه من إنسان

يريد: أن الله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم، فلا يقدر مخلوق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده.

واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان: أحدهما أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكملُه وأعظمُه وأوسعُه؛ فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة؛ ومن عظمته أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ذلك ابن عباس وغيره، وقال تعالى:

﴿وما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْره والأرضُ جميعاً قبضتُه يومَ القيامة والسماواتُ مطويَّات بيمينه﴾ [سورة الزمر: الآية ٦٧]

وقال: ﴿إن الله يُمسك السماواتِ والأرض أَنْ تزولا ولَئِن زالتا إن أَمسكهما مِنْ أحدٍ من بعده﴾ [سورة فاطر: الآية ٤١]

وقال تعالى وهو العلي العظيم: ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ [سورة الشورى: الآية ٥].

وفي الصحيح عنه ﷺ أن الله يقول: (الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذّبته).

فللّه تعالى الكبرياء والعظمة، الوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما. النوع الثاني من معاني عظمته تعالى أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يُعظَّم كما يعظم الله فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته والذل له والانكسار له والخضوع لكبريائه والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه وقيام الجوارح بشكره وعبوديته. ومن تعظيمه أن يُتَّقى حق تقاته، فيطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى ويُشكر فلا يكفر. ومن تعظيمه تعظيم ما حرَّمه وشَرَعه من زمان ومكان وأعمال:

﴿ذلك ومن يُعظِّمْ شعائر الله فإنها من تَقْوَى القلوب﴾
[سورة الحج: الآية ٣٢]

و ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾
[سورة الحج: الآية ٣٠]

ومن تعظيمه أن لا يعترض على شيء مما خلقه أو شرعه.

وهو الجليل فكل أوصاف الجلا ... ل له محققة بلا بطلان
وهو الجميل على الحقيقة كيف لا ... وجمال سائر هذه الأكوان
من بعض آثار الجميل فربُّها ... أولى وأجدر عند ذي العرفان

فجماله بالذات والأوصاف والأفعال والأسماء بالبرهان
لا شيء يشبه ذاته وصفاته سبحانه عن إفك ذي بهتان

يعني أن الله تعالى هو «الجليل» الذي له أوصاف الجلال، وهي أوصاف العظمة والكبرياء، ثابتة محققة لا يفوته منها وصف جلال وكمال، وكذلك هو «الجميل» بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن مخلوقاً أن يعبر عن بعض جمال ذاته، حتى أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم واللذات والسرور والأفراح التي لا يقدر قدرها إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نَسُوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، ووَدُّوا أن لو تدوم هذه الحال، واكتسبوا من جماله ونوره جمالاً إلى جمالهمْ، وكانت قلوبهم في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بيوم المزيد فرحاً تكاد تطير له القلوب. وكذلك هو الجميل في أسمائه فإنها كلها حسنى بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها، قال تعالى:

﴿ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٨٠]

وقال تعالى: ﴿هل تعلم له سميًّا﴾ [سورة مريم: الآية ٦٥]

فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره. وكذلك هو الجميل في أوصافه، فإن أوصافه كلها أوصافُ كمال ونعوتُ ثناء وحمد، فهي أوسع الصفات وأعمها وأكثرها تعلُّقاً، خصوصاً أوصاف الرحمة والبر والكرم والجود. وكذلك أفعاله كلها جميلة، فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويُثنى عليه ويشكر وبين أفعال العدل التي يحمد عليها لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سَفَه ولا سُدى ولا ظلم، كلها خير وهدى ورحمة ورشد وعدل:

﴿إن ربي على صراطٍ مستقيم﴾ [سورة هود: الآية ٥٦]

فلكماله الذي لا يحصي أحد عليه به ثناء كملت أفعاله كلها فصارت أحكامه أحسن الأحكام، وصنعه وخلقه أحسن خلق وصنع: أتقن ما صنعه

﴿صُنعَ الله الذي أتقن كل شيء﴾ [سورة النمل: الآية ٨٨]

وأحسن ما خلقه: ﴿الذي أحسن كل شيء خَلَقَه﴾ [سورة السجدة: الآية ٧]

﴿ومَنْ أَحْسَنُ من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٠]

ثم استدلّ المصنِّف بدليل عقلي على جمال الباري، وأن الأكوان محتوية على أصناف الجمال، وجمالها من الله تعالى فهو الذي كساها الجمال وأعطاها الحُسْن، فهو أولى منها لأن معطي الجمال أحق بالجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة باطني وظاهري، خصوصاً ما يعطيه المولى لأهل الجنة من الجمال المفرط في رجالهم ونسائهم، فلو بدا كف واحدة من الحور العين إلى الدنيا لطمس ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، أليس الذي كساهم ذلك الجمال ومنّ عليهم بذلك الحسن والكمال أحقَّ منهم بالجمال الذي ليس كمثله شيء؟ فهذا دليل عقلي واضح مسلّم المقدمات على هذه المسألة العظيمة وعلى غيرها من صفاته قال تعالى:

﴿ولله المثلُ الأعلى﴾ [سورة النحل: الآية ٦٠]

فكل ما وجد في المخلوقات من كمال لا يستلزم نقصاً فإن معطيه، وهو الله، أحق به من المعطىٰ بما لا نسبة بينه وبينهم، كما لا نسبة لذواتهم إلى ذاته وصفاتهم إلى صفاته، فالذي أعطاهم السمع والبصر والحياة والعلم والقدرة والجمال أحقُّ منهم بذلك، وكيف يعبر أحد عن جماله وقد قال أعلم الخلق به: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)، وقال: (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فسبحان الله وتقدّس عما يقوله الظالمون النافون لكماله علواً كبيراً. وحسبهم مقتاً وخساراً أنهم حُرِموا من الوصول إلى معرفته والابتهاج بمحبته.

وجمع المؤلف بين الجليل والجميل، لأن تمام التعبد لله هو التعبد بهذين الاسمين الكريمين، فالتعبد بالجليل يقتضي تعظيمه وخوفه وهيبته

وإجلاله، والتعبد باسمه الجميل يقتضي محبته والتألّه له، وأن يبذل العبد له خالص المحبة وصفو الوداد، بحيث يسيح القلب في رياض معرفته وميادين جماله، ويبتهج بما يحصل له من آثار جماله وكماله فإن الله ذو الجلال والإكرام.

وهو المجيدُ صفاته أوصاف تعـظيم فشأن الوصف أعظم شان

«المجيد» الذي له المجد العظيم، والمجد هو عظمة الصفات وسعتها، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه: فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يُعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته.

وهو السميع يرى ويسمع كل ما في الكون من سِرٍّ ومن إعلان
ولكل صوت منه سمع حاضر فالسرُّ والإعلان مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا يخفى عليه بعيدها والدّاني
وهو البصير يرى دبيب النملة السوداء تحت الصخر والصوّان
ويرى مجاري القوت في أعضائها ويرى نياطَ عروقها بعَيان
ويرى خيانات العيون بلحظها ويرى كذلك تقلبَ الأجفان

هذه الأبيات في شرح هذين الاسمين الكريمين «السميع، البصير» وكثيراً ما يقرن الله بينهما مثل قوله:

﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٤]

فكل من السمع والبصر محيط بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها: سرَّها وعلنها، وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسِّر والعلانية عنده سواء:

﴿سواءٌ منكم من أَسَرَّ القولَ ومن جَهَر به ومن هو مُستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار﴾ [سورة الرعد: الآية ١٠]

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوُرَكما إن الله سميع بصير﴾ [سورة المجادلة: الآية ١]

قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشتكي إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب الحجرة وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها، فأنزل الله:

﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾... الآية.

وسَمْعُه تعالى نوعان: أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، وإحاطته التامة بها. الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين فيجيبهم ويثيبهم، ومنه قوله تعالى:

﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٩]

وقول المصلي «سمع الله لمن حمده» أي استجاب.

ثم قال المصنف «وهو البصير» أي الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفى ما يكون فيها: فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيرت العقول في عظمة وسعة متعلقات صفاته وكمال عظمته ولطفه وخبرته بالغيب والشهادة والحاضر والغائب؛ ويرى خيانات الأعين وتقلّبات الأجفان، وحركاتِ الجنان، قال تعالى:

﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلُّبَكَ في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ [سورة الشعراء: الآيات ٢١٨ ـ ٢٢٠]

﴿يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفي الصدور﴾ [سورة غافر: الآية ١٩]

﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ [سورة الحج: الآية ١٧]

أي مطّلع ومحيط علمه وبصره وسمعه بجميع الكائنات.

وهو العليم أحاط علماً بالذي ... في الكون من سرٍّ ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذاك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجودَ في ذا الآن
وكذاك أمر لم يكن لو كان كيف ... يكون ذا إمكان

هذا تفسير لاسمه «العليم» بأحسن تفسير وأجمعه، فهو العليم المحيط علمه بكل شيء: بالواجبات والممتنعات والممكنات، فيعلم تعالى نفسه الكريمة ونعوته المقدسة وأوصافه العظيمة، وهي الواجبات التي لا يمكن إلا وجودها، ويعلم الممتنعات حال امتناعها، ويعلم ما يترتب على وجودها لو وُجدت. كما قال تعالى:

﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٢٢]

وقال تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٩١]

فهذا وشبهه من ذكر علمه بالممتنعات التي يعلمها، وإخباره بما ينشأ عنها لو وجدت على وجه الفرض والتقدير، ويعلم تعالى الممكنات، وهي التي يجوز وجودها وعدمها، ما وجد منها وما لم يوجد، مما لم تقتض الحكمة إيجاده، فهو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي والسفلي، لا يخلو عن علمه مكان ولا زمان، ويعلم الغيب والشهادة والظواهر والبواطن، والجلي والخفي. قال الله تعالى:

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٣١]

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جدًّا لا يمكن حصرها وإحصاؤها، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء

ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وانه لا يغفل ولا ينسى، وأن علوم الخلائق على سعتها وتنوعها إذا نسبت إلى علم الله اضمحلت وتلاشت كما أن قُدَرهم إذا نسبت إلى قدرة الله لم يكن لها نسبة إليها بوجه من الوجوه، فهو الذي علَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وأقدرهم على ما لم يكونوا عليه قادرين. وكما أن علمه محيط بجميع العالم العلوي والسفلي وما فيه من المخلوقات ذواتها وأوصافها وأفعالها وجميع أمورها فهو يعلم ما كان وما يكون في المستقبلات التي لا نهاية لها، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم وبعد ما يميتهم وبعد ما يحييهم، قد أحاط علمه بأعمالهم كلها خيرها وشرها وجزاء تلك الأعمال وتفاصيل ذلك في دار القرار.

فصـــل

وهـو الحميـد فكـل حمـد واقـع	أو كـان مفـروضاً مـدى الأزمـان
مـلأ الـوجـود جميعـه ونـظيـره	من غيـر مـا عـدٍّ ولا حسبـان
هـو أهله سبـحـانـه وبحـمـده	كل المحامد وصف ذي الإحسان

هذا تفسير لاسمه «الحميد» فذكر أنه حميد من وجهين:

أحدهما: أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، فكل حمد وقع من أهل السماوات والأرض، الأولين منهم والآخرين، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة، وكل حمد لم يقع منهم بل كان مفروضاً ومقدراً حيثما تسلسلت الأزمان واتصلت الأوقات، حمداً يملأ الوجود كله: العالم العلوي والسفلي، ويملأ نظير الوجود من غير عدٍّ ولا إحصاء، فإن الله تعالى مستحقّه من وجوه كثيرة: منها أن الله هو الذي خلقهم ورزقهم وأسدىٰ عليهم النعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، وصرف عنهم النقم والمكاره، فما بالعباد من نعمة فمن الله، ولا يدفع الشرور إلاّ هو، فيستحق منهم أن يحمدوه في جميع الأوقات، وأن يثنوا عليه ويشكروه بعدد اللحظات.

الوجه الثاني: أنه يحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والمدائح والمحامد والنعوت الجليلة الجميلة، فله كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل الحمد والثناء فكيف بجميع الأوصاف المقدسة، فله الحمد لذاته، وله الحمد لصفاته، وله الحمد لأفعاله لأنها دائرة بين أفعال الفضل والإحسان، وبين أفعال العدل والحكمة التي يستحق عليها كمال الحمد، وله الحمد على خلقه وعلى شرعه وعلى أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكام الجزاء في الأولى والآخرة، وتفاصيل حمده وما يحمد عليه لا تحيط بها الأفكار ولا تحصيها الأقلام.

فصـــل

وهـو الـمكـلِّم عـبـده مـوسـى بـتـكـليـم الـخـطاب وقـبـلـه الأبَـوَان
كلمـاتـه جلت عن الإحصـاء والتـــــعداد بل عن حصـر ذي الحسبان
لـو أن أشجار البـلاد جميعها الأقـــــلام تـكـتـبـهـا بـكـل بـنـان
والبحـــر تلقى فيـه سبعـة أبحـر لكتـابـة الكلمـات كـل زمـان
نَفِـدَت ولم تنفَـدْ بهـا كلمـاتـه ليس الكـلام مـن الإلَـه بفـان

يعني أنه تبارك وتعالى متكلم إذا شاء وكيف شاء، ولم يزل ولا يزال بصفة الكلام معروفاً موصوفاً، وكلامه تعالى من صفاته الذاتية الفعلية غير مخلوق كسائر صفات أفعاله، قال الله تعالى:

﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ [سورة النساء: الآية ١٦٤]

وذكر كلامه للأبوين في عدة مواضع من كتابه. قال تعالى:

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾

[سورة لقمان: الآية ٢٧]

﴿قلْ لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنَفِدَ البحر قبل أن تنفَدَ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ [سورة الكهف: الآية ١٠٩]

فالكلام متعلقاته عامة عظيمة، يتكلم تعالى بما يتعلق بذاته وصفاته وأفعاله وبما يتعلق بجميع مخلوقاته، بالأحكام القدرية والأحكام الشرعية وأحكام الجزاء، وكلماته كلها عدل وصدق: صدق في الأخبار، ومَنْ أصدق من الله قيلًا، وعدل في الأوامر والنواهي؛ والقرآن العظيم من أجلِّ كلامه وأشرفه وأعلاه، وكذلك الكتب التي أنزلها على رسله، ويكلم عباده؛ وتكليمه إياهم نوعان:

نوع بلا واسطة، كما كلّم موسى بن عمران ﷺ والأبوين، وكما خاطب محمداً ﷺ ليلة أسري به إليه، وكما يخاطب أهل الموقف وأهل الجنة في الجنة حين يرونه ويكلمهم ويكلمونه.

والنوع الثاني تكليمه لعباده بواسطة إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولاً يكلمهم من أمره بما يشاء. وقد ذكر الله هذه الأنواع في قوله:

﴿وما كان لبشرٍ أن يكلمَه اللَّهُ إلاّ وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذْنه﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١]

واعلم أن صفة الكلام من صفاته الذاتية من حيث تعلُّقُها وقيامُها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية من حيث تعلقها بقدرته ومشيئته، فإذا كان من المعلوم أن الله لم يزل ولا يزال كامل القدرة نافذ المشيئة عُلم أنه لم يزل ولا يزال متكلِّماً إذا شاء، لأن الكلام من أعظم صفات الكمال التي يستحيل نفيها عن الله تعالى، وكلماته غير متناهية فلا تفنى ولا تبيد، ولم يقدر الله حق قدره من زعم أن كلامه مخلوق في جملة المخلوقات التي تنتهي، وتصور هذا القول كافٍ في ردّه.

وهو القدير فليس يعجزه إذا ما رام شيئاً قط ذو سلطان

وهو القويّ له القوى جمعاً تعـ	ـالى الله ذو الأكـوان والسلطان
وهـو العـزيـز فلن يُرام جنـابـه	أنَّى يـرام جنـاب ذي السلطان
وهـو العزيـز القاهـر الغـلاب لم	يـغـلبـه شـيء هـذه صفـتـان
وهـو العـزيـز بقـوة هي وصفـه	فـالعـز حيـنئـذ ثـلاث معـان
وهي التي كملت لـه سبحـانـه	من كـل وجه عـادم النقصـان

هذه الأسماء الثلاثة العظيمة «القدير، القوي، العزيز» معانيها متقاربة؛ فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة:

﴿**إن العزة لله جميعاً**﴾ [سورة يونُس: الآية ٦٥]

فمعاني العزة الثلاثة كلها كاملة لله العظيم: عزة القوة الدالّ عليها من أسمائه القوي المتين، وهي وصفة العظيم الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت. وعزة الامتناع، فإنه هو الغني بذاته فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضُرَّه فيضرونه ولا نفعه فينفعونه، بل هو الضار النافع المعطي المانع. وعزة القهر والغلبة لكل الكائنات، فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حولَ ولا قوة إلا به. فمن قوته واقتداره أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وأنه خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم ثم إليه راجعون:

﴿**ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنَفْس واحدة**﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٨]

﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾

[سورة الروم: الآية ٢٧]

ومن آثار قدرته أنك ترى الأرض هامدة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ومن آثار قدرته ما أوقعه بالأمم المكذبين والكفار الظالمين من أنواع العقوبات وحلول المثلات، وأنه لم يغن عنهم كيدهم ومكرهم ولا أموالهم ولا جنودهم ولا حصونهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك، وما زادوهم غير تتبيب، وخصوصاً في هذه الأوقات، فإن هذه القوة

الهائلة والمخترعات الباهرة التي وصلت إليها مقدرة هذه الأمم هي من إقدار الله لهم وتعليمه لهم ما لم يكونوا يعلمونه، فمن آيات الله أنّ قُواهم وقُدَرهم ومخترعاتهم لم تغنِ عنهم شيئاً في صدٍّ ما أصابهم من النكبات والعقوبات المهلكة، مع بذل جدهم واجتهادهم في توقِّي ذلك، ولكن أمر الله غالب، وقدرته تنقاد لها عناصر العالم العلوي والسفلي.

ومن تمام عزّته وقدرته وشمولهما أنه كما أنه هو الخالق للعباد فهو خالق أعمالهم وطاعتهم ومعاصيهم، وهي أيضاً أفعالهم، فهي تضاف إلى الله خلقاً وتقديراً وتضاف إليهم فعلاً ومباشرة على الحقيقة، ولا منافاة بين الأمرين، فإن الله خالق قدرتهم وإرادتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب، قال تعالى:

﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [سورة الصافات: الآية ٩٦]

ومن آثار قدرته ما ذكره في كتابه من نصره أولياءَه على قلة عَددهم وعُدد على أعدائهم الذين فاقوهم بكثرة العدد والعُدة، قال تعالى:

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾

[سورة البقرة: الآية ٢٤٩]

ومن آثار قدرته ورحمته ما يحدثه لأهل النار وأهل الجنة من أنواع العقاب وأصناف النعيم المستمر الكثير المتتابع الذي لا ينقطع ولا يتناهى.

وهو الغني بذاته فغناه ذا ... تيٌّ له كالجود والإحسان

قال الله تعالى: **﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾** [سورة فاطر: الآية ١٥]

فهو تعالى **﴿الغني﴾** الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه، لكماله وكمال صفاته التي لا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيّاً فإن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا محسناً جواداً بَرًّا رحيماً كريماً، والمخلوقات بأسرها لا تستغني عنه في حال من أحوالها، فهي مفتقرة إليه في إيجادها وفي بقائها وفي كل ما تحتاجه أو تضطر إليه. ومن سعة غناه

أن خزائن السماوات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خَلْقه متواصل في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار.

ومن كمال غناه وكرمه أنه يأمر عباده بدعائه ويعدهم بإجابة دعواتهم وإسعافهم بجميع مراداتهم ويؤتيهم من فضله ما سألوه وما لم يسألوه، ومن كمال غناه أنه لو اجتمع أول الخلق وآخرهم في صعيد واحد فسألوه فأعطى كلًّا منهم ما سأله وما بلغت أمانيُّه ما نقص من ملكه مثقال ذرة. ومن كمال غناه وسعة عطاياه ما يبسطه على أهل دار كرامته من النعيم واللذات المتتابعات والخيرات المتواصلات، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولا شريكاً في الملك ولا وليّاً من الذل، فهو الغني الذي كمل بنعوته وأوصافه، المُغْني لجميع مخلوقاته.

وهو الحكيم وذاك من أوصافه ... نوعان أيضاً ما هما عدمان
حكم وأحكام فكل منهما نوعـ ... ـان أيضاً ثابِتَا البُرهان
والحكم شرعيٌّ وكونيٌّ ولا يتـ ... ـلازمان وما هما سيان
بل ذاك يوجد دون هذا مفرداً ... والعكس أيضاً ثم يجتمعان
لن يخلوَ المربوبُ من إحداهما ... أو منهما بل ليس ينتفيان
لكنما الشرعي محبوب له ... أبداً ولن يخلو من الأكوان
هو أمره الديني جاءت رسله ... بقيامه في سائر الأزمان
لكنما الكوني فهو قضاؤه ... في خلقه بالعدل والإحسان
هو كله حق وعدل ذو رضىً ... والشأن في المقضيِّ كل الشان
فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ... ـمقضيَّ حين يكون بالعصيان
فالله يرضى بالقضاء ويسخط الـ ... ـمقضيَّ ما الأمران متحدان

فقضاؤه صفة به قامت وما الـ ـمقضِيُّ إلا صنعة الرحمن
هذا البيان يزيل لبساً طالما هلكت عليه الناس كل زمان
ويحلُّ ما قد عقدوا بأصولهم وبحوثهم، فافهمه فهم بيان
من وافق الكونيَّ وافق سخطه إن لم يوافق طاعة الديان
فلذاك لا يعدوه ذم أو فوا ت الحمد مع أجر ومع رضوان
وموافق الديني لا يعدوه أجـ ـر بل له عند الصواب اثنان

فصل

والحكمة العليا على نوعين أيـ ـضاً حصلا بقواطع البرهان
إحداهما في خلقه سبحانه نوعان أيضاً ليس يفترقان
إحكام هذا الخلق إذ إيجاده في غاية الإحكام والإتقان
وصدوره من أجل غايات له وله عليها حمد كل لسان
والحكمة الأخرى فحكمة شرعه أيضاً وفيها ذانك الوصفان
غاياتها اللائي حمدن وكونها في غاية الإتقان والإحسان

أي هو تعالى (الحكيم) الموصوف بكمال الحكمة وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم والاطلاع على مبادىء الأمور وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

وحكمته نوعان: **أحدهما الحكمة في خلقه**، فإنه خلق الخلق بالحق ومشتملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل

أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات وكل عضوٍ من أعضاء الحيوانات خلقته وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً ولا نقصاً ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن والانتظام والإتقان لم يقدروا، وأنّى لهم القدرة على شيء من ذلك وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن والإتقان. وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته وكمال صفاته وتتبع حكمه في الخلق والأمر، وقد تحدّى عباده وأمرهم أن ينظروا ويكرّروا النظر والتأمل: هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً؟ وأنه لا بد أن ترجع الأبصار كليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد ويعبدوه، فأي حكمة أجل من هذا، وأي فضل وكرم أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى وعبادته وحده لا شريك له وإخلاص العمل له وحمده وشكره والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق، وأجل الفضائل لمن يمن الله عليه بها، وأكمل سعادة وسرور للقلوب والأرواح، كما أنها هي السبب الوحيد للوصول إلى السعادة الأبدية والنعيم الدائم، فلو لم يكن في أمره وشرعه إلا هذه الحكمة العظيمة التي هي أصل الخيرات، وأكمل اللذات، ولأجلها خلقت الخليقة وحق الجزاء وخلقت الجنة والنار، لكانت كافية شافية.

هذا وقد اشتمل شرعه ودينه على كل خير، فأخباره تملأ القلوب علماً ويقيناً وإيماناً وعقائد صحيحة، وتستقيم بها القلوب ويزول انحرافها، وتثمر كل خلق جميل وعمل صالح وهدى ورشد. وأوامره ونواهيه محتوية على غاية الحكمة والصلاح والإصلاح للدين والدنيا، فإنه لا يأمر إلاّ بما مصلحته خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما مضرّته خالصة أو راجحة.

ومن حكمة الشرع الإسلامي أنه كما أنه هو الغاية لصلاح القلوب والأخلاق والأعمال والاستقامة على الصراط المستقيم، فهو الغاية لصلاح الدنيا، فلا تصلح أمور الدنيا صلاحاً حقيقياً إلّا بالدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ، وهذا مشاهد محسوس لكل عاقل، فإن أمة محمد لما كانوا قائمين بهذا الدين، أصوله وفروعه، وجميع ما يهدي ويرشد إليه، كانت أحوالهم في غاية الاستقامة والصلاح، ولما انحرفوا عنه وتركوا كثيراً من هداه ولم يسترشدوا بتعاليمه العالية انحرفت دنياهم كما انحرف دينهم. وكذلك انظر إلى الأمم الأخرى التي بلغت في القوة والحضارة والمدنية مبلغاً هائلاً، لكن لما كانت خالية من روح الدين ورحمته وعدله كان ضررها أعظم من نفعها وشرها أكبر من خيرها، وعجز علماؤها وحكماؤها وساستها عن تلافي الشرور الناشئة عنها، ولن يقدروا على ذلك ما داموا على حالهم. ولهذا كان من حكمته تعالى أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن أكبر البراهين على صدقه وصدق ما جاء به، لكونه محكماً كاملاً لا يحصل الصلاح إلا به.

وبالجملة فالحكيم متعلقاته المخلوقات والشرائع، وكلها في غاية الإحكام، فهو الحكيم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية، والفرق بين أحكام القدر وأحكام الشرع أن القدر متعلق بما أوجده وكوّنه وقدّره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وأحكام الشرع متعلقة بما شرعه. والعبد المربوب لا يخلو منهما أو من أحدهما، فمن فعل منهم ما يحبه الله ويرضاه فقد اجتمع فيه الحكمان، ومن فعل ما يضادّ ذلك فقد وجد فيه الحكم القدري، فإن ما فعله واقع بقضاء الله وقدره ولم يوجد فيه الحكم الشرعي لكونه ترك ما يحبه الله ويرضاه. فالخير والشر والطاعات والمعاصي كلها متعلقة وتابعة للحكم القدري، وما يحبه الله منها هو تابع الحكم الشرعي ومتعلقه. والله أعلم.

وهـو الحَيِـيُّ فليس يفضح عبـده   عنـد التجاهـر منه بـالعصيـان
لـكـنـه يـلقـي عـليـه سـتـره   فهـو السـتيـر وصـاحب الغفـران

هذا مأخوذ من قوله ﷺ: (إن الله حييٌّ يستحيِي من عبده إذا مدَّ يديه إليه أن يردهما صُفْراً) وهذا من رحمته وكرمه وكماله وحلمه أن العبد يجاهره بالمعاصي مع فقره الشديد إليه حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقّوى عليها بنعم ربه، والرب مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتكه وفضيحته وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه ويغفر له، فهو يتحبب إلى عباده بالنعم وهم يتبغضون إليه بالمعاصي، خيره إليهم بعدد اللحظات وشرهم إليه صاعد، ولا يزال الملك الكريم يصعد إليه منهم بالمعاصي وكل قبيح. ويستحيي تعالى ممن شاب في الإسلام أن يعذبه وممن يمدّ يديه إليه، أن يردهما صُفراً، ويدعو عباده إلى دعائه ويعدهم بالإجابة وهو الحَيِيُّ الستير، يحب أهل الحياء والستر، ومن ستر مسلماً ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا يكره من عبده إذا فعل معصية أن يذيعها، بل يتوب إليه فيما بينه وبينه ولا يظهرها للناس، وإن من أمقت الناس إليه من بات عاصياً والله يستره فيصبح يكشف ستر الله عليه، وقال تعالى:

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ [سورة النور: الآية ١٩]

وهذا كله من معنى اسمه (الحليم) الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهلهم ليتوبوا، ولا يهملهم إذا أصروا واستمروا في طغيانهم ولم ينيبوا، ولهذا قال:

وهـو الحليم فـلا يعـاجـل عبـده   بعقـوبـة ليتـوب مـن عصيـان
وهـو العفـوُّ فعفـوه وَسِـعَ الـورىٰ   لـولاه غـار الأرض بـالـسكـان

يعني أنه تعالى (الحليم) الذي له الحلم الكامل، (العفوُّ) الذي له العفو الشامل، ومتعلق هذين الوصفين العظيمين معصية العاصين وظلم المجرمين، فإن الذنوب تقتضي ترتب آثارها عليها من العقوبات العاجلة المتنوعة، وحلمه تعالى يقتضي إمهال العاصين وعدم معاجلتهم ليتوبوا، وعفوه يقتضي مغفرة ما صدر منهم من الذنوب، خصوصاً إذا أتوا بأسباب المغفرة من الاستغفار والتوبة والإيمان والأعمال الصالحة، وحلمه وسع السماوات والأرض، فلولا عفوه ما ترك على ظهرها من دابّة، وهو تعالى عفوٌّ يحب العفوَ عن عباده، ويحب منهم أن يسعوا بالأسباب التي ينالون بها عفوه، من السعي في مرضاته والإحسان إلى خلقه. ومن كمال عفوه أن المسرفين على أنفسهم إذا تابوا إليه غفر لهم كل جرم صغير وكبير، وأنه جعل الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها.

وهو الصبور على أذىٰ أعدائه	شتموه، بل نسبوه للبهتان
قالوا له ولدٌ وليس يعيدنا	شتماً وتكذيباً من الإنسان
هذا وذاك بسمعه وبعلمه	لو شاء عاجلهم بكل هوان
لكن يعافيهم ويرزقهم وهم	يؤذونه بالشرك والكفران

وهذه الأبيات في تفسير اسمه (الصبور) مأخوذة من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم) وبما ثبت أيضاً في الصحيح قال الله تعالى: (كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته. وأما شتمه إياي فقوله إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)، فالله تعالى يدرّ على عباده الأرزاق المطيع

منهم والعاصي، والعصاة لا يزالون في محاربته وتكـذيبه وتكـذيب رسله والسعي في إطفاء دينه، والله تعالى حليم صبور على ما يقولون وما يفعلون، يتتابعون في الشرور وهو يتابـع عليهم النعم، وصبره أكمل صبر لأنه عن كمال قدرة وكمال غنى عن الخلق وكمال رحمة وإحسان، فتبارك الرب الرحيم الذي ليس كمثله شيء الصبور الذي يحب الصابرين ويعينهم في كل أمورهم.

وهو الرقيب على الخـواطر واللوا   حظ كيف بـالأفعـال بـالأركـان

(الرقيب) و(الشهيد) مترادفان، وكلاهما يدلّ على إحاطة سمـع الله بـالمسموعـات، وبصره بـالمبصرات، وعلمـه بجميـع المعلومات الجلية والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحظ، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان، قال تعالى:

﴿إنَّ الله كان عليكم رقيباً﴾، [سورة النساء: الآية ١]

﴿إنَّ الله على كل شيء شهيد﴾ [سورة الحج: الآية ١٧]

ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر وهاجس يبغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله، وتعبّد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه.

وهـو الحفيظ عليهم وهـو الكفيـ   ـل بحفـظهم من كل أمـر عـان

ذكر رحمه الله (للحفيظ) معنيين: أحدهما أنه قد حفظ على عباده ما عملوه من خير وشر وطاعة ومعصية، فإن علمه محيط بجميـع أعمالهم ظاهرها وباطنها، وقد كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ووكل بالعباد ملائكة كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، فهذا المعنى من حفظه يقتضي إحاطة علم الله بأحوال العباد كلها ظاهرها وباطنها وكتابتها في اللوح المحفوظ وفي

الصحف التي في أيدي الملائكة، وعلمه بمقاديرها وكمالها ونقصها ومقادير جزائها في الثواب والعقاب ثم مجازاته عليها بفضله وعدله. والمعنى الثاني من معنيي (الحفيظ) أنه تعالى الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، ولهذا قال: «وهو الكفيل بحفظهم من كل أمر عان»، أي مشقٍّ مكروه.

وحفظه لخلقه نوعان عام وخاص. فالعام، حفظه لجميع المخلوقات بتيسيره لها ما يقيتها ويحفظ بنيتها، وتمشى إلى هدايته وإلى مصالحها بإرشاده وهدايته العامة التي قال عنها:

﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ [سورة طه: الآية ٥٠]

أي هدى كل مخلوق إلى ما قدّر له وقضى له من ضروراته وحاجاته، كالهداية للمأكل والمشرب والمنكح، والسعي في أسباب ذلك، وكدفعه عنهم أصناف المكاره والمضارّ، وهذا يشترك فيه البرّ والفاجر، بل الحيوانات وغيرها، فهو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، ويحفظ الخلائق بنعمه، وقد وكل بالآدمي حفظة من الملائكة الكرام يحفظونه من أمر الله، أي يدفعون عنه كل ما يضره مما هو بصدد أن يضره لولا حفظ الله.

والنوع الثاني حفظه الخاص لأوليائه سوى ما تقدم، يحفظهم عما يضر إيمانهم أو يزلزل إيقانهم من الشبه والفتن والشهوات، فيعافيهم منها ويخرجهم منها بسلامة وحفظ وعافية، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم، قال الله تعالى:

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ [سورة الحج: الآية ٣٨]

وهذا عام في دفع جميع ما يضرّهم في دينهم ودنياهم، فعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الله عنه بلطفه، وفي الحديث: (احفظ الله يحفظك) أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعدّيها، يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله.

وهو اللطيف بعبده ولعبده   واللطف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بخبرة   واللطف عند مواقع الإحسان
فيريك عزته ويبدي لطفه   والعبد في الغفلات عن ذا الشان

يعني أن (اللطيف) من أسمائه الحسنى وهو الذي يلطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف لعبده في الأمور الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر. وهذا من آثار علمه وكرمه ورحمته، فلهذا كان معنى اللطيف أنه الخبير الذي أحاط علمه بالأسرار والبواطن والخبايا والخفايا ومكنونات الصدور ومغيبات الأمور وما لطف ودق من كل شيء. النوع الثاني لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه ويشمله بكرمه ويرقيه إلى المنازل العالية فييسره لليسرى ويجنبه العسرى ويجري عليه من أصناف المحن التي يكرهها وتشق عليه وهي عين صلاحه والطريق إلى سعادته، كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم وبالجهاد في سبيله، وكما ذكر الله عن يوسف ﷺ وكيف ترقت به الأحوال ولطف الله به وله بما قدّره عليه من تلك الأحوال التي حصل له في عاقبتها حسن العقبى في الدنيا والآخرة، وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون، ولهذا قال المصنف: «فيريك عزته» أي بامتحانك بما تكره، «ويبدي لطفه» في العواقب الحميدة السارة، فكم لله من لطف وكرم لا تدركه الأفهام ولا تتصوّره الأوهام، وكم استشرف العبد على مطلوب من مطالب الدنيا من ولاية أو رياسة أو سبب من الأسباب المحبوبة فيصرفه الله عنها ويصرفها عنه رحمة به لئلا تضره في دينه، فيظل العبد حزيناً من جهله وعدم معرفته بربه، ولو علم ما ذخر له في الغيب وأريد إصلاحه فيه لحمد الله وشكره على ذلك، فإن الله بعباده رؤوف رحيم لطيف بأوليائه، وفي الدعاء المأثور «اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم الطف بنا في قضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت».

فصــل

وهو الرفيق يحبّ أهل الرفق بـل يعـطيهم بـالـرفق فـوق أمـان

هذا قد أخذه المؤلف من قوله ﷺ في الحديث الصحيح: (إن الله رفيق يحب أهل الرفق) وأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، فالله تعالى رفيق في أفعاله، خلق المخلوقات كلها بالتدريج شيئاً فشيئاً بحسب حكمته ورفقه مع أنه قادر على خلقها دفعة واحدة وفي لحظة واحدة. ومن تدبر المخلوقات وتدبر الشرائع كيف يأتي بها شيئاً بعد شيء شاهد من ذلك العجب العجيب، فالمتأني الذي يأتي الأمور برفق وسكينة ووقار اتباعاً لسنن الله في الكون واتباعاً لنبيه ﷺ فإن هذا هديه وطريقه تتيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس ونهيهم وإرشادهم فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال البشعة وصان لسانه عن مشاتمتهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة والطمأنينة والرزانة والحلم.

وهـو القريب وقـربـه المختص بـــالــداعي وعـابـده على الإيمـان

من أسمائه (القريب)، وقربه نوعان: قرب عام وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. وقرب خاص بالداعين والعابدين المحبين، وهو قرب يقتضي المحبة والنصرة والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين. قال تعالى:

﴿وإذا سألك عبادِيْ عنّي فإنّي قريبٌ أجيبُ دعوة الداعي إذا دعانِ﴾

[سورة البقرة: الآية ١٨٦]

وهو المجيب يقول من يدعو أجبـــه أنـا المجيب لكـل من نـاداني

وهـو المجيب لدعـوة المضطر إذ يـدعـوه فـي سـر وفي إعـلان

من أسمائه (المجيب) لدعوة الداعين وسؤال السائلين وعبادة المستجيبين، وإجابته نوعان. إجابة عامة لكل من دعاه دعاء عبادةٍ أو دعاء مسئلة، قال تعالى:

﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]

فدعاء المسئلة أن يقول العبد اللهم أعطني كذا أو اللهم ادفع عني كذا، فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله فيه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية وبحسب ما تقتضيه حكمته. وهذا يستدل به على كرم المولى وشمول إحسانه للبر والفاجر، ولا يدل بمجرده على حسن حال الداعي الذي أجيبت دعوته إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه وعلى صدقه وتعيّن الحق معه، كسؤال الأنبياء ودعائهم لقومهم وعلى قومهم فيجيبهم الله، فإنه يدل على صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم على ربهم، ولهذا كان النبي ﷺ كثيراً ما يدعو بدعاء يشاهد المسلمون وغيرهم إجابته، وذلك من دلائل نبوّته وآيات صدقه، وكذلك ما يذكرونه عن كثير من أولياء الله من إجابة الدعوات فإنه من أدلة كراماتهم على الله. وأما الإجابة الخاصة فلها أسباب عديدة، منها دعوة المضطر الذي وقع في شدّة وكربة عظيمة، فإن الله يجيب دعوته قال تعالى:

﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ [سورة النمل: الآية ٦٢]

وسبب ذلك شدة الافتقار إلى الله وقوة الانكسار وانقطاع تعلقه بالمخلوقين، ولسعة رحمة الله التي يشمل بها الخلق بحسب حاجتهم إليها، فكيف بمن اضطر إليها، ومن أسباب الإجابة طول السفر والتوسل إلى الله بأحب الوسائل إليه من أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد على ولده أو له وفي الأوقات والأحوال الشريفة.

وهو الجواد فجوده عمَّ الوجو د جميعه بالفضل والإحسان
وهو الجواد فلا يخيب سائلاً ولو انه من أمة الكفران

يعني أنه تعالى (الجواد) المطلق الذي عم بجوده جميع الكائنات وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة، وخص بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال من بر وفاجر ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤاله وأناله ما طلب فإنه البر الرحيم:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله. ثم إذا مسَّكُمُ الضُّرُّ فإليه تَجْأَرون﴾

[سورة النحل: الآية ٥٣]

ومن جوده الواسع ما أعدّه لأوليائه في دار النعيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهو المغيث لكل مخلوقاته ... وكذا يجيب إغاثة اللهفان

(فالمغيث) يتعلق بالشدائد والمشقات، فهو المغيث لجميع المخلوقات عندما تتعسر أمورها وتقع في الشدائد والكربات: يطعم جائعهم ويكسو عاريهم ويخلص مكروبهم وينزل الغيث عليهم في وقت الضرورة والحاجة، وكذلك يجيب إغاثة اللهفان أي دعاء من دعاه في حالة اللهف والشدة والاضطرار، فمن استغاثه أغاثه. وفي الكتاب والسنة من ذكر تفريجه للكربات وإزالته الشدائد وتيسيره للعسير شيء كثير جداً معروف.

فصل

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنّان

وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحبٍّ ثان

هذا هو الإحسان حقًّا لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران

لكن يحب شَكورهم وشُكورهم ... لا لاحتياج منه للشكران

وهو الشكور فلن يضيع سعيهم ... لكن يضاعفه بلا حسبان

ما للعباد عليه حق واجب ... هو أوجبَ الأجر العظيم الشان

كلا ولا عمل لديه ضائع ... إن كان بالإخلاص والإحسان

إن عُذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله والحمد للمنّانِ

هذه الأبيات في تفسير (الودود الشكور) فالودود هو المحب المحبوب بمعنى وادّ وبمعنى مودود، فهو الواد لأنبيائه وملائكته وعباده المؤمنين، وهو المحبوب لهم بل لا شيء أحب إليهم منه، ولا تعادل محبة الله من أصفيائه محبة أخرى، لا في أصلها ولا في كيفيتها ولا في متعلقاتها، وهذا هو الفرض والواجب أن تكون محبة الله في قلب العبد سابقة لكل محبة، غالبة كل محبة، ويتعين أن تكون بقية المحابّ تبعاً لها.

ومحبة الله هي روح الأعمال، وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد ولا قوته فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه، جازاه الله بحب آخر، فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب، ليس المقصود منها المعاوضة وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم، فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد، فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب، وتسليهم عن الأحباب، وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات التي أعلاها محبة الله والفوز برضاه والأنس بقربه.

فمحبة العبد لربه محفوفة بمحبتين من ربه: فمحبة قبلها صار بها محباً لربه، ومحبة بعدها شكراً من الله له على محبة صار بها من أصفيائه المخلصين.

وأعظم سبب يكتسب به العبد محبة ربه التي هي أعظم المطالب الإكثار من ذكره والثناء عليه، وكثرة الإنابة إليه، وقوة التوكل عليه، والتقرب إليه

بالفرائض والنوافل، وتحقيق الإخلاص له في الأقوال والأفعال، ومتابعة النبي ﷺ ظاهراً وباطناً كما قال تعالى:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فٱتَّبعوني يُحْبِبْكُمُ الله﴾

[سورة آل عمران: الآية ٣١]

ومن أسمائه تعالى (الشَّاكر الشَّكورُ) الذي لا يضيع سعي العاملين لوجهه بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه بمضاعفة الحسنات الواحدة بعشر إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعينه ما يتحمل المتحملون لأجله ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئاً لأجله عوضه خيراً منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً، ولهذا قال المصنف:

ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشان

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعي لديه ضائع

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا سعي لديه ضائع إن كان بالإخلاص والإحسان

أي جامعاً للإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحاً كما قال في موضع آخر:

وقيام دين الله بالإخلاص والإحسان إنهما له أصلان

فما أصاب العباد من النعم ودفع النقم فإنه من الله تعالى فضلاً منه

وكرماً وإنْ نعّمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك.

فصل

وهو الغفور فلو أتى بقرابها	من غير شرك بل من العصيان
لاقاه بالغفران ملء قرابها	سبحانه هو واسع الإحسان
وكذلك التوّاب من أوصافه	والتَّوبُ في أوصافه نوعان
إذْنٌ بتوبة عبده وقبولها	بعد المتاب بمنة المنان

فهو تعالى (الغفور التواب) الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب، ففي الحديث: (إن الله يقول يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة، وقال تعالى:

﴿إنّ ربك واسع المغفرة﴾ [سورة النجم: الآية ٣٢]

وقد فتح الله الأسباب لنيل مغفرته بالتوبة والاستغفار والإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى عباد الله والعفو عنهم وقوة الطمع في فضل الله وحسن الظن بالله وغير ذلك مما جعله الله مقرباً لمغفرته.

وتوبته على عبده نوعان: أحدهما أنه يوقع في قلب عبده التوبة إليه والإنابة إليه، فيقوم بالتوبة وشروطها من الإقلاع عن المعاصي والندم على فعلها والعزم على أن لا يعود إليها واستبدال عملٍ صالحٍ بها. الثاني توبته على عبده بقبولها وإجابتها ومحو الذنوب بها فإن التوبة النصوح تجبّ ما قبلها.

فصـــل

وهـو الإلّه السيـد الصمـد الـذي　　صمـــدت إليـه الخلق بـــالإذعـان
الكامل الأوصـاف من كل الـوجو　　ه كمــالـه مــا فيـه من نقصـــان

هذا معنى اسمه (الصمد) المعنى الجامع الذي يدخل فيه كل ما فسر به هذا الاسم الكريم، فهو الصمد الذي تصمد إليه أي تقصـده جميـع المخلوقات بالذل والحاجة والافتقار، ويفزع إليه العالم بأسره، وهو الذي قد كمل في علمه وحكمته وحلمه وقدرته وعظمته ورحمته وسائـر أوصافـه، فالصمد هو كامل الصفات، وهو الذي تقصده المخلوقات في كل الحاجات.

وكـــذلـك القهـــار من أوصـــافـه　　فــالخلق مـقهـــورون بـــالسلطان
لـو لم يكن حيًّا عـزيـزاً قــاهـراً　　مــا كـان من قهـــر ومن سلطان

(القهار) وهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحـدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وجميـع الخلق فقراء إلى الله عاجزون، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً. ثم ذكر المصنف أن قهره مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتم قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوة عزته واقتداره.

وكـــذلـك الجبـــار من أوصـافـه　　والجبـــر في أوصـــافـه نـــوعـــان
جبر الضعيف وكل قلب قـد غدا　　ذا كـســرة فــالجبـــر منـــه دان
والثـاني جبر القهـر بالعـز الـذي　　لا يـنبـغي لـســواه مـن إنســـان
ولـــه مسمـى ثـالث وهـــو الـعلـــــــوّ فليس يـدنـو منـــه من إنسـان
مـن قـــولهـم جبـــارة لـلنخـلة الـــــعليـا التي فــاتت لـكـل بنـــان

يعني أن للجبار من أسمائه الحسنى ثلاثة معان كلها داخلة باسمه (الجبار) فهو الذي يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله، فيجبر الكسير

ويغني الفقير وييسر على المعسر كل عسير ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر ويعيضه على مصابه أعظم الأجر إذا قام بواجبها، ويجبر جبراً خاصاً قلوبَ الخاضعين لعظمته وجلاله، وقلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كراماته وأصناف المعارف والأحوال الإيمانية، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب وإذا دعا الداعي فقال: «اللهم اجبرني» فإنه يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد ودفع جميع المكاره عنه.

والمعنى الثاني أنه القهار لكل شيء، الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والمعنى الثالث أنه العلي على كل شيء.

فصار الجبار متضمناً لمعنى الرؤوف القهار العلي. وقد يراد به معنى رابع وهو المتكبر عن كل سوء ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو أو ضد أو سمي أو شريك في خصائصه وحقوقه.

وهو الحسيب حماية وكفاية والحسْب كافي العبد كل أوان

(فالحسيب) هو الكافي للعباد جميع ما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضار. والحسيب بالمعنى الأخص هو الكافي لعبده المتقي المتوكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه. والحسيب أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشر ويحاسبهم عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر. قال تعالى:

﴿يا أيها النبي حسبُكَ اللَّهُ ومَنِ اتَّبعك من المؤمنين﴾

[سورة الأنفال: الآية ٦٤]

أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول ظاهراً وباطناً وقيامه بعبودية الله تعالى.

وهــو الـرشيــد فقـولـه وفعـالــه رُشْدٌ وربـك مـرشـد الحيــران
وكــلاهــمــا حق فـهــذا وصفــه والفعـل لـلإرشــاد ذاك الثـاني

يعني أن (الرشيد) هو الذي قوله رشد وفعله كله رشد وهو مرشد الحيران الضال فيهديه إلى الصراط المستقيم بياناً وتعليماً وتوفيقاً، فالرشد الدال عليه اسم الرشيد وصفه تعالى، والإرشاد لعباده فعله فأقواله القدرية التي يوجد بها الأشياء ويدبر بها الأمور كلها حق لاشتمالها على الحكمة والحسن والإتقان، وأقواله الشرعية الدينية هي أقواله التي تكلم بها في كتبه وعلى ألسنة رسله المشتملة على الصدق التام في الأخبار والعدل الكامل في الأمر والنهي، فإنه لا أصدق من الله قيلاً ولا أحسن منه حديثاً:

﴿وتَمَّتْ كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

في الأمر والنهي، وهي أعظم وأجل ما يرشد بها العباد، بل لا حصول إلى الرشاد بغيرها، فمن ابتغى الهدى من غيرها أضله الله، ومن لم يسترشد بها فليس برشيد، فيحصل بها الرشد العلمي وهو بيان الحقائق والأصول والفروع والمصالح والمضار الدينية والدنيوية، ويحصل بها الرشد العملي فإنها تزكي النفوس وتطهر القلوب وتدعو إلى أصلح الأعمال وأحسن الأخلاق، وتحث على كل جميل، وترهب عن كل ذميم رذيل، فمن استرشد بها فهو المهتدي، ومن لم يسترشد بها فهو ضال. ولم يجعل لأحد عليه حجة بعد بعثته للرسل وإنزاله الكتب المشتملة على الهدى المطلق، فكم هدى بفضله ضالاً وأرشد حائراً وخصوصاً من تعلق به وطلب منه الهدى من صميم قلبه وعلم أنه المنفرد بالهداية.

والعــدل من أوصــافــه في فعله ومقــالــه والحكم فـي الميــزان
فعلى الصــراط المستقيم إلٓهـنــا قــولاً وفـعــلاً ذاك في الـقــرآن

يعني أن الله هو (الحكم العدل) في وصفه وفي فعله وفي قوله وفي حكمه بالقسط. وهذا معنى قوله:

فإن أقواله صدق وأفعاله دائرة بين العدل والفضل، فهي كلها أفعال رشيدة وحكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه أحكام عادلة لا ظلم فيها بوجه من الوجوه، وكذلك أحكام الجزاء والثواب والعقاب.

فصل

هذا ومن أوصافه القدوس ذو التـنزيه بالتعظيم للرحمن
وهو السلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان

هذا تفسير (القدوس السلام) فهو المقدّس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله. فهذا ضابط ما ينزه عنه: ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثيل أو شبيه أو كفو أو سمي أو ند أو مضاد، وينزّه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها. ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد لغيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة. كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن السوء ظن غير ما يليق بجلاله، وإذا قال العبد مثنياً على ربه «سبحان الله» أو «تقدس الله» أو «تعالى الله» ونحوها كان مثنياً عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال.

والبَـرّ في أوصافه سبحانه هو كثرة الخيرات والإحسان
صدرت عن البر الذي هو وصفه فالبِرُّ حينئذ له نوعان
وصف وفعل فهو بر محسن مولى الجميل ودائم الإحسان
وكذلك الوهاب من أسمائه فانظر مواهبه مدى الأزمان
أهل السماوات العلي والأرض عن تلك المواهب ليس ينفكان

من أسمائه تعالى (البر الوهاب) الذي شمل الكائنات بأسرها ببره وهباته

وكرمه، فهو مولى الجميل ودائم الإحسان وواسع المواهب، وصفه البر وآثار هذا الوصف جميع النعم الظاهرة والباطنة، فلا يستغني مخلوق عن إحسانه وبره طرفة عين.

وإحسانه عام وخاص: فالعام المذكور في قوله:

﴿ربَّنا وسعتَ كلَّ شيء رحمة وعلماً﴾ [سورة غافر: الآية ٧]

﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ [سورة الأعراف: الآية ١٥٦]

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [سورة النحل: الآية ٥٣]

وهذا يشترك فيه البر والفاجر وأهل السماء وأهل الأرض والمكلفون وغيرهم، والخاص رحمته ونعمه على المتقين حيث قال:

﴿فسأكتبها للذين يتَّقون ويُؤْتُون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتَّبعون الرسول النبيَّ الأمِّيَّ﴾ [سورة الأعراف: الأيتان ١٥٦، ١٥٧]

وقال: ﴿إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين﴾
[سورة الأعراف: الآية ٥٦]

وفي دعاء سليمان

﴿وأدخِلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [سورة النمل: الآية ١٩]

وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء وأتباعهم تقتضي التوفيق للإيمان والعلم والعمل وصلاح الأحوال كلها والسعادة الأبدية والفلاح والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواصّ الخلق.

وكذلك الفتاح من أسمائه	والفتح في أوصافه أمران
فتح بحكم وهو شرع إلهنا	والفتح بالأقدار فتح ثان
والرب فتاح بذين كليهما	عدلاً وإحساناً من الرحمن

فالفتاح هو الحكم المحسن الجواد، وَفَتْحُه تعالى قسمان: أحدهما فتحه بحكمه الديني وحكمه الجزائي، والثاني الفتاح بحكمه القدري. ففتحه بحكمه الديني هو شرعه على ألسنة رسله جميعَ ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم. وأما فتحه بجزائه فهو فتحه بين أنبيائه ومخالفيهم وبين أوليائه وأعدائه بإكرام الأنبياء واتّباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائهم وعقوباتهم. وكذلك فتحه يوم القيامة وحكمه بين الخلائق حين يوفي كل عامل ما عمله. وأما فتحه القدري فهو ما يقدره على عباده من خير وشر ونفع وضر وعطاء ومنع، قال تعالى:

﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمة فلا مُمْسِكَ لها وما يُمسكْ فلا مرسِلَ لَهُ من بعدِهِ وهو العزيز الحكيم﴾ [سورة فاطر: الآية ٢]

فالرب تعالى هو الفتاح العليم الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه، ويفتح على أعدائه ضد ذلك، وذلك بفضله وعدله.

وكذلك الرزَّاق من أسمائه	والرزق من أفعاله نوعان
رزق على يد عبده ورسوله	نوعان أيضاً ذان معروفان
رزق القلوب العلم والإيمان وال	رزق المعدّ لهذه الأبدان
هذا هو الرزق الحلال وربنا	رزّاقه والفضل للمنان
والثاني سوق القوت للأعضاء في	تلك المجاري سوقه بوزان
هذا يكون من الحلال كما يكو	ن من الحرام كلاهما رزقان
والرب رازقه بهذا الاعتبار	وليس بالإطلاق دون بيان

قال تعالى: **﴿إن الله هو الرزاق﴾** [سورة الذاريات: الآية ٥٨]

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقُها﴾ [سورة هود: الآية ٦]

ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص. فالعام إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها، فسهل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها،

وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضاً من وجه آخر في حق المكلفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقاً ونعمة بهذا الاعتبار ويقال «رزقه الله» سواء ارتزق من حلال أوحرام وهومطلق الرزق. وأما الرزق المطلق فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد الرسول ﷺ: رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها. ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خصّ به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى «اللهم ارزقني» أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

فصل

هذا من أوصافه القيوم والـ ... ـقيوم في أوصافه أمران

إحداهما القيوم قام بنفسه ... والكون قام به هما الأمران

فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني

والوصف بالقيوم ذو شأن كذا ... موصوفه أيضاً عظيم الشان

والحيُّ يتلوه فأوصاف الكما ... ل هما لأفق سمائها قطبان

فالحيُّ والقيوم لن تتخلف الأ ... وصاف أصلاً عنهما ببيانٍ

هذا تفسير (الحي القيوم) وجمعهما في غاية المناسبة كما جمعهما الله في عدة مواضع من كتابه كقوله:

﴿الله لا إلَه إلاّ هو الحي القيوم﴾ [سورة آل عمران: الآية ٢]

وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم والعزة والقدرة والإرادة والعظمة والكبرياء وغيرها من صفات الذات المقدسة، والقيوم هو كل القيومية الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه وهي التي افتقرت إليه من كل وجه، فالحي والقيوم من له صفة كل كمال وهو الفعال لما يريد.

هو قابض هو باسط هو خافض	هو رافع بالعدل والإحسان
وهو المعزّ لأهل طاعته وذا	عزٌّ حقيقي بلا بطلان
وهو المذلّ لمن يشاء بذلة الـ	ـداريـن ذل شقا وذل هوان
هو مانعٌ معطٍ فهذا فضله	والمنع عين العدل للمنان
يعطي برحمته ويمنع من يشا	ء بحكمة والله ذو السلطان

هذه الأسماء الكريمة من الأسماء المتقابلات التي لا ينبغي أن يثنى على الله بها إلا كل واحد منها مع الآخر، لأن الكمال المطلق من اجتماع الوصفين، فهو القابض للأرزاق والأرواح والنفوس، والباسط للأرزاق والرحمة والقلوب. وهو الرافع لأقوام قائمين بالعلم والإيمان، الخافض لأعدائه. وهو المعز لأهل طاعته، وهذا عز حقيقي، فإن المطيع لله عزيز وإن كان فقيراً ليس له أعوان، المذل لأهل معصيته وأعدائه ذلاًّ في الدنيا والآخرة. فالعاصي وإن ظهر بمظاهر العز فقلبه حشوه الذل وإن لم يشعر به لانغماسه في الشهوات فإن العز كل العز بطاعة الله والذل بمعصيته:

﴿ومن يُهِنِ اللَّهُ فما له من مكرِمٍ﴾ [سورة الحج: الآية ١٨]

﴿من كان يريد العزة فلله العزةُ جميعاً﴾ [سورة فاطر: الآية ١٠]

﴿ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾ [سورة المنافقون: الآية ٨]

وهو تعالى المانع المعطي فلا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى. وهذه الأمور كلها تبع لعدله وحكمته وحمده، فإن له الحكمة في خفض من يخفضه ويذله ويحرمه، ولا حجة لأحد على الله، كما له الفضل المحض على من رفعه وأعطاه وبسط له الخيرات، فعلى العبد أن يعترف بحكمة الله، كما عليه أن يعترف بفضله ويشكره بلسانه وجنانه وأركانه. وكما أنه هو المنفرد بهذه الأمور وكلها جارية تحت أقداره فإن الله جعل لرفعه وعطائه وإكرامه أسباباً ولضد ذلك أسباباً من قام بها ترتبت عليها مسبباتها، وكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، وهذا يوجب للعبد القيام بتوحيد الله، والاعتماد على ربه في حصول ما يحب، ويجتهد في فعل الأسباب النافعة فإنها محل حكمة الله.

فصل

والنور من أسمائه أيضاً ومن ... أوصافه سبحان ذي البرهان

قال ابن مسعود كلاماً قد حكا ... ه الدارمي عنه بلا نكران

ما عنده ليل يكون ولا نهار قلت تحت الفلك يوجد ذان

نور السماوات العلى من نوره ... والأرض كيف النجم والقمران

من نور وجه الرب جل جلاله ... وكذا حكاه الحافظ الطبراني

فيه استنار العرش والكرسيُّ مع ... سبع الطباق وسائر الأكوان

وكتابه نور كذلك شرعه ... نور كذا المبعوث بالقرآن

وكذلك الإيمان في قلب الفتى ... نور على نور مع القرآن

وحجابه نور فلو كشف الحجاب لأحرق السبحات للأكوان

وإذا أتى للفصل يشرق نوره في الأرض يوم قيامة الأبدان

وكذاك دار الرب جنات العلى نور تلألأ ليس ذا بطلان

والنور ذو نوعين مخلوق ووصف ما هما والله متحدان

وكذلك المخلوق ذو نوعين محسوس ومعقول هما شيئان

احذر تزلَّ فتحت رجلك هوَّة كم قد هوى فيها على الأزمان

من عابد بالجهل زلت رجله فهوىٰ إلى قعر الحضيض الداني

لاحت له أنوار آثار العبا دة ظنها الأنوار للرحمن

فأتى بكل مصيبة وبلية ما شئت من شطح ومن هذيان

وكذا الحلولي الذي هو خِدنه من هٰهنا حقاً هما أخوان

ويقابل الرجلين ذو التعطيل والحجب الكثيفة ما هما سيان

ذا في كثافة طبعه وظلامه وبظلمة التعطيل هذا الثاني

والنور محجوب فلا هذا ولا هذا له من ظلمة يريان

بسط المصنف الكلام على هذا الاسم الكريم لشدة الحاجة إلى معرفته ومعرفة متعلقاته ووقوع الاشتباه الكثير في ذلك. وحاصل ذلك أن من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه (النور) الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام وذو البهاء والهيبة والسبحات الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحانه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وهو الذي استنارت به العوالم كلها فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان.

والنور نوعان: حسي كهذه العوالم التي لم يحصل لها نور إلا من نوره، ونور معنوي يحصل في القلوب والأرواح بما جاء به محمد ﷺ من كتاب الله وسنة نبيه. فعلم الكتاب والسنة والعمل بهما ينير القلوب والأسماع والأبصار ويكون نوراً للعبد في الدنيا والآخرة:

لما ذكر أنه نور السماوات والأرض وسمى الله كتابه نوراً ورسوله نوراً ووحيه نوراً.

ثم إن المؤلف حذر من اغترار من اغتر من أهل التصوف الذين لم يفرقوا بين نور الصفات وبين أنوار الإيمان والمعارف، فإنهم لما تألهوا وتعبدوا من غير فرقان وعلم كامل ولاحت أنوار التعبد في قلوبهم لأن العبادات لها أنوار في القلوب، فظنوا هذا النور هو نور الذات المقدسة، فحصل منهم من الشطح والكلام القبيح ما هو أثر هذا الجهل والاغترار والضلال. وأما أهل العلم والإيمان والفرقان فإنهم يفرقون بين نور الذات والصفات وبين النور المخلوق الحسي منه والمعنوي، فيعترفون أن نور أوصاف الباري ملازم لذاته لا يفارقها ولا يحل بمخلوق، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما النور المخلوق فهو الذي تتصف به المخلوقات بحسب الأسباب والمعاني القائمة بها. والمؤمن إذا كمل إيمانه أنار الله قلبه، فانكشفت له حقائق الأشياء، وحصل له فرقان يفرق به بين الحق والباطل، وصار هذا النور هو مادة حياة العبد وقوته على الخير علماً وعملاً، وانكشفت عنه الشبهات القادحة في العلم واليقين، والشهوات الناشئة عن الغفلة والظلمة، وكان قلبه نوراً وكلامه نوراً وعلمه نوراً والنور محيط به من جهاته. والكافر أو المنافق أو المعارض أو المعرض الغافل كل هؤلاء يتخبطون في الظلمات، كل له من الظلمة بحسب ما معه من موادها وأسبابها والله الموفق وحده.

فصـــل

وهو المقدم والمؤخر ذانك الصـــــفتـان لـلأفعـال تـابـعتـان
وهما صفات الذات أيضاً إذ هما بـالـذات لا بـالغيـر قـائمتـان
ولـذاك قـد غلط المقسّم حين ظن صفـاتـه نـوعـان مختلفـان
إن لم يـرد هـذا ولكن قـد أرا د قيامها بـالفعـل ذي الأمكـان
والفعـل والمفعـول شيء واحـد عنـد المقسّم مـا همـا شيئـان
فلذاك وصف الفعـل ليس لـديـــــه إلا نسبـة عـدميـة ببيـان
فجميع أسمـاء الفعـال لـديه ليــــست قط ثـابتـة ذوات معـان
مـوجـودة لـكـن أمـور كـلهـا نسب تـرى عـدميـة الـوجـدان
هـذا هو التعـطيل لـلأفعـال كـالـــــتعـطيـل لـلأوصـاف بـالميزان
فـالحق أن الـوصف ليس بمـورد التقسيم هـذا مقتضى البـرهـان
بـل مـورد التقسيم مـا قـد قـام بـالـذات التي للواحـد الـرحمن
فهمـا إذاً نـوعـان: أوصـاف وأفـــــعـال فهـذي قسمـة التبيـان
فـالوصف بـالأفعال يستـدعي قيـا م الفعـل بالمـوصـوف بـالبـرهـان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما إنْ بين ذينـك قط من فـرقـان
ومن العجـائب أنـهم ردّوا عـلى من أثبـت الأسمـاء دون معـان
قـامت بمن هي وصفه هـذا محا ل غيـر معقـول لـذي الأذهـان
وأتـوا إلى الأوصـاف بـاسم الفعـل قـالـوا لم تقم بـالـواحـد الـديـان
فانظر إليهم أبطلوا الأصل الـذي ردوا بـه أقـوالـهـم بـوزان
إن كـان هذا ممكناً فكـذاك قـو ل خصـومكم أيضاً فـذو إمكـان
والـوصف بالتقـديم والتأخيـر كـو نـيٌّ وديـنـيٌّ هـمـا نـوعـان
وكـلاهـمـا أمـر حقيقي ونســــــبي ولا يـخفـى عـلى الأذهـان
والله قـدّر ذاك أجـمـعـه بـإحـــــكـام وإتـقـان من الـرحـمـن

فصـــل

هــذا ومن أسمائــه مـا ليس يفـــــرد بــل يـقــال إذا أتى بـقــران
وهي التي تــدعى بمـزدوجـاتهـا إفــرادهــا خــطر على الإنســان
إذ ذاك مــوهم نــوع نقص جــل رب العــرش عن عيب وعن نقصـان
كالمانـع المعـطي وكالضـار الذي هــو نــافـع وكـمـالــه الأمــران
ونظير هذا القابض المقـرون باســـــم البــاسط اللفــظان مقتــرنــان
وكـذا المعز مـع المـذل وخافض مـع رافـع لــفــظان مــزدوجــان
وحـديث إفـراد اسم منتقم فمــو قـوف كما قـد قـال ذو العـرفـان
مـا جـاء في القــرآن غيـر مقيــد بـالمجـرمين وجــا بـذو نــوعـان

ذكر المصنف هذه الأبيات في تفسير اسمه (المقدم المؤخر) وهما كما تقدم من الأسماء المزدوجة المتقابلة التي لا يطلق واحد بمفرده على الله إلا مقروناً بالآخر فإن الكمال من اجتماعهما، فهو تعالى المقدم لمن شاء والمؤخر لمن شاء بحكمته.

وهذا التقديم يكون كونياً كتقديم بعض المخلوقات على بعض وتأخير بعضهـا على بعض، وكتقـديم الأسبـاب على مسببـاتهـا والشـروط على مشروطاتها. وأنواع التقديم والتأخير في الخلق والتقدير بحر لا ساحل له. ويكون شرعياً كما فضل الأنبياء على الخلق وفضل بعضهم على بعض، وفضل بعض عباده على بعض، وقدمهم في العلم والإيمان والعمل والأخلاق وسائر الأوصاف، وأخَّر من أخَّر منهم بشيء من ذلك وكل هذا تبع لحكمته. وهذان الوصفان وما أشبههما من الصفات الذاتية لكونهما قائمين بالله والله متصف بهما، ومن صفات الأفعال لأن التقديم والتأخير متعلق بالمخلوقات ذواتها وأفعالها ومعانيها وأوصافها، وهي ناشئة عن إرادة الله وقدرته. فهذا هو التقسيم الصحيح لصفات الباري، وأن صفات الذات متعلقة بالذات، وصفات أفعاله متصفة بها الذات ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال والأفعال.

وأما تقسيم بعض أهل الكلام الباطل أن صفات الأفعال لا تقوم بذات الله، بل الفعل عندهم عين المفعول، فهذا قول باطل بالكتاب والسنة والإجماع من السلف، وهو مخالف لما يعقله العقلاء في قلوبهم، فإن صفات الأفعال قائمة بمن فعلها، ومتصف بها من قالها أو عملها، ولا يتصور في العقل مفعول من غير فعل ولا مخلوق من غير خلق، كما لا يتصور أحد اسماً مشتقاً دالًّا على غير صفة في المحل المسمى به. والذي أوجب لهم هذا الغلط الفاحش زعموا أنهم إذا لم يقولوا بهذا اقتضى حلول الحوادث في ذات الله، فنفوا بهذا كل صفة فعلية لله فأنكروا استواءه على عرشه ونزوله، وأفعاله التي يوجدها شيئاً فشيئاً، وأقواله التي يتكلم بها شيئاً بعد شيء. وهذا التعطيل لأفعاله نظير تعطيل الجهمية ومن تبعهم لجميع صفات الله الذاتية والفعلية، ولا فرق بين الأمرين. فإذا كان هذا التعطيل لصفاته الذاتية باطلًا فكذلك التعطيل لصفاته الفعلية باطل.

أما أهل السنة والجماعة فإنهم أثبتوا كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله، واعترفوا بها، لا فرق عندهم بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وقدرته وكلها قائمة بالله والله موصوف بها، وهو القول الذي دل عليه النقل والعقل. ومن أوصاف الأفعال الأسماء المزدوجة كالمقدم المؤخر والضارّ النافع والمعطي المانع ونحوها وتقدمت.

فصل

واعلم أن المصنف رحمه الله قد استوفى معظم شرح الأسماء الحسنى المذكورة في الكتاب شرحاً جامعاً مختصراً كما تقدم، وما لم يذكره فإنه ذكر نظيره من الأسماء الحسنى أو ما يدل عليه ويستلزمه، فإنه لم يذكر (المتين) وهو داخل في (القوي القدير)، ولم يذكر (الأعلى) وهو في معنى (العلي) كما تقدم ولم يذكر (الرحمن الرحيم الرؤوف الكريم) وهي في معنى (البرّ الجواد

الوهاب) ولم يذكر (الرب والله والمِلك والمالك) وقد ذكر في (البدائع) أنها متضمنة لكثير من الأسماء الحسنى فقال: الربّ هو القادر الخالق البارىء المصور الحي القيوم السميع العليم البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى. وأما (المِلك) فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرِّف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى المِلك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك. وأما (الإِلّه) فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، فقد دخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح أن (الله) أصله (الإِلّه) وأن اسم (الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى والله أعلم.

فصـــل

ودلالــة الأســمــاء أنــواع ثــلا ... ث كــلهــا مـعــلومــة بـبــيــان

دلت مـطابقــة كــذاك تضمـنــاً ... وكـذا التـزامــاً واضـح البـرهــان

أمــا مـطابقــة الـدلالــة فهي أنَّ ... الاسـم يفـهـم مـنــه مفـهــومــان

ذات الإلـه وذلك الوصف الذي ... يـشتـق منــه الاسـم بــالمـيــزان

لـكن دلالـتــه على إحــداهـمــا ... بتضمن فــافـهـمــه فـهـم بيــان

وكــذا دلالته على الصفــة التي ... مــا اشتق منهــا فــالتــزام دان

وإذا أردت لــذا مــثــالاً بـيِّـنــاً ... فمثــال ذلــك لفـظة الــرحمٰن

ذات الإلّــه ورحمة مـدلــولهــا ... فـهمــا لـهـذا اللفظ مــدلــولان

إحداهما بعض لذا الموضوع فهـــــي تـضمـن ذا واضـح التـبـيـان
لكن وصف الحي لازم ذلـك الـــــمعنىٰ لـزوم العـلم لـلرحـمـن
فـلذا دلالـتـه عـليـه بـالـتـزا م بـيـن والـحـق ذوتـبـيـان

هذه قاعدة ذكرها المصنف نافعة في الأسماء الحسنى، وذلك أن الدلالة نوعان: لفظية ومعنوية عقلية، فإن أعطيت اللفظ جميع ما دخل فيه من المعاني فهي دلالة مطابقة، لأن اللفظ طابق المعنى من غير زيادة ولا نقص، وإن أعطيته بعض المعنى فتسمى دلالة تضمن، لأن المعنى المذكور بعض اللفظ وداخل في ضمنه. وأما الدلالة المعنوية العقلية فهي خاصة العقل والفكر الصحيح، لأن اللفظ بمجرده لا يدل عليها، وإنما ينظر العبد ويتأمل في المعاني اللازمة لذلك اللفظ الذي لا يتم معناها بدونه وما يشترط له من الشروط، وهذا يجري في جميع الأسماء الحسنى، كل واحد منها يدل على الذات وتلك الصفة دلالة مطابقة، ويدل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ويدل على الصفة الأخرى اللازمة لتلك المعاني دلالة التزام. مثال ذلك (الرحمن) يدل على الذات وحدها وعلى الرحمة وحدها دلالة تضمن، وعلى الأمرين دلالة مطابقة، ويدل على الحياة الكاملة والعلم المحيط والقدرة التامة ونحوها دلالة التزام، لأنه لا توجد الرحمة من دون حياة الراحم وقدرته الموصلة لرحمته للمرحوم وعلمه به وبحاجته، وكذلك ما تقدم من استلزام (الملِك) جميع صفات الملك الكامل، واستلزام (الرب) لصفات الربوبية، و (الله) لصفات الألوهية وهي صفات الكمال كلها، وكثير من أسمائه الحسنى يستلزم عدة أوصاف، كالكبير والعظيم والمجيد والحميد والصمد. فهذه قاعدة نافعة.

ومن القواعد المتعلقة بأسمائه الحسنى ما ذكره المصنف بقوله:

أسـمـاؤه أوصـاف مـدح كلهـا مـشتـقـة قـد حمـلت لـمـعـان
إيـاك والإلـحـاد فـيـهـا إنـه كـفـر مـعـاذ الله مـن كـفـران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران

فالملحدون إذن ثلاث طوائف   فعليهم غضبٌ من الرحمٰن

يعني أن أسماءه الحسنى كلها أعلام وأوصاف دالة على معانيها، وكلها أوصاف مدح وحمد وثناء، ولذلك كانت حسنى فلو كانت أعلاماً محضة لم تكن حسنى، ولهذا إن كان الاسم منقسماً إلى حمد ومدح وغيره لم يدخل بمطلقه بأسماء الله كالمريد والصانع والفاعل ونحوها فهذه ليست من الأسماء الحسنى، فصفاته كلها صفات كمال محض فهو موصوف بأكمل الصفات، وله أيضاً من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه.

والواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفي من معانيها صفة، ولا تشبه بصفات المخلوقين، ولهذا توعد الله الملحدين في أسمائه. إما أن يسموا بها بعض المخلوقات كتسمية آلهتهم «اللات» من (الإلٰه) و«العزى» من (العزيز) و«مناة» من (المنّان)، وإما أن تمثل بصفات المخلوقين، وإما أن تنفى وتعطل كما يفعل الجهمية ومن تبعهم من كل معطل لصفات الله أو بعضها. وأعظم أنواع الملحدين فيها ملاحدة الاتحادية الذين سموا بأسمائه وصفاته كل موجود في الوجود، وهذا تعطيل لذاته وصفاته وأفعاله. ولنقتصر في الإشارة إلى الإلحاد بأسمائه وصفاته على ما ذكرنا، مع أن المؤلف بسط الكلام، لكننا أتينا بالجمل الكلية فيها.

فصــل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركين

هذا وثاني نوعي التوحيد توحيد العبادة منك للرحمن

أن لا تكون لغيره عبداً ولا   تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والإحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التوحيد كالركنين للبنيان

وحقيقة الإخلاص توحيد المر ... اد فلا يزاحمه مراد ثان
لكن مراد العبد يبقى واحداً ... ما فيه تفريق لدى الإنسان
إن كان ربك واحداً سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان
أو كان ربك واحداً أَنْشَاك لم ... يشركه إذْ أَنشاك رب ثان
فكذاك أيضاً وحدَه فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ... ل الجهد كَسِلاً ولا مُتَوان
والسّنّة المثلىٰ لسالكها فتو ... حيد الطريق الأعظم السلطاني
فلواحد كن واحداً في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث مسعدات للذي ... قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفس حرّة ... بلغت من العلياء كل مكان

وهذا النوع زبدة رسالة الله لرسله، فكل نبي يبعثه الله يدعو قومه يقول:

﴿اعبدوا الله ما لكم من إلّه غيره﴾ [سورة المؤمنون: الآية ٣٢]

﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [سورة النحل: الآية ٣٦]

وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، وشرع الجهاد لإقامته، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه، والعقاب لمن تركه، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به، وأهل الشقاوة التاركين له. فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته وتحقيقه والتحقق به، ويعرف حدّه وتفسيره، ويعرف حكمه ومرتبته، ويعرف آثاره ومقتضياته وشواهده وأدلته، وما يقويه وينميه، وما ينقضه أو ينقصه، وشروطه ومكملاته، ويعرف نواقضه ومفسداته، لأنه الأصل الأصيل الذي لا تصح الأصول إلا به، فكيف بالفروع.

فأما حدُّه وتفسيره وأركانه فهو أن يعلم العبد ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده المعبود على الحقيقة. وأن صفات الإلّهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقات، ولا يستحقها إلا الله تعالى.

فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرده بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه. ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. ويقوم بحقائق الإحسان وروح الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مخلصاً ذلك كله لله، لا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربه وطلب ثوابه، متابعاً في ذلك رسول الله ﷺ، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبيه ﷺ في هديه وسمته وكل أحواله.

ولهذا كمال هذا التوحيد وقوامه بثلاثة أشياء (توحيد الإخلاص لله وحده) فلا يكون للعبد مراد غير مراد واحد وهو العمل لله وحده. و(توحيد الصدق) وهو توحد إرادة العبد في إرادته وقوة إنابته لربه وكمال عبوديته. و(توحيد الطريق) وهو المتابعة. فلهذا قال: «فلواحد» وهو الله «كن واحداً» في عزمك وصدقك وإرادتك «في واحد» أي متابعة الرسول. ولهذا فسره بقوله: «أعني طريق الحق والإيمان». فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص من كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الثلاثة. وإذا كان الله تعالى هو الذي خلقك ورزقك وأنعم عليك بالنعم الظاهرة والباطنة لم يشاركه في ذلك مشارك، فعليك أن لا تتأله ولا تتعبد لغيره، وعليك أن تخصه بالتوحيد والسؤال واللجا والفزع في أمورك كلها. وهذا من أعظم الأدلة على توحيد الإلـٰهية، وهو الاستدلال بربوبية الله للعبد بل للخلق كلهم والتفرد بتدبيرهم وإسداء النعم عليهم، على أنه هو الإلٓه حقاً الذي لا يستحق الألوهية ولا شيئاً من العبودية غيره. ومن الأدلة على ذلك معرفة تفرّد الرب بالكمال المطلق، وأن له كل صفة كمال، وأن المخلوقات كلها كل وصف حميد فيها من الله تعالى، ليس بها وليس منها. وهذا من

أعظم البراهين على أنه هو المخصوص بالتأله والعبودية. وكذلك هو المنفرد بالنعم كلها، وهو وحده المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، وسواه فقير إلى ربه في كل حال، لا يستغني عنه طرفة عين. فمن أعظم الباطل وأكبر المنكرات أن يجعل شيئاً منه شريكاً لله في شيء من خصائصه، وشيء من حقوقه على عباده، فإن حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، لا نبياً مرسلاً ولا ملكاً مقرباً.

وهذا النوع من التوحيد متضمن للنوع الأول الذي هو توحيد الأسماء والصفات الداخل فيها توحيد الربوبية، لأن الله هو الذي له صفة الإلٰهية وهي صفات الكمال كلها. ولهذا كلما قوي إيمان العبد ومعرفته بأسماء الله وصفاته قوي توحيده وتم إيمانه، وأما ما يناقض هذا التوحيد فقد ذكره المصنف بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ النِّدِّ للرحمٰن أيًّا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

يعني أن الشرك المناقض لهذا التوحيد نوعان: جلي ظاهر مخرج من دائرة الإسلام، وهو الشرك الأكبر. وهذا النوع لا يقبل الغفران قال تعالى:

﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾

[سورة النساء: الآية ٤٨]

وتفسيره أن يتخذ العبد لله ندّاً يحبه كمحبة الله، أو يرجوه أو يخافه كخوفه من الله، أو يدعوه أو يصرف له نوعاً من العبادة الظاهرة والباطنة. وفي هذا المقام لا فرق بين الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين والطالحين والأشجار والأحجار وغيرها، فمن صرف لشيء منها نوعاً من العبادة فهو مشرك كافر قد سواها بربه في هذا الحق الذي يختص به، فإن العبودية لا حق فيها لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، بل هم مفتقرون غاية الافتقار إلى تألههم وتعبدهم لله. وأما الشرك الأصغر فهو كل وسيلة يتوسل بها ويتطرق إلى الشرك

الأكبر، بشرط أن لا يبلـغ مرتبة العبادة، كالحلف بغير الله وكالرياء والتصنـع للمخلوقين ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المؤدية إلى الشرك، فلا يتم للعبد توحيد حتى يتبرأ من الشرك كله جليّه وخفيه ظاهره وباطنه الأقوال منه والأفعال وتكون أعماله كلها خالصة لله متبعاً فيها سنة رسول الله ﷺ.

والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه مما شرعه من الأعمال الظاهرة والباطنة، وقد حدّها المؤلف بقوله:

ليس العبادة غير توحيد المحبّة مع خضوع القلب والأركان

يعني أن العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو من أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها الـذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مـع محبته المحبة التامة التي تتبعها المحابّ كلها، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين * وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين * والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم هـذا التعليق المبارك على يـد جـامعـه الفقيـر إلى الله تعـالى عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميـع المسلمين، وذلك في ثالث ربيـع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبـع وستين. وتم نقله من خط المصنف في تسعة عشر من شهر ربيـع الآخر سنة ألف وثلاثمائة وسبـع وستين والحمد لله.



توضيح الكافية الشافية



توضيح الكافية الشافية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شر أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مُضل له، ومن يُضلل الله فلا هادي له. وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحدَه لا شريك له. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً.

أما بعد، فهذا توضيح لمعاني (الكافية الشافية، في الانتصار للفرقة الناجية) لشمس الدين بن القيم قدّس الله روحه، لكون هذا الكتاب عديم النظير في استيفائه لأصول الدين، والرد على الجهمية والمعطّلة والملحدين. بالنقول الصحيحة، والأصول السلفية، والقواعد والعقول الصريحة. وفيه من الفوائد الفرائد، وما تصح وتكمل به العقائد، ما لا يوجد في كتاب سواه. ولما كان النظم معناه بعيد المنال، ودلالته على المعنى المراد يكثر فيها الاشتباه والإشكال، أحببت أن أقرّبه للقارئين، بحله إلى معناه المنثور فقط من غير زيادة على ما دل عليه، إلّا إذا اقتضت الحال الزيادة أو كان المعنى يتوقف عليها. ولم اشتغل بشرح لها كالشروح المعتادة لتيسر حل ألفاظها على الراغب من كتب اللغة والعربية، لكون الشرح العادي يقتضي بسطاً وتطويلاً.

واعلم أن هذا التوضيح والتعليق على اختصاره قد حوى جميع المقاصد والعقائد الدينية، وحصل به التوضيح التام «للكافية الشافية»، حيث اختير فيه أسهل العبارات وأوضحها، فأغنى عن شرح كبير وعمل كثير، وتضمن من البراهين النقلية والعقلية والرد على أصناف المبتدعين وسياق

المذاهب والرد عليها بأسلوب واضح. ومتى أردت معرفة مقداره فتأمل كل فصل من فصول الكافية، واستعن عليه بما يقابله من هذا التعليق يحصل لك المقصود، وتحظى بالمطلوب. واقتديت في عملي هذا بابن هشام في توضيحه لألفية ابن مالك رحمهم الله. وأرجو الله أن يعينني على ما قصدت وينفعني وإخواني بما أوردت، ويجعل عملنا خالصاً لوجهه، موافقاً لمرضاته، وأن ينزل علينا من لطفه وتوفيقه ما تصلح به أمورنا، وييسر لنا الطريق الموصل إلى رحمته، إنه جواد كريم.

عبد الرحمٰن بن ناصر آل سعدي

فصـــل

أما مقصود هذا الكتاب فهو معرفة الله تعالى بإثبات ما لله من صفات الكمال ونعوت الجلال، وتنزيهه عن كل نقص وعيب ومشابهة المخلوقات. وتفريـع هذا الأصل العظيم وتقريره والتنبيه على أصول العقائد كلها وعلى أدلة ذلك من الكتاب والسنة والعقل والفطرة. وتقرير توحيد العبادة وعبودية الله ومحبته وحده والإنابة إليه، ودفـع ما يعـارض هذه الأصـول، والرد على المبتدعين المعارضين، وذم الغافلين المعرضين، ومدح أهل السنة القائمين بهذه الأصول علماً وعملاً وحالاً ودعوة، وبيان ما لهم عند ربهم من الكرامة بتفصيل أصناف النعيم.

ولا ريب أن هذه المواضيـع الجليلة أصل العلوم كلها وأشرفها وأفرضها وأفضلها وأنفعها.

فصـــل

ولما كان موضوع هذا الكتاب ما ذكرنا، وكانت تلك المواضيـع أقوى الدواعي إلى محبة الله التي هي أصل الخير والسعادة والفلاح، ذكر المصنف رحمه الله في أول فصل منها «حكم المحبة ثابت الأركان» لتوفر شروطه وهي كمال المحبوب المطلق من جميـع الوجوه، وآلاؤه ونعمه المتنوعة، وقوة المحبة من الأنبياء والأصفياء وأتباعهم، والموانـع منتفية في حق خواص الخلق، وقيام البراهين والأدلة والشواهد على ذلك عقلاً ونقلاً وفطرة وذوقاً ووجداناً، فصار هذا الحكم ثابتاً كاملاً علمياً اعتقادياً وجدانياً عقلياً، وأنه لا سبيل للعذال واللوام الذين يريدون إبطال الحقائق الثابتة ومحو الأمور

اليقينية، ولا طريق لهم إلى نقضه وإبطاله، لأنه تم وأبرم ونفذ، بل هو على الدوام في نمو وازدياد، لثبات أصوله، واستمرار ينابيعه وموارده.

ثم إن المؤلف رحمه الله شبب تشبيباً خيالياً بالمحبوبة، كعادة الشعراء يشببون بأعلى محبوباتهم، ثم ينتقلون منها إلى الأغراض التي يقصدونها في غاية اللطف والخفاء، فيقع ذلك من الحسن في أعلى المراتب وأعذب المشارب، فإن كان غرضهم مدحاً انتقلوا إليه من ذلك المحبوب الموصوف بالصفات التي يذكرونها، فيكون معنى ذلك ومضمونه أن الغرض المنتقل إليه أعلى عندهم وأشرف من المنتقل منه. وإن كان الغرض الذي يريدونه ذماً وقدحاً وتخلصوا إليه من وصف ذلك المحبوب كان ذلك المنتقل إليه فيه من القبح والقدح والذم أبلغ وأعظم مما في هجر المحبوب وصده الذي هو أكره شيء للمحبين، فلذلك سلك المؤلف هذا المسلك، فإنه لما شبب بمحبوبته الخيالية وذكر أوصافها وشدة تعلقه بها وأنه لا زال يتمنى وصلها يقظة ومناماً وأن محبوبته فاجأته بوصلها بعدما وعدته وصدقت في موعدها وأن هذا اللقاء إنما هو في المنام أو تخيل في الوهم، فلما حصل له ذلك اللقاء الذي هو أغلى عنده من روحه اندهش وهام بحديثها الشافي للسقام فقال لها في تلك الحال:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني   فعليك إثم الكاذب الفتان

وهو جهم بن صفوان وشيعته، ثم جعل يذكر مذهب الجهمية المنتسبين إلى جهم بن صفوان، فوقع هذا التخلص في نهاية الحسن. فللّه دره ما أبلغه، وما أشد شكيمته في الحق. وكان الجهم بن صفوان معروفاً بين الأمة بهذه البدعة الشنعاء الجامعة لشرور كثيرة أعظمها وأطمها نفي صفات الله التي تواترت في الكتاب والسنة واتفق عليها جميع سلف الأمة، إلا هؤلاء المبتدعة ومن سلك سبيلهم فإنهم زعموا أن الله معطل عن صفات الكمال، وأنه ليس على العرش رب يعبد، وأن حظ العرش منه كحظ الأرض السابعة السفلى،

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وكذلك قالوا إنه ليس له سمع ولا بصر ولا قدرة ولا علم ولا إرادة ولا رحمة ولا وجه ولا يدان ولا له صفة تقوم به، وإنما هو على قولهم ذات مجردة عن الأوصاف خالية من المعاني والنعوت، فأثبتوا الأسماء ونفوا ما دلت عليه الصفات. وهذا مجرد تصوره كاف في رده وإبطاله، ويعلم به مخالفته للسمع والعقل كما سيأتي شرح ذلك، وزعموا مع هذا أنه ليس له خليل من خلقه فنفوا محبة الله وخلته لمن اصطفاه من عباده، وزعموا أنه لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولا كلم موسى تكليماً، فأنكروا صريح الكتاب والسنة، وفسروا معنى خليل الله بأنه الفقير إلى الله، ومعلوم أن هذا التفسير باطل فإنه يدخل فيه الأبرار والفجار وأهل الجنة وأهل النار فكلهم مفتقرون إلى الله ليس لأحد غنى عنه طرفة عين. فلزم من هذا مساواة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في الخلة لكل أحد، وهذا من أبطل الباطل.

ولما كان هذا القول متقرراً قبحه وبطلانه عند سلف الأمة وأئمتها وأمرائها وعامتها، وأظهر الجعد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان هذا القول، طلبه ولاة أمر المسلمين؛ فأخذه خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية على العراق فأوثقه وخرج به للمصلى يوم عيد الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلم موسى تكليماً تعالى الله عن قوله. ثم نزل فذبحه بالمصلي. فشكر الناس له هذا الفعل بشيخ الجهيمة.

ثم تمم المؤلف مقالات الجهمية في هذه الفصول المتوالية، فذكر أن مذهبهم في باب القضاء والقدر وأفعال العباد (الجبر)، وأن العبد عندهم مجبور ومقهور على أفعاله كلها خيرها وشرها، وأنه ليس بفاعل حقيقة، وأن فعله بغير اختياره بمنزلة هبوب الرياح وتحرك الأشجار وحركة المرتعش والنائم ونحوهم ممن حركاتهم بغير اختيارهم، وهذا باطل شرعاً وعقلاً، فإنه من

المعلوم عقلاً وحساً الفرق بين الحركة الاختيارية الواقعة بقدرة العبد وإرادته، والحركة القسرية التي لا إرادة له فيها ولا اختيار.

والشارع أضاف الأعمال خيرها وشرها للعباد، وأخبر بوقوعها بقدرتهم ومشيئتهم وأن لهم الاختيار في الفعل والترك، وهؤلاء الجبرية سووا بين النوعين ظناً منهم أن هذا مدلول القضاء والقدر، وأنه كيف يقضي عليهم ما يعاقبهم عليه، وهذا من أقبح الأغلاط وأشنعها، فإن القضاء والقدر لا ينافي أن العباد هم العاملون لأعمالهم، فإنه تعالى خالق كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، وأفعال العباد تقع بقدرتهم وإرادتهم التي خلقها الله فيهم، وأعطاهم الاختيار في ترجيح ما يختارون، وخالق السبب التام خالق للمسبب. وأيضاً فإنه يعاقبهم على كفرهم ومعاصيهم وهو الحكم العدل، فكيف يعاقبهم على ما ليس من فعلهم؟ هذا من أنكر المنكر وأبطل الباطل. وعند هؤلاء الجبرية الظلم محال عندهم لا يتصور وقوعه، فانظر كيف قادهم هذا الأصل الخبيث، إلى إبطال الأمر والنهي والجزاء بالعدل وإقامة المعذرة لكل ظالم ومجرم، فالظلم الذي نزه الله عنه نفسه وتمدح به أنه لا يعذب أحداً بغير ذنبه ولا يهضمه من حسناته شيئاً ولا يزيد في سيئاته ما لم يعمله، فهو تعالى قادر عليه، ولكن لكمال عدله وحمده حرمه على نفسه وأخبر بنفيه عنه في مواضع كثيرة من القرآن.

ثم ذكر في الفصل الذي بعد هذا أن الجهمية كما نفوا صفاته فإنهم نفوا حكمته في خلقه وأمره، وما احتوت المخلوقات والشرائع عليه من الحكمة، وما توصل إليه من الغايات الحميدة المرادة لله في شرعه وخلقه، كما دل على ذلك اسمه الحكيم وإخباراته الصادقة، وما هي موجودة عليه في نفس الأمر، واتفق على ذلك الصحابة والسلف الصالح وأئمة الدين على أن حكمته وصفه العظيم القائم به الناشىء عنه وقوع الأشياء في أحسن صنع وأكمل نظام، وإحكام أحكامه بالحكمة التي صارت بها أحسن الأحكام، وفسروا الحكمة

بأنها وضع الأشياء مواضعها وتنزيلها منازلها اللائقة، فنفى الجهمية ذلك كله: فلم يثبتوا لله حكمة حقيقية، بل جعلوا حكمته نفس مشيئته، وزعموا أنه يجمع بين المختلفات بأوصافها ويفرق بين المتماثلات، فيرجح مثلاً على مثل بلا مرجح، ومع ذلك فهذه الحكمة التي يثبتونها على هذا الوجه المنحرف ليست عندهم صفة قائمة بالله، بل يفسرونها إما بأنها ترجع إلى مجرد الذات العارية عن الصفات، أو أنها راجعة إلى المفعولات، كما قالوا ذلك في كلامه إذ زعموا أنه مخلوق خلقه في بعض الأجسام كسائر المخلوقات، لأن كلامه على أصلهم غيره، وما كان غيره كان مغايراً له مخلوقاً، وهذا معلوم البطلان، فإن صفات الله التي من جملتها الكلام داخلة في مسمى ذاته، فهو الله الموصوف بجميع صفاته، وهو بأسمائه وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، وسيأتي إن شاء الله الكلام في الغيرية هل تطلق على الصفات أم لا وما في ذلك من التفصيل.

ومن مقالة الجهمية التي لم يسبقهم إليها أحد من سلف الأمة وأئمتها كلامهم في تفسير الإيمان، حيث زعموا أن الإيمان هو إقرار العبد بأن الله خلقه ودبره فقط، وأما أعمال القلوب من محبة الله وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتوكل عليه فإنها لا تدخل في الإيمان عندهم، وكذلك عندهم أعمال الجوارح وأقوال اللسان غير داخلة في مسمى الإيمان عندهم، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف من دخول جميع المذكورات في الإيمان، وأنه اسم لعقائد القلوب وأعمالها وأعمال الجوارح، وأن الناس فيه متفاوتون جداً بحسب ما قاموا به من أمور الإيمان، وعند الجهيمة إيمان أصلح الناس وأكملهم إيماناً كإيمان أفسقهم وأنقصهم إيماناً، فكلهم في الإيمان على حد سواء عندهم. فمن لوازم هذا القول الفاسد المعلوم فساده بالضرورة أن إبليس وفرعون وقارون وقوم عاد وثمود وقوم نوح ونحوهم وإيمان أبي جهل وأبي لهب ونحوهما من أئمة الكفر وسائر الكفرة الذين يعرفون أن

الله خلقهم ليسوا كفاراً، وهذا اللازم لهذا القول الباطل معلوم عند كل أحد أنه باطل منكر، حتى عند هؤلاء الجهمية ينفون الإيمان عن هؤلاء ويتولون كل من حكم الشارع بكفره فإنه دليل على أنه ليس في قلوبهم شيء من الاعتراف بالله، وإنما هم جاهلون بربهم غير مقرين بربوبيته. وهذا من أبطل الباطل، وهو نوع من المكابرة والسفسطة، لما صرح به الكتاب والسنة من اعترافهم بربوبية الله وخلقه، ولما هو معلوم من أحوالهم. فقول المؤلف «هم عند جهم كاملوا الإيمان» أي هذا لازم قوله، وإلا فلو قال ذلك وصرح به لكان كفره ظاهراً لكل أحد، ولكن يستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم.

وأما الإيمان الشرعي عند السلف فإنه شامل للعقائد الدينية وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وفي هذا من النصوص ما لا يعد ولا يحصى، ويترتب على هذا أن الإيمان يزيد بزيادة هذه الأمور وينقص بنقصها، وأن المؤمن الفاسق ناقص الإيمان، فهو مؤمن بما معه من الإيمان، فاسق بما معه من المعاصي، تتجاذبه أوصاف الخير والشر، وله من الثواب وعليه من العقاب بحسب ما قام به واتصف به من أمور الإيمان، وهذا كما أنه القول الذي أجمع عليه السلف الصالح مستندين فيه إلى نصوص الكتاب والسنة فإنه القول الموافق للعقل وللفطرة التي فطر الله عليها عباده.

ثم ذكر المؤلف في الفصل بعده أن الجهمية ومن تبعهم أن مذهبهم في أفعال الله الاختيارية المتعلقة بمشيئته وقدرته من أفسد المذاهب وأبعدها عن الصواب، فإنهم زعموا أن الله كان في الأزل معطلاً عن أفعاله وأنه يمتنع عليه الفعل غاية الامتناع، ثم بعد هذا الامتناع استحال الأمر فصار قادراً على الفعل من غير أن تحدث له صفة فوجب حدوث فعله وانقلاب الممتنع ممكناً، بل أن حاله قبل ذلك ومعه وبعده على حد سواء، والذي قادهم إلى هذا القول الباطل نفيهم للتسلسل في أفعال الله زعماً منهم أن إثبات التسلسل ودوام فاعلية الرب يقتضي قدم المخلوقات، وأنه لا يمكنهم إثبات

حدوثها إلا بهذا الأصل الذي أصلوه وخالفوا به الكتاب والسنَّة وأقوال سلف الأمة. وطردوا أصلهم هذا فقالوا: كما أن التسلسل منفي في الماضي فهو منفي في المستقبل، فإن أفعال الله على قولهم تعدم في المستقبل كما كانت معدومة عندهم في الماضي، فتفنى الجنة والنار وأهلهما وما فيهما من النعيم والعذاب.

وزعم أبو الهذيل العلاف المعتزلي أن الفناء يكون في الحركات لا في الذات، وأن أهل الجنة والنار سيأتي عليهم زمان تنقطع فيه حركاتهم ويبقون جمادات في سكون أبداً، والنار وأهلها كذلك، وهذا ـ مع مخالفته للكتاب والسنة والإجماع ـ مما يضحك السفهاء، فلذلك صور المصنف قوله هذا، فإنه بمجرد تصوره يكفي الإنسان معرفة بسخافته وهجنته، فإنه على قول أبي الهذيل وأتباعه من المعتزلة ـ إذ جاء ذلك الوقت الذي ينقطع فيه فعل الله أن أهل الجنة وأهل النار يكونون فيها كالحجارة والصور، وأن من صادفه ذلك الزمان وقد امتدت يده إلى ثمرة في الجنة يسكن وتبقى يده ممتدة على الدوام، ومن رفع لقمة إلى فيه فأتى عليه ذلك الوقت بقيت يده مرفوعة فيها اللقمة وفمه مفتوحاً مستعداً لتناولها، ومن كان في تلك اللحظة مواقعاً لزوجته بقيا حجرين متصلين على الدوام، وهكذا، وكذا بقية الصفات. فتباً لهذه العقول والأذهان، والحمد لله على نعمة السنة والقرآن.

وأما مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة العظيمة وهي أفعال الله فهو ما دل عليه الكتاب والسنة والعقل السليم، أن الله تعالى لم يزل ولا يزال كاملاً متصفاً بجميع صفات الكمال فيما لم يزل ولا يزال ولم يزل يفعل ما يشاء في الوقت الذي يشاء، فإنه لم يزل فعالاً لما يريد، والفعل من أعظم صفات الكمال، بل لا يتأتى الكمال إلا بتنوع الأفعال، فكيف يمكن أن يكون في وقت من الأوقات خالياً من هذا الكمال، وهذا يقتضي أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق، ولا محدث إلا وقبله حوادث صادرة عن كمال قدرة

الله وإرادته، مرتبطة بحكمته. وهذا لا يقتضي كون شيء من أعيان العالم قديماً، بل إثبات هذا الأصل أكبر دليل على حدوث العالم، فالتسلسل الباطل الذي اتفق العقلاء على بطلانه هو التسلسل في العلل والمؤثرين، هذا هو المحال الممتنع، وأما التسلسل في الآثار فإنه ثابت بالأدلة السمعية والعقلية، لا يمكن غيره، فالله تعالى لم يزل قادراً على الفعل، ولم يزل يفعل ولا يزال يفعل، وأفعاله لا تنفد ولا تبيد، والجنة والنار وأهلهما في خلود دائم ونعيم أو عذاب مستمر والله أعلم.

ثم ذكر المصنف في الفصل الذي بعد هذا مذهب الجهمية، وقولهم في المعاد، وأنه قول باطل، فإنهم زعموا أن الله تعالى يعدم الخلق عدماً محضاً: العالم العلوي والسفلي وما فيهما من المخلوقات كما يزول الظل بالشمس، ثم يعيد هذا المعدوم ثانياً فيكون المعاد بعينه هو المفنى، فقالوا هذا القول الفاسد الذي مجرد تصوره يكفي في إبطاله، ونسبوا هذا القول الباطل للقرآن والسنة، وما في الكتاب والسنة مبطل له كما سيأتي التنبيه عليه، فلما نسبوه للإسلام ورأى الفلاسفة بطلانه ببديهة العقل، فظنوا بالإسلام الظنون السيئة، فتجرأ ابن سينا القرمطي وأتباعه ومن قال بقوله على الكفر العظيم والتكذيب بما جاء به الرسول، فإن الأذهان لا تقبل هذا القول ولا تتصوره، بل تحيله وتراه من الممتنعات، فأوجب لهؤلاء الملاحدة التمسك بما هم عليه من الكفر وإنكار المعاد رأساً.

فهذا القول الذي قاله جهم في المعاد ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وإنما مذهب سلف الأمة وأئمتها ما دل عليه الكتاب والسنة، أن حقيقة المعاد هو إعادة الله ما تفرق من أجزاء الأموات ورد ما استحال منها من عين إلى إخرى فإنه جل جلاله لما كان واسع العلم: يعلم ما تنقص الأرض منهم، ولا يخفى عليه ما تفرق في ظلمات الأرض وقرار البحار، ولا ما استحال في الفيافي والقفار والأماكن

الظاهرة والخفية، ولا ما أحالته بطون السباع والطيور والنار، وهو مع سعة علمه كامل القدرة نافذ المشيئة إنما أمره إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فإنه يعيد العالمين بجميع ما تفرق منهم، ورد ما استحال، فيعودون بأعيانهم، ولا يمتنع على قدرته ردهم وإعادتهم من عين إلى أخرى، وقد أرى الله عباده من آياته في الآفاق وفي أنفسهم ما يبين لهم أنه الحق فأشهدهم من أعمال الكهرباء والمخترعات الحادثة ما يدلهم أكبر دلالة على إمكان وقوع جميع ما أخبر الله به وأخبرت به رسله من أمور الغيب والبعث والجزاء وغيرها، فالذي أقدر المخلوق على هذه الأعمال الباهرة ألا يدل أنه على كل شيء قدير وأنه لا يمتنع ولا يتعاصى على قدرته شيء. فهذا القول الذي دلت عليه الكتب المنزلة وجاءت به الرسل هو الذي تقبله الأذهان وتعترف به العقول وتخضع له الألباب، وأن المعادين بأعيانهم هم الذين أماتهم الله ثم نقلهم لأطوار متنوعة ثم أعادهم بأعيانهم. فإن الوحي صرح بأنه يغير الأكوان وينقلها من صفة إلى أخرى لا يفنيها فناء محضاً ثم يعيدها، فأخبر أنه يبدل السماوات والأرض وهذا تبديل لصفاتها ولذاتها كما يبدل الله جلود أهل النار إذا احترقت جلوداً غيرها، فإنها استحالت فحماً فيعيدها ويردها على حالتها الأولى وهكذا، وإخباره أنه يقبض السماوات والأرض بيده وهما المعروفتان، لأنهما لو كانتا فانيتين لم يتصور أن يخبر أنه يقبضهما، بل يخبر أنه يقبض غيرهما.

وكذلك أخبر أن الأرض يومئذ تحدّث أخبارها وتشهد بما عمل عليها من خير وشر، فلو كانت غيرها من كل وجه لم يكن الخبر على حقيقته، وكان الذي يتحدث ويشهد غيرها، وإنما الله يسويها ويبسطها ويبدل صفتها ويكون لها في ذلك اليوم أحوال متنوعة وصفات متعددة، وكذلك السماوات يحصل لها تغير في الصفات فتكون الجبال كثيباً مهيلاً، ثم تكون كالعهن وكالهباء المبثوث، ويمد الله الأرض فيجعلها قاعاً صفصفاً مستوياً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وتخرج الأرض كنوزها من الذهب والفضة كالأسطوان العظيم

لا يستطيع أحد أن يأخذ منه، كل مشغول بنفسه، وكذلك تسجر البحار فتكون بحراً واحداً وكذلك يأذن الله للشمس والقمر فيجتمعان، فالشمس مكورة والقمر خاسف ويطرحان في النار ليعلم من عبدهما أنهم كانوا كاذبين وأنهما من جملة المخلوقات المسخرات المدبَّرات لا المدبِّرات، وتنشق السماء فتكون وردة كالدهان تتلون من عظم ذلك الهول، وتمور موراً فتنتثر كواكبها، وكل ما ذكر الله من هذه الأوصاف هو تغير لصفاتها لا لذاتها خلاف ما يقوله جهم وأصحابه.

ومما يدل على بطلان قول جهم أن جميع العالم العلوي والسفلي عنده يفني فناء محضاً يدل على بطلانه أنه قد دلت الأدلة الشرعية أن العرش والكرسي والجنة وما فيها من الولدان والحور كل ذلك مخلوق للبقاء لا يفنى ولا يبيد، وهذا متفق عليه بين سلف الأمة، إلا الجهمية فإنهم زعموا أن الجنة والنار لم تخلقا، وأنهما لا تخلقان إلا يوم القيامة، ثم بعد ذلك يفنيان عنده كما تقدم، وهذا من أبطل الباطل. ومما يدل أيضاً على فساد قولهم أنه ثبت أن الأرض لا تأكل لحوم الأنبياء وأجسامهم، وأن عجب الذنب من كل أحد لا يبلى كما يبلى الجسد بل يبقى، منه يركب الله خلقة الإنسان، فلو كان الفناء يعم الأشياء كلها لاضمحلت أجساد الأنبياء وعجب الظهر من الإنسان. ومما يدل على ذلك ما تواترت به النصوص من بقاء الأرواح بعد الموت في البرزخ منعمة أو معذبة إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة وأراد الله بعث العباد وإخراجهم من القبور أمطر على الأرض أربعين يوماً مطراً عظيماً غليظاً كمني الرجال لا يكن منه بيت مدر ولا بيت شعر، فينبت الخلق من ذلك كنبات الطراثيث، فإذا تكاملت الأجساد نفخت الأرواح فدخلت في الصور، فهذا هو المعاد الذي دل عليه الكتاب والسنة، وهذه هي النشأة الأخرى، وهذا الذي تتصوره العقول والأذهان: لم يقل الله ورسوله إن الله يعدم خلقه عدماً محضاً كما قالته الجهمية. ولما كان هذا هو القول الذي لا شك فيه وعليه سلف الأمة وأئمتها، وكانت أدلته وبراهينه النقل المؤيد بالعقل، لم يكن

ملحداً ولا زنديقاً أن يقاوم هذا القول أو يورد عليه إشكالاً يمنعه، وتمكن أهل السنة من كسر الفلاسفة الملاحدة، والحمد لله رب العالمين.

فصـــل

ومن أقوال الجهمية الباطلة نفي أفعال العبيد كما نفوا أفعال الله في قولهم إن أفعال الله لا تقوم به، والفعل عندهم عين المفعول، كذلك قالوا إن العبد مجبور على أفعاله طاعاتها ومعاصيها، وأنها واقعة بغير اختياره، وأن الله كلفهم ما لا يطيقون، فالعبد عندهم كالنعامة التي قد كلفت بالطيران لما لها من الأجنحة ومشابهة الطيور، وبالجمل لما لها من كبر الجسم، وهي لا قدرة لها على واحد منها، فلزمهم على تقريرهم هذا أمران باطلان: أحدهما أن تنفى عن العباد قدرتهم على أفعالهم، ثانياً أن ينفى صدورها منهم، فيقال على قولهم: لم يقدروا على الإسلام والإيمان ولا الصلاة والصيام ونحوها، وإذا فعلوها يصح أن يقال: لم تصدر منهم، وإنما يقال ذلك على وجه المجاز لا الحقيقة، ولا فرق عندهم أن يوصفوا بهذه الأفعال أو يوصفوا بالبياض والسواد وبقية الألوان، لأن الجميع قامت بهم، فتصور قولهم بلوازمه المذكورة تعرف به فساده وبطلانه. فإذا جمعت مقالات جهم المذكورة وهي نفي صفات الله، ونفي أفعاله، ونفي خلته ومحبته، ونفي كلامه وتكلمه، ونفي أفعال العبيد، لزم من ذلك بطلان الخلق والأمر والوحي والشرع والتكاليف، فإذا ضممت ذلك إلى قول غلاتهم بنفيهم لأسماء الله الحسنى عرفت أن هذا القول مفض إلى تعطيل رب العالمين وجحده، ولكنهم موهوا قولهم وزخرفوه، وحسنوا له العبارات، وهولوا مخالفتها، وضموا إلى ذلك القدح في مذهب السلف وتسميته بأسماء قبيحة، فتولد من ذلك قبول الناس له وافتتانهم به كما افتتن بنو إسرائيل بعبادة العجل المصوغ المزخرف، فافتتنوا بصورته وشارته كما افتتن هؤلاء بتحسين القول وزخرفة عبارته، فأخذت

طوائف البدع من أقوال جهم بحسب بعدهم عن مذهب السلف: فطائفة أثبتت الأسماء ونفت الصفات وهم جمهور الجهمية والمعتزلة، وطائفة غلت فنفت الأسماء الحسنى، وطائفة وافقت الجهمية بنفي الأفعال الاختيارية ووافقوا السلف في إثبات الصفات السبع وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام وهم الأشعرية والماتريدية، وطائفة أخذت بقوله إن العباد مجبورون على أفعالهم وهم الملقبون بالجبرية. وطائفة وافقته في أن القرآن الموجود المحفوظ في الصدور المكتوب في المصاحف مخلوق، والمعنى القديم النفسي غير مخلوق، كالكلابية والأشعرية.

ونجّى الله أهل السنة والجماعة من جميع أقواله الباطلة فأثبتوا جميع أسماء الله الحسنى وما دلت عليه من الصفات العليا لا فرق بين الصفات الذاتية المتعلقة بذاته التي لا ينفك عنها كالحياة والعلم والقدرة والإرادة ونحوها، ولا بين صفات الأفعال القائمة بذاته المتصف بها المتعلقة بمشيئته وقدرته، وأثبتوا محبته وخلته لأوليائه وأصفيائه وكلامه وتكليمه حقيقة، وكذلك قالوا إن الإيمان هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنه يزيد بالطاعات وينقص بالمخالفات، وأن العباد هم الفاعلون لأفعالهم حقيقة، ليسوا مجبورين عليها بل هم مختارون لها واقعة بقدرتهم ومشيئتهم، وإن كانت مندرجة بقضاء الله وقدره، فإنه قد أرادها منهم خلقاً وتقديراً، وهم فعلوها حقيقة ومباشرة، لم يقهروا عليها، ولهذا وصفوا بما عملوه من خير وشر، وثبت بقولهم الوحي والشرع والقدر، وصدقوا بكل ما أخبر الله به ورسوله من غير رد لشيء من ذلك.

فصـــل
في مقدمة نافعة قبل التحكيم

وذلك أن المؤلف رحمه الله جعل هذا الكتاب حكماً وحاكماً بين مذاهب الجهمية والمعطلين وبين مذاهب أهل السنة والجماعة المثبتين، والحاكم لا يمكنه أن يحكم بالعدل حتى يعلم العدل ويتخلق بالأخلاق الجميلة ويتخلّى عن الأخلاق الرذيلة، فأعظم الأخلاق الجميلة الواجبة خصوصاً في هذا المقام هو التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يكون هذا الأمر هو قاعدة العبد واخيته التي يرجع إليها ويرد ما تنازع فيه المتنازعون إليه، فما وافقه فهو الحق المقبول وما ناقضه فهو الباطل المردود وما لا يعلم موافقته ولا مناقضته وقف فيه حتى يتبين أمره، فإذا بنى العبد أقواله وعلومه ونظره ومناظرته على هذا الأصل أفلح وأنجح وكان على ثقة من أمره ويقين من براهينه، ولكن لا يصلح هذا ولا يتم إلا لمن كان عارفاً بالأدلة الشرعية، وأما الجاهل فما يفسده أكثر مما يصلحه فعليه أن يتعلم ليتكلم، فالجاهل المركب الذي لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، والجاهل البسيط هو الذي لا يدري ويدري أنه لا يدري، كلاهما إذا تكلم كان مع تحريم كلامه ضرره أكثر من نفعه سواء انتسب إلى الحق أو إلى الباطل.

فإذا وفق العبد للعلم ورزق خشية لله وإنصافاً بأن يكون مراده الحق فيقبل الحق مع من كان وأين كان فهذا موفق محمود، فإذا رزق مع ذلك الإخلاص والمتابعة بأن تقع أقواله وأفعاله وجميع حركاته وسكناته خالصة لوجه الله مراداً بها رضاه وطلب ثوابه وكان في ذلك دائراً مع سنة نبيه ﷺ فقد كمل أمره، وحينئذ لا يبالي بكثرة المعارضين. وكلما كثر خصومه ازدادت شجاعته لعلمه وخشيته وإخلاصه ومتابعته ومعرفته أن ما معه من الحق لا تثبت له الجبال الرواسي، فإن أهل الحق لا يقاتلون بكثرة عدد ولا قوة عدد مادية وإنما قوتهم ومدارهم على القوة الحقيقية المعنوية قوة الإيمان وقوة الحق

وما يقتضيه من المقويات المعنوية وما يتبعها من القوة المادية، وبهذا فتح الصحابة وقرون الأمة المفضلة القلوب بالعلم والإيمان، واحتلوا بهذه القوة وبالعدل والرحمة الأقطار، لأنهم جمعوا أصناف الشجاعة لاعتمادهم على الحق وزهدهم في النفوس وتمام ذلك زهدهم في الثناء الباطل، فإن هذه الأمور متى اجتمعت تمت الشجاعة ومتى فقد واحد منها أو كلها نقصت أو فقدت، فمن لم يعتمد على حق بل ينصر الباطل فما أسرع ما يخالطه الجبن والخيالات المتولدة من الباطل، ومن لم يزهد بنفسه بل حببت إليه ولم يهن عليه إقدامها في الحق المشق على النفوس أو كان يخشى لوم اللائمين أو يقف عند مدح المادحين أو يعرقل مساعيه ذم الذامين فهذه كلها علل توقف سير القوة وتمنع الشجاعة، فالحق الذي لا يبالي بالمشاق ولا يقف إلا عند مدح الله ورسوله وذمهما هو القوي الشجاع.

ولا بد أن يبتلى إذا وصل إلى هذه الحال بالمعرضين والمعارضين له الرادين لما قاله، فإذا تيقن أنه على الحق وما مع المعارضين باطل ما بين بدعة أو فرية أو رأي مخالف للشرع أو شبه وتشكيكات يشككون فيها الخلق أوجب له أن يصدع بالحق ولا يخشى إلا الله. ولكنه في هذه الحال يحتاج إلى صبر جميل وصفح جميل، والجميل من ذلك ضد القبيح، فهو الخالص لوجه الله، الموافق لمرضاة الله، الخالي من هوى النفس وحمية الشيطان، ومن التسخط والشكاية إلى المخلوقين، بل إذا اشتكى فإلى رب العالمين، ويستعمل الهجر في محله لأهل البدع والانحراف والمعاصي، حيث كان فيه مصلحة ونصر للحق وتخفيف للباطل والشر، وعليه أن يحمد الله على الهداية إلى الحق ويرحم الخلق، فإنه إذا نظر إلى أقدار الله إذ خذلهم وولاهم ما تولوا لأنفسهم من الباطل والغي، وأبقاهم في ضلالهم يعمهون، رحمهم ودعا لهم وجد وحرص على السعي في هدايتهم بحسب إمكانه، ثم إذا نظر إليهم بعين الشرع والأمر أقام عليهم ما أمر به الشارع من العقوبات، وحملهم عليه وعلى

التزام أحكامه، وهو مع ذلك خائف مشفق على إيمانه، فإن الله مقلب القلوب، فما استبقيت نعم الله بمثل حمده والثناء عليه، والخوف والحذر من زوالها، والسعي في الأسباب الجالبة لها، والبعد عن المخالفات والبطر والبغي الذي يزيلها، والإكثار من الاستعاذة بالله من شر النفس وسيء الأعمال، وعليه أن يوطن نفسه على الخضوع للحق والانقياد له مع من قاله. وسرعة الرجوع عن الباطل الذي قاله مخطئاً، وأن لا يعجب بنفسه وعمله، ويجعل الرياسة والتمكن من قلوب الناس مانعاً له من قبول الحق.

فإذا جمع الله للعبد هذه الأمور التي وصى بها المؤلف في هذه المقدمة، ووثق بربه وتوكل عليه، وعلم أن الله لا بد أن ينصر الحق ومن اتبعه، نشطت نفسه وقويت همته وحصل على الفلاح والنجاح. والله أعلم.

فصـــل

وهذا أول عقد مجلس التحكيم

ذكر المصنف رحمه الله في هذه الفصول أقوال أهل البدع من الجهمية وغيرهم، ثم قول أهل العلم والإيمان بطريقة التمثيل والتصوير، ليكون أوضح لمعرفتها، وأكمل لتصورها على ما هي عليه. فهذه الطريقة من طرق التعليم العالي، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه للأمور المهمة، وكذلك النبي ﷺ قد ضرب الأمثال ليحصل البيان ويزول الإشكال، فضرب المؤلف لهذه المذاهب مثلاً بركب اتفقت مقاصدهم أولا حين شرعوا في سفرهم، يظهر من قصد جميعهم أنهم لا يطلبون أولاً حين فسلكوا طريقاً واحداً في مبتدأ سيرهم، فلما جد بهم السير وصلوا إلى مفرق الطرقات وتعدد السبل المفضية إلى مقاصدها ومواردها، فحينئذ افترقوا، فكل من هؤلاء الركب سلك طريقاً غير طريق الطائفة الأخرى.

ثم رجعوا من سفرهم آيبين وعرضوا تجارتهم وما حصلوه في سفرهم

وثمرات سعيهم على العالم العادل ليحكم بينهم بالحكم الموافق للنقل والعقل والفطرة وأنواع الأدلة، فذكر مذهب الاتحادية كابن عربي الطائي صاحب «الفصوص. . .» وغيرها من المصنفات المشحونة بالتعطيل والاتحاد، وكإبن سبعين والعفيف التلمساني ونحوهم ممن يجمعهم هذا المذهب الخبيث، وهو أن الوجود عندهم شيء واحد، فما ثم خالق ومخلوق ولا رب ولا مربوب، بل الجميع عندهم شيء واحد، ويزعمون أن تكثر الموجودات إنما ذلك وهم وغلط، فهم يطلقون عباراتهم الإلحادية فيقولون:

إن تعدد الموجودات مظاهر للتجليات؛ فيتجلى عندهم الحق في أصناف الموجودات، فهو فقير إليها لأجل ظهوره وتجليه فيها، وهي فقيرة إليه لكونه هو ذاتها وهي صفاته، فتارة يلبس الموجودات وهو إيجادها، وتارة يخلعها وهو إعدامها، فالموجودات عندهم قد لبسها، والمعدومات قد خلعها، بحسب المظاهر والتجليات. ويشبهون تكثر الموجودات بتكثر أعضاء الحيوانات، فهو حيوان واحد وأعضاؤه متنوعة، فكذلك الخالق عندهم واحد بالعين والموجودات من السماوات والأرض وما فيها صفات له وأعضاء. وقد يشبهونه أيضاً بالقوى النفسية: نفس واحدة تحمل قوى متنوعة، فيكون على قولهم كلًّا وأجزاؤه الموجودات، أو كلياً وجزئياته هذا الوجود. فهذان قولان لهذه الطوائف الملحدة.

ولم يرتض التلمساني هذين القولين وقال: هذا غلط، والصواب عنده أن الجميع شيء واحد ليس فيه تقسيم ولا تجزئة ولا تعدد، فالآكل والمأكول شيء واحد، والواطىء والموطوء شيء واحد. وقالت طائفة رابعة منهم: كل هذا غلط، وإنما الموجودات مظاهر للذات الواحدة بالعين.

ومضمون كلام طوائفهم الخبيثة أن وجود الباري تعالى خيال في الأذهان، لا وجود له في الخارج، وليس لوجوده حقيقة. وهذا هو التعطيل المحض. فقول هذه الطائفة مجرد تصوُّرِهِ كافٍ في إبطاله، فلم يصونوه عن

المحال التي يرغب عن ذكرها. فهذا مضمون توحيدهم وعقيدتهم، فالكفار عندهم لا يذمون إلا على تخصيصهم لبعض المعبودات، وإلا فلو عبدوا الوجود جميعه لكانوا عند هؤلاء مهتدين. وعندهم أن تغريق فرعون في البحر تطهير له من الوهم والحسبان الذي ظن أنه ربهم الأعلى بسبب رياسته. وزعموا أن موسى عليه السلام لما أنكر على أهل العجل حين عبدوه لم ينكر على من عبده منهم، إنما أنكر على من لم يعبده. ولذلك جر بلحية أخيه هرون ورأسه حين أنكر عليهم. وفي هذا القول من المكابرة وقلب الحقائق وجحد الضروريات ما لا يخفي على أحد، إلا على ملبوس عليه.

وتنتهي بهم الحال إلى أنهم يتظاهرون بالسجود لكل شيء حتى أن بعض أكابرهم رأى إبليس فسجد له، فأنكر عليه فقال: ما سجدت إلا لله، فاسجدوا لأي موجود شئتم من شمس أو قمر أو أصنام أو غيرها فليس ثم غير الله، لأن الجميع شيء واحد. هذا المحقق منهم فسبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، فلقد تجرأوا على الله وقالوا مقالة لم يرتضها اليهود والنصارى وغيرهم من الملل، وحقيقة الأمر أن كفر المشركين وكل كافر جزء من أجزاء كفر هذه الطائفة الملعونة، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لأمرين: انتسابهم إلى التأله والتعبد والتصوف والزهد، وكثرة الرموز والإشارات الشبيهة بالألغاز. وإلا فمن في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان لو عرف حقيقة مذهبهم لرجمهم بالحجارة. نسأل الله العافية، ونحمده على نعمه الظاهرة والباطنة.

فصــل

في قدومَ ركْب آخر

وهذا الوصف الذي ذكره المصنف ينطبق على مذهب الجهمية الأولين الذين حقيقة مذهبهم يزعمون أن الله في كل مكان، وأنه حال في الأمكنة حلول الروح في الجسد. وهؤلاء الذين ناظرهم الإمام أحمد وغيره، فهؤلاء لم يصونوه عن الأمكنة الطيبة والخبيثة، وهؤلاء غير الجهمية الذين ذكرهم بقوله:

فصــل

في قدوم رَكْب آخر

وهؤلاء هم الجهمية الصرف الذين نفوا علو الله على خلقه، ونفوا جميع صفاته كما تقدم بيان مذهبهم. فنفوا ما تواترت به الآيات القرآنية والنصوص النبوية، من علوه على خلقه، واستوائه على عرشه، فراراً بزعمهم من تشبيهه بالمعدومات، ولذلك قال بعض الفضلاء: لو قيل: صفوا لنا العدم لم نصفه بأبلغ من قول الجهمية في الله أنه لا داخل العالم ولا خارجه. ثم من الغرائب استدلال بعض من يشار إليه منهم بقوله ﷺ (لا تفضلوني على يونس بن متى) يقول هذا الفاضل منهم: إن محمداً عرج به إلى فوق السماوات السبع ويونس ابتلعه الحوت في قرار البحر وكلاهما في قربه من ربه سواء، فهذا يدل على نفي العلو. فانظر إلى هذا التعصب العظيم الذي أداه إلى هذا التحريف لهذا الحديث الذي لم يقله أحد ممن ينتسب للعلم. وهذه حال الذين يتبعون المتشابه، مع أن هذا الحديث واضح ليس بمتشابه، ويدعون النصوص الكثيرة المحكمة المصرحة بعلوِّ الله على خلقه واستوائه على عرشه. فاحمد الله أيها السني على العافية من هذا البلاء، وسله الثبات في الأمر.

فصـــل
في قدوم رَكْب آخر

وهؤلاء طائفة من أذكياء الفلاسفة مضمون مذاهبهم وخلاصتها أنهم لما رأوا مذاهب الجهمية والمتكلمين متناقضة متضاربـة: ينفون الشيء ويثبتون نظيره وما هو أولى منه. ويقطعون بالشيء في موضـع وبضده في موضـع آخر. ورأوها مناقضة للعقل الصريـح كما ناقضت النص الصحيـح. ورأوا مذاهب أهل السنة والجماعة محكمة متناسبة دائرة مـع ما جاء به الكتاب والسنة، فعرفوا بذكائهم وحرية فكرهم أن القول الحق هو قول أهل السنة والجماعة وما سواه فمعروف بطلانه ببداهة العقول، ولكن حال بينهم وبين اتباع هذا القول تنفير الناس عنه وتلقيبهم لأهله بأنهم مجسمة مشبهة حشوية ونحوها من الألقاب الشنيعة التي ينفر من أهلها أكثر الناس ويهابونها، فلم يكن عندهم من القوة والبصيرة التامة ما يوجب لهم اتباعهم ومخالفة الجمهور، وهم قد عرفوا بطلان مذهب الجهمية ونحوهم، فانحلوا بذلك من الشرائـع كلها وصرحوا بمذاهب ملاحدة الفلاسفة وقالوا صريحاً: إذا لم نتبـع المجسمة ـ يعنون أهل السنة المثبتين لما جاء به الرسول من الصفات ـ فلا نرضى لأنفسنا بمذهب الجهمية وأهل الكلام المتناقضين، فانظر كيف صارت بدعة التجهم من أعظم الأسباب لتمسك الملحدين في إلحادهم، لظنهم أن ما عليه أهل الكلام هو ما جاء به الرسول، فأساءوا الـظن بالشـريعة، وصـار مـع ذلك هؤلاء المبتدعون يخضعون للفلاسفة في بحوثهم ومناظراتهم معهم، لأنهم وافقوهم في كثير من أصولهم الفاسدة، وإلا فلو قابل هؤلاء الفلاسفة أهل السنة والجماعة الذين سلاحهم ما جاء به الكتاب والسنة وما دلت عليه صرائـح العقول لم يثبتوا لهم بوجه من الوجوه، ولقامت الحجة عليهم واهتدى من كان قصده الهدى، لأن المناظرة بالحق وبطرقه الحقيقية هو السبب الوحيد للرشاد والإرشاد.

فصـــل

في قدوم رَكْب الإيمان وعسكر القرآن

ذكر المصنف أن هذا الركب لما قدموا من سفرهم، وعرضوا بضاعتهم وتجارتهم فأخبروا أن مذهبهم مبني على الحق والصدق واليقين، مؤسس على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان من القرون المفضلة، ومع ذلك فهو الحق الذي يؤيده العقل الصريح ويعترف به أولو الألباب، والعقول الوافية لما كانت مبنية على هذا الأصل العظيم والصراط المستقيم، لم يتفرع عنها إلا كل خير مُزَكٍّ للنفوس مصلح للعقائد منمّ للأخلاق الفاضلة مكمل للأعمال الصالحة، وهاك تفصيل عقيدتهم:

فإنهم يشهدون أن لا إلَهَ إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الله متفرد بالخلق والملك والسلطان والتدبير، فليس له في ذلك شريك ولا عوين، وأنه الإلَه الحق الذي لا معبود سواه، وأن كل من عبد من دونه من ملك مقرب أو نبي مرسل أو غيرهما فعبادته من أبطل الباطل وأعظم الشرك، ويقومون بعبودية ربهم بكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، يخلصونها لله، ويتابعون فيها رسول الله، ويتقربون بها إلى ربهم على وجه المحبة التامة والذل الكامل، فإن عبادة الله مبنية على هذين الأصلين:

الإخلاص والمتابعة الناشئين عن محبة الله وتعظيمه. فعبودية الله الظاهرة والباطنة تدور على هذا، ولا نجاة ولا فلاح إلا بذلك.

ويرون أعظم التقربات إلى الله الجد في إحسان الأعمال وإكمالها وإيقاعها على أكمل الوجوه، مع استحضار مقام المراقبة لله وقت تلبس العبد بها، فيجتهدون في اتقان العمل وتنقيته من جميع المنقصات، ويعلمون أن هذا مراد الله من عباده كما قال تعالى:

﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ [سورة هود: الآية ٤٧]

ويُقِرُّون ويعتقدون بجميع ما ثبت في الكتاب والسنة من أسماء الله وصفاته

وأفعاله، ويقولون إنه عليّ على خلقه، مستو على عرشه، يدبر أمر العباد ويراهم ويسمعهم ويشاهد حركاتهم وسكناتهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية، فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ويرى خائنة الأعين ويعلم ما تخفي الصدور، ويسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين. وهو العليم الذي أحاط بكل شيء علماً فيعلم ما توسوس به الصدور، والخفيات والجليات من الأمور، وما فوق السماوات السبع وتحت الأرضين السبع، والقريب والبعيد عنده سواء.

ويعلم العالم العلوي والسفلي وما احتوت عليه من أصناف المخلوقات

﴿وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلَمُها إلّا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقُطُ من ورقةٍ إلّا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتابٍ مبين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهو القدير على كل شيء، فجميع الأشياء منقادة لقدرته، تابعة لمشيئته، لا تستعصي عليه ولا تمتنع منه.

قالوا: وهذا العموم يتناول كل شيء من الأعيان والأفعال والصفات، فيدخل في ذلك أفعال العباد من الطاعات والمعاصي فإنها داخلة تحت قدرة الله ومشيئته، وكما أنه المريد لها القادر عليها فإنهم هم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم، كما جمع الله بين هذين الأصلين في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى:

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ [سورة التكوير: الآيتان ٢٨، ٢٩]

لكن الجبرية والقدرية لم يوفقوا للجمع بين إثبات القدر والقضاء وبين إثبات أفعال العباد، فالجبرية تقدم مذهبهم أنهم يثبتون القدر وعمومه ويعتقدون أنهم

مجبورون مقهورون على أفعالهم وقابلهم القدرية النفاة فزعموا أن قدرة الله لا تتناول أفعال العباد. وكل من الطائفتين نظرت نظراً قاصراً، فلم يؤمنوا بالكتاب كله الدال على إثبات عموم قضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن الأفعال واقعة من العباد بقدرتهم ومشيئتهم، فلو وفقوا لذلك كما وفق له أهل السنة والجماعة لهدوا، ولذلك قال الإمام أحمد رحمه الله «القدر هو قدرة الله» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من الإمام أحمد وقال: إنه شفى بهذه الكلمة ووفى، فإن هذه الحقيقة هي التي افترق الناس فيها كما تقدم التفصيل.

والحاصل أن أهل السنة أثبتوا عموم قدرة الله وتمام حكمته وشرعه وقدره، ويعتقدون أنه الحي القيوم، فالحي له صفات الحياة كلها من السمع والبصر والعلم والقدرة وغير ذلك من المعاني العظيمة والنعوت الكاملة التي لا تتم الحياة الكاملة بدونها، وإثباتها لله على أكمل الوجوه، فلا يعرض لها ما يضادها من الموت والنوم والسِّنَة والعجز والنقص بوجه من الوجوه. والقيوم الذي له العظمة كلها، الذي قام بنفسه وقام به كل شيء. الفعال لما يريد الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. وكل الصفات الفعلية والمجد والعظمة والجلال ترجع إلى اسمه القيوم، ومرجع صفات الكمال كلها ترجع إلى هذين الاسمين الكريمين. ولذلك ورد الحديث أن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى

﴿الله لا إلَه إلاّ هو الحيُّ القيوم﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٥٥]

لاشتمالهما على جميع الكمالات. فصفات الذات ترجع إلى (الحي) ومعاني الأفعال ترجع إلى (القيوم). ويعتقدون أن له الإرادة النافذة في جميع الموجودات، وبها خصص ما شاء من المخلوقات بالصفات المتباينة والنعوت المتنوعة، وأنه يحب الصالحين من عباده، المتقين المحسنين. ويحب الأعمال الصالحة، ويكره الكفر والفسوق وأهلهما، وأن إرادته ومشيئه غير كراهته ومحبته، فالإرادة عامة لكل ما وجد من محبوب ومكروه، والمحبة والكراهة خاصتان كما تقدم، وأن له الرحمة الواسعة والإحسان العظيم الذي ملأ

جميع المخلوقات، فهو الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، وله الكمال المطلق التام الذي لا يعتريه نقص ولا يشابهه ولا يماثله أو يقاربه في كماله أحد، فإنه الكامل الذي ليس كمثله شيء في كماله وتفرّده به. ومن الأدلة العقلية على كماله أنه تعالى خلق أجناس المخلوقات وأودعها ما اقتضته حكمته وحمده من الكمال اللائق بها، ومن أعطى الكمال فهو أحق بالكمال من المعطى، وهذا بخلاف اللوازم البشرية اللازمة لنقص البشر التي لا ينفك الإنسان عنها، كالنوم والأكل والشرب والجماع والحاجات ونحوها من لوازم المخلوق المحدث، فإن الله يتقدس عنها ويتنزه عن جميع خصائص البشر.

ومن قول أهل السنة والجماعة قولهم في الكلام وإن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، فإن الكلام من صفات الكمال، والله تعالى لم يزل ولا يزال له الكمال المطلق فكلامه القرآن هو المقروء بالألسنة المحفوظ في الصدور المسموع بالآذان، وكلامه من جملة صفاته الفعلية، فهو متصف به، وهو متعلق بمشيئته وقدرته، وليس مخلوقاً لأن الكلام صفة المتكلم:

﴿وتَمَّتْ كلمة ربك صِدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في أخبارها وعدلاً في أحكامها وأوامرها ونواهيها، وكلماته لا تنفد ولا تبيد:

﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّهُ من بعده سبعةُ أبحرٍ ما نَفِدَتْ كلمات الله﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧]

وهذا الوصف لا يكون للمخلوق، والنبي ﷺ قد استعاذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وهذا يدل على أنه من صفاته، لأن كل مخلوق ينفد ويبيد، والمخلوق لا يستعاذ به وإنما يستعاذ بالله وأسمائه وصفاته، والقرآن كلام الله غير مخلوق ألفاظه ومعانيه، فهو كلام رب العالمين وتنزيله ووحيه، وأما أفعال العباد كأصواتهم ومدادهم الذي به يكتبون القرآن والرق الذي يكتبون عليه فإن ذلك من جملة المخلوق، ولذلك يقولون الكلام كلام الباريء والصوت صوت

القارىء والمداد مداد الكاتب والكتابة فعل الكاتب، هذا كله إذا أخبر عن كلام الله الذي يكون بهذه الوسائط، فأما إذا سمع من الله تعالى كما سمعه موسى بن عمران فإن المخلوق في هذه الحال هو سمع العبد، وأما الكلام وصوت المتكلم به فإنه من نعوت الله وصفاته، وهذا الفرق ثابت عن الإمام أحمد والبخاري وغيرهما من أئمة أهل السنة، واتفق على ذلك أصحابهم وأتباعهم، وخالفهم في هذا طائفتان من الناس إحداهما الجهمية كما تقدم قولهم إن القرآن مخلوق أالفاظه ومعانيه، والثانية الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية القائلين بأن القرآن نوعان ألفاظ ومعان: فالألفاظ مخلوقة وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمة قائمة في النفس وهي معنى واحد لا تبعض فيه ولا تعدد، أن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، أو بالسريانية كان إنجيلاً. وهذا القول تصوّره كاف بمعرفة بطلانه، وليس لهم دليل ولا شبهة على هذا القول الذي لم يقله أحد غيرهم إلا استدلالهم ببيت يقال إنه للأخطل النصراني وهو قوله إن ثبت وإلا فكثير من النحويين ينكرون أنه له:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما ... جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وهذا البيت معروف معناه، وأن الكلام يخرج من القلب ويعبر عنه اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط فهذا يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما؛ وهَبْ أنه دل على القول الذي قالوه فكيف يتركون لأجله أدلة الكتاب والسنة، والذي يعقله العقلاء بعقولهم أن الكلام صفة للمتكلم، وأنه الكلام المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمى كلاماً بوجه من الوجوه، وأيضاً فإن النصارى غلطهم في الأصول والفروع معروف فإنهم غلطوا في معنى الإلّه أظهر الأشياء وأجلاها حيث قالوا في وصف المسيح أقوالاً عظيمة وافتراء كبيراً فزعموا أن في عيسى وصفين متباينين كل المباينة: وصف الإلّهية وهي المعبر عنها عندهم باللاهوت ووصف الإنسانية وهي المعبر عنها عندهم

بالناسوت، فهو عندهم قديم محدث بما فيه من هذين الوصفين. وقول الكلابية من هذا الجنس أن القرآن شطره قديم وهو المعنى النفسي وشطره محدث وهو هذا الموجود في المصحف، فهو عندهم عبارة أو حكاية عن كلام الله، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية هذا القول وبين بطلانه في رسالته التسعينية، فبين تسعين وجهاً كل واحد منها يدل على بطلانه أدلة نقلية وأدلة عقلية، وبعض هؤلاء الكلابية والأشعرية قالوا إنه خمسة معان: الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي، والإخبار بكل خبر والاستفهام عن المعاني، ومجموع هذه وهو المعنى الخامس. فتكون هذه أنواعاً للكلام، وعلى قول الأولين تكون أوصافاً له، ولكن اتفقت الطائفتان أن الذي جاء به جبريل إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته مخلوق كقول المعتزلة سواء، فمنهم من قال خلقه في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال إن جبريل ألهمه إلهاماً، ومنهم من قال بل محمد، وهذا القول كما قال من اعترف منهم أنه لا فرق بينه وبين قول المعتزلة إلا في اللفظ، وإلا فهو معنى قولهم، وأما أهل السنة والجماعة فإنهم يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة أن القرآن كلام الله حقيقة غير مخلوق، نزل به جبريل من عند الله وسمعه من الله، فنزل به على محمد ﷺ، فهو كلام الله حقاً حيث تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون، وهو المعجز بلفظه ومعناه.

فصـــل

في مجامـع طُرُقِ أهل الأرض واختلافهم في القرآن

استوعب المصنف أقوال أهل الأرض في هذه المسئلة، وذكر أصلاً جامعاً تنبني عليه أقوالهم في القرآن، وأن أقوال الناس في القرآن سبعة أقوال تدور على أصلين أحدهما هل قوله متعلق بقدرته ومشيئته أم لا. الثاني هل قوله وكلامه قائم بذاته ومتصف به أم هو خارج عن الذات ومنفصل عنه. فعن هذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن، فالقائلون إنه لا يتعلق بمشيئته وإرادته طائفتان: إحداهما الكلابية ومن تبعهم من الأشعرية كما تقدم قولهم قريباً، وأنه معنى قائم بالنفس وأنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، وأن الموجود عبارة أو حكاية عنه كما تقدم، فالحكاية قول أبـي سعيد بن كلاب الذي تنسب إليه الكلابية، والعبارة قول أبـي الحسن الأشعري وبعض أصحاب هؤلاء يقولون هذا الخلاف لفظي لا طائل تحته.

والطائفة الأخرى من القائلين إنه لا يتعلق بمشيئته قالوا إن ألفاظه ومعانيه قديمة قائمة بالنفس لا تقبل الحدوث، والحروف كلها قديمة ما زالت موجودة في الأزل والقدم. فلما قيل لهم هذا مخالف للمحسوس المعلوم بالبديهة أن حروف الكلام طبعاً لا بد أن يسبق بعضها بعضاً، قالوا إنما ترتيبها بالنسبة إلى سمع الإنسان، وإلا فهي ما زالت متصاحبة مقترنة. ولا شك أن هذا القول إلى التخليط والهذيان أقرب منه إلى التحقيق والبرهان، وهذا المذهب قول طائفة يقال لهم الاقترانية نسبة لهذا القول الذي انفردوا به، وهو مخالف لأصل الأئمة وموافق لبعض قول الكلابية. وذكر المصنف أن ابن الزاغوني من هذه الطائفة فرق بين ذوات هذه الحروف وبين حروفها، وزعم أنها مقترنة بذواتها مترتبة بوجودها، وهذا التفريق باطل، فإن ذات الشيء وحقيقته وماهيته شيء واحد، ولا فرق بين هذه الحقائق سواء قدّرت في الأعيان أو في الأذهان، ولكن إذا اختلف التقدير أمكن افتراق التعبير، فإذا قيل الحقائق الخارجية غير

الوجودات الذهنية فهذا صحيح، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده المتكلمون كالرازي وغيره وهو هل وجود الباري غير ذاته أوغير حقيقته أم لا، وأن الواجب أن يقال إذا اتحدت الاعتبارات فهما شيء واحد وإذا اختلفت العبارات اختلفت وفُرّق بين الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي والوجود الخارجي، فهذا غير هذا وهذا غير هذا. والله أعلم.

فصل

وأما القائلون بأن القرآن متعلق بمشيئة الله وقدرته فهم أيضاً طائفتان: إحداهما الجهمية المعتزلة القائلون بأن القرآن مخلوق، خلقه الله كما خلق السموات والأرض، وأنه خارج عن ذات الله لا يقوم بذاته كلام ولا قول، فلما قال الناس لهم هذا أمر معلوم بطلانه، فإن الكلام صفة المتكلم، والله قد أضافه إلى نفسه إضافة صفة إلى موصوفها، فزعموا أن إضافته إليه إضافة تشريف كإضافة ناقة الله وبيت الله وعبد الله، فأجابهم الناس بما هو معروف ومتقرر عند كل أحد مع دلالة الكتاب والسنة إليه، فقالوا إن الإضافة نوعان: أحدهما ما يضيفه الله إلى نفسه من الأعيان كبيت الله وناقة الله ونحوهما فهذه الإضافة لبعض مخلوقاته تفيد تشريفه وتكريمه بما امتاز به ذلك المضاف من الأوصاف الفاضلة، والثاني إضافة معانٍ وأوصاف تقوم بغيرها كعلم الله وقدرته وإرادته وكلامه، فهذه الإضافة من باب إضافة الأوصاف إلى موصوفها تقتضي قيامها به واتصافه بها، ومن خالف هذا الفرق فهو منكر للمحسوسات.

وهذا القول الذي ذكره في هذا الفصل مقالة الجهمية ومتأخري المعتزلة، وأما متقدمو المعتزلة كواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأصحابهم الذين اعتزلوا عن مجلس الحسن البصري حين قرر مذهب الحق في الإيمان وأنه اسم جامع للعقائد والأقوال والأفعال، وأنه يزيد وينقص، وأن الفاسق الملي مؤمن ناقص الإيمان غير مخلد في النار، فلم يرتضوا هذا لأن مذهبهم شبيه بمذهب الخوارج من جهة المعنى لتخليدهم أهل الكبائر في

النار، ولكنهم يخالفونهم في اللفظ فيقولون: إن صاحب الكبيرة الذي لم يتب منها ليس بمؤمن ولا كافر بل هو منزلة بين منزلتين، ومع ذلك تناقضوا فخلدوه في النار. من ذلك الوقت سماهم الحسن البصري بالمعتزلة لهذا السبب؛ فهؤلاء قولهم في القرآن يوافق قول أهل السنة والجماعة أنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدىء وإليه يعود، وسيأتي إن شاء الله تفصيل الكلام في أهل البدع، وانقسامهم إلى كافر وفاسق وضال ودون ذلك. والله أعلم.

الفرقة الثانية من القائلين إنه يتعلق بمشيئته وإرادته انقسموا إلى طائفتين: إحداهما الكرامية قالوا إن كلامه تعالى متعلق بمشيئته وقدرته، وصدقوا في هذا ولكن قالوا إنه حادث النوع، وأخطأوا خطأ كبيراً. والذي أوجب لهم هذا الخطأ الفاحش كونهم ظنوا أنهم إذا أثبتوا قدم النوع أن ذلك يوجب التسلسل الذي يفسد عليهم الطريق الذي أثبتوا به وجود الخالق، فلذلك قالوا إنه حادث النوع، وجعلوا أفعال الله وكلامه في هذا سواء كلها حادثة بعد أن لم تكن، ولكنها بعد ذلك لا تزال ولا تفنى ولا تبيد.

قالت الكرامية: ولم ينصف خصومنا من الكلابية والأشعرية حيث شنعوا علينا بهذا القول وأقاموا علينا القيامة بسببه، فلو فكروا في أنفسهم لعرفوا أن غلطهم أكبر منا وأشد جرماً، فإنهم قالوا: إن الفعل عين المفعول، فهل في تعطيل أفعال الله أعظم من هذا التعطيل، فإذا لم يقم بالله لا قول ولا فعل فهذان التعطيلان أبلغ من قولنا بحلول الحوادث حيث عبروا بهذا اللفظ البشع، وحقيقة الأمر أن الطائفتين منحرفتان، ولكن الكرامية أهون خطأ من الأشعرية ومن تبع الجهمية في هذا الأصل، ولم يبق على الكرامية إلا مرتبة لو قالوها واعتقدوها لهدوا إلى الرشد وهي موافقتهم لأهل السنة والجماعة كالإمام أحمد والبخاري وبقية الأئمة، وإنما نص المصنف على هذين الإمامين لأنهما ابتليا في هذه المسألة وأظهرا من السنة والتفاصيل فيها ما لم يكن لغيرهما، فلهذا عقد لمذهبهم فصلاً فقال:

فصـــل

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما دل عليه الكتاب والسنة من الأصلين: أحدهما أن الله موصوف بالكلام وكلامه نعته ووصفه، والثاني أنه متعلق بمشيئته وقدرته فيتكلم إذا شاء كيف يشاء بما يشاء ولم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً، فالكلام من صفات الذات لقيامه بها واتصافه به فإنه كلامه، ومن صفات الأفعال الواقعة بمشيئته وقدرته، والله لم يزل كاملاً والكلام بلا ريب من صفات الكمال، فكيف يتصور أن يخلو في وقت من الأوقات من هذا الكمال ويعود ممكناً بعد أن كان ممتنعاً. ويقولون: إن تعاقب الكلمات ثابت لها لذواتها مثل ثبوت تعاقب الأزمنة، فكما أن كل زمان قبله زمان وقبل هذا الزمان زمان إلى غير غاية ونهاية والتسلسل فيها ثابت وهي من جملة الواقع بإرادة الله وقدرته فكذلك الكلام والأحرف مترتبة كل كلام قبله كلام وقبل ذلك كلام إلى غير نهاية وغاية، فترتبها في ذاتها كترتبها في سماعها، فإن هذا الوصف من لوازم الكلمات لا تكون إلا كذلك، خلاف ما يقوله الاقترانية فإن الاقتران غير معقول كما أن قول القائلين بأن القرآن مخلوق خلقه الله في بعض الأعيان يقتضي عقلاً ولغة وعرفاً أن صفة الكلام قائمة بذلك المحل، وأن ذلك المحل هو الذي يتكلم، فهذا أيضاً محال في العقل كما أنه باطل في النقل فلا يعقل الكلام إلا لمن قام به وتكلم به حقيقة، كما أنه لا يكون حياً عالماً سامعاً مبصراً إلا لمن قامت به هذه الصفات فلو وصف المحل بحياة أو علم أو سمع أو بصر قائم بغيره لعلم الناس أن هذا محال ممتنع، وهكذا جميع الصفات.

والله تعالى موصوف بأنه متكلم بإجماع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وقد شهدت بذلك العقول الصحيحة والفطر السليمة والبراهين القواطع، وكلامه من جملة صفاته قائم بذاته، فلو لم يقم بذاته لم يكن في الحقيقة متكلماً، وقد وصف الله نفسه بالكلام والتكلم والتكليم والقول والنداء

والنجاء، فالنداء الصوت الرفيع والنجاء الصوت الخفي، وهذه الأمور لا تعقل إلا لمن اتصف بها وقامت به وأسمعها غيره، والقرآن سور وآيات وكلمات وحروف كما وردت الآثار بهذه الأوصاف له وكما هو معروف بين الناس، وهو كله كلام الله منزل غير مخلوق والله أعلم.

فصـــل
في إلزامهم القول بنفي الرسالة إذا آنتفت صفةُ الكلام

هذا الفصل مشتمل على أمرين: أحدهما أن الرسالة والنبوّة من أكبر الأدلة على أن الله متكلم، لأن حقيقة رسالة الرسل صلى الله عليهم وسلم تبليغ كلام الله للخلق: أخباره وأوامره ونواهيه وتوابع ذلك، فيلزم من ثبوت الرسالة ثبوت صفة الكلام، ومن نفيها نفي الكلام. وهذا هو الأمر الثاني وهو إلزام أهل الكلام الباطل الذين نفوا كلام الله وزعموا أنه مخلوق أو أنه لا يتعلق بمشيئته وقدرته، يلزم من هذا القول نفي الرسالة. ومن المعلوم أن فساد اللازم دليل على فساد الملزوم، وفساد القول بنفي الرسالة أمر معلوم، وأنه جحد للرسل والكتب والشرائع. ويوضح هذا أن الرسالة هي خطابه للرسل إما بغير واسطة كخطابه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ومحمد وجبريل وغيرهم ممن كلمه الله، وإما بواسطة وهو أيضاً نوعان: إما يوحى إلى الرسول ويلقى الوحي إليه وفي قلبه، وإما يرسل إليهم الملك كما ذكر الله ذلك بقوله:

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسِلَ رسولاً فيوحِيَ بإذنه ما يشاء﴾ [سورة الشورى: الآية ٥١]

فصـــل

في إلزامهم التشبيه للربّ بالجماد الناقص إذا آنتفت صفة الكلام

وهذا الإلزام الذي ألزمه أهل السنة والجماعة للجهمية ومن تبعهم معروف مشهور، وهو واضح إلزامه جداً، فإنه إذا لم يكن الله متكلماً ولا موصوفاً بالكلام، ومعلوم أن الكلام صفة مدح، لزم أن يكون الحيوان الذي يتكلم أكمل منه، ولزم من ذلك مشابهته للجمادات التي لا تتكلم، فانظر كيف فرّوا من تشبيهه بالإنسان فوقعوا في تشبيهه بالجمادات التي لا تتكلم. ولما عرفوا شنعة هذا الإلزام عليهم قالوا: إن نفي الكلام يكون نقصاً إذا نفي عمن هو قابل له ولضده كالإنسان، فإنه إذا كان أخرس نقص بكثير عن المتكلمين، وأما الذي لا يقبل الكلام ولا يصح منه فليس في إثبات الكلام ونفيه عنه نقص. فيقال لهم كلامكم هذا مما زاد الأمر شراً وبطلاناً، فإن نفي الكلام عنه نقص، ونفي القبول منه للكلام نقص آخر، فإن الحيوان المتكلم معلوم أنه أكمل من الجماد الذي لا يتكلم، فنزلوا عن تشبيهه بالإنسان إلى تشبيهه بالجماد فصاروا مشبهين بفهمهم معطلين باعتقادهم. أما أهل السنة والجماعة فيقولون: ثبوت ما دل عليه الوحي من جميع الصفات لا يقتضي تشبيهاً ولا تمثيلاً، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فصـــل

في إلزامهم بالقول بأن كلام الخلق حقُّه وباطلُه عينُ كلام الله

قد قامت الأدلة والبراهين من وجوه متعددة كثيرة جداً أن أفعال العباد مخلوقة لله، وأن جميع أفعالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وجميع أحوالهم مخلوقة لله، فيلزم على قول الجهمية أن يكون كلام الخلق كله حقه وباطله كلام الله لأنه منسوب إلى الله من جهة خلقه، فإن نسبة الكلام إلى الله ــ على قولهم ــ كنسبة بيت الله وناقة الله ونحو ذلك من الأعيان التي يعلم أن نسبتها

إلى الله نسبة تشريف وتكريم، ولا تخرج بذلك أن تكون مخلوقة، فالقرآن كذلك. وهذا اللازم لزومه لقولهم واضح جداً، وهو أبطل ما يكون ويلزم منه شر الأقوال. ولهذا التزم هذا القول شر الطوائف وهم الاتحادية، وهو كفر بالله العظيم وتعطيل لوجوده. فإن زعم الجهمية أن هذا غير لازم لهم لأنهم خصصوا، فيقال ما تقدم أن هذا التخصيص لا ينفي التعميم، كما خصص ربوبيته بالعرش وبالبيت الحرام مع أنه رب العالمين، فهكذا قولهم إن هذا التخصيص للقرآن لا يمنع التعميم. ولما كان أهل السنة قولهم حقاً لم يلزم منه إلا كل حق والله أعلم.

فصـــل
في التفريق بين الخَلْق والأمر

اعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الخلق غير الأمر، وأن الفعل غير المفعول، فالفعل صفة لله والمفعول هو المخلوق، والأمر تنشأ عنه المأمورات والشرائع، والخلق تنشأ عنه المخلوقات كلها. وقد دل على هذا قوله تعالى:

﴿إنّ ربكم اللّهُ الذي خلق السماواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يُغشِي الليلَ النهارَ يطلُبُهُ حثيثاً والشمسَ والقمَر والنجومَ مسخراتٍ بأَمْره ألَا لهُ الخَلْقُ والأمرُ تبارك اللّهُ رب العالمين﴾

[سورة الأعراف: الآية ٥٤]

فتدبر هذه الآية الكريمة تجدها مصرحة بأن الخلق غير الأمر كما هو الأصل أن المعطوف غير المعطوف عليه، ويمتنع أنهما شيء واحد، فإنه صرح فيها أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وذلك بعد ما أخبر أنه خلقها، فخلقها ثم سخرها بأمره، والأمر سواء قيل إنه مصدر أو اسم مفعول فالغرض حاصل، فإن كان مصدراً وهو الأظهر فهو وصف ظاهر، وإن كان اسم مفعول بمعنى المأمور فإن المأمور ناشيء عن الأمر كالمصنوع ناشيء عن الصنعة، فيلزم من وجود المأمور وجود الأمر ومن انتفاء المأمور انتفاء الأمر، كما يلزم

من وجود المخلوق وجود صفة الخلق الذي هو الفعل وبه وجد المخلوق، ومن نفيه انتفاء الخلق.

وتدبر في هذه الآية سراً عجيباً، فإنه ذكر في أولها خلقه السماوات والأرض خصوصاً، وتسخيره الشمس والقمر والنجوم بأمره أيضاً خصوصاً، وصرح فيهما بالفعل، وذكر في آخرها الوصف والتعميم في قوله: ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾ فجمع بين فعله ووصفه على وجه الخصوص وعلى وجه العموم، فهذا القول الحق الموافق لما دل عليه القرآن، ولما هو معقول عند أولي الألباب. وأما الجهمية ومن تبعهم من المتكلمين فحيث كان أصل قولهم إن الفعل عين المفعول سووا بين الخلق والأمر، وهذا قول متناقض باطل مخالف للنقل وللمعلوم بالعقل، فكيف يثبتون فرعاً بلا أصل، وهل هذا إلا مبطل للفرع والأصل؟

فصل

في التفريق بين ما يضاف إلى الله من الأعيان والأوصاف وكذلك ما أخبر أنه منه

وحاصل ذلك أن الذي يضيفه الله إلى نفسه إما أعيان يخصها بهذه الإضافة المقتضية للاختصاص والتشريف مثل عبد الله وناقة الله وبيت الله ومثله:

﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ**﴾

[سورة الفرقان: الآية ٦٣]

فهذه أعيان قائمة بأنفسها وهي من جملة المخلوقات، لكنه أضافها لنفسه تفضيلاً لها على غيرها وتعظيماً. وإما إضافة أوصاف كعلم الله وقدرته وإرادته، وكذلك كلامه وحياته، فهذه الإضافة تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها. وكذلك ما أخبر أنه منه، فإن كان أعياناً كروح منه:

﴿وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾

[سورة الجاثية: الآية ١٣]

فهذه منه خلقاً وتقديراً. وإن كان ذلك أوصافاً كقوله:

﴿تنزيل الكتاب من الله﴾

[سورة الزّمَر: الآية ١]

دل على أن ذلك من صفاته لامتناع قيام الصفة بنفسها، ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق الذي يحصل به الفرقان بين الحق والباطل هدوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمية ونحوهم وقعوا في الأقوال الباطلة. والله أعلم.

فصــل

وزعم أبو محمد بن حزم الظاهري أن مسمى القرآن يطلق على أربعة أشياء: يطلق على المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويطلق على هذا الذي نقلوه، ويطلق على ما هو محفوظ في الصدور. فهذه الثلاثة عنده مخلوقة. ويطلق على المعنى القديم القائم بذاته كقيام علمه بحيث لا يتعلق بمشيئته، فهذا غير مخلوق.

وهذا القول هو قول الكلابية السابق إلا أن التعبير اختلف، فأبو محمد قال إنه مخلوق كما صرح بذلك المعتزلة والكلابية، والأشعرية قالوا عبارة وحكاية عن كلام الله كما تقدم قولهم. والذي أوجب لابن حزم أن يقول بهذا التفصيل الذي هو من الأضاليل أنه لما رأى مراتب الوجودات أربعة: للمعينات وجود في الخارج، ووجود في اللفظ، ووجود في الرسم، ووجود في الذهن: فوجود الشيء يطلق على كل من هذه الأمور الأربعة، وأن أولاها بالقرآن عنده الوجود الخارجي وهو المعنى النفسي القديم، وخالفه أبو عبد الله الرازي فزعم أن الأولى بهذه المراتب الوجود الذهني، وكل هذا غلط فاحش وقلة فرقان، وإلا فالشيء واحد في نفسه حيثما تصرف، فالقرآن كلام الله

بوجوداته الأربعة إذا تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون أو تكلم رب العالمين، فهو في كل هذه المراتب كلام الله منزل غير مخلوق، وهو حقيقة في جميع هذه المراتب، ولهذا أخبر الله عن القرآن خبراً واحداً في أحواله كلها فأخبر أنه تكلم به، وأنه كلامه وتنزيله، وأنه نزل منه؛ وأخبر أنه في صدور أهل العلم محفوظ، وأنه في صحف مطهرة، وأنه متلوّ مقروء وكل ذلك على وجه الحقيقة. وهذا بخلاف القول في تلاوة العبد، فإن التلاوة غير المتلوّ، والقراءة غير المقروء. فالتلاوة فعل العبد وهي مخلوقة، والمتلوّ هو كلام الله غير مخلوق. ولهذا كان الأئمة يقولون: إن كتابة العباد وأصواتهم والرق الذي كتب عليه القرآن والمداد الذي كتب به هذه كلها مخلوقة، فإن جميع ما يرجع إلى ذوات العباد وأوصافهم مخلوق، وأما الذي يرجع إلى الله تعالى ويضاف إليه فإنه كلامه غير مخلوق، وهذا الفرق واضح شرعاً وعقلاً.

والتلاوةُ قد يعنى بها المتلوّ فهو كلام الله غير مخلوق، وقد يعنى بها تلاوة العباد وأصواتهم وأفعالهم فهي مخلوقة. وهذا الفرق هو الذي قرره البخاري وغيره. وأنكر عليه بعض أهل العلم حيث لم يفهموا مراده، وجرى بينه وبين الإمام محمد بن يحيى الذهلي محنة مشهورة، وكل منهما إمام من أهل السنة والجماعة، فمحمد بن يحيى قصد سد الباب عن تطرق الجهمية والمعتزلة؛ والبخاري فصل الحق الذي به يزول الإشكال وتستقيم به الأحوال، وكل منهما يحمد على سعيه المشكور ولكن الحق أحق أن يتبع. فالواجب على من عرف الحقائق أن يفصلها ويميز بين الحقائق المتباينة، وعلى من عنده توقف وإشكال أن يقف حتى يتضح له الصواب. وكل من البخاري والذهلي نسب القول الذي نصره إلى الإمام أحمد، ولكن بهذا الحمل الذي ذكرناه يتضح أن كلًّا منهما وممن قال بقولهما من أئمة السلف محمود مشكور، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ورضي الله عنهم وأرضاهم.

فصــل
في مقالات الفلاسفة والقرامطة
في كلام الربّ، جل جلاله

أصل معنى «الفلسفة» كلمة يونانية، فالفيلسوف معناه عندهم محب الحكمة، وقدماء اليونان لهم اعتناء بالفلسفة، وهم أصناف مصنفة، فكثير منهم أو أكثرهم لم يرتضوا برأي أرستطاليس الذي يقال له أرسطو في قوله بقدم العالم وإنكار رب العالمين والبعث والجزاء الأخروي، ولكن فلسفة أرسطو الملحد الذي حقيقة قوله تعطيل رب العالمين وإنكار الرسل والبعث بعد الموت هي التي راجت وروّجها المتفلسفة المنتسبون للإسلام والإسلام منهم بريء كالفارابي وابن سينا ونحوهم ممن أرادوا الجمع بين الانتساب للإسلام والبقاء على عقيدة التعطيل نفاقاً منهم وزوراً وبهرجة. وقد فصل أهل العلم مقالات الفلاسفة والمتفلسفة وبينوا حقائقها وما تحتوي عليه من الطامات الكبرى، وأن حقيقة قول هؤلاء أن الطبيعة هي المحدثة للأعيان والأفعال والأوصاف، وقد بينوا فساد أقوالهم نقلاً وعقلاً، وأنهم قد فسدت عقولهم التي بها يفتخرون، وظهر من جهلهم وضلالهم وتناقض أقوالهم ما يعلم به أنهم أبعد الطوائف الضالة عن الحق.

ولا زال مذهبهم الباطل يظهر في أساليب متنوعة، فملاحدة القرامطة على مذهبهم، وفلاسفة الاتحادية على مذهبهم، والاسماعيلية والباطنية على مذهبهم، والشيوعية التي تفاقمت في هذه الأوقات وفروعهم على مذهبهم، فهم في واد ورسل الله في واد، فجاء المتفلسفون المنتسبون للإسلام وبنوا على أصولهم الباطلة قولهم في القرآن، فلما كان من أصولهم القول بقدم العالم، وأن العقل الفعال ـ وهو فلك القمر أو غيره من الأفلاك التي يعينونها ـ هو المحدث لكل ما تحته، وأن هذا العقل دائم الفيض على ما تحته على المحال المستعدة بحسب قابليتها، فيفيض الوجودات وأوصافها وأفعالها

وأقوالها وآثارها، فيفسرون كلام الله على هذا الأصل الباطل فيقولون: لما كان محمد قد اجتمعت فيه القوى الكاملة من الزكاء والذكاء، والقوة العملية، فاض عليه من هذا العقل ما يناسب حاله وهو الكلام الراقي، فتلقاه وأتى به للعباد ألفاظاً وخطابة ومواعظ خالية من البراهين لم تصرح بالحق بل رمزت إليه وأشارت إليه من بعيد، وأن الأنبياء على زعمهم الفاسد لا يمكنهم مخاطبة الجمهور إلا بهذه الطريقة طريقة التخييل والمثال لأنها أصلح للناس، ولذلك يحرّمون تأويل النصوص لأنها تخالف ما قصده الرسل من التخييل والإتيان بالحقائق على صور الأمثال والرموز. وهم من جراءتهم وكبريائهم ادّعوا لأنفسهم مقامات أعلى من مقامات الأنبياء، فالنبي للعوام والفيلسوف للخواص. ومن تصور أقوالهم جزم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا يثبتون وجوده ولا يثبتون الرسالة ولا المعاد الأخروي، وعلم أن ما قالوه مع مخالفته لجميع ما جاءت به الرسل فإنه مخالف لما دلت عليه العقول الصحيحة، وأن ما ادعوه من العقليات هو في الحقيقة جهليات وخيالات. وبسط الكلام على مذهبهم يستدعي أكثر من ذلك، وإنما راج مذهبهم على كثير من الناس لما فيه من التمويهات والتلبيس والنفاق ويصادف مع هذا قلة بصيرة والله المستعان.

وتقدم أن الاتحادية لا يبعدون عن الفلاسفة في حقيقة عقيدتهم إلا أنهم ينتسبون إلى التأله والتصرف لهذا ذكر قولهم فقال:

فصـــل
في مقالات طوائف الاتّحادية
في كلام الرب جلّ جلاله

لما كان قولهم إن الوجود جميعه واحد، وإنه ما ثم خالق ومخلوق، وإن الرب عين العبد والعبد عين الرب تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، بنوا عليه أن كلام الموجودات كلها من الإنس والجن والملائكة وغيرهم من المخلوقات هو كلام الله حقه وباطله محموده ومذمومه. وحسبك بقول بلـغ هذا المبلـغ فساداً وبطلاناً. فهذه المقالات في هذه الفصول هي مقالات الطوائف في كلام الله، وكلهم منحرف عن الصراط المستقيم، ويتفاوتون في هذا كما تقدمت حكاية أقوالهم، والحق الذي لا شك فيه من هذه الأقوال هو مذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله ألفاظه ومعانيه، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه مـع اتصافه به فهو من صفات فعله المتعلقة بقدرته ومشيئته. والله أعلم.

ثم عطف المؤلف على الجهمية بنقض وإبطال ما قالوه في نفي صفات الرب العظيم، وأن قولهم مناقض للعقل والنقل واللغة، فإنه من المعلوم عقلاً ونقلاً ولغة وعرفاً أنه لا يصـح وصف الشيء بوصف مشتق منه وهو منفي عنه وثابت لغيره فلا يقال عالم وقادر وحيّ وسميـع وبصير ونحوها، والعلم والحياة والقدرة والسمـع والبصر وصف لغيره فلا تقال هذه الأسماء ونحوها إلا لمن اتصف بمعانيها ففي قولهم هذا محذوران: نفي الصفات لمن أثبتتـه له النصوص، وإثباتها لمن لم تقم به؛ فإن هذا من باب قلب الحقائق ومكابرة الأمور المعلومة ببداهة العقول. ونظير هذا في المكابرة إذا كان أخوان واحد منهما مبصر والثاني أعمى ووصف كل منهما بوصف أخيه. وإذا قالت الجهمية إن هذا ثابت في الأفعال فإن الله يسمى الخالق وخلقه قائم بغيره لأنه لو قام به لكان محلاً للحوادث وذلك محال فكذلك الكلام هو فاعل للكلام وخالق له

والكلام قائم بغيره، وأيدوا هذا الإيراد بردّهم لمذهب الاقترانية الذين يقولون إن كلامه قديم، والكلمات والحروف مقترن بعضها ببعض. وردّهم أيضاً لمذهب الكلابية والأشعرية القائلين إنه معنى واحد أو خمسة معان قديمة قائمة بالله، وأنه ليس للقرآن كل ولا بعض ولا فيه تعدد، وأن الأمر عين النهي، والاستفهام عين الخبر، وأن قيام الكلام بذات المتكلم كقيام الحياة فإن هذين المذهبين باطلان مخالفان للعقل والنقل كما تقدم، وأنه بمجرد تصورها يجزم بفسادها. قالوا: وأما نحن فقد قلنا قولاً يوافق العقل، فإننا قلنا إن كلامه كلمات وحروف مرتبة، وإنه متعلق بمشيئته، وإرادته بمنزلة فعله. قالوا: فلأي شيء ينكر علينا ويرجح المرجح أحد المذهبين: مذهب الاقترانية والكلابية، فنحن أحق بالعقل والنقل منهما، وإذا كان لا بد من الترجيح فرجحوا بالدليل والفرقان لا بمجرد الدعاوي فإنها لا تسمن ولا تغني من جوع. هذا مضمون إيرادهم.

وحاصل الجواب عن هذا الإيراد أن الخلاف مبني على أصلين تكرر ذكرهما في كلام المصنف وهما: هل الفعل غير المفعول أو الفعل عين المفعول. وهل هو قائم بذاته أو منفصل عنه. وتقدم أن الكتاب والسنة والعقل دلت على أن الفعل وصف الفاعل والمفعول مفعوله وأثره، فالفعل غير المفعول. وأما الجهمية والمنحرفون من أهل الكلام فتوهموا أن الفعل هو المفعول، وأنه إذا كان غيره لزم حلول الحوادث بالله. وهذا الوهم باطل وخطأ وضلال واضح، فإن الله لم يزل فعالاً لما يريد، ولم يزل يفعله: يفعل الأشياء ويحدث الحوادث شيئاً بعد شيء. ولا يلزم من هذا حلول الحوادث في ذاته، وإنما الحوادث منفصلة عنه. والفعل الذي هو الوصف قديم النوع، ولكنه لا يزال يفعل ما يريد.

وبهذا الأصل العظيم الذي دل عليه الكتاب والسنة وقبله العقل الصريح يندفع كل إيراد يورده المبطلون على نفي ما أثبته الله ورسوله من

أوصافه المقدسة، وبذلك يمكن قمع الفلاسفة الدهريين وبطلان قولهم بقدم العالم، وبه علم بطلان قول الجهمية الذين قالوا الفعل هو المفعول. فعلى قولهم بأي شيء حدثت الحوادث أعيانها وأفعالها وصفاتها فتعطيلهم لفعله تعطيل في الحقيقة للمفعولات. فالقائلون بأن الفعل غير المفعول طائفتان: إحداهما أهل السنة المتقدم شرح قولهم، والثانية قول الحنفية التابعين لأبي منصور الماتريدي القائلين إن تكوين الله قديم قائم بذاته كفاء قدرته متعلق بكل مكوَّنٍ مخلوق. وبقي على هؤلاء بقية وهي أن الفعل مع قيامه بالله فهو متعلق بمشيئته وقدرته. ومذهب الكرامية أن الفعل غير المفعول، ولكن له ابتداء وافتتاح حذر التسلسل كما تقدم، وليس له غاية. وتقدم صواب القول في ذلك أن الله لم يزل ولا يزال يقول ويفعل ما يشاء، والفعل من لوازم الحياة فلا توجد الحياة بدون الفعل، فمن لم يثبت لله أفعالاً تقوم به لزمه نفي حياته تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن الرب لم يزل على كل شيء قديراً ولم يزل نافذ الإرادة ولم يزل محسناً عفواً رحيماً، فلأيّ شيء تمتنع هذه الأفعال عن الله في وقت من الأوقات، أليس إثبات فعله المذكور من أعظم الكمال ونفيه من أرذل النقص، أليس الخلق مفطورين باللهج بقولهم: يا دائم المعروف والإحسان، يا قديم الجود والامتنان من غير أن ينكر بعضهم على بعض، بل يرون هذا من أعظم ما يقرّبهم إلى الله ويتوسلون به لقضاء حوائجهم، أليس الفعل من لوازم الكمال، فالله كملَ ففعل، وخلقه للمخلوقات أعيانها وأوصافها كمال حصل بكماله. وقد خالف العقل والنقل من زعم أن الفعل ممتنع عليه في الأزل. ثم انتقل من هذا المحال إلى الإمكان فما الذي تجدّد له من الكمال حتى تمكن من الفعل الذي كان ممتنعاً، فإن الله غير معطل عن فعله كل وقت، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمور ويحدث ما تقتضيه حكمته.

ومن المعلوم المتقرر أنه لو فرض وجود القدرة على الكلام والتكوين وعدم القدرة على ذلك لكان الأول هو الكمال، وإذا كان هو الكمال فكيف يتخلف التأثير بعد وجود موجبه وسببه ومقتضيه. وأيضاً إذا كان الله لم يزل موصوفاً بتمام القدرة ونفوذ المشيئة والحياة الكاملة والعلم المحيط، فإنها أوصاف ذاتية لله تعالى، فمع وجودها يمتنع امتناع الفعل، لأن تمام الفعل بوجودها فلأي شيء قد تأخر فعله مع وجود سببه التام، والله تعالى قد عاب آلهة المشكرين بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تفعل ولا تكلم، وعاب من عبد من هذه صفته وبين أنها لا تستحق من الإلهية شيئاً، وأما الباري تعالى فلم يزل هو الإله الحق، فهل يمكن أن يسلب عنه الفعل والتكليم، فإذا كان لم يزل إلهاً فإنه لم يزل فاعلاً متكلماً، وليس في العقول ما ينافي هذا القول الحق، بل ليس فيه إلا ما يطابقه ويؤيده.

والله تعالى الأول الذي ليس قبله شيء، السابق لكل شيء فليس شيء من مفعولاته مقارناً له كما يقوله زنادقة الدهرية من الفلاسفة فإنهم صرحوا بقدم العالم، وأتى بعدهم ابن سينا المتفلسف وهو موافق لهم على هذا القول، لكنه لما كان منتسباً للإسلام وهو منه بريء فرأى أن مصانعة المسلمين بالعبارات الموهمة التي ليست صريحة أولى به من التصريح المحض، فتلطف بتقريب قولهم فزعم أن العالم ممكن، والممكن عنده هو المعلول لعلة تامة تقتضي مقارنتها لمعلولها بحيث لا يتأخر معلولها عنها، وهذا هو القول بقدم العالم، لكن زوّره وبهرجه ليقرّب المذهب الدهري إلى الدين الإسلامي، وهذا من العجائب الغرائب أن يسعى في التقريب بين مذهبين متباينين غاية التباين: مذهب الرسل الذي هو دين الإسلام والمسلمين من الأوّلين والآخرين الرسل وأتباعهم المبني على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتوحيد العلمي الاعتقادي، والتوحيد العملي وهو عبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف بانفراد الرب بالخلق والتدبير والملك والسلطان والربوبية.

ومذهب الفلاسفة الدهرية المباين لمذهب الرسل في جميع هذه الأصول من غير استثناء والحرب لم يزل بين الأنبياء وأتباعهم وبين أهل هذا المذهب الخبيث، فيستحيل غاية الاستحالة التقريب بينهما فضلاً عن الجمع بينهما. وجرى خلف ابن سينا القرامطة والملاحدة والباطنية والنصيرية والدروز ونحوهم من كل معطل لرب العالمين جاحد لرسله وكتبه ودينه. ومن أعظم من نصر مذهب ابن سينا الملحد النصير الطوسي الذي كان كالوزير لملك التتار لما خرجوا على المسلمين وقتلوا ملوكهم وخلفاءهم وعلماءهم، وقد ذكروا أنه هو الذي أشار على التتار بقتل المذكورين وإبقاء أهل الصنائع والحرف والعملة، وعمر المدارس لتعليم الإلحاد والفلسفة، وصرف لها الأوقاف الإسلامية، وأراد أن يجعل «إشارات» ابن سينا موضع القرآن، وأن يقرر القواعد والنواميس المشيدة للإلحاد الهادمة للدين الإسلامي، وعرف أنه لا يتم له مقصوده حتى يستأصل رؤساء الدين، فأشار على التتار بوضع السيف فيهم، فجرى على الإسلام بذلك من المصائب والرزايا ما يفجع القلوب، ولولا حفظ الله لدينه لجرى عليه ما جرى على الأديان السابقة من الذهاب والاضمحلال.

واعلم أن أدلة الخلق وحدوث هذا العالم المشاهد ظاهرة جلية عقلية ونقلية، من أعظمها جميع الأدلة والبراهين الدالة على توحد الله وتفرده بصفات الكمال وبديع الأفعال، فكلها تدل على حدوث كل ما سواه، فلو كان معه شيء قديم للزم أن يساوي الله في غناه ووحدانيته، فمحال أن يكون ربان متكافئان متمانعان مستقلان، فإن استقلال أحدهما ينافي استقلال الآخر، وذلك أنهما إما أن يستقلا فيحصل التمانع والتساقط وهذا محال باطل، وإما أن يذهب كل واحد بما خلقه ويستقل بتدبير ما هو مالك له ويبقى الأمر هكذا فهذا أيضاً باطل، لأنه يلزم من ذلك المغالبة وأن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكون الرب واحداً قاهراً لكل شيء والكل مقهور بقهره داخل تحت نفوذه وتدبيره وهذا هو الحق، قال تعالى:

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله، إذاً لذهب كل إله بما خلقَ وَلَعَلا بعضُهُم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾

[سورة المؤمنون: الآية ٩١]

ولذلك أخبر تعالى أنه الواحد القهار في عدة آيات، لأن الوحدة والقهر متلازمان فلا يكون منفرداً بالوحدانية حتى يكون منفرداً بالقهر، ومن انفرد بالقهر للأشياء كلها فقد تفرد بالوحدانية، فمحال أن توجد الصفتان وتجتمعا في ذاتين، وإنما هما لله الواحد القهار.

فصــل
في اعتراضهم على القول بدوام فاعلية الربِّ وكلامه والجواب عنه

وذلك أن المتكلمين عطلوه عن فعله فيما مضى كقول الكلابية والأشعرية، أو في الماضي والمستقبل كقول الجهمية. والذي حملهم على هذا القول الباطل الفرار والحذر من التسلسل، والجواب عن هذا التزام القول بالتسلسل في الماضي كما قال الكلابية والأشعرية بجوازه ووجوبه في المستقبل، وأيّ فرق بين الأمرين؟ فمن زعم أن لفعل الله ابتداء وهو يقول ليس له انتهاء فقد تناقض، فكلاهما متساويان في الإمكان والوجوب عقلاً ونقلاً.

وقد طرد هذا القول الجهمية ونفوا التسلسل لفعله تعالى في الماضي والمستقبل، وبنوا على هذا القول الذي هو أبطل من قول الكلابية والأشعرية القول بفناء الجنة والنار، فالجهم أفنى ذاتهما، والعلاف شيخ المعتزلة أفنى حركاتهما، كما تقدم شرح قولهم، وأما أبو علي الجبائي وابنه وأبو الحسن الأشعري وأبو بكر بن الطيب ومن بعدهم من أهل الكلام الباطل ففرقوا بين الأمرين، وفرقهم باطل، وتناقضوا وتناقضهم أهون شراً من قول الجهمية، والمحذور الذي ظنوه أنهم إذا أثبتوا دوام فعل الرب في الماضي وفيما لا يزال

لزم صحة قول الفلاسفة في قدم العالم، وهذا الظن خطأ محض، فإن المثبتين للتسلسل في أفعال الباري ماضياً ومستقبلاً وهم أهل السنة والجماعة لم يقل أحد منهم إن شيئاً من أعيان المخلوقات وأفرادها قديم، ولكنهم يقولون بدوام نوع الفعل الذي لا يدل العقل والنقل إلا عليه، فنوع فعله تعالى لم يزل ولا يزال، فالله لم يزل يفعل وهو الفعال لما يريد، وكل فرد من أفراد مخلوقاته السماوات وما فيهما والأرضون وما فيهما وما قبل ذلك من المخلوقات وما قبلها وما قبلها وهلم جراً فكلها مخلوقة موجودة بعد أن لم تكن.

وأما النوع الذي هو من لوازم الكمال وهو وصفه تعالى فلا له مبتدأ وليس له منتهى لأن الله لا يمكن أن يكون في وقت من الأوقات فاقداً لشيء من الكمال. ونظير تعاقب الأعيان أنه ما من مخلوق إلا وقبله مخلوق وقبل ذلك مخلوق إلى غير غاية ونهاية، نظيره تعاقب الأزمنة، فما من زمان إلا وقبله زمان وقبل ذلك زمان وقبله وقبله إلى غير نهاية، وهذا يدرك بأقل تأمل.

فإن قالوا إننا نمنع التسلسل أيضاً في الأزمنة، فيقال لهم: ما تعنون بالأزمنة، هل تعنون بها المدة والزمان الكائن منذ خلق الله السماوات والأرض، وهذا مرادهم، ولا يفيدهم شيئاً، أم تعنون أنه لم يكن قبلها من المخلوقات شيء، فهذا لا دليل عليه من الكتاب والسنة ولا في العقل ولا في النقل، بل هذه الأدلة كلها تدل على أن الله تعالى قد خلق مخلوقات قبل خلق السماوات والأرض، فإنه تعالى أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهذه الأيام التي خلقها الله بها مقدّرة بزمان غير هذا الزمان المقدر بسير الشمس والقمر، فدل على أنه مقدر بحركة أخرى غير سير الشمس والقمر، وذلك دليل على وجود زمان ومخلوقات قبل ذلك، فإن الأزمنة تقدّر فيها الحوادث. وقد ثبت في الصحيح: أن الله لما خلق القلم قال له اكتب، قال ما أكتب، قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف

عام وكان عرشه على الماء. وهذا صريح في وجود مخلوقات قبل السماوات والأرض.

وقد اختلف الناس أيّ العرش والقلم خلق أولاً. حكى أبو العلاء الهمذاني في ذلك قولين والراجح أن العرش قبل القلم، لأنه قال في الحديث الذي فيه «أول ما خلق الله القلم» إلى أن قال فيه «وكان عرشه على الماء» وهذا ظاهر في تقدم العرش، فإن الحديث صريح في أن العرش قبل الكتابة، فإن الكتابة تعقبت إيجاد القلم من غير مهلة. فهذا ونحوه من الآثار يدل على أن الله تعالى لم يزل يفعل، ومما يدل عليه عقلاً وفطرة القاعدة المتقدمة، وهو أن الله تعالى باتفاق الناس موصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه، وهذا الكمال ثابت له في جميع الأوقات، يستحيل أن يكون عادماً له في وقت من الأوقات، وهذا واضح لا يقبل الريب، ولكن أهل الكلام لما أصّلوا أصولاً فاسدة وقواعد باطلة اعتقدوها وحرفوا لأجلها النصوص وردّوا لأجلها ما خالفها بعقولهم الفاسدة، اشتبه الأمر عليهم، وإلا فاتصاف الباري تعالى أنه على الدوام فعال لما يريد لا يحتاج إلى كثير نظر.

فصل

لم يزل المسلمون وأئمة الهدى مثبتين ما دل عليه الكتاب والسنة من نعوت الباري الذاتية والفعلية، وليس في قلوبهم أدنى شبهة تناقض هذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها، حتى جاء هؤلاء المتكلمون بالكلام الباطل، وأصلوا لهم أصولاً من تلقاء أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان نقلي ولا عقلي، فابتدعوا هذا الاستدلال الذي نفوا به أفعال الله وظنوا وقالوا إنهم للإسلام ينصرون، وهم في الحقيقة لا للإسلام نصروا ولا على أعدائه وجاحديه انتصروا، بل صار دليلهم هذا أكبر سلاح لأعداء الإسلام عليهم، وألزموهم لأجله اللوازم التي عجزوا عن التخلص منها، وبذلك أغروا عدوّ

الإسلام في لزومه لقوله، وظنوا بالإسلام الظنون السيئة حيث ظنوا أن هذا مما جاء به الإسلام، مع أن الإسلام بريء منه كل البراءة. ولولا أن الله متكفل بحفظ دينه، ومقيم له الأنصار والحفظة من أئمة الهدى ومصابيح الدجى لذهب الإسلام.

ولقد بينوا أن هذا الدليل الذي ابتدعه أهل الكلام الباطل دليل باطل مستدل به على باطل، فاللازم والملزوم باطلان. ومما يدل على بطلانه أن أعيان خيار هذه الأمة وصفوتهم وأعلاهم أخلاقاً وأعمالاً وأكملهم إيماناً من المهاجرين والأنصار والقرون المفضلة وجميع أئمة الدين ومحققي المسلمين لم يعرفوا هذا الدليل، وليس له عندهم حس ولا خبر ولا عين ولا أثر، ولم يعرفوا الله بهذه الألفاظ المبتدعة بالأجسام والأعراض والجواهر ونحوها، فمن المحال أن يكون هذا الدليل صحيحاً وقد حرم منه هؤلاء الصفوة الأخيار ويفوز به هذا الخلف السوء. فإيمان السابقين الأولين والتابعين لهم بإحسان مبني على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، مؤيد بالعقل الصحيح الذي يعترف به أهل العقول الوافية والألباب الكاملة، فهل يقاربهم من إيمانه مبني على دليل الأعراض الذي ليس له في النصوص ذكر ولا إشارة، ولا قاله أحد من السلف، ولقد اعترف كثير من فضلائهم ببطلانه كالأشعري وغيره وأنه دليل مبتدع، وصرح بعضهم بالحق وهو أنه في نفسه باطل ومقدّماته فاسدة وأنه مفسد للدين والإيمان، مخبط للأذهان، مشوش للحقائق العقلية، مخالف للأدلة النقلية.

وأيضاً فالله ورسوله قد بينا جميع الطرق المعرّفة بالله وصرّفاها ونوّعاها ولم يذكر الله ولا رسوله هذا الدليل فلو كان حقاً لذكراه، ولكنه باطل. ولهذا لما أطلع الأئمة على حقيقة هذا الدليل أنكروا على أهله غاية الإنكار وحذّروا منه غاية التحذير لعلمهم بما يفضي إليه. ومن أراد معرفة بطلانه حقاً بالأدلة الشرعية والأدلة العقلية، ونقل اعتراف فضلائهم ببطلانه وتناقض المثبتين له،

وتوضيح فساد مقدماته، وعجز أهله عن نصرته غاية العجز، فلينظر إلى (كتاب العقل والنقل) لشيخ الإسلام والمسلمين ابن تيمية، فقد أتى فيه بالعجب العجاب، وقاوم فحولهم وأساطينهم ونظارهم، وبين بالأدلة المتنوعة بطلان أقوالهم وفسادها، وأنهم ادعوا أنهم أهل العقول والنظر، فاتضح أن عقولهم فاسدة، وآراءهم ضالة، وعقلياتهم جهليات وخيالات، ونحمد الله على نعمة السنة والإسلام، ونشكره أن قيض لنصره مثل هذا الإمام وأمثاله، جزاهم الله خير الجزاء، والله أعلم.

فصل

في الرد على الجهمية المعطلة
القائلين بأنه: ليس على العرش إلَهٌ يُعبد،
ولا فوق السموات ربٌّ يُصَلّى له ويُسجَد،
وبيان فساد قولهم عقلاً ونقلاً وفطرةً

قد علم وتقرّر نقلاً وعقلاً أن الله تعالى كان وليس شيء غيره من المخلوقات، ثم خلق المخلوقات وأوجد الكائنات. فيقال للمعطل: هل خلق المخلوقات بائنة عنه، أم خلقها حالة فيه. فلا بد أن يجيب بأحد الأمرين، أو بجواب ثالث وهو التحيز إلى قول الاتحادية الذين هم أخبث الطوائف قولاً إن الخالق هو عين المخلوق وهؤلاء هم غلاة المعطلين، فإن قالوا إن الله خلق المخلوقات حالة في ذاته حلول الروح في الجسم، فقد زعموا أنه مفتقر ومحتاج إليها، وإن قالوا: هو لا داخل العالم ولا خارجه فقد حكموا عليه بالعدم، لأنهم إذا رفعوا النقيضين فهذا وصف المعدوم، وإن قالوا الحق وهو أنه خلقها بائنة عنه وهو بائن عنها فقد أقروا بالحق، ويلزم على هذا أن يكون علياً على خلقه مستوياً على عرشه.

فإن قالوا: إن هذا النفي إنما يكون ينطبق على المعدوم فيما يقبل

الدخول والخروج، وأما الباري فليس يقابل لواحد منهما، إذ هذا من خصائص الأجسام والله منزه عن هذا. فيقال: هذه دعوى مجردة عن الدليل فهي ممنوعة فلا تقبل، فإن مثل هذه الدعوى دعوى المذهب والاصطلاح الذي اصطلح عليه هؤلاء المتكلمون فتكون الدعوى باطلة. ويقال ثانياً: بل يصدق نفي الشيء على القابل للشيء المنفي وغير القابل لغة وشرعاً فإنه نفى عن نفسه الظلم وهو محال عند الجهمية كما تقدم تفسيرهم للظلم أنه الممتنع لذاته، فهو وإن كان تفسيراً باطلاً ولكنهم يعتقدونه فيحسن ذكره في مقام إلزامهم، وكذلك نفى عن نفسه النوم والسنة والطعم والولادة والزوجية وهذه ممتنعة على الرحمن، وكذلك نفى عن بعض الجمادات السمع والبصر والنطق والشعور وإنها لا تخلق شيئاً وليست بقابلة لشيء من ذلك. ويقال ثالثاً: لو صح ما قالوه إن الشيء لا ينفى إلا عن المحل القابل فإنما ذلك في الضدين اللذين لا يجتمعان وقد يرتفعان، لا في النقيضين اللذين لا يجتمعان ولا يرتفعان، ومسألة نفي دخوله العالم ومباينته له من هذا القسم، ويقال رابعاً: نفيكم لقبوله للدخول والخروج يزيل وينفي وصفه بأنه واجب الوجود بل ينفي إمكانه لأنه إذا لم يقبل الدخول والخروج كان ممتنعاً عقلاً وفطرة.

فإذا قال المعطل: إن نفي الأمرين القيام بالنفس والقيام بالغير باطل إذ لا يقبل أحد الأمرين إلا الممكنات والله ليس بقابل للأمرين، كان هذا من أعظم أوصاف المعدوم الممتنع، فلو قيل صفوا لنا المعدوم ما وصف بأبلغ من هذا، وهذا في الحقيقة نفي لوجود الله فلا يمكنه التفريق بين الأمرين أبداً، وإنْ طرد الأمرين ظهر كفره وإلحاده والله أعلم.

فصـــل

في سياق هذا الدليل على وجه آخر

وهذه العادة في أدلة الحق وشواهده حيث صرِّفت وأديرت على أي وجه وبأي عبارة فإن دلالتها واحدة لأن الحق ثابت لا يتغير مستقر في العقول الصحيحة السليمة إلا أن العبارات تختلف في وضوحها وجلائها أو خفائها بخلاف أدلة الباطل فإنها لا تكاد تقبل إلا إذا وافقت ضعف بصيرة وقلة علم ونظمت بعبارة مخصوصة مزوقة مزخرفة، فإذا أديرت بعبارة وسياق آخر بان بطلانها، وكلما حرفت اتضـح فسادها بمنزلة الشيء المغشوش يظهر غشه بأدنى اختبار، فتقدم الإلزام للمعطل واستخباره واستفهامه: هل يقول إنه بَرَأَ البرية في نفسه أو خارجاً عنه أو ينفي الأمرين؟ وأنه يضطر إلى الاعتراف بأنه خلقها بائنة عنه وهو بائن عنها عال عليها وأنه إن قال غير هذا فهو غالط مكابر.

وهذا سؤال آخر، فإنه يقال للمعطل أولاً: هل الرب تعالى ثابت في الأذهان أم لا؟ فإن قال لا فهو جاحد لرب العالمين، فإن الذي لا وجود له في الأذهان والقلوب لا وجود له أصلاً. فإن قال نعم هو موجود في الأذهان فإنه يقال له ثانياً: هل هو هذه الأكوان أو غيرها؟ فإن قال: هو هي وهي هو فقد قال بقول الاتحاديين الذين هم أكفر الناس برب العالمين. فإن قال: بل هو غيرها فإنه يقال له ثالثاً: هل هو حالّ في الأكوان أو هي حالة فيه؟ فإذا قال بأحد الأمرين فقد قال بقول النصارى القائلين بإلّهية المسيح بن مريم وأن اللاهوت حل بالناسوت، وهؤلاء أبلـغ من النصارى، فإن النصارى خصصوه بعيسى وهؤلاء عمموه بجميـع المخلوقات فإذا نفى الأمرين بأن قال لم يحل فيها ولم تحلل فيه فيقال له رابعاً: هل هو قائم بنفسه غنيّ عن الأكوان والخلق أم هو قائم بغيره كقيام الألوان والأعراض بمحالها فإن أقر بالحق وقال: بل هو قائم بنفسه مستغن عن جميـع خلقه، فيسأل خامساً فيقال له: هل ذاته تماثل الذوات أو تضادها أو تغايرها؟

وعلى هذه التقادير الثلاثة فإنه لو لا أنه بائن عنها لم يكن شيئان متماثلين أو متضادين أو متغايرين، لأن كل واحد من هذه الثلاثة بالنسبة إلى قسيميه يكون غيره لا يمكن أن يتحد معه، فيضطر إلى أن يختار أحدها، إما أنه هذه المخلوقات وينفي التماثل والتضاد والتغاير ويصرح بقول الاتحاديين ويخرج من ربقة الدين، وإما أن يعترف بالحق الواضح وهو أن الخالق غير المخلوق، وأنه بائن عن مخلوقاته، متوحد في صفاته، متفرد بربوبيته وإلٓهيته، عليّ على جميع بريته.

فهذه إشارة إلى تقاسيم عقلية وحقائق يعترف بها من له لب تلجىء المنصف إلى الاعتراف بالحق ويعلم بها أن من خالفها فهو مكابر للمحسوس والمعقول، كما أنه مخالف للمنقول.

فلما ذكر الأدلة العقلية والإلزامات المفحمة لكل مبطل ذكر الأدلة النقلية فقال:

فصـــل
في الإشارة إلى الطرق النقلية
الدالَّة على أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه عليٌّ على خلقه

ذكر المصنف أحداً وعشرين نوعاً من الأدلة على هذه المسئلة العظيمة كل نوع منها تحته من الأفراد ما لا يعد ولا يحصى.

الأول الإخبار بأنه استوى على عرشه في سبعة مواضع من القرآن معروفة، وكلها جاءت بلفظ:

﴿على العرش﴾ [٧:٥٣ ـ ١٠:٣ ـ ١٣:٢ ـ ٢٥:٥٩ ـ ٣٢:٤ ـ ٥٧:٤ ـ ٢٠:٥]

فإن «على» تدل على العلوّ والارتفاع، وهذا نص لا يقبل الاحتمال ولا الاشتباه في معناه. فإنها لو كانت بمعنى «استولى» كما قاله الجهمية وأتباعهم لأتت اللام في موضع واحد أو أكثر لأجل أن يحمل الباقي عليها فلما لم ترد في

موضع واحد بذلك كانت نصاً صريحاً في العلوّ والفوقية، فإن العرب جرت عادتهم في كلامهم الفصيح أن يضمروا بعض القيود في بعض كلامهم ويذكروه في كلام ولفظ آخر فيحمل مطلق الكلام على مقيده، وأما هذا الموضع فالحمل متعذر، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية تفسير الجهمية أن معنى استوى على العرش «استولى» بعشرين وجهاً كل واحد منها كاف شاف.

الثاني التصريح بلفظ العلوّ، وقد تكرر في الكتاب وصفه بالعليّ الأعلى، وذلك يدل على أنه العليّ الأعلى بكل وجه ومعنى، واعتبار علو الذات والصفات وعلوّ القدر والعظمة وعلوّ القهر والجبروت. لكن المعطلة على أصلهم الفاسد ينفون عنه علوّ الذات ويفسرونه بالوجهين الأخيرين، وهذا هضم منهم لهذا المعنى العظيم، وإنكار لعلوِّه الذي فطر الله عليه الخليقة. فإنه ما توجه متوجه من البرية إلى الله إلا رفع قلبه وطرفه إلى الله لا يلتفت يمنة ولا يسرة، وهذه الفطرة لا يستطيع المعطلون تبديلها. ولو رجعوا إلى أنفسهم لوجدوا هذا المعنى مركوزاً في فطرهم، ولكن العقائد الباطلة مسيطرة على الفطر وعلى كل حقيقة، ونهاية ما يوردونه على هذا الأمر المقطوع به شكوك وشبهات لا تعارض العلم واليقين، فإن علوه معلوم بالضرورة نقلاً وعقلاً وفطرة، فإذا تقابلت هذه البراهين والضرورات التي تعرف ببداهة العقول مع هذه الشبهات اضمحلت الشبهات ولم يكن عندها أدنى مقاومة للبراهين اليقينية.

الثالث التصريح بالفوقية لله تعالى تارة مقرونة بمن كقوله:

﴿**يخافون ربهم من فوقهم**﴾ [سورة النحل: الآية ٥٠]

وتارة غير مقرونة كقوله:

﴿**وهو القاهر فوق عباده**﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٨]

فالمقرون بمن نص في معناه لا يقبل التأويل والآخر هو ظاهر في المراد، وقد

يقبل التأويل على وجه ضعيف لكن إذا دل الدليل، وهنا دل الدليل على تعين المعنى الظاهر، هذا بالنظر إلى مجرد الألفاظ بقطع النظر عن سياق الكلام وما اقترن به مما يعين معناه فإذا أتى الكلام بسياقه ونظمه وتعبيره عن المعاني العالية فإنه يكون نصاً في معناه قاطعاً لا يقبل التأويل لسياقه ونظمه، فالمدار كله على السياق وأساليب الكلام، فذلك مثل شواهد الأحوال فتأويل الكلام إذا أتى بعد سياقه بأسلوبه الناصّ على معناه يكون في غاية الهجنة، كالكتمان إذا أتى بعد شواهد الأحوال كان كذباً قبيحاً.

والفوقية وصف ثابت لله تعالى لا يمكن أن يكون إلا كذلك، وله الفوقية المطلقة: فوقية الذات، وفوقية القدر، وفوقية القهر، فمن أنكر واحداً منها كان مبطلاً مكابراً متناقضاً كما هو قول المعطلة النافين لعلوّ ذاته وفوقيتها، وأن المراد عندهم فوقية القدر مثل قول الناس الذهب فوق الفضة وهذه دعوى بلا دليل بل مخالفة للدليل.

وذكر المؤلف كلام المفسرين على قوله تعالى:

﴿تعرُجُ الملائكة والروح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة﴾
[سورة المعارج: الآية ٤]

وقوله تعالى: **﴿يُدَبِّر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألفَ سنة مما تعدون﴾** [سورة السجدة: الآية ٥]

فقيل إن تقديره بخمسين ألف سنة المراد به يوم القيامة وأن هذا مقداره في التقدير وتقديره بألف سنة في الدنيا، وقيل إنهما يعودان إلى يوم واحد وهو تقدير مسافة العالم العلوي والسفلي من المركز الأسفل إلى أعلى العرش خمسين ألف سنة ومن وجه الأرض إلى سماء الدنيا ألف سنة، ثم من كل سماء إلى الآخرى كذلك، ويؤيده ما ورد في هذا التقدير من الآثار. وقيل إن هذا التفاوت يرجع إلى اختلاف السير، وفيه أقوال أخر والمؤلف توقف عن الجزم بواحد من هذه الأوجه. والظاهر لي أن آية «المعارج» التقدير الذي فيها

ليوم القيامة، وأن معنى الكلام الإخبار بعظمة ذلك اليوم وطوله العظيم وأنه في ذلك اليوم يظهر للخلائق من عظمة الرب وعظمة ملكه وكمال تدبيره وأن أمور الملك وتدابيره تعرج بها الملائكة إليه وتنزل فيها منه والسياق في الآيات التي في المعارج يدل على ذلك. وأما تقديره بالألف في سورة السجدة فإنه في الدنيا لأن السياق أيضاً يدل عليه، فإنه في سياق بيانه في الدنيا ليعرفوا عظمة الله وكبرياءه ونفوذ تدبيره والله أعلم[1].

الخامس التصريح بصعود بعض المخلوقات والأعمال إلى الله تعالى من العمل الصالح والكلم الطيب والملائكة والأرواح كما وردت بذلك النصوص الكثيرة، وكذلك تواترت الأحاديث الصحيحة والحسنة في معراج النبي ﷺ إلى ما فوق السماوات السبع وأن عروجه إلى الله وإخباره برفع عيسى بن مريم عليه السلام إليه وكذلك ما في الأحاديث والآثار من ارتفاع دعوات المضطرين والمظلومين إلى الله، وذلك كله صريح في علوّ الله وفوقيته ومباينته لخلقه.

السادس والسابع إخباره أن القرآن العظيم نزل منه، وأنه تنزيل منه في عدة آيات. ومن المعلوم أن النزول لا يكون إلا لمن هو فوق عباده ومن هو عال عليهم، وكذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ في نزوله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: (من يسألني فأعطيه، من يدعوني فأستجيب له، من يستغفرني فأغفر له) فهذا كله دليل على علوّه وارتفاعه. وعند الجهمية ومن تبعهم أنه لا ينزل والنزول إنما هو لأمره، وهذا باطل نقلاً وعقلاً، والأحاديث نص في نزوله نزولاً يليق بعظمته وجلاله، وأنه هو الذي يقول: (من يدعوني فأستجيب له) إلى آخره، لا كما حرفه الجهمية أنه يأمر من يقول ذلك.

الثامن: ما أخبر به عن رفعته وعظمته بسورة غافر في قوله:

---

(١) لم يرد (الرابع) في الأصل الذي يطبع منه، ولعله سهو من الناسخ.

﴿رفيـع الدرجات﴾ [سورة غافر: الآية ١٥]

فإن فعيلاً فيها بمعنى مفعول وأن معناه مرفوعة درجاته لرفعته وارتفاعه وعلوّ شأنه وكماله.

التاسـع إخباره بأنه في السماء كقوله:

﴿أأمنتم من في السماء﴾ [سورة المُلك: الآية ١٦]

ومعناها عند جميـع المفسرين معنى العلوّ وأن معناها أنه فوق العالم كله أو أن «في» بمعنى «على» وليس معناها أن السماوات تحصره وتحيط به فإنه أعظم وأجل، ومعناها أنه في العلو، وبقية النصوص الدالة على علوه تعين هذا المعنى وتزيل ما فيه من الاشتباه على أفهام الحائرين، بل الجهات كلها إذا نسبت إلى الله اضمحلت وعدمت فهو المحيط ولا يحاط به.

العاشر إخبار النصوص باختصاص بعض المخلوقات بأنها عند الله، كقوله:

﴿ومَنْ عِنْدَهُ لا يستكبرون عن عبادته﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٩]

وقول النبـي ﷺ: (إن الله كتب كتاباً فهو عنده على العرش: أن رحمتي سبقت غضبـي) فإن هذا دليل وبرهان على علوه تعالى على عباده، لأنه لو لم يكن كذلك لكان أشرف المخلوقات وأدناها وجميـع الذوات عنده في القرب سواء كما قال ذلك الجهمية، وتمموا هذا القول الباطل بقولهم إن محبة الله عين إرادته، فكل ما أراده فقد أحبه، والكون كله مراد الله فيكون محبوباً لله على قولهم، وحرفوا النصوص في محبة الله لبعض عباده ولـلأعمال الصالحة ونحوها فإذا جمعت قوليهم الفاسدين إن جميـع الذوات في القرب منه سواء وإن جميـع ما أراده فقد أحبه ظهر فساد ذلك وقبحه وآثاره الخبيثة، وأن نفس القولين متناقضان فإذا قالوا المراد بالعِنْدِية والقرب عندية الخلق والتكوين فالذوات كلها مكونة مخلوقة لله، وإن قالوا العِنْدِية عندية التقريب والشرف فهم ينفون هذا لأن المحبة عندهم هي الإرادة فيستحيل هذا التأويل

ويتبين أنه مكابرة للمعقول كما أنه مناف للمنقول.

الحادي عشر: إشارته ﷺ إلى العلو حين خطب الناس يوم عرفة وقال: (هل بلغت)؟ قالوا: نعم، فأشار بإصبعه إلى السماء يشير إلى الله وينكبها إلى الناس يقول: «اللهم اشهد» وهذا برهان على علوه وارتفاعه.

الثاني عشر أن الله وصف نفسه وسماها بأنه الظاهر، وقد فسره ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه إذْ قال في دعائه واستفتاحه (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء) فهذا تفسير صريح من الصادق المصدوق وقرره بنفي ضده بقوله (فليس فوقك شيء) وهذا هو المفهوم من لفظ الظاهر، فإن الظاهر يدل على العلو فكلما علا الشيء ظهر وبان، كما أنه كلما سفل خفي واستتر كما هو مشاهد في المركز الأسفل لهذا العالم وأن أعلاه ومحيطه أظهرها وأوسعها، فالله أعظم من ذلك وأعلى، فالعلو والظهور كل منهما مقتض للآخر فهما متلازمان.

الثالث عشر ما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مع دلالات القرآن المتعددة في رؤية أهل الجنة ربهم تعالى، فإن هذه النصوص من أعظم البراهين على علو الله، ولهذا لا يمكن المعطل أن يثبت الرؤية إثباتاً صحيحاً على وجه يعقل حتى يثبت علو الله على خلقه، فإنه إذا أثبت الرؤية ونفى العلو كقول أكثر الأشاعرة فإنه يسأل ويقال له: من أين يرى ربنا، هل من تحتنا أو يميننا أو شمالنا أو خلفنا أو أمامنا؟ وهذا باطل فلا بد أن يضطر ويقول من فوقنا إذا لم يكابر، فإن الرؤية المعقولة المعروفة تقتضي مقابلة الرائي للمرئي، فمن زعم خلاف ذلك فقد كابر المحسوس، ولهذا فسر هؤلاء الرؤية بشيء لا يدل عليه الشرع واللغة والحس، فسروها بأنه ينكشف لأهل الجنة زيادة علوم ومعارف، فجمعوا محذورين: نفي رؤية الله التي دلت عليها النصوص القرآنية والنبوية، وإتيانهم من عند أنفسهم بمعنى لم يرده الله ولا رسوله، والعقائد الباطلة هكذا تصنع بأصحابها. ولهذا كان بعض فضلاء الأشعرية يقول: إنه لا فرق بين مذهب الأشاعرة ومذهب المعتزلة في نفي

الرؤية إلا اختلاف عبارات؛ وهو كما قال، لأن زيادة معارف أهل الجنة بربهم وانكشاف العلم الذي فسروا به الرؤية لم يزل مصاحباً لهم في جميع أحوالهم، وهذا من أعظم ما يبين بطلان هذا التفسير الذي هو تحريف وتمويه.

الرابع عشر أنه ﷺ قال للجارية: أين الله؟ وأجاب السائل له «أين الله». بجواب الأينِ فقال: في السماء. ولم يجبه بجواب مَنِ الله كما هو قول الجهمية. وهذا الذي أراد ﷺ وهو الذي فهمه السائل وكل سامع لم يتمكن منه مذهب الجهمية، فدل ذلك دلالة قاطعة على علو الله على خلقه. وأن الجواب السديد الصحيح لمن سأل أين الله أن يقال: فوق عرشه عال على خلقه. والجهمية يمتنع عندهم السؤال بالأين ولا الجواب عنه، وإن ورد ذلك كان معناه معنى الاستفهام. وهذا معلوم البطلان، فهم يصرحون بنفيه، والرسول ﷺ يصرح بإثباته فعلاً وإقراراً، وهذا من أعظم المشاقة لله ولرسوله. وكيف يعدل النبي ﷺ مع كمال نصحه وكمال علمه وكمال بيانه عن لفظ «مَنْ» وهي أخصر وأوضح وأفصح إلى لفظ «أين» وهي بخلاف ذلك؟ هذا من المحال.

الخامس عشر إجماع الكتب السماوية والرسل عليهم الصلاة والسلام على التصريح بعلو الله على خلقه وفوقيته، حكى ذلك غير واحد من العلماء المعتبرين، كالشيخ عبد القادر الجيلاني في غنيته وأبي الوليد بن رشد وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية صاحب التحقيق الكامل والاطلاع الواسع الذي لا يوجد له نظير في معارفه ومعلوماته وتحقيقاته العقلية والنقلية، وكذلك المصنف رحمه الله قطع بذلك وقطع باتفاق الرسل على جميع أصول الدين التي أصلها إثبات صفات رب العالمين، وعلوه على الخلق، وأنه المتكلم على الحقيقة، وأن الله هو المعبود وحده، وأن القضاء خيره وشره من الله والإيمان باليوم الآخر، فجميع الأنبياء والمرسلين متفقون في أصول الدين في

الشرائع الكبار التي لا تختلف باختلاف الأزمنة، كالعبادات الكلية، والعدل في المعاملات والأحكام والولايات، وتحريم الظلم والكذب والغيبة والنميمة والفواحش الظاهرة والباطنة، والبغي بغير الحق، والقول على الله بلا علم، لأنه يستحيل أن تأتي الشرائع السماوية بخلاف ذلك. فهذه الأصول الحقة النافعة التي لا تحصل سعادة الدنيا والآخرة إلا بها.

وأما أصول مذهب المعتزلة فإنها منافية لهذه الأصول غاية المنافاة، فعندهم أصول خمسة من خصائص مذهبهم: جحود صفات الباري، وعلوِه على خلقه، ورؤيته في الآخرة، والقول بخلق القرآن، وما يسمونه العدل الذي مضمونه نفي قدرة الله على أفعال العباد وأن الفاسق الملي ينفى عنه الإيمان ولا يسمى كافراً ولكنهم يخلدونه في النار، وينفون الشفاعة بأهل المعاصي. ولأجل هذه الأصول قالوا: لا يقدر الله على هداية الكافرين ولا إصلاح العاصين، ولأجلها قالوا بوجوب الصلاح والأصلح على ربهم بحسب ما اقتضته عقولهم الفاسدة وقد علم بالضرورة منافاة هذه الأصول للشرع والعقل.

السادس عشر إجماع أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة المسلمين المعتبرين الذين إجماعهم هو الحجة والعصمة، وأما من سواهم ممن هو معروف ببدعة وإلحاد فوجود خلافهم لا يقدح في الإجماع، وقد قرر هذا الإجماع كثير من الأئمة بالنقل المتواتر عنهم بالألفاظ المتنوعة على علو الله على خلقه، واستوائه على عرشه، وتتبع ذلك كثير جداً موجود في كتب التفسير والأصول والآثار والفقه، لم يخالف منهم مخالف، بل كلهم مُقِرُّون بذلك منكرون على من تأول وأنكر أو شك فيه. وأطال المؤلف في تعداده لمن حكى هذا الإجماع من الأئمة، وسرد أقوالهم على وجه الإشارة، وذكر أنهم أهل العقول الكاملة المؤيدة بنور الوحي والبصيرة وأهل الصدق الكامل والدين المتين، فهل يوزن بهذه العقول التي ترجح بالجبال

الرواسي أو تساويها عقول سفهاء الأحلام أرباب الكلام الباطل وقشور الفلسفة الذين كذبوا بالحق فهم في أمر مريج. . الذين لا يفرح بوفاقهم ولا يؤسف على خلافهم.

السابع عشر ما أخبر به تعالى عن موسى عليه السلام وعن فرعون حين دعاه إلى ربه وأنكر فرعون دعوته وموه على قومه وقال لوزيره هامان على وجه التكذيب لموسى والتهكم به:

﴿ٱبْنِ لِي صَرْحاً لعلِّي أبلُغُ الأسباب * أسبابَ السماواتِ فأَطَّلِعَ إلى إلَهِ مُوسى وإنِّي لأظُنُّهُ كاذباً﴾ [سورة غافر: الآيتان ٣٦، ٣٧]

فهذا صريح في تكذيبه لموسى في قوله إن الله فوق السماوات والخلق كلهم، وتبع فرعون على قوله هذا جميع الجهمية الفرعونية ورموا ببلاثهم أهل السنة والجماعة وقالوا إن مذهبهم مذهب فرعون الذي اعتقد علو الله على خلقه، وهذا من العجائب وقلب الحقائق، فإنه لا يشك أحد أن مقالة فرعون المذكورة تكذيب لموسى ورد لقوله وأن فرعون أراد أن يموه على قومه فيصعد السماء ليصل إلى إلَه موسى الذي دعاه موسى إلى عبادته، فموسى إمام المثبتين لعلو رب العالمين وفرعون إمام كل معطل.

الثامن عشر أن الله تعالى قد نزه نفسه عن النقائص والعيوب، وعن التمثيل والتشبيه، كما نزه نفسه عن الشريك والظهير والعوين والوزير والولد والصاحبة والحاجة وأن يوالي أحداً من الذلة، وكذلك نزه نفسه أن يكون أحد يشفع عنده بدون إذنه، بل نزه نفسه عن أمور ما قالها أحد تحذيراً من وقوعها، فإنه نزه نفسه عن الطعم والموت والنوم والسنة والنسيان ولم ينسبه أحد إلى شيء من ذلك.

كذلك نزه نفسه عن الظلم وإرادته وعن العبث والباطل والتعب والعجز المنافي لقدرة الله تعالى، ونزه نفسه عن كل ما لا يليق بجلاله، ونزه نفسه عن مقالة قالها بعض طوائف اليهود إن العزير ابن الله، فكل نقص وتمثيل قد نفاه

عن نفسه، فلو كانت مقالة المعطلين النافين لعلو الله على عرشه فوق مخلوقاته ومباينته لهم حقاً لنزه نفسه عن العلو والفوقية، فكيف والأمر بالعكس فهو دائماً يبدي ويعيد في ذكر علوه وفوقيته ويقرر ذلك بكل دليل وبرهان، فلو فرض أن النصوص خالية من تقرير العلو والاستواء على العرش لكان تركه تنزيهه عن العلو أكبر دليل على تقرير ذلك ورضاه به والعلم بأنه غير مناف لكماله، فكيف وهو مع ذلك والأدلة الشرعية كلها على خلاف قول الجهمية، فلو بسطت أنواعها وجعلت أفراداً لزادت على ألف دليل فإن كان يمكن تأويلها وإنكارها مع هذا البيان والوضوح وتنوع الأدلة أمكن تأويل الدين كله وإنكاره كما فعل ذلك الملاحدة الزنادقة من القرامطة والباطنية والإسماعيلية فإذا كان معلوماً بطلان قولهم في الشرائع والمعاد والتوحيد فكذلك قول المتأولين للعلو ولا فرق بين الأمرين في الحقيقة.

التاسع عشر أن يقال للمعطل: هل تعترف أن محمداً ﷺ كان يعرف ربه؟ فلا بد أن يقول نعم، فيقال له: هل كانت نصيحته لأمته كاملة تامة لا يمكن أن يساويه فيها أحد؟ فلا بد أن يقول نعم، فيقال له: هل كان فصيحاً بليغاً مقتدراً على التعبير عن المعاني المقصودة بالألفاظ الجلية الفصيحة فمعاني كلامه أجل المعاني وألفاظه أفصح الألفاظ؟ فلا بد أن يقول نعم، لأن هذه الأمور الثلاثة في حق النبي ﷺ لا يمكن أن ينازع فيها مسلم يعظم الرسول، فإذا علم بالضرورة أن هذه الأمور الثلاثة قد كملت فيه على أكمل وجه كان من أعظم المحال أن يكتم ما يجب لله من العلو والفوقية وصفات الكمال ويفصح بضد ذلك، بل لما كان ﷺ كامل العلم بربه وبدينه فهو أعلم الخلق وأخشاهم لربه وكان بالمؤمنين رحيماً أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم وأبلغ الخلق وأقدرهم على التعبير عن المعاني النافعة، علمهم ﷺ ما لم يكونوا يعلمون، وقد بين للناس جميع ما يحتاجون إليه، خصوصاً الأمور المهمة والعقائد الدينية والأصول الإيمانية، فلو كان الحق فيما يقوله

النفاة والنبـي ﷺ لم يصرح بشيء منه بل صرح بضده وجعل الأمر موكولاً لعقول الناس وآرائهم الضعيفة للزم انتفاء هذه الأمور الثلاثة كلها، وهذا لا يفوه به مسلم يؤمن بالله ورسوله.

بل لما كان هذا الباب أنفـع الأصول وأفرضها، والناس مضطرون إليه، صرح ﷺ بأنواعه وتفاصيله حتى أن كثيراً من الأئمة لم يقل جميـع ما قاله الرسول في هذا الباب.. لا كتماناً منهم، بل مراعاة لأحوال وقتهم وأهل زمانهم، وأن كثيراً منهم لا تكاد أفهامهم تطيق وتحتمـل بعض الدقـائق الإيمانيـة فلم يخبروا به للمصلحة، فالعلم يجب بيانه إلا إذا اقتضت المصلحة السكوت عن بعضه مراعاة لأهم الأمرين، فإن الشرع دائر مـع المصالـح وتقديم راجحها على مرجوحها والله أعلم.

العشرون من البراهين الدالة على علو الله على خلقه واستوائه على عرشه الدليل العظيم والبرهان القاطـع، وهو ما يحصل من مجموع الأدلة السابقة وغيرها، فإنه يحصل من سرد أنواعها وأفرادها ونصوصها وقواطعها ما يوصل إلى اليقين الاضطراري والعلم الضـروري الذي لا يمكن دفعـه ويحصل الجزم التام الذي لا ريب فيه بعلو الله وارتفاعه واستوائه على عرشه. وأشار المؤلف إليها في هذا الموضـع إشارة لطيفة تعرف مما تقدم، وذلك أن واحداً من الأدلة يفيد العلم بالمقصود ثم الآخر كذلك ثم يستفاد من انضمام أحدهما للآخر دلالة أخرى ثم من مجموع الجميـع دلالة هي أقوى أنواع الدلالات فتتزايد شواهد الإيمان وتتعاون أدلته حتى يكون الإيمان في القلب أرسـخ من الجبال.

الحادي والعشرون أنه ورد في الكتاب والسنة ذكر مجيء الله للفصل بين عباده كما في قوله تعالى:

﴿هل ينظرون إلّا أنْ تأتِيَهم الملائكةُ أو يأتيَ ربُّك أو يأتيَ بعضُ آيات ربك﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٥٨]

فهذا التنويع والتقسيم المصرح بمجيء الملائكة ثم مجيء الله ثم مجيء بعض آياته يمنع تأويلة بأنه يأتي أمره أو ملك من الملائكة، وأنه من باب تحريف الكلم عن مواضعه، لأن الأمرين صرح بذكرهما وصرح بينهما بذكر مجيئه فلم يبق للاحتمال موضع بوجه، فإذا ثبت وتقرر مجيئه كان معلوماً أنه يأتيهم من فوقهم لا من بقية جهاتهم كما تقدم في الرؤية.

فصل
في الإشارة إلى ذلك من السُّنَّة

أشار المصنف رحمه الله في هذا الفصل إلى بعض ما تضمنته الأحاديث النبوية من علو الله تعالى واستوائه على عرشه، وقد بسط الأدلة في ذلك والآثار في كتابه (الجيوش الإسلامية) فليرجع إليه من أحب الوقوف عليه، وذكر في آخر الفصل حين أشار إليها أن هذه الأدلة الكثيرة المتنوعة لا تقبل التأويل بوجه من الوجوه وأن تأويلها من باب تحريف الكلم عن مواضعه.

فصل
في جناية التأويل، والفرق بين المقبول منه والمردود

لا يرتاب عارف أن جميع المصائب التي جرت في صدر الإسلام وبعد ذلك ووقوع الفتن والاقتتال والتحزبات كلها متفرعة عن التأويل الباطل الذي لا ينتج إلا شراً. فالتأويل الباطل سبب فتن الأقوال والبدع الاعتقادية، والفتن الفعلية، فلم يزل التأويل يتوسع، وكل بدعة متأخرة تحدث من التأويلات الباطلة غير ما أحدثته التي قبلها، حتى وصلت النوبة إلى ابن سينا وأتباعه، فتأولوا جميع الشرائع العلمية والعملية، وأبطل القرامطة جميع الشرع، وفسروا شرائعه الكبار بتفاسير يعلم الصبيان بطلانها. فهذه البدع أصلها الذي تأسست عليه التأويل الباطل المردود.

وأما التأويل الذي يراد به تفسير مراد الله ومراد رسوله بالطرق الموصلة إلى ذلك فهذه طريقة الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهي التي أمر الله ورسوله بها ومدح أهلها، وكذلك التأويل الذي هو بمعنى ما يَـؤُول إليه الأمر من العمل بأمر الله ومن فهم ما يَـؤُول إليه الخبر. فلفظ «التأويل» في الكتاب والسنة الغالب عليه هذان الأمران: إما نفس وقوع ما أخبر الله به ورسوله، وإما العمل بما أمر الله به ورسوله. فالأول راجع إلى التصديق، والثاني راجع إلى الطاعة والإيمان بالله ورسوله، وطاعة الله ورسوله هو الخير كله وسبب السعادة والفلاح.

فتبين أن التأويل الصحيح كله يعود إلى فهم مراد الله ورسوله، وإلى العمل بالخبر، وأن التأويل الباطل يراد به ضد ذلك ويراد به صرف النصوص عن معناها الذي أراده الله ورسوله، إلى بدعهم وضلالهم، وهو من أعظم ما يدخل في القول على الله بلا علم وقول غير الحق.

وكل من ادعى تأويلاً يخالف اللفظ لم تصح دعواه إلا بأربعة أمور لو اختل واحد منها فتأويله باطل: (أحدها) أن يأتي بدليل يدل على قوله، لأنه خلاف الأصل فإن الأصل حمل اللفظ على ظاهره وحقيقته، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه البرهان. فإذا أتى بدليل طولب بأمر (ثان) وهو أن ذلك الذي تأوله إلى ذلك المعنى يحتمله، لأنه لا بد أن يكون بين الألفاظ والمعاني ارتباط وتناسب، لأنه باللسان العربي أنزله الله ليعقله العباد إذا تدبروا ألفاظه، فهل يمكن أن يعقلوا أو يفهموا ما ليس له ارتباط ودلالة على المعاني من ذات اللفظ ونفس العبارة بحيث لا يحتاجون إلى أمور خارجية..

فإذا أتى بما يدل ويحتمل ذلك المعنى الذي عينه وهيهات له ذلك طولب بأمر (ثالث) وهو تعيينه المعنى الذي تأول اللفظ له، فهب أن ظاهره غير مراد فلا بد من دليل يعين المعنى الذي صرفه إليه ويخصصه به، فإن التخصيص من دون دليل من باب التكهن والتخرص، لأن اللفظ لا يدل عليه

بخصوصه، فقد يكون القصد به معنى غير الذي عينوه، وقد يكون اللفظ متعبداً بتلاوته ولفظه مجرداً عن المعاني، وهو أولى من تحريفهم أو إتيانهم بمعان ما أنزل الله بها من سلطان، وإن كان الأمران ينافيان حكمة الباري، لكن التعبد أهون من التحريف.

فإن فرض أنه تأول على غير ظاهره وأتى بدليل على الاحتمال وعلى التعين طولب بأمر (رابـع) وهو الجواب عن المعارض، لأن الدعوى لا تتم إلا بذلك، والمعارض للنفي هو جميـع الأدلة النقلية من الكتاب والسنة والأدلة العقلية والفطرة كما تقدمت الإشارة إليها، ومن المستحيل أنْ يُعَارَضَ وحيه وتنزيله وقول رسوله وأصحابه والتابعين بإحسان بأقوال النفاة الذين بنوا أمرهم على المحال، فتبين أن المعطلين النافين لا سبيل لهم إلى إثبات قولهم أبداً بوجه من الوجوه وهو المطلوب.

فصـــل

في شَبَهِ المُعَطِّلين لليهود، المحرِّفين للنصوص، وإرثهم التحريف منهم، وبراءة أهل الإثبات ممَّا رَمَوْهم به من هذا الشَّبَه

وذلك أن المحرفين من الجهمية ونحوهم رموا أهل السنة بأنهم ممثلون ومشبهون مشابهون لليهود، لأن اليهود على زعمهم ممثلون، فعندهم أن أهل السنة ممثلون لأنهم أثبتوا لله صفـات الكمال التي نطق بها الكتاب والسنة ودلت عليها العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة لعقول الجهمية ومن دان بقولهم توهموا أن إثبات الصفات تمثيل ورموا به أهل السنة، والحال أن المشابهة الحقيقة لليهود منطبقة على الجهمية، فإن اليهود قد جمعوا بين تبديل النصوص وكتمانها وبين تحريف ما لا يمكن فيه أحد الأمرين، فهؤلاء الجهمية لما تعذر عليهم التبديل والكتمان لأن الله نزل الذكر وحفظه فيستحيل تبديله وكتمانه، عمدوا إلى تحريف معاني النصوص وتبديلها، فنفوا المعنى

الذي أراده الله ورسوله، وأثبتوا لها معاني من تلقاء أنفسهم. فهذا هو الشبه الحقيقي باليهود، وكذلك اليهود لما قيل لهم:

﴿وادخُلُوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّة﴾ [سورة البقرة: الآية ٥٨]

دخلوا على إستاتهم وقالوا حبة في حنطة تهكماً وجرأة على الله، كذلك الجهمية لما نصّ الله أنه:

﴿استوى على العرش﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

قالوا معنى استوى «استولى» فاليهود زادوا النون في قولهم حنطة بدل حطة والجهمية زادوا اللام في قولهم استولى بدل استوى. وهذا قول باطل قد بين الأئمة بطلانه من وجوه كثيرة. وقد ذكر المؤلف في كتابه (الصواعق المرسلة) أكثر من أربعين وجهاً في إبطال هذا التحريف واليهود قد وصفوا الله بالنقائص والعيوب، وهؤلاء نفوا صفاته وهو أشنع التنقيص.

فصل

في بيان بهتانهم في تشبيه أهل الإثبات بفرعون، وقولهم: إن مقالة العلوّ، عنه أخذوها، وأنهم أولى بفرعون، وهم أشباهه

وذلك أن الجهمية رموا أهل السنة وسموهم فرعونية، يقولون إن مذهبهم مذهب فرعون لأنهم يعتقدون أن الله فوق خلقه كما اعتقد فرعون ذلك حتى طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً ليبلغ الأسباب أسباب السماوات فيطلع إلى إله موسى تكذيباً لموسى وجحداً لرب العالمين. ومن المعلوم أن الجهمية أولى بفرعون في هذه الحالة، لأنه قالها إنكاراً، وهو نفس مذهب الجهمية، فإنهم أنكروا كلام الله وعلوه على خلقه كما أنكر فرعون ذلك بتكذيبه لرسالة موسى ولعلوّ الله، وليس بينهم فرق إلا أن فرعون صرح بالإنكار وهم موهوا العبارات وزخرفوا الألفاظ وقبحوا الحسن وحسنوا القبيح وسموا أنفسهم أهل الحق وسموا غيرهم أهل الباطل فانخدعوا لهذه الزخارف وخدعوا غيرهم.

فصـــل
في بيان تدليسهم وتلبيسهم الحق بالباطل

وذلك أن كل صاحب بدعة يقصد نصر مقالته يأتي إلى الحق الصريح المناقض لقوله فيستخرج له الاحتمالات البعيدة والألفاظ المجملة، فإن هؤلاء الجهمية موهوا وقالوا لإخوانهم: إذا قال لكم المجسم:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

فقولوا له: هذا لفظ مجمل، فإن «العرش» له عدة معانٍ و «الاستواء» له عدة محامل، فأي المعاني تريد وأي المحامل تقصد. و«على» أيضاً تأتي في العربية لعدة معانٍ فإذا سمع الجاهل هذا التلبيس والتمويه استعظم ذلك ورآه إشكالاً يعسر الانحلال عنه، وأما المتبصر الذي نور الله قلبه فإنه يعرف أن هذا ليس محل إشكال ولا لبس بل هو من أوضح الأشياء وأبينها، فإن الألف واللام في «العرش» للعهد الذي يفهمه كل مسلم أنه عرش الرب العظيم لا غيره من عروش الكرم ونحوها، ولو قيل له يحتمل واحداً غير هذا لبادر لإنكاره، هذا مع اتفاق جميع الرسل وشهادتهم أنه استوى على العرش العظيم، فكل مؤمن يفهم المعنى من قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

وكذلك لفظ الاستواء المعدّى بعلى فإنه واضح جداً دالّ على العلوّ والظهور، فإن الاستواء حيث عُدِّيَ بعلى فإنه يدل على العلو والظهور، وأما إذا عدي بإلى نحو

﴿استوى إلى السماء﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٩]

فإنه يدل على القصد، وإذا قيل استوى كذا وكذا دل على معية الأول للثاني كقوله لموسى:

﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ [سورة القصص: الآية ١٤]

فهذه المعاني المتباينة بحسب تعديته بالحروف كما ذكرنا، فعلم علماً يقيناً أن قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طَه: الآية ٥]
لا إشكال فيه ولا إجمال، خصوصاً وقد طرد إتيانه بهذا السياق في جميع موارده ومصادره، ولم يأت هذا المعنى بلفظ فيه إجمال، فلو كان المراد ما قصده الجهمي لأتى به ولو في موضع واحد ليستبين المراد، والجهميّ من تلبيسه جعل هذه الألفاظ مجملة محتملة لعدة معانٍ ليتمكن من تحريفه، فينبغي مع ذلك أن يتمم هذا التحريف والتلبيس فيقول والرحمن له عدة معانٍ ليكمل إلحاده ويستريح ويجعل قوله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طَه: الآية ٥]
ليس له معنى وإنما يتبرك بقراءته تبركاً.

ونظير هذا الفصل الفصل الذي بعده وهو قوله:

فصل

في بيان سبب غلطهم في الألفاظ، والحكم عليها بعدة معانٍ حتى أسقطوا الاستدلال بها

اعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة تأتي مركبة صريحة في معانيها لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق على هذا جميع أئمة المسلمين الذين عرفوا مقاصد الشارع في مصادره وموارده، وتمرّنوا على ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية فلا يستريبون أيضاً في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بياناً وأبلغ وضوحاً لشدة الحاجة والضرورة إليه.

ودون هؤلاء من أهل العلم من لم يصل إلى ما وصلوا إليه لأنه ليس عندهم من الاعتناء بالنصوص كما عند أولئك، فنصوص الشارع عندهم ظواهر ظاهرة في معناها في مداركهم وأفهامهم، وربما وقع لبعض هؤلاء من الاحتمالات والإشكالات ما لا يقدرون على حله، وبين هؤلاء وبين الأولين

فرق عظيم في هذه الأبواب والأصول العظيمة، وليس نزولهم عن الأولين لقصور في أفهامهم وإنما ذلك لعدم إقبالهم التام واعتنائهم بكلام الشارع، ولهذا تجدهم في المذاهب التي تفقهوا بها واعتنوا بها جازمين بمقاصد أئمتهم ومرادهم بألفاظهم ونصوصهم، لأنهم وفروا مداركهم لتحصيل ذلك فمهروا فيها.

وأما القسم الثالث المذموم فهم جمهور أهل الكلام الباطل الذين أصلوا أصولاً ما أنزل الله بها من سلطان حالت بينهم وبين فهم مراد الله ورسوله، حتى جعلوا كلامهم أصلاً واضحاً محكماً وكلام الله ورسوله تابعاً مجملاً مشتبهاً، وموهوا على الناس أنهم أهل الحق ومن سواهم أهل الباطل، وسموا مقالاتهم بأسماء ممدوحة راجت على أكثر الخلق الذين يغترون بزخارف الألفاظ ولا تنفذ بصائرهم إلى بواطن المعاني، ثم تمموا مقالتهم الباطلة بأنْ سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء المذمومة كالمجسِّمة والمشبهة ومقالتهم تجسيماً وتشبيهاً وتنقيصاً، ثم عمدوا إلى ألفاظ السنة الصريحة الواضحة المركبة ففككوا تراكيبها وتكلموا على مفرداتها وأنها تحتمل كذا وكذا من المعاني من حيث أفرادها، فأسقطوا بعملهم هذا الاستدلال بها، وأفسدوا على الناس عقائدهم وحرفوا معاني الوحي.

فاعلم هداك الله أن المجردات اللفظية والمجردات المعنوية لا وجود لها في الخارج، وإنما يفرضها الذهن فرضاً خيالياً وهو غالط في هذا الفرض، فإنه لا يستفاد من لفظ مفرد مجرد عن التركيب والقيود معنى أصلاً. وإنما تستفاد المعاني بانضمام الألفاظ بعضها إلى بعض وتركيبها تركيباً صحيحاً، ونظير فعل المتكلمين في الألفاظ المجردة نظير فعل الفلاسفة في المعاني المجردة كالوجود المطلق عن كل قيد فحكموا بوجوده خارجاً وجوداً مطلقاً مجرداً عن كل قيد وحيواناً مطلقاً وإنساناً مجرداً، فحصل بذلك من الغلط العظيم والتخبيط للأذهان والإلحاد شر عظيم، فالحاصل أن الألفاظ

المجردة والمعاني المجردة عن كل قيد ووصف مفروض بالذهن لا وجود له أصلاً.

فصـــل
في بيان تناقضهم، وعجزهم عن الفرق بين ما يجب تأويله وما لا يجب

وذلك أن المتكلمين بالكلام الباطل من جهمية ومعتزلة وقدرية وكلابية وأشعرية قد اشتركوا في نفي صفات الباري، وقد تفاوتوا في كثرة ما ينفونه منها، وكل فريق منهم فيما ينفيه من الصفات إذا وردت عليه النصوص من الكتاب والسنة في إثباتها تأولها تأويلات تنفي ما تدل عليه من المعاني الصريحة الظاهرة الحقة، وصرّفها لمعان باطلة لا تدل عليها لأجل موافقة نحلته ومذهبه. وجرأهم على هذا التأويل أنهم سموا المعاني الفلسفية والأصول اليونانية قواطع عقلية وبراهين يقينية وأدلة الكتاب والسنة ظواهر لفظية قابلة للتأويل، فسطوا عليها بالتأويلات الباطلة التي يجزم كل ذي بصيرة أنها خلاف مراد الله ورسوله منها.

ثم إنهم لا بد أن يثبتوا أشياء من الصفات أو من الأسماء ويمنعوا من تأويلها، ومن تأولها أنكروا عليه غاية الإنكار، فصاروا بهذه الحال مذبذبين لا من النافين للرب المعطلين له بالكلية كالفلاسفة الزنادقة ونحوهم من كل مارق خارج عن الأديان ولا من أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبته الله ورسوله على الوجه الذي يفهمه كل أحد لم تفسد عقيدته القواعد الباطلة والمقالات الفاسدة، فصاروا أعداء للطائفتين بما خالفوهم فيه وانقطعوا عند مناظرتهم لكل من الفريقين، وكانت الفلاسفة تعترض عليهم بما وافقوهم فيه من الأصول الباطلة؛ يقولون لهم: كيف لا تلتزمونها ولا تطردونها فتوافقونا على قولنا؟ وصار أهل السنة والجماعة يلزمونهم ويقولون لهم: إن تأويلاتكم هذه من جنس تأويلات الفلاسفة الزنادقة ــ الذين لا يؤمنون بالله ورسله ــ لنصوص

الكتاب والسنة في جميع الشريعة، فلأي شيء ساغ تأويل أهل الكلام من الجهمية ونحوهم ولم يسغ تأويل الفلاسفة، وبذلك سلطوا على أنفسهم أعداء الإسلام ويلزمونهم بالتحيز إليهم، وكفى شراً بمقالة تصل بأصحابها إلى هذا الحد.

وكان أهل السنة والجماعة ينكرون عليهم النفي والتعطيل ويقولون لهم: هذا خلاف ما أتت به الأدلة النقلية والعقلية، وقالوا لهم: جميع الصفات من العلو والاستواء والكلام وغيرها صريحة في الوحيين لا ريب في دلالتها عليها، فبأي شيء فرقتم بينها فأثبتم أشياء ونفيتم أشياء وجميعها وردت وروداً واحداً، فعجزوا عن الفرق الصحيح وتشبثوا بفروق لفظية لا حقائق معنوية، فادعى بعضهم ما أشار إليه في هذا الفصل:

فصــل

في المطالبة في الفَرْق بين ما يتأول، وما لا يتأول

وهذه المطالبة موجهة إلى الكلابية والأشعرية والماتريدية الذين يثبتون الصفات السبع، وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، وينفون ما عداها من الرحمة والرضى والغضب والعلو والاستواء على العرش وغيرها فإذا قيل لهم: فرقوا بين ما أثبتم وما نفيتم إذ الجميع وردت في الكتاب والسنة ورودا واحداً مثبتة لله كسائر ما يثبت له من الأسماء والأوصاف، فكيف تأولتم ما نفيتم وتركتم ما أثبتم؟ فقالوا: ما يقتضي التجسيم تأولناه لأن الجسم من خصائص المحدثات المخلوقة فهذا الذي تأولناه ما نعقل منه إلا التجسيم فتعين فيه التأويل، بخلاف الصفات السبع فإنها لا تدل على التجسيم بل تثبت لله على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته.

فقال لهم أهل الإثبات: هلا سلكتم هذا المسلك في الصفات الأخر وأثبتموها لله على وجه لا يماثله فيه أحد من الخلق بوجه من الوجوه كما هو

الحق الواجب، فتفريقكم بين الأمرين تفريق بين متماثلين، فإذا قالوا: ما نفهم من هذا الذي تأولناه إلا التجسيم فتعين نفيه؛ قال لهم النفاة من الجهمية ونحوهم: ما نفهم من الصفات السبع إلا التجسيم، فتعين نفيها، فما أجابوا به الجهمية من أنهم يثبتونها وينفون عنها خصائص المخلوقين يقول لهم أهل السنة فافعلوا هذا في بقية الصفات فالباب واحد، وإلا فبينوا فرقاً صحيحاً. ومن المعلوم اليقيني أنهم لا يهتدون إلى فرق بين الصفات بإثبات بعضها ونفي بعضها، ولو نشرت شيوخهم لعلمنا أن الجميع طريقه واحد، والتماثل بين الصفات أمر يقيني قطعي لا تؤثر فيه الشبهات والفروق الخيالية.

فلذلك فرّ بعضهم إلى فرق آخر خياليّ وهمي فقال: ما دل عليه العقل وهي الصفات السبع أثبتناها، فإن وجود المخلوقات دل على القدرة، وما فيها من التخصيصات دال على الإرادة، وذلك دليل العلم، والعلم والقدرة والإرادة تدل على الحياة، والحياة الكاملة تدل على السمع والبصر والكلام. وما لا يدل عليه العقل نفيناه وهو ما سوى المذكورات. فقال لهم أهل السنة: هذا عجب منكم، كيف أنكرتم التجسيم غاية الإنكار وقامت لذلك قيامتكم وزعمتم أن كل موصوف فهو جسم، ثم أثبتم هذه الصفات السبع ولم تتحاشوا من كونها دالة على التجسيم. فإن كان في العقل ما يدل على التجسيم وأنتم تنفونه غاية النفي فيلزمكم نفي الصفات السبع وموافقة الجهمية في النفي التام، وإن كان فيه ما يدل على ثبوته فلأي شيء تفرون من إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له أعلم خلقه وأتقاهم وأورعهم، وإذا قلتم إنه منفي في شيء دون شيء فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

ويقال أيضاً نفي الدليل المعين لا يدل على نفي المدلول، فقدروا أن بقية الأوصاف لم يدل عليها العقل، فالسمع قد دل عليها دلالة واضحة جلية قاطعة، ودلالة السمع دلالة شرعية يقينية متفق عليها بين حملة الشريعة، فيجب اتباع الدليل السالم عن المعارض والمقاوم. ثم يقال أيضاً قد ثبت كثير

من الصفات الخبرية بأمور عقلية عيانية، فما في المخلوقات من أنواع المنافع والمصالح والنعم يدل على رحمة الخالق، وما يشاهد من إكرام أوليائه وإهانة أعدائه أكبر دليل على رضاه على هؤلاء وغضبه على الأعداء، وما يشاهد من إحكام المخلوقات وإتقانها وحكم الشرائع وأسرارها دال على كمال حكمة الله. فهذه الصفات ثابتة شرعاً وعقلاً وفطرة فعلم أن المفرقين في ضلال بعيد.

فصـــل
في مخالفة طريقة المُعَطِّلين لطريقة أهل الاستقامة عقلاً ونقلاً

اعلم أن طريق أهل الكلام الباطل مخالف لطريق أهل الاستقامة من جهة التأصيل والتفريع، وذلك أن أصل طريقهم الذي بنوا عليه قواعدهم وأقوالهم وأعمالهم أن رأي متبوعهم وشيوخهم وعقولهم هو الأصل الأصيل، وهو النص الواضح الذي توزن به المقالات، فإذا جاءهم كلام الله وكلام رسوله مخالفاً لهذا الأصل قالوا هذا متشابه يحتمل عدة معانٍ، وكلام متبوعنا نص لا احتمال فيه فإن أمكنهم التأويل والتحريف فعلوا ذلك، وإلا قالوا: متشابه لا يعلمه إلا الله. وإذا قيل لهم: هذا بيان الله ورسوله ما فيه اشتباه ولا إشكال أجابوا بأننا مقلدون ومتبوعنا أعلم منا بمراد الله ومراد رسوله، فهذا من أعجب العجب، كيف اهتدوا مع اعترافهم أنهم مقلدون عن الاستدلال أن يعينوا أولوية ذلك المتبوع على غيره، بل اهتدوا لوجوب اتباعه وإهدار أقوال من سواه؟ كيف نهض بهم الاستدلال إلى هذا الحد وهو من أصعب الأشياء وعجزوا عن الأخذ عن الله ورسوله مع استيلاء الوحيين على غاية البيان والبلاغة. ولا ريب أن هذا غاية الحرمان. والمقصود أن طريق هؤلاء المتكلمين أخبث الطرق، إذ جعلوا أصولهم هي الأصول وكلام الله ورسوله تبعاً لها، فما وافقها قبلوه وإلا حرفوه أو فوضوه.

أما طريقة أهل الاستقامة فإنها بالعكس من هذا الطريق، بل سلكوا الصراط المستقيم وتبعوا بذلك سيد المرسلين وأتباعه من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، حيث كان أصلهم الذي عليه يعتمدون وفي أصولهم وفروعهم إليه يرجعون كتاب الله وسنة رسوله إذ فيهما الهدى التام والكفاية والشفا والغنى عما سواهما، فصدقوا أخبارهما وحققوا أوامرهما بالامتثال والنواهي بالاجتناب، وعلموا أن الحق ما اشتمل عليه الكتاب والسنة وليس بعد الحق إلا الضلال، وعرضوا جميع المقالات والعقائد عليهما فما وافق ذلك قبلوه وما خالفه ردوه على من قاله، وعلموا أن كل أحد من الخلق يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، وما أشكل عليهم هل هو موافق أو مخالف من المقالات الغامضة والألفاظ المجملة توقفوا فيه ولم يحكموا له بقبول ولا رد حتى يتبين حاله.

فهذه الطريق هي المنجية العاصمة من المهالك، الكفيلة ببيان الحقائق وتعدي الخلائق، التي من استمسك بها فقد استمسك بالعروة الوثقي والسبب الأقوى فإن النقل نقل مصدّق والقائل معصوم، وأما غير الرسول من النقلة والقائلين فالنقل غير مصدق بل يعتريه من الكذب والتغيير شيء كثير، ثم القائل غير معصوم لا وثوق لأحد بقوله في فرع من فروع الدين فضلاً عن أصوله فضلاً عن تقديمه على الأصول الكبار، فهذا تحقيق الفرق، ولا يخفى الأمر على أولي الألباب.

فصـــل

في بيان كذبهم في رميهم أهل الحق بأنهم أشباه الخوارج، وبيان شَبَهِهِم المُحَقَّق بالخوارج

بدعة الخوارج معروفة، وهم الحرورية الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب والصحابة وكفروهم واستحلوا دماءهم وأموالهم وأسسوا لهم بدعة خبيثة وهي تكفير أهل الكبائر وتخليدهم في النار، وإنكار الشفاعة فيهم، فقدحوا في الصحابة ومن لم يدن بدينهم من فضلاء الأمة، بل قال قائلهم وهو ذو الخويصرة للنبي ﷺ: اعدل يا محمد وهذه قسمة ما أريد بها وجه الله فقدحوا في قصده وحكمه وروجوا مذهبهم الباطل بنصوص من الكتاب والسنة لم يفهموها وحملوها على مذهبهم. وقد اتفق السلف على بدعتهم وأنهم «مارقون من الدين» كما ثبت به الحديث.

فهؤلاء الجهمية شابهوا الخوارج مشابهة ظاهرة: سموا أنفسهم أهل الحق ومن قال بقول الصحابة والتابعين لهم بإحسان بأهل الباطل، والنصوص الثابتة في الكتاب والسنة الدالة على الإثبات ردّوا منها ما تمكنوا من رده وحرفوا ما حرفوا وكفروا المثبتين، فانطبق عليهم الشبه المحقق بالخوارج من كل وجه، بل الخوارج أحسن حالاً منهم من وجوه كثيرة، منها أن أدلتهم التي بنوا عليها مذهبهم نصوص فهموها من الكتاب والسنة غلطوا فيها، والجهمية إنما بنوا مذهبهم على آرائهم الفاسدة وعقولهم الكاسدة وعرضوا عليها الكتاب. والسنة والخوارج أصدق منهم وأورع عن الكذب، ولكنهم مع هذا رموا أهل السنة والجماعة أنهم أشباه الخوارج تمويها وترويجاً، والخوارج جردوا سيوفهم وألسنتهم على من قالوا إنهم فعلوا الكبائر، وهؤلاء سلوا سيوفهم على سنن الرسول بالردّ والتكذيب والتحريف وعلى أئمة الهدى بالقتل والتضليل والتبديع، والخوارج مثبتون لصفات ربهم والجهمية نافون لها، وأهل السنة وإن كانوا برآء من الطائفتين ويدينون الله ببغضهم ومعاداتهم فالحق

أحق أن يقال، والواجب معرفة مراتب الأقوال وتنزيل الأمور منازلها. وكل وصف نعت به الخوارج فالجهمية مثلهم أو أشر منهم، فإن الخارجي قال للرسول؛ «اعدل» والجهمية لما قال الله:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [سورة طه: الآية ٥]

قالوا: الصواب «استولى» فاستدركوا على الله وعلى رسوله. وكذلك لما تواترت النصوص في نزول الرب إلى سماء الدنيا قال الجهمي مستدركاً على الرسول: الصواب ينزل أمره، لأن إخبار الرسول أنه ينزل يشوش عقائد الناس! وقالوا في معراجه: الصواب أنه عرج إلى كرامة الله لا إلى الله، وإن توجه العباد إلى العلو طالبين لربهم في أدعيتهم وتضرعاتهم قالوا: الصواب لا داخل العالم ولا خارجه.

ولما وصف المؤلف أحوال الجهمية أخبر أنه لم ينقل عنهم سوى ما قالوه. وأنه ممن جرب مقالتهم ووقع فيها في أول أمره حتى هيأ الله له شيخ الإسلام ابن تيمية فلازمه وتبين له بسببه الحق المبين من الباطل وحصلت له الهداية والنور التام. وبين أصول الدين ورد أقوال المبطلين. والحاصل أن أهل السنة والجماعة تبعوا ما قاله الله ورسوله وهم أعلم الناس بمراد الله ومراد رسوله ولم يزيدوا على ذلك شعرة ولم ينقصوا منه ذرة، وكلام الله ورسوله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من كل شيء، وأسهل شيء عليهم رد كلام الناس كلهم إذا خالفوا نصاً واحداً من الكتاب والسنة، فبالله عليك أيهم أشبه بالخوارج وأولاهم بهم؟ والجواب لا يحتاج إلى ذكر لوضوحه.

فصـــل

في تلقيبهم أهل السُّنَّة والجماعة بالحَشْوِية، وبيان: مَنْ أولى بهذا الوصف المذموم من الطائفتين..

سبب تلقيب الجهمية لأهل السنة بالحشوية أن الإيمان عندهم نفي الصفات، فمن لم يتصف بوصفهم فليس له من العلم والإيمان إلا اسمهما ولا من الحقائق إلا رسمها، فأهل السنة لما كانوا يثبتون لله صفات الكمال سموهم «حشوية» يعني أنهم حشو وفضلة في الناس وغثاء كغثاء السيل. وجهال الجهمية يتوهمون أن أهل السنة يعتقدون أن الباري في جوف السماوات والأرض وأنه حشوها، وهذا غاية ما يكون من الجهل، إذ لم يقل بهذه المقالة أحد من الناس، وأبعد الناس عنها أهل السنة والجماعة، فإن من اعتقادهم أن السماوات وما فيها من العوالم والأرضين وما فيها في قبضة الرحمن أصغر من خردلة في كف ممسكها، وله من العظمة والكبرياء والقدس والجلال ما لا تدركه عقول العالمين ولا تحيط به عبارات المعبرين، فكيف ينسب إليهم هذا القول الذي يدل على أن من قاله لم يقع في قلبه من معرفة الرب وعظمته أدنى شيء ولا قدر الله حق قدره.

المقصود أن الجهمية اختلفوا في أهل السنة: هل المراد أنهم حشو الوجود وفضلة فيه أو كما قاله جهالهم من تلك المقالة التي لم تخطر بقلب إنسان ولأهل السنة أسوة بغيرهم؟ فقد ذكر أن أول من لقب هذا اللقب عمرو بن عبيد المعتزلي لعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأهل السنة والجماعة لا يتركون السنة لأجل تشنيع المشنعين، فإن كان من يتبع الكتاب والسنة حشوياً فإنهم يشهدون كل أحد أنهم حشوية بهذا المعنى، والمدار كله على المعاني لا على الأسماء، فكم سمى أهلُ الباطل لأهل الحق بالأسماء المذمومة وسموا أنفسهم بالأسماء الممدوحة، وذلك لا يضر أهل الحق ولا يرفع أهل الباطل، وإنما هذا شبكة يصطاد بها الذين لا بصيرة لهم،

أمّا الذين هم أحق بهذا اللقب المذموم فإنهم أهل الكلام الباطل الذين حشوا الأوراق من الهذيان والقلوب من الشبه والافتراء وفرحوا بما عندهم من العلوم الباطلة المخالفة لعلوم الرسل، لا أهل السنة الذين حشـوا القلوب علماً وإيماناً، وأناروا الوجود صدقاً ومعارف وإيقاناً، ووردوا عين الشريعة أعذب المناهل وأصفاها إذ ورد غيرهم زبالة الأفكار ونتن الآراء.

فصـــل
في تلقيبهم لأهل السُّنَّة والجماعة بالمُجَسِّمة والمُشَبِّهَة، ونحوها من الأسماء

وذلك لأن أهل السنة أثبتوا لله صفات الكمال كلها، فزعم الجهمية أن إثباتها يقتضي التشبيه والتجسيم، فسموا المثبتين بذلك، فأهل السنة يجيبونهم بجواب يفحمهم ويخصمهم أن إثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من الأوصاف إما أن لا يقتضي التشبيه والتجسيم لأن الله ليس كمثله شيء فيكون رميكم لنا من باب البهت والافتراء، وإما أن يقتضي ذلك، فإن اقتضاه لم نترك ما دل عليه الكتاب والسنة لأي لازم يقوله أهل الباطل ولا لأجل شنـاعة المشنعين، فالمبطل في الحقيقة إنما يوجه الإلزامات التي يذكرها على كلام الله ورسوله، وحسبك فحشاً وقبحاً مقالة تصل إلى هذا الحد.

فَبَيْنَ أهل السنة وأهل الباطل فروق عظيمة، أهل السنة يقـولون: ما دلت عليه النصوص فهو حق على حقيقته مبين غاية البيان، فلا بعد بيان الله ورسوله بيان، وما خالف هذا الحق فهو باطل. والمتكلمون جعلوا ظواهر النصوص غير مرادة وهي مجاز مـع أن المجاز يجوز نفيه وفي نفيه من الكفر ما لا يخفى. ومن قولهم أيضاً أن حقائق الألفاظ منتفية عقلاً، فإذا انتفت الألفاظ والمعاني فما الذي بقي من الدين ومن كلام رب العالمين ونصوص

سيد المرسلين، فالنفي والتعطيل للحق والحقائق الثابتة سيما هذه الطائفة والذم نعت لهؤلاء المبتدعين.

فصــل

في بيان موارد أهل التعطيل
وأنهم تعوضوا بالقلوط عن مورد السلسبيل

أطيب الموارد وألذها وأصفاها وأنفعها مورد الشريعة المحمدية سهلة التناول واضحة الألفاظ حسنة المعاني تملأ القلوب أمناً وإيماناً وتصديقاً وتعظيماً وعلوماً ومعارف، فإن فهم أصول الدين وفروعه من الوحيين متيسر، قال تعالى:

﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [سورة القمر: الآية ١٧]

وآثارها في القلب واللسان والجوارح والهدى والسمت أحسن الآثار وأجملها، تصلح القلوب فتصلح لها الجوارح، وعكس ذلك موارد المبطلين، وخصوصاً الذين بنوا أصول دينهم على جهليات يسمونها عقليات وعلى قواعد الفلسفة، فنفوا لذلك صفات المولى التي هي التوحيد وهي أصل جميع الأصول وبها تستقيم الأمور، ففسد بذلك موردهم وخبثت بواطنهم وظواهرهم، وتعوَّضوا عن مورد الشرع والسلسبيل موارد الأخباث والأنجاس التي هي أصل التعطيل، فيا بئس ما أَصَّلوا وما فرعوا.

فصـــل
في بيان هدمهم لقواعد الإسلام والإيمان
بعزلهم نصوص السنة والقرآن

أعاد المؤلف هذه المباحث المهمة بتعبيرات متنوعة، لأنه بذلك تتضح الحقائق وتتبين الطرائق. فهؤلاء الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام الباطل سعوا في هدمهم قواعد الإسلام والقرآن، بما أصَّلوه من الأصول الباطلة، وبما نفوه من الأصول الصحيحة. فمن المعلوم أن قواعد الإسلام والإيمان إنما ثبتت وتأسست وانبنت على نصوص الكتاب والسنة، والجهمية عزلوا هذا الأساس العظيم بما أصَّلوه من الأصول الفاسدة فزعموا أن كلام الفلاسفة وعقولهم الفاسدة تفيد اليقين والقطع، وأن كلام الله ورسوله يفيد غلبة الظن، وإذا تعارضت القواطع العقلية مع الظواهر السمعية قدمت قواطع العقل، فهذا أخبث أصل أصَّلوه وأفسدوا به العقائد الصحيحة، وعزلوا لأجله النصوص الصحيحة الصريحة، وتمموا هذا الأصل الخبيث بأن جعلوا عقولهم الفاسدة هي الميزان دون عقول أولي الألباب الذين ينقحون الحقائق الخالصة، ويميزون بين العقليات والجهليات وبين البراهين والشبه، فهؤلاء هم الذين يتعين الرجوع إلى أقوالهم وآرائهم الصائبة.

وقد تتبع المحققون جميع الأصول الدينية فوجدوها مطابقة للمعقول الصريح، وحققوا كل ما قاله هؤلاء الحيارى الضالون من عقلياتهم التي عارضوا بها الحق فوجدوها جهليات هي على جهل أصحابها وانسلاخهم من زمرة أولي الألباب من أوضح الأدلة. ومن أراد تفصيل هذه الجملة فليطالع كتاب (العقل والنقل) وكتاب (التأسيس) لشيخ الإسلام ابن تيمية وكيف نقل أكبر براهينهم التي سموها براهين، ووضح ما فيها من الفساد والتناقض، وشهادة بعضهم على بعض بفسادها، وربما كان بعض رؤسائهم يذكرها في موضع من كتبه وينصرها ويذكرها في موضع آخر ويبطلها. وقد تصدى في

هذين الكتابين لبيان مخالفتها للعقل الصريح كما ناقضت النص الصحيح، فأدلة الكتاب والسنة وأدلة العقول الصحيحة لا تتناقض لأنها من عند الله

﴿ولو كان من عند غيرِ الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾

[سورة النساء: الآية ٨٢]

واعلم أن العقل مع النقل له ثلاث مقامات: إمَّا أن يشهد بما دل عليه الشرع، بما يراه من محاسن الدين وبناء أحكامه على تحصيل المصالح وتكميلها، وعلى دفع المفاسد وتقليلها حسب الإمكان، وبيان أن هداية الدين وإرشاداته تجري مع الوقت والزمان لا تتغير ولا يحصل الرشد بغيرها. وإما أن لا يهتدي العقل لمعرفة تفاصيلها كأمور الغيب والبرزخ والجنة والنار وأحوال يوم القيامة مما لا تهتدي العقول إليه لا إجمالاً ولا تفصيلاً إلا بالوحي السماوي، والعقل فيها يخضع ويسلم للسمع لتيقنه صدق الشارع وأنه لا يقول إلا الحق. وإمَّا أن يأتي الشرع بما تحار فيه العقول ولا تعرف وجهه ولا حكمته، وهذا النوع سماه الفقهاء تعبداً. فهذه الأمور الثلاثة هي التي ترد الشرائع بها.

وأما ورودها بأمر يشهد العقل الصريح ببطلانه وإحالته فهذا من المحال الممتنع لأن الحق لا يتعارض، والأمور اليقينية لا تتناقض، فحيث ظن في شيء من أمور الشرع تناقض ومناقضة للعقل فهو لأحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن العقل فاسد يظنه صاحبه معقولاً وحقيقة وهو خيال لا حقيقة له، وإما أن النقل غير صحيح. فالنقل غير الصحيح ليس من الشرع فلا تتصور المعارضة. وإذا بنى العبد إيمانه على هذا الأصل العظيم فقد استقام إيمانه وتم يقينه واهتدى للحقائق الصحيحة وسلك أحسن الطرائق المريحة، ومتى سلك الطريق المخالف لهذا فهو ضال زائغ، ونسأل الله أن يهدينا وإخواننا المسلمين لمعرفة الحق واتباعه آمين.

فصــل
في بطلان قول المُلْحِدين
القائلين: إن الاستدلال بكلام الله وكلام رسوله
لا يفيد العلم واليقين

وهذا من جنس ما قبله، فهؤلاء الملحدون زعموا أن أدلة الكتاب والسنة ظنية، وعللوا هذا بأنها ألفاظ تحتمل عدة معان لاشتراكها وإجمالها ولما فيها من الحذف والإضمار والمجاز ونحوه، وهذا يوجب التوقف في مدلولها. والسنة عندهم أغلبها آحاد كذبوا منه وحرّفوا ما لم يتمكنوا من ردّه. وقد تقدم إبطال هذا الأصل الخبيث.

أما أهل السنة والجماعة وجميع أئمة الهدى ومصابيح الدجى فهم يقولون صدق الله العظيم وصدق رسوله النبي الكريم ومن أصدق من الله قيلا وحديثاً، وقال تعالى:

﴿ولا يأتونك بمَثَلٍ إلاّ جئناك بالحقِّ وأحسَنَ تفسيراً﴾

[سورة الفرقان: الآية ٣٣]

الوحيان قد اشتملا على أجل المسائل وأوضح البراهين، بعبارات وألفاظ واضحة متصادقة، يصرف الله المعنى الجليل من أصول الدين في أساليب متنوعة وألفاظ متغايرة وكلها في غاية الوضوح والبيان والتبيين. ويؤيد المعاني النافعة بضرب الأمثال وتنبيه العقول والألباب على صحتها وعلى الطرق الموصلة إليها، فهي أدلة نقلية عقلية فطرية، وكل ما قرره أساطين العقلاء وأذكياء الحكماء من الحقائق الصحيحة فهو جزء مما دل عليه القرآن، وأدلة الوحيين تثبت الإيمان في القلوب حتى يكون أرسخ وأقوى من الجبال الرواسي، لوضوحها وقوتها وجلاء براهينها وشهادة العقول بصحتها. لا تحصى الأدلة والبراهين التي يبديها الله ورسوله للأصول الكبار، وكلما كان الأصل أعظم كانت براهينه أكثر وأعظم وأوضح، قد نوعها الله من جميع الوجوه وصرفها.

والنبـي ﷺ أُعطي جوامـع الكلم وأيده الله بقوة البيان وبلاغة التعبير، وقد اجتمـع فيه ثلاثة أمور لم يصل ولن يصل إليها أحد من الأولين والآخرين: النصـح الكامل، والعلم الواسـع القوي التام، والبلاغة التامة. فمن اجتمعت فيه هذه الأمور الثلاثة هل تظن أن في كلامه نقصاً أو في تعبيره قصوراً أو يمكن أحداً أن يستدرك على كلامه أو يحمله على خلاف ما يبين ويتضـح منه؟ أم تقول والحق تقول إن كلامه هو الغاية التي لا غاية فوقها في البيان والإرشاد والهدى والهداية إلى كل علم نافـع ويقين، وكـلامه هـو الدليـل والمدلول، فياويـح من زعم أن اليقين لا يستفاد من كلام الله ولا من كلام الرسول:

﴿فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون﴾ [سورة الجاثية: الآية ٦]

فصـــل

في نكتة بديعة

تبين ميراث الملقِّبين والملقَّبين من المشركين والموحدين

النكتة هي الفائدة اللطيفة التي لا تكاد تدرك إلا بدقة فهم ولطف عبارة. وذلك أن أعداء الرسول ﷺ من الكفار والمنافقين رموه بألقاب هم أهلها وأحق بها، ورسول ﷺ أبعد الخلق عنها، رموه بالكذب والافتراء والقول على الله وأنه أبتر وأنه الذي قطـع الأرحام وأتاهم بما لم يأت به أحد. وقد برأه الله من ذلك وأخبر أن هذه الأوصاف الشنيعة وصف أعدائه.

كذلك حالة من ورث هؤلاء المشركين من جهمية وملاحدة لقبوا ورثة الرسول بالألقاب القبيحة وهم أبعد الناس عنها ومن رماهم أحق بها.

ومن بديـع ذلك وعجيبه أن المشركين كانوا يسمون محمداً ﷺ مذمماً بدل محمد فيشتمون مذمماً ويقول النبـي ﷺ: (ألا تعجبون كيف يشتمون مذمماً وأنا محمد) فصرف الله عن نبيه شتمهم لفظاً ومعنى، وكذلك أتباع

محمد يسميهم أعداؤهم مجسمة مشبهة حشوية نواصب، فيرمون هذه الأسماء ويشتمونها، ويصرف الله شتمهم عنهم لفظاً ومعنى، فهذا تحقيق لهذا الميراث من الوارثين والوارثين، ولله ألطاف وأسرار لا تبلغها الأفهام.

فصــل
في اقتضاء التَّجَهُّم والجبر والإرجاء
الخروجَ عن جميـع ديانات الأنبياء

وهذا من المناسبات العجيبة اللفظية أن كل واحدة من هذه الجيمات في هذه الأسماء الثلاثة تقتضي الخروج عن بعض الدين، فإذا استجمعت بواحد خرج من الدين بالكلية. وذلك أن الدين مبني على ثلاثة أصول: التوحيد، والإيمان، وإثبات أفعال العباد حقيقة. فالتجهم يخل بالتوحيد لأن التوحيد مبناه على إثبات تفرد الرب بصفات الكمال، والجهمية ينفون ذلك كما تقدم من نفيهم لصفاته الذاتية والمعنوية والفعلية، وأما الجبر فإن مذهب الجبرية كما تقدم يقتضي أن العبد مجبور مقهور على أفعاله وأقواله. وهذا يبطل الشرع والحكمة، ويثبت للعصاة العذر العظيم في كفرهم ومعاصيهم، وأنهم إذا عذبوا عليها فهم مظلومون لأنهم عذبوا على ما لم يكن لهم فيه أثر. ويرتقي هذا المذهب الخبيث ببعض غلاتهم إلى أن يشهد أن معاصيه طاعات ومخالفاتـه عبادات، لأنه وإن عصى الأمر بغير اختياره فقد أطاع القدر الذي لا بد له منه. وحسبك بهذا المذهب شراً وضلالاً. وأما جيم الإرجاء فالمرجئة يرون أن الإيمان هو إقرار العبد واعترافه بأن الله هو الخلاق وحده وما عدا هذا فلا يدخل في الإيمان. ومن المعلوم أن الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة دل على أن الإيمان شامل لعقائد القلوب كلها وأعماله وأعمال الجوارح وأقوال اللسان، وأن نقص شيء من ذلك نقص في الإيمان.

ولا يخفى أن من جمع هذه الجيمات فقد اجتمع فيه الشر كله وفاته

الخير كله، وهذا مذهب الجهمية المحضة الذين لا نصيب لهم من الدين، وقد يوجد في اتباعهم بعض هذه الأصول الخبيثة دون بعض، والشر دركات كما أن الخير درجات، ولم ينج من هذه الأقوال الباطلة إلا أهل السنة والجماعة الذين وصفوا ربهم بكل صفة كمال، ونزهوه عن كل عيب ونقص، وحققوا الإيمان فأدخلوا فيه الاعتقادات والأعمال الباطنة والظاهرة وقالوا إن «الإيمان» اسم لذلك كله، وهو يزيد بتكميل هذه الأمور وينقص بنقصها، والناس في الإيمان درجات، وعرفوا مع ذلك أن الله تعالى قدير مريد لكل شيء، ومع ذلك فأعمال العباد خيرها وشرها مع دخولها في قضاء الله وقدره هم الذين فعلوها بقدرتهم واختيارهم لم يجبروا عليها، وقد قامت الحجة على العباد فليس لأحد على الله حجة، وحاشا لله أن يجبر العباد على ما لا يريدون والله أعلم.

فصل

في جواب المُثْبِتِ والمُعَطِّل للرب إذا سأله عن قوله

قصد المؤلف تنويع الأدلة وتصريفها بوجوه متعددة وطرق كثيرة على بطلان مذهب المعطلين، لأن الحق والباطل متى حُرِّفا بأساليب متنوعة ظهر واتضح وبانت حالهما. وهذا الفصل في بيان نتيجة المقالتين وثمرة العقيدتين، في المقام الذي لا تنفع فيه مجرد الدعاوي، ولا تروج فيه البهرجة. فالمعطل النافي إذا سأله ربه عما يقوله ويعتقده فيه صار حاصل جوابه الحقيقي: يا رب إني قد نفيت عنك صفات الكمال، ونفيت ما لك من الحكمة وبديع الأفعال، وما أخبر به عنك نبيك من الاستواء والنزول، وكل ما ورد به الكتاب والسنة من هذا الباب فقد نفيته مقتدياً في ذلك بآراء المتهوكين الذين قدموا آراءهم الفاسدة وعقولهم المنحرفة على كتابك وسنة نبيك.

أما المثبت فإن حاصل جوابه أن يقول: يا رب قد قلت ما قلتَه في كتابك، وقاله عنك رسولك محمد ﷺ من الصفات الذاتية والمعنوية والفعلية، لم أعد ذلك شعرة، ولم أسلط عليها الآراء بالتأويل والتحريف، وكيف أقدم عليها قولاً أو عقيدة أو رأياً وهي في غاية الوضوح والبيان، تملأ القلب معرفة وإيماناً وأنواراً، ويشهد لها كل ذي عقل سليم ورأي صحيح مستقيم.

فبالله عليك أي الجواب أصح وأولى وأنجى من عذاب الله وأقرب إلى رضى الله. والله المسؤول بفضله أن يحيينا على سنة رسوله، ويميتنا عليها، ويبعثنا عليها. إنه جواد كريم.

فصل

في تحميل أهل الإثبات للمُعَطِّلين شهادةً تُـؤَدَّى عند رب العالمين

أهل الإثبات لصفات المولى من أهل السنة والجماعة يعلنون جهاراً بعقيدتهم، ويحمدون الله عليها، ويشهدون الله وملائكته وجميع خلقه عليها، ويحملونها للمعطلين لها من الجهمية ونحوهم جازمين بها مطمئنة بها قلوبهم قائمين بها ممتثلين قوله تعالى:

﴿فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمون﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦٤]

فمن أصولهم العظيمة أنهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم أن الله هو العليُّ الأعلى، وأنه فوق سماواته على عرشه بائن عن خلقه، تنزل من عنده الأحكام والأوامر القدرية والشرعية، وترفع إليه وتصعد إليه الأملاك والأرواح والأعمال وقد صعد إليه رسوله محمد ﷺ ليلة المعراج وعيسى بن مريم. ويعتقدون أنه متكلم ولم يزل ولا يزال يتكلم بما شاء إذا شاء، وأن القرآن كلامه حقاً تكلم به وسمعه جبريل وأداه إلى محمد ﷺ وبلغه محمد أمته.

ويثبتون جميع ما ورد به الكتاب والسنة من أنواع كلامه لمن شاء من خلقه، والقرآن جميعه ألفاظه ومعانيه كلام الله منزل غير مخلوق.

ومن كليات أصولهم أن كل ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال ونعوت العظمة والكبرياء والجلال أو وصفه به رسوله فهو حق ثابت على حقيقته، لا ينفون شيئاً من ذلك، ولا يحرفون، ولا يمثلون. وعندهم أعلى مراتب العلم واليقين مدلول كلام الله وكلام رسوله، وأنه مشتمل على البراهين القاطعة والمسائل النافعة، ويبرأون إلى الله من تقديم غيرها عليها، وهي أعظم في صدورهم وأجل في نفوسهم من أن يقدم عليها معقول أو رأي أو قياس أو قول أحد من الناس كائناً من كان.

ومن أصولهم العظيمة أنه لا يتم الإيمان بالله حتى يؤمن العبد بجميع أسماء الله الحسنى، وجميع ما دلت عليه من الصفات، وما صدر عنها من الأفعال والمتعلقات والأحكام. وهذه الأصول الثلاثة هي أركان الإيمان بالأسماء والصفات، فيقولون: إنه عليم، وذو علم عظيم، ويعلم كل شيء. قدير، ذو قدرة، ويقدر على كل شيء. وهكذا بقية الأسماء الحسنى على هذه الطريقة. وهذه الأمور الثلاثة متلازمة: الأسماء تدل على الصفات وهي مشتقة منها، وصفاته تدل على أسمائه، فما سمي بالعليم القدير الحي السميع البصير ونحوها إلا لما اتصف به من كمال العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، والفعل مرتبطة به الأسماء والصفات، فإن إثبات أفعال بدون أوصاف تصدر عنها غير معقول، فآثار الرحمة والنعم تدل على أنه موصوف بالرحمة العظيمة، وآثار الحكمة وانتظام الخلق والأمر تدل على كمال حكمته، وهكذا. وقد تطلق الصفة ويراد بها آثارها كما قال تعالى:

﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾

[سورة آل عمران: الآية ١٠٧]

وفي الحديث الصحيح: (لما احتجت الجنة والنار قال الله للجنة أنت رحمتي

أرحم بك من أشاء من عبادي. فأطلق على الجنة الرحمة لأنها ناشئة عنها ومملوءة بها. ومن الممتنع المستحيل إثبات فعل من دون أن يعود إلى فاعله وصف منه. والفعل له شروط ثلاثة: نفوذ الإرادة، وتمام القدرة، وإمكان الفعل. والرب تعالى تام القدرة، نافذ الإرادة، وليس عليه شيء ممتنع.

ومن أصولهم الكلية أنهم يبرأون إلى الله من كل تأويل يخالف مراد الله ومراد رسوله من تحريفات المبتدعين واختراعات المتكلفين، وإنما تأويلهم يعود إلى الجد في معرفة مراد الله ومراد رسوله، وإذا ورد في الكتاب والسنة لفظ مشتبه ردّوا المتشابه إلى المحكم ليصير الجميع محكماً، وهذا عند الضرورة، وإلا فلا يعدلون عن ظاهر الكتاب والسنة ما وجدوا إليه سبيلاً.

ومن ممادح أهل السنه أنهم يجتهدون في معرفة الحق بكل طريق يوصل إليه، ويرحمون الخلق فهم أرحم خلق الله للخلق يقصدون هدايتهم مهما أمكنهم. ومن خالف الكتاب والسنة من كل مبتدع فهم يبدّعونه وينكرون عليه بدعته ويزجرون عنها بكل وسيلة، ولكنهم لا يكفرون المبتدعين المتأولين الذين ضلوا عن الحق وظنوا أن ما قالوه واعتقدوه هو مراد الله ومراد رسوله جهلاً وضلالاً، فالبدعة وإن كانت منافية للإيمان قد يمنع من تكفير قائلها جهله وضلاله وتأويله إذا كان مؤمناً بالرسول معظماً له ملتزماً لطاعته وتصديق خبره، وأما من عرف منهم مخالفة بدعته لما قاله الرسول وعاند وشاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى فإنه كافر، لأن الكفر جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه.

ويؤمنون بالقدر خيره وشره، فيعلمون أن الله على كل شيء قدير، وقد أحاط علمه بكل شيء وكتب في اللوح المحفوظ كل شيء، وأن مشيئة الله نافذة وإرادته عامة لكل ما وجد من الأعيان والأوصاف والأفعال، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم وجعلهم

مختارين لأفعالهم غير مجبورين عليها، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

ومن أصولهم أن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأن الناس يتفاضلون في عقائد الإيمان وفي أعماله القلبية والبدنية وأقوال اللسان قوة وضعفاً وحسناً وضده وقلة وكثرة، ويبرأون من مذهب المرجئة الذين يرون الإيمان مجرد إقرار القلب وأن الناس في الإيمان متساوون، ومن مذهب الخوارج المخلدين أهل الكبائر في النار، ومن مذهب المعتزلة الموافقين لهم في الحكم، بل عند أهل السنة أن أهل الكبائر لا يسلب عنهم اسم الإيمان ولا يخلدون في النار بل لا بد من خروجهم منها بشفاعة أو غير شفاعة برحمة من أرحم الراحمين، ومع ذلك فهم ناقصو الإيمان.

ويعتقدون ما ثبت في الكتاب والسنة المتواترة من أن المؤمنين يرون ربهم تبارك وتعالى كما يرى القمر ليلة البدر، يرونه في عرصات القيامة ثم يرونه في الجنة كما يشاء الله سبحانه في أوقات قدرها الرب الرحيم لأوليائه المطيعين لتقرَّ أعينهم وتبتهج قلوبهم ويزدادوا من معرفته ومحبته وتوابع ذلك الذي هو أكبر النعيم وأجل الفوز العظيم.

ويعتقدون أن خير الخلق بعد النبيين والمرسلين أصحاب نبيهم، لما ثبتت به وبفضائلهم نصوص الكتاب والسنة، ولما مَنَّ الله به عليهم من السوابق والفضائل والخصائص التي لا يشاركهم فيها أحد من الأمة، وأفضلهم أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم عليّ ثم باقي العشرة المشهود لهم بالجنة ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ممن أسلم قبل صلح الحديبية وهم على مراتبهم من السبق بحسب مقاماتهم رضي الله عنهم.

فصــــل

في عهود المُثْبِتين مـع رب العالمين

توسل المصنف إلى الله بالحق الذي وصفه ووصف دينه ووعده ووعيده أن ينصر دينه ويشرح له صدر كل مؤمن موحد لينال أعلى المقامات، فإن الله إذا أراد هداية عبده شرح صدره للإسلام والإيمان، فتلقى ما جاء به الرسول بقوة، وأقبل على تفهم معانيه والعمل بما يدل عليه ويقتضيه هادياً مهدياً، وعاهد ربه بما التزمه من السمـع والطاعة على نصر دينه ووحيه، وعلى مجاهدة المبطلين وأصناف المبتدعين بالطرق النقلية والعقلية.

فصــــل

في شهادة أهل الإثبات على أهل التعطيل أنه ليس في السماء إلَه، ولا لله بيننا كلام، ولا في القبر رسول

أما الأوّلَتان فقد تقدم الكلام عليهما مراراً، وأما شهادة أهل الإثبات على الجهمية ومن تبعهم أنه ليس في القبر رسول فلأن من قول المعطلين أن روح الإنسان عرض من الأعراض القائمة به كالألوان ونحوها، وتلك مشروطة بوجوده وحياته فإذا مات زالت هذه الأعراض، فلهذا أنكر بعضهم نعيم البرزخ وعـذابه وبعضهم جعله للجسم دون الـروح لكونهـا معدومـة مضمحلة. ولا يخفى بطلان هذين القولين ومخالفتهما للنصوص الثابتة المتواترة من أن الروح جسم لطيف له من اللطافة والخفة والحركة السريعة ما يناسب حاله كما سيأتي إن شاء الله الكلام عليها، وأنَّ نعيم البرزخ وعذابه على الروح أصلاً وعلى الروح مـع البدن.

والقصد أن الجهمية إذا قالوا هذا الأصل الفاسد ترتب على قولهم ولزم منه بطلان رسالة الرسول بموته وأنه رسول ما دام حياً فإذا مات عدمت رسالته كما تعدم روحه عندهم، فلما علموا أن هذا القول مخالف للمعلوم بالضرورة

من الدين قال من أراد نصر هذا القول: إن الرسول حي في قبره حياة مماثلة لحياته في الدنيا ولذلك بقي تحريم زوجاته على أمته، والشهداء ذكر الله أنهم أحياء والأنبياء بلا شك أكمل حياة منهم. واحتجوا أيضاً بأنه ﷺ رأى موسى في قبره يصلي والصلاة لا تقع إلا من حي، وبأنه ﷺ قال: (ما من مسلم يسلم عليَّ إلا رد الله عليّ روحي حتى أرد عليه) وكذلك ما ورد في عرض أعمال أمته عليه يوم الاثنين ويوم الخميس.

هذا حاصل ما احتجوا به، وهو لا يدل على مطلوبهم بوجه من الوجوه، فإنه لو كان في قبره حياً حياة مماثلة لهذه الحياة لم يجز أن يحبس في قبره ويسجن ذلك السجن الموحش، ولو كان حياً في قبره لكان يرشد أمته ويفتيهم ويدلهم على ما فيه صلاحهم وينهاهم عما يضرهم، ولأراحهم من الاختلافات الجارية على الدوام بين أمته، ولجاءه الصحابة رضي الله عنهم يسألونه ويشكون إليه ما نزل بهم من الملمات على عادتهم إذ كان بين أظهرهم، ولو كان حياً لاستسقوا به إذا أجدبوا، ولم يفعلوا ذلك بغيره لا العباس ولا غيره، ولكنهم رضي الله عنهم قد عرفوه حق المعرفة وعرفوا أن الأمور المختصة به في حياته لم يكن لها أثر بعد وفاته، فكم من مشكلة أشكلت عليهم وكم ملمة نزلت بهم ولم يجيئوا إليه لذلك، فكل هذا دليل على أنهم اتفقوا على أنه كان ميتاً كما أخبر الله به في كتابه. فهل جاء بعد هذا خبر صحيح أنه بعث في قبره وأنه حي كما كان في الدنيا. وأيضاً فإن الناس لهم موتتان وحياتان، قال تعالى عنهم:

﴿ربنا أمتَّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ [سورة غافر: الآية ١١]

وعلى قولهم بحياة الأنبياء في قبورهم يكون للأنبياء ثلاث موتات، فهذا مع مخالفته للكتاب فلا يقوله إلا من لا يبالي بالأقوال التي لا مستند لها. وأما قياسهم لحياة الأنبياء بحياة الشهداء فهذا من أكبر الأدلة عليهم، فإن الشهيد نص الله في كتابه على حياته في البرزخ فلم تثبت حياتهم بالقياس بل بالنصّ

المثبت لحياتهم الناهي عن تسميتهم أمواتاً. ومع هذا فالشهيد تحل نساؤه لمن بعده ويقسم ماله ويحكم عليه بما يحكم على أموات المسلمين إلا في الصلاة والتغسيل، وكذلك جسمه بلا شك يبلي، لكن المراد بحياته أنها حياة برزخية تبتهج الروح برضا الله وكرامته وفضله، والأنبياء أكمل حالة منهم في ذلك بلا ريب.

وأما تحريم نساء النبي ﷺ على غيره فقد ذكروا لذلك عدة حكم، منها أنهن نساؤه في الدنيا والآخرة لأنهن لما خيرن فاخترن الله ورسوله شكر الله لهن عملهن ولم يزل الله شكوراً، فمنع رسوله أن يتزوج عليهن وأن يستبدل غيرهن بهن، وجعلهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فلذلك حرمن على غيره لا لأجل أنه حي كما هو في الدنيا فإن هذا لا تستقر عليه قدم عالم. ومنها أنهن أمهات المؤمنين في المحبة والتوقير والإعظام والاحترام فلا يناسب أن يتزوجهن بعده أحد. ومنها أنه يجب تقديم محبة النبي ﷺ على كل محبة بعد محبة الله فمنع الله من كل ذريعة تحول دون هذا المقصود ودون تكميله. ولا شك أن تزوج الرجل لزوجة الرجل من بعده من جملة الدواعي لنقصان المحبة ولغير ذلك من الحكم، ولذلك اعتددن بعده ولزمن الإحداد أربعة أشهر وعشرًا رضي الله عنهن، وكل هذا دليل على موته.

وأما رؤيته لموسى يصلي في قبره ففي النفس منه شيء لأن البخاري ترك تخريجه في صحيحه على عمد فلو لا أن عنده علة توجب تركه لم يتركه، ولذلك أعله الدارقطني بالوقف على أنس، وبين الحديث المرفوع والموقوف فرق عظيم، ولكن خرجه مسلم في صحيحه فنقله ونقله غيره من الأئمة، وعلى هذا التقدير فليس هذا مختصاً بالرسول، فقد روى ابن عباس وغيره حديثاً صحيحاً حين يأتي الملكان إلى المسلم يسألانه فتمثل له الشمس عند الغروب فيقول: دعاني أصلي العصر، فيقولان: إنك ستصليها بعد. فإذا كان هذا مع الموت الذي لم يشك فيه أحد علم أنه لا منافاة بين موت الإنسان

وبين صلاته في قبره وفي برزخه، فإنه وإن كانت التكاليف قد انقطعت فإن الله يكرم أنبياءه وأولياءه بكرامات، ومن أعظم الكرامات فعل العبادات المتصلة بمعرفة ربهم ومحبته فإنها من أعظم اللذات والكرامات. ولهذا سأل الله ثابتُ البناني إن كان قد أعطى أحداً الصلاة في قبره أن لا يزال مصلياً، فرؤي بعد وفاته يصلي في قبره.

وقد رأى ﷺ موسى ليلة المعراج في السماء السادسة كما رآه في قبره مصلياً، ولا منافاة بين الأمرين فإن للروح شأناً غير شأن البدن، فإنها في غاية اللطافة وسرعة الحركة كما ثبتت به الآثار. ولما كانت مخالفة في أوصافها لهذا الجسم الكثيف كثر غلط الخائضين فيها لأنهم لم يشاهدوها ولا شاهدوا لها نظيراً، ولكن الأدلة ثبتت بذكر أوصافها وتنقلاتها وسرعة حركتها فيستبعد الخائضون بها أن تكون في أعلى عليين فوق السماوات السبع مقيمة هناك وتردُّ إلى قبره أسرع من لمح البصر فتردُّ السلام على المسلِّم عليها، وقد أظهر الله لعباده في هذه الأوقات من المخترعات وعجائب الكهرباء ما هو من أكبر الأدلة على أحوال الروح وعلى ما أخبر به الله ورسوله من أمور الغيب التي لا تدركها الحواس فإذا كان علم المخلوق وقدرته وصل إلى هذه العجائب والله هو الذي علمه وأقدره فكيف بقدرة الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون..

وأمّا استدلالهم برد النبي ﷺ سلام من يسلم عليه فليس خاصاً به، فإنه ثبت في السنن مرفوعاً (ما من مسلم يمر على قبر أخ له كان يعرفه فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه). وأما الحديث الذي فيه ذكر رؤية الأنبياء في قبورهم أحياء فهو غير صحيح بل منكر، فتبين أنه ليس لهم دليل واحد على ما قالوا.

والمنكر من قولهم في هذا المقام قولهم إن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة مماثلة للحياة الدنيوية وهم محبوسون في قبورهم والتراب قد عمهم من جميع جوانبهم، فهذا مما يعلم الله بالضرورة بطلانه. وأما الحياة الثابتة في

الكتاب والسنة في حق الأنبياء فإنها حياة برزخية للروح أصلاً والبدن تابع فيها الروح يسري إليه أحياناً من نعيمها وعذابها.

وأما عرض الأعمال على النبي ﷺ يوم الاثنين والخميس فإنه قد وردت آثار تدل على عرض أعمال الناس على آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، ولكن الذي يعرض على النبي ﷺ جميع أعمال الأمة والذي على غيره خاص بأقاربهم وأخصائهم، فليس في هذا ما يدل على الحياة المعهودة، والكلام في الأرواح كثير منتشر صنفت فيه الكتب وكثر فيه خوض الخائضين، ومن أحسن الكتب المصنفة فيه «كتاب الروح» للمؤلف فإنه اتى فيه بما يشفي ويكفي.

والذي يجب اعتقاده في شأن الروح أنها مخلوقة حادثة بعد عدمها، وأن الله خلقها للبقاء. ولهذا إذا مات العبد بقيت الروح منعمة إن كان صاحبها من السعداء أو معذبة إن كان من الأشقياء. وكذلك يجب اعتقاد جميع ما وصفت فيه الروح في الكتاب والسنة، وأنها مداخلة لهذا البدن الكثيف فإذا فارقته مات وفارق الدنيا، وأنها ليست كما ذكره أهل الكلام الباطل ليست داخل البدن ولا خارجه، فإن هذا في الحقيقة نفي لها كما قالوه في الباري كما تقدمت الإشارة إليه.

فصل

في كسرِ المنجنيق الذي نَصَبَهُ أهل التعطيل على معاقل الإيمان وحصونه جيلاً بعد جيل

وهو الذي يسميه المتكلمون «دليل التركيب» فإنهم قرروا هذا الدليل الباطل بقولهم: لو كان موصوفاً بالصفات كالحياة والعلم والقدرة وغيرها كان مركباً، ولو كان مركباً كان محدثاً، فتعين أن تنفى عنه الصفات، وأن لا يوصف بوصف زائد على مجرد الذات.

فهذا قد أخذه متأخرهم عن متقدمهم، وغيروا بذلك عقائد الخلق

وموهوا على ضعفاء البصائر، ونفوا لأجله أجلى الحقائق وأوضحها وأحقها بالإثبات، وتركوا لأجله ما هو معلوم من الدين بالضرورة ثابت في الكتاب والسنة.

فأكبر الأدلة على بطلان هذا الطاغوت مخالفته للأدلة اليقينية من الكتاب والسنة فمخالفة المعلوم بالضرورة باطل بلا ريب. ثم بقطع النظر عن ذلك هو في نفسه باطل يستفسر أهله عن مرادهم بالتركيب، فإن التراكيب المصطلح عليها كثيرة فيقال لهم: هل تعنون بهذا التركيب «التركيب الامتزاجي الاختلاطي» كتركب الإنسان والحيوان من عدة أعضاء ومن الأركان الأربعة أم تعنون بذلك «تركيب المجاورة» كتركيب السقف على البنيان والجسر على النهر. فإن عنيتم واحداً من هذين الأمرين لم يلزم شيء منهما في إثبات صفات الباري التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ عند أحد من العقلاء. وإن عنيتم «التركيب من الجواهر الفردة» وهي الجزء الذي لا يتجزأ، أو من الهيولى والصورة، فأكثر العقلاء لا يتصورون الجواهر الفردة فضلاً عن إثباتها، بل من تصور الأمر على ما هو عليه علم بطلان ذلك وأنه لا وجود له ولا يتركب منه موجود، ثم على التقدير الباطل الممتنع فلا يلزم من إثبات الصفات تركبه من هذه الحالات.

وإن عنيتم أنه تركب من الذات والصفات فما المحذور من هذا الإثبات، فسموه ما شئتم فلن يترك بتسمية المبطلين له بالأسماء المنفردة. وصورة التلازم هكذا: لو كان موصوفاً بالصفات لزم أن يكون موصوفاً بالصفات، كما يقول القائل: لو كان موجوداً لكان موجوداً، ولو كان حياً لكان حياً. فإذا اتحد اللازم والملزوم كان اللازم للحق بلا شك حقاً.

والقصد أنهم يطالبون بوجود معاني هذه التراكيب في الكتاب والسنة أو كلام أهل اللغة، ولن يجدوها، فإن هذه الأسماء من اصطلاح فلاسفة اليونان.

ثم يقال ثانياً: هب أنه كان يسمى تركيباً فليس لكم دليل على نفي هذا الذي تسمونه «التركيب» لأنه ثابت في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وما ثبت بذلك فمحال أن يقاومه دليل آخر. وهنا شيء يسمونه «التركيب من الماهية والوجود» وهل الماهية هي الوجود أو هي غيره؟ فمتى قالوا إنها الوجود لم يتصور تركيب كما هو قول لبعض المتكلمين، ومتى قالوا: هي غيره ارتبكوا في هذا الموضع لأن «التركيب» عندهم باطل، وكل شيء اقتضى معنى التركيب في جانب الباري فهو باطل، فلهذا منهم من أطلق الكلام نفياً وإثباتاً، ومنهم من توقف، والتحقيق أن يقال إن وجود كل شيء هو عين ماهيته، وماهيته عين وجوده، فإذا اختلف اعتبارهما ذهناً وعيناً وخارجًا ورسماً فكل واحد من المذكورات له اعتبار مختص به.

فصل

في أحكام التراكيب الستة

ما تقدم من شرح «التراكيب» فإنما هو اصطلاح للمتكلمين أخذوه عن فلاسفة اليونان. أما حكمها في الواقع فإن القسمين الأولين «تركيب الامتزاج» كالحيوان و«تركيب الجوار» كالسقف مع الجدار فهما التركيبان المعروفان في النطق والعين والذهن، وقد تقدم أنه لا يلزم من إثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة شيء منها عند كل أحد. والثالث والرابع «التركيب من الجواهر المنفردة» أو «من الهيولى والصورة» أكثر العقلاء لا يثبتونهما ويرون أنه لا حقيقة لذلك كما تقدم، وعلى إثباتهما عند من يقول به فلا يلزم ذلك في إثبات الصفات. وأما التركيب الخامس والسادس عند المصطلحين عليهما فقد تقدم أنه لا يسمى هذا تركيباً وعلى فرض تسميته ليس لهم دليل واحد على نفيه، لكن لما كانت عقيدتهم الفاسدة أدتهم إلى نفي صفات الله جعلوا يتوسلون إلى قولهم بكل شبهة تروّجه. وإذا قالوا لا مشاحة في الاصطلاح فلنا أن نسمي ذلك تركيباً، قيل لا مشاحة في الاصطلاحات التي

لا تتضمن محذوراً، وأما تمكين المبطل أن يصطلح هو وذووه اصطلاحات يتوسلون بها إلى رد الحق ونصر الباطل فهذا يشاح فيه كل المشاحة ويدفع بكل وسيلة، فإن اصطلاحهم هذا ردّوا به ما ثبت في الكتاب والسنة من صفات الله وعلوه على عرشه وتكليمه بوحيه وتكليمه من شاء من عباده ورؤية العباد له وغير ذلك مما هو ثابت في الكتاب والسنة.

والدليل العقلي والنقلي إنما قام ودل على استناد الكون جميعه إلى الرب العظيم في ايجاده وإمداده وبقائه وجميع شؤونه وما يحتاج إليه، وكذلك دل على انتهاء الكون إلى الله وأن إلى ربك المنتهى في كل شيء. فالأصل الأول افتقار جميع العالم العلوي والسفلي إلى الله في كل شيء وغناه الكامل عنها، والأصل الثاني فيه إثبات كمال أوصافه وأن له غاية الكمال الذي لا يتصوره المتصورون، ولا يعبر عن كنهه المعبرون، فإن محمداً ﷺ أعلم خلقه قال: (لا أُحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وإذا سبحه يوم القيامة عندما يشفع للخلق يفتح عليه من محامد الله وثنائه وتمجيده ما لم يفتحه على أحد من الأولين والآخرين. فكل مخلوق قاهر لمخلوق آخر ثم ذلك القاهر فوقه من هو أقدر منه حتى تنتهي العزة والقدرة للواحد القهار. وكذلك كل عالم فوقه من هو أعلم منه، حتى ينتهي العلم إلى المحيط علمه بكل شيء.

وهكذا جميع أوصاف الكمال تنتهي كلها إلى من هو بها أحق من كل موجود وهو الذي له الكمال المطلق بكل معنى واعتبار. وليس المحذور من إثبات الصفات كما توهمته الجهمية، وإنما أكبر المحاذير وأفظعها من إثبات إلهين اثنين. وأما إذا قيل إن الإلّه واحد متفرّد في وحدانيته كثير الأسماء والصفات فهو الحق الأكبر الذي لا أحق منه ولا أعظم، وهو أكبر الأصول وهو أصل الكمال، فإن النقص يرجع إلى أمرين: إما سلب كماله وصفاته،

وإما اعتقاد الشركة لله تعالى. فالذم كله راجع إلى هذين الأمرين، كما أن الحمد والمدح والثناء راجع إلى إثبات صفات الله ونعوته.

ومن تأمل هذا العالم كله، وتغلغل فكره فيما احتوى عليه من آثار القدرة والرحمة والحكمة، رآه شاهداً بلسان المقال ولسان الحال بأن الله هو الخالق وحده، المعبود وحده، الذي له كل صفة كمال ورحمة وحكمة ومدح وثناء وتعظيم، وأنه على كل شيء قدير، فعال لما يريد، له الحياة الكاملة والقيومية التامة فلا تأخذه سنة ولا نوم، قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى والعظمة، وقام بجميع المخلوقات. فكل يوم هو في شان، يدبر الأمر، يفصل الآيات.

فهذه الأصول يشهد بها الكون لله الواحد القهار، لكن الجهمية ردّوا هذه الشهادات المبنية على البراهين القواطع بشبه يونانية لا تسمن ولا تغني من جوع. وإذا أردت أن تعرف حقيقة التركيب الذي يصول به المتكلمون ويقدمونه على كل شيء فعبر عن المعاني المقصودة الصحيحة بعبارات واضحة، خصوصاً الألفاظ القرآنية والألفاظ النبوية، فإنها مضمون لها العصمة وقد استولت على غاية البيان، فقل في هذا الذي سموه تركيباً ونفوا صفات الله لأجل هذا قل كاشفاً للمعنى: لو كان موصوفاً بصفات الكمال كان موصوفاً بصفات الكمال، ولو كان موصوفاً بأنه العلي الأعلى لكان علياً أعلى، ولو كان موصوفاً بالكلام لكان موصوفاً بالكلام، ونحو ذلك من العبارات البينة الواضحة التي تعبر عن المعنى الصحيح بعبارة صحيحة، وفيها يتحد اللازم والملزوم، فإذا عبر عنه النافي بعبارات أُخَر وتدرج بها إلى نفيها ظهر أنه مكابر معاند عندما ينكشف المعنى بالعبارات المذكورة، فإذا أصر على التعبير بالعبارات البدعية فقل إن أردت ما ذكرنا من هذا المعنى الواضح فنحن نقبل المعنى الذي دل عليه الشرع ولو عبر عنه بأي عبارة تكون.

فصــل
في أقسام التوحيد
والفرق بين توحيد المُرسَلِين، وتوحيد النفاة والمعطلين

أما توحيد الفلاسفة فهو إثبات وجود مطلق لا ذات له ولا اسم ولا صفة ولا فعل، ومضمون هذا إنكار وجود الله أصلاً، لأن هذا الذي نعتوه لا يمكن وجوده في الخارج، وإنما يتصوره الذهن الفاسد كما يتصور الخيالات التي لا حقيقة لها، والشرك عندهم إثبات الذات والصفات.

وكذلك توحيد الاتحادية القائلين بأن الوجود واحد، فلا ثم رب ولا مربوب وإنما الخالق عندهم عين المخلوق ولكن الحس والوهم يظن تباينهما، وإلا فالكل شيء واحد. ومحققهم لا يصل إلى تحقيق قولهم الباطل حتى يخرق الحس والعقل فضلاً عن الوهم والخيال، فحينئذ يصل إلى هذا التوحيد الذي حقيقته الكفر برب العالمين وتعطيله عن أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو قريب من توحيد الفلاسفة أو هو هو لكن التعبير اختلف، والشرك عند هؤلاء إثبات التباين بين الخالق والمخلوق، فجعلوا التوحيد شركاً والتعطيل حقاً. ولما احتج المحتج عليهم فقال: «فصوصكم» تخالف القرآن فقال القرآن كله شرك وإنما التحقيق في كلامنا. فقاتل الله من عد هذه الطائفة من أمة محمد وهم برآء من جميع الأنبياء، ولا أظن أحداً يعرف قولهم وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان فيستريب في أمرهم ويعرف أنهم مباينون للدين كل المباينة.

وأما توحيد الجهمية فقد تقدمت حكايته، والشرك عندهم إثبات صفات الله التي نطق بها الكتاب والسنة.

وأما توحيد الجبرية فقد تقدم أيضاً قولهم إن العبد مجبور على أفعاله لا اختيار له فيها، وعندهم أن الله هو الفاعل للطاعات والمعاصي.

فهذه الأنواع المذكورة مع ما اشتملت عليه من الكفر بالله والتكذيب

لأنبيائه وإبطال أمره وشرعه هي الأقوال الرائجة بين الناس المنصورة عند جماهير المتكلمين فاقرن بينها وبين توحيد الأنبياء والمرسلين تجد الفرق العظيم.

فصـــل
في توحيد الأنبياء والمرسلين

وهذا هو التوحيد الحقيقي الصحيـح، وهو الذي لا يصدق على مسماه سواه، فإنه الاعتراف بتوحد الباري بكل صفة كمال وجمال وجلال ومجد وحمد وعظمة وكبرياء، والعمل بمقتضى هذا من التعظيم الكامل لله والحب التام والخضوع له وإخلاص العمل له. فهو نوعان: علمي اعتقادي وعملي. وقدم المصنف الاعتقادي لأن التوحيد العملي يتفرع عنه ويقوى بقوته، ولأنه أكبر البراهين على توحيد الإلّهية ووجوب إفراد الباري بالعبادة ولأن معظم الخلاف مـع أهل الكلام الباطل في هذا النوع.

وهذا النوع مبني على أصلين عظيمين أحدهما تنزيه الباري وتقديسه عما لا يليق بجلاله وما ينافي كماله، وحاصل هذا النوع يعود إلى تنزيه الله عن مشاركة أحد من المخلوقين لله في شيء من صفات كماله أو في حق من حقوقه وخصائصه، وإلى حفظ صفات كماله عن أمور ثلاثة: عن تشبيهها بصفات المخلوقين، أو نفيها عن الله، أو نفي بعض معانيها. فيعلم أن له الكمال المطلق الذي لا يمكن التعبير عن عظمته وكنهه، وأن له من ذلك الكمال غايته ومنتهاه وأكمله، فهو المنزه عن الشـريك والـظهير والعـوين والشفيـع بلا إذنه، وهـو الذي لم يلد ولـم يـولد ولم يكن لـه كفواً أحـد، وهو المنزه عن السنة والنوم والموت والتعب واللغوب، وأن يغيب عن سمعه أو بصره أو علمه شيء، وهو المنزه عن كل ما ينافي كماله وعظمته وجلاله.

فصــل
في النوع الثاني وهو الثبوتي

وهذا النوع هو المقصود الأعظم، وما مضى وسيلة وتتميم وحفظ لهذا النوع. فإن جميع ما ينزه الله عنه فإنما ذلك لأجل ثبوت ضده. وهذا النوع مبناه على إثبات جميع صفات الله الموجودة في الكتاب والسنة والأسماء الحسنى ومعانيها على وجهها والتفقه في معرفة معانيها والتحقق بها تصديقاً ومعرفة وتعبداً لله بها. وكلما قويت هذه الأمور وقوي التوحيد في القلب حتى يكون في قلوب العارفين الربانيين أعظم من الجبال الرواسي، وأطيب وأحلى وألذ من كل اللذات.

وذلك بإثبات أنه (العليّ الأعلى) بكل وجه واعتبار: علوّ الذات، وعلو القدر، وعلو القهر. فعلوّ الذات هو أنه مستو على عرشه، فوق جميع خلقه، مباين لهم، وهو مع هذا مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمورهم الظاهرة والباطنة، متكلم بأحكامه القدرية وتدبيراته الكونية وبأحكامه الشرعية. وأما علو القدر فهو أن صفاته كلها صفات كمال، وله من كل وصف ونعت أكمله وغايته. وأما علو القهر فهو قهره تعالى لجميع المخلوقات، فالعالم العلوي والسفلي كلهم خاضعون لعظمته مفتقرون إليه في كل شؤونهم.

ومن أسمائه العظيمة (الأول، والآخر، والظاهر، والباطن) وقد فسرها النبي ﷺ تفسيراً كاملاً واضحاً فقال: (أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء) ففسر كل اسم بكل معناه، ونفى عنه كل ما يضاده، فمهما قدر المقدرون وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلى غير نهاية فالله قبل ذلك، وكل وقت لاحق مهما قدّر وفرض فالله بعد ذلك. ولهذا لا يستحق اسم (واجب الوجود) إلا هو، فمن خصائصه أنه لا يكون إلا موجوداً

كاملاً فلا يشاركه في وجوب الوجود أحد، فوجوب وجوده بنعوته الكاملة في جميع الأوقات، وهو الذي أوجد الأوقات وجميع الموجودات، وكلها مستندة في وجودها وبقائها إلى الله، فالأول والآخر يتضمنان إحاطته بجميع الأزمنة وجميع المخلوقات من كل وجه، والظاهر والباطن يقتضيان إحاطته بجميع الأمكنة وأنها تنتهي إلى الله في العلوّ والقرب، ولا منافاة بين الأمرين في حقه تعالى لأنه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، فهو العلي في دنوّه القريب في علوه.

ومن أسمائه الحسنى (الكبير، العظيم، الجليل) وهو الذي له كل عظمة وكبرياء وجلال. ومعاني العظمة نوعان: أحدهما أنه متصف بصفات المجد والعظمة والكبرياء، الثاني أنه يستحق أن يعظم غاية التعظيم، ويخضع العباد لجلاله وكبريائه وإخلاص المحبة والعبودية له. ومن كمال عظمته تنزيهه عن كل صفة نقص، وتقديسه عن أن يماثله أحد من خلقه.

ومن أسمائه (الجليل، الجميل) وما أحسن الجمع بينهما، فإن «الجليل» من له صفات الجلال والكبرياء والعظمة، و «الجميل» من له نعوت الحسن والإحسان، فإنه جميل في ذاته، وجمال المخلوقات بأسرها من آثار جماله، وهو الذي أعطاهم الجمال، فمعطي الجمال أحق بالجمال. وهو جميل في أسمائه لأنها كلها حسنى. وجميل في صفاته إذ كلها صفات كمال. وجميل في أفعاله فلا أحسن منه حكماً ولا وصفاً.

ومن أسمائه العظيمة (الحميد، المجيد) فالحمد كثرة الصفات والخيرات، والمجد عظمة الصفات وسعتها، فهو الحميد لكثرة صفاته الحميدة، المجيد لعظمتها وعظمة ملكه وسلطانه، فهو يقارب الجمع بين الجليل والجميل.

ومن أسمائه الحسنى (السميع، البصير) الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فالسر عنده علانية والبعيد عنده قريب،

ويرى دبيب النملة السوداء في جوف الصخور في الليالي المظلمة وجريان القوت في أعضائها وعروقها الدقيقة الضئيلة، وسريان المياه في أغصان الأشجار والنبات، ويرى خيانات الأعين، وما هو في أخفى الأمكنة.

ومن أسمائه الحسنى (العليم) الذي أحاط علمه بكل شيء، يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ويعلم الواجبات والممتنعات والجائزات وما في أقطار العالم العلوي والسفلي

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلّا في كتاب مبين﴾ [سورة الأنعام: الآية ٥٩]

﴿يعلم السر وأخفى﴾ [سورة طه: الآية ٧]

وهو تعالى لم يزل ولا يزال (متكلماً) بكلماته الكونية والشرعية

﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٥]

صدقاً في الأخبار وعدلاً في أوامرها ونواهيها

﴿ولو أن ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ والبحر يَمُدُّهُ من بعدِهِ سبعة أبحرٍ ما نَفِدَت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ [سورة لقمان: الآية ٢٧]

وكلامه تعالى نوعان: نوع بلا واسطة كما كلم موسى وآدم وحواء ومحمداً ليلة المعراج ويكلم عباده في الآخرة وفي الجنة، ونوع بواسطة أنبيائه ورسله.

ومن أسمائه (القوي، العزيز، المتين، القدير) ومعانيها متقاربة تقتضي كمال قوته وعظمته وكبريائه فلا يملك الخلق نفعه فينفعونه ولا ضره فيضرونه، وكمال اقتداره على جميع الموجودات والمعدومات، وأن جميع العالم طوع قدرته ومشيئته يتصرف فيها بما يشاء وكيف يشاء

﴿إنما أمرُهُ إذا أراد شيئاً أنْ يقول لَهُ كُنْ فيكون﴾

[سورة يس: الآية ٨٢]

وقال تعالى: **﴿إن العزة لله جميعاً﴾** [سورة يونس: الآية ٦٥]

وهي عزة الامتناع والقوة والقهر والغلبة، كلها قد كملت لله الواحد القهار من جميع الوجوه.

ومن أسمائه (الغني) بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه فكل المخلوقات مفتقرة إليه في إيجادها وإعدادها وإمدادها في أمور دينها ودنياها في جلب المنافع ودفع المضار، وهو الذي أغناها وأقناها، ومن كمال غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له كفواً أحد، ومن سعة غناه أن جميع الخيرات والعطايا والنعم في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قطرة من بحر غناه وجوده وكرمه، فهو الغني بذاته المستغني عن جميع مخلوقاته، المغني لعباده بما أدرّه عليهم من الخيرات وأنزله من البركات.

ومن أسمائه الحسنى (الحكيم) وهو الذي يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، وله الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وله الحكمة في شرعه والحكمة في قدره، فأحكامه الشرعية هي ما جاءت به الرسل، وهي متعلق رضاه ومحبته ومناط أمره ونهيه، والأحكام الكونية القدرية وهي جميع التدابير جليلها وصغيرها الواقعة في العالم العلوي والعالم السفلي، وقد يجتمع في حق المؤمن الحكمان إذا أطاع الله، وقد ينفرد الحكم القدري في وجود ما وجد من المعاصي والمباحات، ولذلك يقال: من وافق الحكم الشرعي فقد وافق رضى الله تعالى ومحبته، فإن الله يحب المؤمنين والمتقين والصابرين. ومن وافق حكمه القدري فقط فإن كان معصية فله الذم والعقوبة لمخالفته لأمر الله وتجرؤه على معاصيه، وإن كان مباحاً فلا له ولا عليه، ولكن قد يفوته من الخير ما هو بصدد فعله. والقضاء صفة لله، والله لا يوصف إلا بكل وصف جميل، والمقضيّ فعل الإنسان وصنعته وهو ينقسم إلى محمود ومذموم ومباح فلذلك وجب التفصيل في الرضا بالقضا، فالرضا بنفس ما يقدره ويرضاه بقطع النظر عن فعل العبد لازم. والرضا بالمقضيّ الذي هو فعل العبد فيه

تفصيل بحسبه إن كان خيراً تعين الرضاء به وإن كان شراً تعين عدم الرضاء، فأحكام الرب القدرية والشرعية وكذلك أحكام الجزاء كلها متضمن لها اسمه (الحكيم) وهو الذي له الحكم بين عباده الذي لا حاكم إلا هو بالحق والعدل والحمد.

وأما الحكمة فهي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها اللائقة بها، وهو تعالى قد أتقن ما صنعه وأحسن ما شرعه، فالمخلوقات كلها والشرائع مشتملات على الحكم والغايات الحميدة، كما أنها في نفسها في غاية الإحكام، فمن أجلِّ الغايات في ذلك أنه خلق الخلق وشرع الأمر ليعرف بأسمائه وصفاته، وليعبد وحده لا شريك له، ويحمد ويشكر ويثنى عليه، ويخلص له الدين، وكذلك ليبتلي عباده أيهم أحسن عملاً، وليجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها، فالحكيم هو الحاكم بين عباده في أقداره وشرائعه وجزائه وكون أحكامه في نفسها جارية على الحكم والحق في أصلها وفرعها وغاياتها وثمراتها. وتفصيل هذه الجمل كثير جداً.

فصل

ومن أسمائه (الحليم، الحي، الستار، الصبور، العَفُوُّ)، وكل هذه الأسماء تتعلق بجرائم العباد وذنوبهم، فإنه تعالى الجواد المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، فكما أنه الجواد بإعطاء الخيرات ونيل المواهب والهبات والبركات فإنه الجواد بالحلم عن العاصين، والستر على المخالفين، والصبر على المحاربين له ولرسله المبارزين، والعفوّ عن الذنوب. فالعباد يبارزونه بالعظائم وبما يغضبه، وهو تعالى يسدي إليهم النعم ويصرف عنهم النقم كأنهم لم يعصوه، ويعافيهم ويرزقهم كأنهم لم يزالوا يشكرونه، وكذلك لا يزالون مقيمين على ما يوجب أخذهم بالعقوبات المتنوعة، وهو يمهلهم

ليتوبوا، ويذكرهم لينيبوا، والعبد يجاهره بالمخالفات والرب يستحيي من فضيحته ويسدل عليه ستره القدري وستره الشرعي:

﴿ولو يؤاخذُ اللَّهُ الناسَ بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظهرها من دابَّة﴾

[سورة فاطر: الآية ٤٥]

هذا مع كمال غناه عنهم، وكمال قدرته عليهم، ونهاية حاجتهم وفقرهم إليه، واضطرارهم إليه في كل لحظة ونَفَس. وفي الحديث الصحيح (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له الولد وهو يعافيهم ويرزقهم) وفي الصحيحين مرفوعاً (قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. أما تكذيبه إياي فقوله إن لي ولداً وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وأما شتمه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته) هذا وهو تعالى يسمع ما يقولون ويعلم ما تُكِنُّ صدورهم وما به يتفوهون، وهو يلاطفهم بنعمه، ويتحبب إليهم بكرمه، فيا ويح المعرضين عنه ماذا حرموا من الخيرات، ويا سعادة المنقطعين إليه ماذا ادخر لهم من الألطاف والكرامات، ويا بؤس العاصين ما أقل حياءهم وأعظم شقاءهم وأشد جرأتهم.

فصل

ومن أسمائه الحسنى (الشهيد، والرقيب) وهو المطلع على ما في الضمائر وأكنته السرائر ولحظته العيون وما اختفى في خبايا الصدور، فكيف الأقوال والأفعال الظاهرة.. ومقام الإحسان الذي هو مقام «المراقبة» التعبد لله بهذين الاسمين الكريمين، وحفظ الخواطر أن تساكن ما لا يحب الاطلاع عليه.

ومن أسمائه (الحفيظ) وهو يتضمن شيئين: حفظه على العباد جميع ما عملوه بعلمه وكتابته وأمره الكرام الكاتبين بحفظه، وحفظه لعباده من جميع المكاره والشرور. وأخص من هذا حفظه لخواص عباده الذين حفظوا وصيته

وحفظوه بالغيب بحفظ إيمانهم من النقص والخلل، وحفظهم وحمايتهم من الخطل والزلل، وحفظه عليهم دينهم ودنياهم. قال النبي ﷺ: (احفظ الله يحفظك) أي احفظ أوامره بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده لا تتعدها، يحفظك في دينك ودنياك.

ومن أسمائه الحسنى (اللطيف) الذي لطف علمه حتى أدرك الخفايا والخبايا. وما احتوت عليه الصدور، وما في الأرض من خفايا البذور. ولطف بأوليائه وأصفيائه فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى، وسهل لهم كل طريق يوصل إلى مرضاته وكرامته، وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلى سخطه، من طرق يشعرون بها، ومن طرق لا يشعرون بها. وقدر عليهم أموراً يكرهونها لينيلهم ما يحبون، فلطف بهم في أنفسهم فأجراهم على عوائده الجميلة وصنائعه الكريمة، ولطف لهم في أمور خارجة عنهم لهم فيها كل خير وصلاح ونجاح، فاللطيف مقارب لمعاني الخبير الرؤوف الكريم.

ومن أسمائه (الرفيق) في أفعاله وشرعه. ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئاً بعد شيء وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة إذ خلق الخلق أطواراً، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وييسر من جرى على ما يحبه أموره كلها.

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوّت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عرضت.

ومن أسمائه (المجيب) لجميع الداعين، وإجابة خاصة للمضطرين، وأخص من ذلك إجابته للمحبين الخاضعين لعظمته المنكسرة قلوبهم من أجله، فإجابته تعالى عامة للمخلوقات، بَرِّها وفاجرها، بإعطائهم ما سألوه بلسان المقال، وما احتاجوه بلسان الحال، كما قال تعالى:

﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾ [سورة إبراهيم: الآية ٣٤]

والإجابة المذكورة أسبابها في الكتاب والسنة كإجابته للمضطرين وللمحبين والوالد لولده والمسافر والمريض ونحوهم.

ومن أسمائه (المغيث) وهو المنقذ من الشدائد الفادحة والكروب

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر﴾ [سورة الأنعام: الآية ٦٣]

ومن أسمائه الحسنى (الجواد، الكريم، الوهاب) الذي عم بجوده أهل السماء والأرض، فما بالعباد من نعمة فمنه، وهو الذي إذا مسهم الضرّ فإليه يرجعون، وبه يتضرعون، فلا يخلو مخلوق من إحسانه طرفة عين، ولكن يتفاوت العباد في إفاضة الجود عليهم بحسب ما منّ الله به عليهم من الأسباب المقتضية لجوده وكرمه، وأعظمها تكميل عبودية الله الظاهرة والباطنة، العلمية والعملية، القولية والفعلية والمالية، وتحقيقها باتباع محمد ﷺ في الحركات والسكنات.

فصـــل

ومن أسمائه الحسنى (الـودود) بمعنى الـوادّ وبمعنى المـودود، فهو المحبوب لأنبيائه ورسله وأتباعهم محبة لا يشبهها ولا يماثلها شيء من المحابّ، كما أن محبوبهم ليس كمثله شيء في كماله، فلا يرون كمالاً لهم ولا صلاحاً ولا فلاحاً إلا بمحبة ربهم، ومحبته في قلوبهم أحلى من كل شيء وألذّ من كل شيء وأقوى من كل شيء، وبقوة محبته قاموا بعبوديته الظاهرة والباطنة، وروح العبودية هي المحبة وهو الذي وضـع هذه المحبة في قلوبهم فأحبوه، وكل من كانت محبته أكمل كانت عبوديته لله أقوى وأتم. يحبون ربهم لذاته، ويحبونه لما قام به من صفات الكمال ونعوت الجـلال والجمال، ويحبونه لما يغذوهم به من نعمه الظاهرة والباطنة، وخصوصاً أكبر النعم

وهو نعمة الإسلام الخالص والإيمان الكامل، وهو تعالى يحبهم لكمال إحسانه وسعة بره، بل حبهم لله تعالى محفوف بحبين منه لهم: حب وضعه في قلوبهم فانقادوا له طوعاً واطمأنت به قلوبهم، ثم أحبهم جزاء حبهم، وكمل لهم محبته، والفضل كله منه، والمنة لله أولاً وآخراً، فمن تقرب منه شبراً تقرب الله منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه الله هرولة، كما نطق به الصادق المصدوق.

ومن أسمائه الحسنى (الشكور) وهو الذي يشكر القليل من العمل الخالص النقي النافع، ويعفو عن الكثير من الزلل، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة بغير عد ولا حساب. ومن شكره أنه يجزي بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وقد يجزي الله العبد على العمل بأنواع من الثواب العاجل قبل الآجل، وليس عليه حق واجب بمقتضى أعمال العباد، وإنما هو الذي أوجب الحق على نفسه كرماً منه وجوداً، والله لا يضيع أجر العاملين إذا أحسنوا في أعمالهم وأخلصوها لله تعالى.

ومن أسمائه الحسنى (الغفور، الغفار، التواب) الذي يغفر ذنوب التائبين، الغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، الرجاع لعباده بالخيرات وحلول البركات ومغفرة الذنوب وستر العيوب. وتوبة العبد محفوفة بتوبتين من ربه: تاب عليه أولاً فأقبل بقلبه على التوبة والإنابة والرجوع، ثم تاب عليه ثانياً بالقبول والجزاء والإحسان.

فصــل

ومن أسمائه الحسنى (الصمـد) وهو الـذي صمدت لـه المخلوقات بحاجاتها وملماتها الدقيقة والجليلة، وذلك لكمال عظمته وسعة جوده وسلطانه وعظمة صفاته.

ومن أسمائه (القهار، الجبار) وهو القوي العزيز الذي قهر المخلوقات كلها، ودانت له الموجودات بأسرها. ومن لوازم قهره أنه يقتضي أنه كامل الحياة والعلم والقدرة. والجبار بمعنى القهار، وبمعنى أنه يجبر الكسير، ويغني الفقير، ويجبر القلوب المنكسرة من أجله، ويجبر عبده المؤمن بإصلاح حاله. وهو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى المتكبر عن كل نقص وسوء ومثال.

ومن أسمـائه (الحسيب) بمعنى الـرقيب المحاسب لعبـاده المتولي جزاءهم بالعدل والفضل، وبمعنى الكافي عبده همومه وغمومه. وأخص من ذلك أنه الحسيب للمتوكلين ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ [سورة الطلاق: الآية ٣] أي كافيه أمور دينه ودنياه.

وهو (الرشيد) وهو الذي أقواله رشد، وأفعاله رشد، وهو مرشد الحائرين في الطريق الحسي والضالين في الطريق المعنوي، فيرشد الخلق بما شرعه على ألسنة رسله من الهداية الكاملة، ويرشد عبده المؤمن، إذا خضـع له وأخلص عمله أرشده إلى جميـع مصالحه، ويسره لليسرى وجنبه العسرى.

ومن أسمائه (الحكم، العدل) الذي إليه الحكم في كل شيء، فيحكم تعالى بشرعه، ويبين لعباده جميـع الطرق التي يحكم بها بين المتخاصمين، ويفصل بين المتنازعين. من الطرق العادلة الحكيمة، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويحكم فيهم بأحكام القضـاء والقدر، فيجـري عليهم منها ما تقتضيه حكمته، ويضـع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجزاء والحساب، فيقضي بينهم بالحق، ويحمده الخلائق على حكمه حتى من قضى عليهم بالعذاب يعترفون له بالعدل وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة.

فصــل

ومن أسمائه (القدوس، السلام)، وهو المعظم المقدس عن كل عيب، السالم من كل نقص، ومن أن يكون له مثل أو كفو أو نديد أو سمي، وذلك لكماله وكمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى.

ومن أسمائه (الفتاح)، وفتحه نوعان: فتح بأحكامه القدرية والشرعية والجزائية، وهو حكمه بين عباده، يشرع الشرائع، ويسن لعباده الأحكام والوسائل والطرق التي يهتدون بها إلى جميع منافعهم ومصالحهم، ويحكم بين الرسل وأتباعهم وبين أعدائهم، فيكرم الرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة، ويهين أعداءهم ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحق وأولئك على الباطل. والنوع الثاني فتحه لعباده الرحمة والبركة، قال تعالى:

﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمسكْ فلا مرسلَ له من بعده﴾ [سورة فاطر: الآية ٢]

ويفتح لعبده المؤمن أبواب المعارف وحلاوة الإيمان وسرور اليقين وسهولة الطاعات وتيسير القربات. اللهم افتح علينا فتوحك على العارفين.

ومن أسمائه (الرزاق) لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه، مغمور بكرمه. ورزقه نوعان:

أحدهما الرزق النافع الذي لا تبعة فيه. وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته وإرشاده. وهو نوعان أيضاً: رزق القلوب بالعلوم النافعة والإيمان الصحيح، فإن القلوب لا تصلح ولا تفلح ولا تشبع حتى يحصل لها العلم بالحقائق النافعة والعقائد الصائبة، ثم التحقق بالأخلاق الجميلة والتنزه عن الأخلاق الرذيلة، وما جاء به الرسول كفيل بالأمرين على أكمل وجه، بل لا طريق لها إلا من طريقه.

والنوع الثاني أن يغني الله عبده بحلاله عن حرامه وبفضله عمن سواه.

والأول هو المقصود الأعظم وهذا وسيلة إليه ومعين له، فإذا رزق الله العبد العلم النافع والإيمان الصحيح والرزق الحلال والقناعة بما أعطاه الله منه فقد تمت أموره واستقامت أحواله الدينية والبدنية. وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية واشتملت عليه الأدعية النافعة. وأما النوع الثاني وهو إيصال الباري جميع الأقوات التي تتغذى بها المخلوقات بَرُّها وفاجرها المكلفون وغيرهم فهذا قد يكون من الحرام كما يكون من الحلال. وهذا فصل النزاع في مسألة هل الحرام يسمى رزقاً أم لا، فإن أريد النوع الأول وهو الرزق المطلق الذي لا تبعة فيه فلا يدخل فيه الحرام فإن العبد إذا سأل ربه أن يرزقه فلا يريد به إلا الرزق النافع في الدين والبدن وهو النوع الأول، وإن أريد به مطلق الرزق وهو النوع الثاني فهو داخل فيه فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ومثل هذا يقال في النعمة والرحمة ونحوها.

ومن أسمائه الحسنى (النور) فالنور وصفه العظيم، فأسماؤه حسنى، وصفاته أكمل الصفات، وأفعاله تعالى رحمة وحمد وحكمة، وهو نور السماوات والأرض، وبنوره استنارت قلوب المؤمنين، وبنوره استنارت جنات النعيم. وحجابه نور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. والنور الذي هو وصفه من جملة نعوته العظيمة، وأما النور المخلوق فهو نوعان: نور حسي كنور الشمس والقمر والكواكب وسائر المخلوقات المدرك نورها بالأبصار، والثاني نور معنوي وهو نور المعرفة والإيمان والطاعة، فإن لها نوراً في قلوب المؤمنين بحسب ما قام في قلوبهم من حقائق المعرفة ومواجيد الإيمان وحلاوة الطاعة وسرور المحبة. وهذا النور هو الذي يمنع صاحبه من المعاصي ويجذبه إلى الخير ويدعو إلى كمال الإخلاص لله، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً ومن بين يدي نوراً ومن خلفي نوراً وفوقي نوراً وتحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً وزدني نوراً).

وهذا النور الذي يعطيه الله عبده أعظم منة منه عليه، وهو أصل الخير، وهذا النور مهما قوي فإنه مخلوق، فإياك أن تضعف بصيرتك ويقل تمييزك وعلمك فتظن هذا النور نور العيان ومشاهدة القلب لنور الذات المقدسة، وإنما هو نور المعرفة والإيمان، ويبتلى بهذا بعض الصوفية الذين ترد عليهم الواردات القوية فيقع منهم من الشطح والخطل ما ينافي العلم والإيمان، كما أن كثيف الطبع جافي القلب قد تراكمت عليه الظلمات وتوالت عليه الغفلات فلم يكن له من هذا النور حظ ولا نصيب، بل ربما ازدرى من سفاهة عقله وقلة وجده هذه الأحوال وزهد فيها، فمتى منّ الله على العبد بمعرفة صحيحة متلقاة من الكتاب والسنة وتفقه في أسماء الله وصفاته وتعبد لله بها واجتهد أن يحقق مقام الإحسان فيعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه ولهج بذكر الله تعالى استنار قلبه وحصل له من لذة المعرفة ومواجيد الإيمان أعظم للذات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فصــل

ومن أسمائه الحسنى (المقدم، والمؤخر. المعطي، المانـع. الضار، النافـع. الخافض، الرافـع). من أسمائه الحسنى ما يؤتى به مفرداً ويؤتى به مقروناً مـع غيره وهو أكثر الأسماء الحسنى، فيدل ذلك على أن لله كمـالاً من إفراد كل من الاسمين فأكثر وكمالاً من اجتماعهما أو اجتماعها. ومن أسمائه ما لا يؤتى به إلا مـع مقابله الاسم الآخر لأن الكمال الحقيقي تمامه وكماله من اجتماعهما، وذلك مثل هذه الأسماء، وهي متعلقة بأفعاله الصادرة عن إرادته النافذة وقدرته الكاملة وحكمته الشاملة، فهو تعالى المقدم في الزمان والمكان والأوصاف الحسية، والمقدم في الفضائل والأوصاف المعنوية، والمؤخر لمن شاء في ذلك، المعطي من شاء من القوة والقوى الحسية والعقل والمعارف والكمالات المتنوعة، المانـع لمن يشاء ممن لا يستحق ذلك، وهو تعالى

النافـع لمن شاء من عباده بالمنافـع الدينية والدنيوية، الضـار لمن فعل الأسباب التي توجب ذلك، وكل هذا تبـع لحكمته وسننه الكونية وللأسباب التي جعلها موصلة إلى مسبباتها.

فإن الله تعالى جعل مقاصد للخلق وأموراً محبوبة في الدين والدنيا، وجعل لها أسباباً وطرقاً، وأمر بسلوكها ويسرها لعباده غاية التيسير، فمن سلكها أوصلته إلى المقصود النافـع، ومن تركها أو ترك بعضها أو فوت كمالها أو أتاها على وجه ناقص ففاته الكمال المطلوب فلا يلومن إلا نفسه، وليس له حجة على الله، فإن الله أعطاه السمـع والبصر والفؤاد والقوة والقدرة وهداه النجدين وبين له الأسباب والمسببات ولم يمنعه طريقاً يوصل إلى خير ديني ولا دنيوي، فتخلفه عن هذه الأمور يوجب أن يكون هو الملوم عليها المذموم على تركها.

واعلم أن صفات الأفعال التي منها هذه الأسماء كلها متعلقة وصادرة عن هذه الصفات الثلاث: القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة، والحكمة الشاملة التامة. وهي كلها قائمة بالله، والله متصف بها، وآثارها ومقتضياتها جميـع ما يصدر عنها في الكون كله من التقديم والتأخير والنفـع والضر والعطاء والحرمان والخفض والرفـع، لا فرق بين محسوسها ومعقولها، ولا بين دينيها ودنيويها. فهذا معنى كونها أوصاف أفعال لا كما ظنه أهل الكلام الباطل أن الفعل هو عين المفعول، وأنه لم يقم بالله منها وصف، فهذا مخالف للعقل والنقل، وقول متناقض في نفسه، فإن الآثار تدل على المؤثر كما أن الوصف يدل على الأثر، فهما شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، دل الكتاب والسنة والعقل على ذلك، فمن فرق بينهما فأثبت المفعول ونفى الفعل فقوله غير معقول ولا منقول.

واعلم أن الأفعال الاختيارية للباري نوعان: نوع متعلق بذاته المقدسة كالاستواء على العرش والنزول كل ليلة إلى سماء الدنيا والمجيء والإتيان

ونحوها، ونوع متعلق بالمخلوقات كالخلق والرزق والعطاء والمنع وأنواع التدابير الكونية والشرعية والله أعلم.

فصــل

أسماء الله كلها حسنى، وكلها تدل على الكمال المطلق والحمد المطلق، وكلها مشتقة من أوصافها، فالوصف فيها لا ينافي العلمية، والعلمية لا تنافي الوصف، ودلالتها ثلاثة أنواع: دلالة مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله، ودلالة تضمن إذا فسرناه ببعض مدلوله، ودلالة التزام إذا استدللنا به على غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها. فمثلاً (الرحمن) دلالته على الرحمة والذات دلالة مطابقة. وعلى أحدهما دلالة تضمن لأنها داخلة في الضمن، ودلالته على الأسماء التي لا توجد الرحمة إلا بثبوتها كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ونحوها دلالة التزام، وهذه الأخيرة تحتاج إلى قوة فكر وتأمل، ويتفاوت فيها أهل العلم، فالطريق إلى معرفتها أنك إذا فهمت اللفظ وما يدل عليه من المعنى وفهمته فهما جيداً ففكر فيما يتوقف عليه ولا يتم بدونه، وهذه القاعدة تنفعك في جميع النصوص الشرعية فدلالاتها الثلاث كلها حجة لأنها معصومة محكمة.

فصــل

في بيان حقيقة الإلحاد في أسماء رب العالمين وذكر أقسام الملحدين

وهذا الفصل في نفي الإلحاد في أسماء الله وصفاته من تمام إثبات صفات الكمال وتفرد الرب بنعوت العظمة والجلال، فعلى العبد المؤمن أن يحققها علماً وتعبداً لله بها ونفياً للإلحاد فيها. وحقيقة الإلحاد فيها هو الميل بها عن الاستقامة إما بإثبات المشاركة فيها لأحد من الخلق، كإلحاد المشركين الذين اشتقوا لآلهتهم من صفات الله ما لا يصح إلا لله، كتسميتهم اللات من

الإلّه، والعزى من العزيز، ومناة من المنان وكل مشرك تعلق بمخلوق اشتق لمعبوده من خصائص الربوبية والإلّهية ما برر له عبادته. وأعظم الخلق إلحادًا طائفة الاتحادية الذين من قولهم إن الرب عين المربوب، فكل اسم ممدوح أو مذموم يطلق على الله عندهم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. وإما نفي صفات الله وإثبات أسماء لا حقيقة لها كما فعل الجهمية ومن تفرع عنهم، وإما بجحدها وإنكارها رأساً إنكاراً لوجود الله كما فعل زنادقة الفلاسفة فهؤلاء الملحدون قد انحرفوا عن الصراط المستقيم ويمموا طرق الجحيم.

فصــل

في النوع الثاني من نوعي توحيد الأنبياء والمرسلين المخالف لتوحيد المعطلين

وهذا النوع يسمى توحيد الإلّهية وتوحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة الظاهرة والباطنة. وحقيقة هذا التوحيد هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتقرب إلى الله بمعرفة ذلك وفهمه واعتقاده فإنه أصل التوحيد وأساسه، ثم القيام التام بعبودية القلب وهي قوة الإنابة إلى الله بمحبته وخوفه ورجائه وسائر أعمال القلوب، ثم القيام بالصلاة فرضها ونفلها، والزكاة والصدقة والصيام والحج والعمرة والجهاد في سبيله بالقول والفعل، وأداء حقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة، وترك ما يكرهه الله ورسوله من المحرمات والمكروهات، وإخلاص ذلك كله لله تعالى، فكل هذا داخل في عبادة الله وتوحيده، ولا يتم ذلك إلا بتكميلها بالصدق وهو الجد والاجتهاد في إيقاعها على أكمل الوجوه وأحسنها، وأن تكون موافقة لمرضاة الله وما شرعه رسوله.

فهذه الثلاث: الإخلاص والمتابعة والصدق، من اجتمعت له تم له هذا التوحيد. فإن الإخلاص ينفي الشرك الأكبر الجلي وهو صرف نوع من العبادة لغير الله واتخاذ ندّ مع الله، وكمال الإخلاص ينفي الشرك الأصغر في الألفاظ

ووسائل الشرك، والصدق ينفي الكسل والفتور ونقصان العمل، والمتابعة تنفي البدع القولية الاعتقادية والبدع الفعلية، فبهذا يتحقق التوحيد، وكمال هذا بتكميل محبة الله وتقديمها على كل محبة، ومحبة ما يحبه الله وكراهة ما يكرهه الله من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة.

وبراهين هذا التوحيد أقوى البراهين: براهينه العلم بتفرد الرب بالربوبية والعظمة والكبرياء والسلطان، وأنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة وباطنة إلا منه، وهو الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيئات، وهو المنفس لكرب المكروبين وإغاثة المضطرين، وهو الذي يجير ولا يجار عليه
﴿وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قَنَطُوا وينشُرُ رحمته، وهو الوليُّ الحميد﴾ [سورة الشورى: الآية ٢٨]

ومن براهينه أن جميع الكتب السماوية وجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دعوا إلى توحيده وإخلاص العمل له. وأنه مركوز في عقول جميع العقلاء ــ التي لم تغيرها العقائد الباطلة ــ وجوب عبادته وحده لا شريك له، ووجوب حمده وشكره وإخلاص العمل له.

ومن براهينه معرفة أوصاف ما عبد من دونه من جميع المخلوقين، وأنه ليس فيهم من خصائص الإلّهية والربوبية شيء بل هم ناقصون فقراء عاجزون
﴿لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شِرْكٍ وما له منهم من ظهير﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٢]

﴿ومَنْ أَضَلُّ مِمَّن يدعو مِنْ دونِ اللَّهِ مَنْ لا يستجيبُ له إلى يومِ القيامةِ وهمْ عن دعائهم غافلون * وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [سورة الأحقاف: الآيتان ٥، ٦]

فنسأل الله الكريم الوهاب أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، وأن يكمل لنا توحيده بقوة الإنابة إليه والشوق إلى لقائه والتلذذ بخدمته

واللهج بذكره. وأن يحبب إلينا الإيمان ويزينه في قلوبنا. ويكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان ويجعلنا من الراشدين. إنه جواد كريم.

فصل

في صف العسكرين وتقابل الصفين واستدارة رحي الحرب العَوَان، وتصاوُل الأقران

وهذا في المقابلة بين الحق وأهله وبين الباطل وأهله على وجه العموم، فأهل الحق هم الرسل الكرام والأنبياء العظام وأئمة الهدى ومصابيح الدجى والعلماء الربانيون والفقهاء والصالحون وطبقات أهل العلم والإيمان على توالي الزمان خلاصة الخلق وأكمل الناس إيماناً ويقيناً وأرجحهم عقولاً وأصوبهم آراء، وسلاحهم وبراهينهم جميع الكتب السماوية، وجميع العلوم الصحيحة الموروثة عن الأنبياء والنقل الصحيح والعقل الصريح. وأما أهل الباطل فهم كل زنديق ومارق وجاحد وملحد منافق ممن مرجت عقولهم وانحرفت أديانهم واختلت عقائدهم وعدمت فيهم الفضيلة واتصفوا بكل خصلة رذيلة. وأما سلاحهم فمناسب لحالهم: زبد عقولهم التي هي شبه لا تسمن ولا تغني من جوع، قدموها على نصوص الوحي والسنة والقرآن فأوهت منهم العقائد وعدموا الإيمان والإيقان، فشرح حال العسكرين يكفي في معرفة المُحِقّ من المبطل.

فصل

في عقد الهدنة بين المُعَطِّلة والمُلْحِدين

لما اتفق أهل التعطيل مع ملاحدة الفلاسفة على عزل الكتاب والسنة عن الاستدلال بهما على أعلى المطالب وأشرف الأصول، ووافقوهم على الأصل الذي ردوا به الوحي وما جاء به الرسول، وخضعوا لهم في كثير من

أصولهم وبحوثهم، وسلموا لهم كثيراً من أصولهم الباطلة، وعجزوا عن مقاومتهم عند مناظرتهم بما أعطوهم من سلاحهم، عقدوا بينهم وبينهم الهدنة، وقالوا بلسان الحال، وربما صرحوا به في لسان المقال: هلم نتفق على مقاومة أهل السنة والجماعة ـ وسموهم بالأسماء الشنيعة ـ هلمَّ نقاتل من قابلونا بالسنة والقرآن، وصالوا علينا بالأدلة العقلية والنقلية، وسفهوا أحلامنا وعابوا عقائدنا وجهروا بالقدح في أصولنا. فلما التقى الجمعان عرف الجهمية وزنادقة الفلاسفة أنه لا سبيل لهم إلى مقاومة الحق، ولا يدان لهم أن يقاوموا صحيح المنقول وواضح الدلالة والمدلول وصريح المعقول بآراء المتهوكين وأقيسة الحائرين وإفك المفترين وتزوير المزورين، تالله إن أدنى سرية من سرايا الحق إذا قابلت الباطل بأجمعه سحقته، وإن واحداً من شواهد الحق إذا وزن بجميع شبه الباطل محقه وأتلفه. وإذا أردت أن تعرف حقيقة ذلك فتأمل هذا الفصل، وهو:

فصل
في مصارع النُّفَاةِ المُعَطِّلين بأسِنَّة أهل الإثبات المُوَحِّدين

ذكر المصنف في هذا الفصل أنه لا يتم للإنسان معرفة حقيقة أهل البدع وما آلت إليه بدعهم من البطلان والاضمحلال حتى يقف على تصانيف شيخ الإسلام حقيقة الذي لم يحز هذا اللقب أحد بتمامه وكماله غيره، فهو شيخ الإسلام في أصول الدين وفروعه، وفي نصر الحق وجهاد أهل الباطل على اختلاف مللهم ونحلهم، فمن وقف على تصانيفه رآها كافية شافية، ورأى فحول أهل الكلام وأئمتهم وأساطين الفلاسفة وزنادقة أهل الوحدة وغيرهم ممن يشار إليهم بالأصابع ويرمقون بالأبصار ويخضع الكثير لأقوالهم وأصولهم قد تبين جهلهم وبان عيهم وتحقق بطلان ما كانوا ينصرونه من الأقوال الباطلة التي طالما أضلت الخليقة، فصارت بهذا البيان والتحقيق من

هذا الإمام العظيم في حيز المحال، وأباد خضراءهم، وقتلهم بسلاحهم الذي به صالوا وردّ عليهم بحججهم التي طالما في ميادينها جالوا، فلم يبقِ من فحولهم وأئمتهم، وأكابرهم أحداً إلا أرداه ووضح للناس ضلاله وعماه، فرحمة الله عليه من إمام عظيم منّ به الرحمن الرحيم في زمان تكاثرت فيه البدع، وتفاقمت فيه الطرائق المنحرفة، ورفع فيه أهل الإلحاد رؤوسهم فمزق جمعهم كل ممزق وذكر من تصانيفه المعروفة ما مخبره كاف عن وصفه، وهي ولله الحمد موجود أكثرها، وكل إصلاح في هذه الأوقات الأخيرة لا يخفى على صاحب البصيرة أن لكتبه فيه الأثر الأكبر والحظ الأوفر.

فصل

في بيان أن المصيبة التي حلّت بأهل التعطيل والكفران من جهة الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان

اعلم أن العصمة والنجاة بالوقوف مع الألفاظ الشرعية كما أن الدين هو ما دلت عليه تلك الألفاظ من المعاني، فهي الكفيلة بكل هدى وبيان، العاصمة من كل خطأ وخطل وفساد، المتمسك بها قد استمسك بالعروة الوثقى، وهي التي دلالاتها الثلاث المطابقة والتضمن والالتزام كلها حق وصدق، وأما الأسماء والألفاظ البدعية التي لم ترد في الكتاب والسنة فإن تعليق الاعتقادات والأقوال والأحكام عليها يجر إلى أقوال باطلة وضلال مبين، فانظر إلى أهل الكلام الباطل من الجهمية والمعتزلة والقدرية ومن تفرع عنهم لما علقوا اعتقاداتهم على الألفاظ البدعية ضلوا وأضلوا، ولو هدوا لرشدهم وتمسكوا بألفاظ الوحي ومعانيه لهدوا إلى الصراط المستقيم.

فصل

في كسر الطاغوت الذي نَفَوْا به صفاتِ ذي الملكوت والجبروت

وهذا الطاغوت هو شبهتهم الباطلة حيث زعموا أن إثبات الصفات

للباري تستلزم التجسيم، لأننا لا نشاهد موصوفاً بالصفات إلا هذه الأجسام، والله ليس كمثله شيء، فتعين نفي الصفات وتعطيلها وأن نتأولها ونأتي لها بمعانٍ مناسبة لها.

هذا حاصل هذا الطاغوت الذي من سمع به ممن لا بصيرة له هاله قولهم وخضع له وظن أن هذا الحق وهان عليه ردّ ما جاء في الكتاب والسنة من الصفات، لأنه أعد هذا الطاغوت ترساً له.

فيقال في إبطال هذا الطاغوت: قد علم ثبوت الصفات المتنوعة لله تعالى في الكتاب والسنة بألفاظ كثيرة وأساليب متنوعة صريحة يكفي بعضها في إفادة العلم اليقيني، فكل شبهة تناقض هذا المعلوم المفهوم فإنها باطلة كائنة ما كانت، بأي لفظ عبر عنها، وبأي أسلوب حرفت. وكذلك قد علم بالضرورة من الدين ثبوت الصفات وهي أصل الأصول وأُسُّ الدين، ودلالة الكتاب والسنة عليها أعظم بكثير من دلالتها على الأحكام التي لا ينازع فيها مسلم كالصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع الأحكام الشرعية، فمن حاول إبطال النصوص الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات كان محاولته لإبطال بقية شرائع الدين أهون بكثير، ومن نظر الأمر وأمعن التأمل جزم أن محاولة هدم السماوات والأرض والجبال الشوامخ أسهل من محاولة إبطال نص واحد من هذا الأصل الذي قامت عليه العقائد والعلوم والأعمال والخلق والأمر.

ويقال في إبطاله أيضاً: إن تصوره وتصور لوازمه وما يلزم منه من الزور والافتراء والإلحاد وإبطال أصول الإيمان وتشييد أصول الإلحاد والزندقة يكفي العاقل في رده وإبطاله فضلاً عن الأدلة الأخر الدالة على بطلانه.

ويقال أيضاً على وجه التنزل والفرض والتقدير في مقام المجادلة، إذا ألح المعطل وأبى إلّا أن إثبات الصفات يستلزم التجسيم والتركيب ونحوهما مما قالوه من هذا الجنس، فلنا على هذا ثلاثة أجوبة:

الجواب الأول المنـع، فنقول يكفينا لردّ قولكم أن نقول إنه ممنوع، فكل دعوى مجردة لم تقم على قواعد البراهين اليقينية إذا منعها المجادل كفى في ردها، ودعواهم هذه من هذا القبيل.

الجواب الثاني: إذا قلتم إنه لازم على كل حال وأبيتم إلا ذلك فنقول: ما تدعون لزومه من الجسم ونحوه إن كان لازماً لإثبات صفات الباري قلنا به لأنا نقول بالحق ولازم الحق حق، فكل نص من الكتاب والسنة نقول به وبجميـع لوازمه كما هو الفرض على كل مسلم، كما أننا نعتقد ما دل عليه مطابقة وتضمناً، والإلزام الذي ذكرتموه في الحقيقة إلزام منكم لله ورسوله، فالله ورسوله منهما النص على إثبات تلك الصفات، فويـح من استدرك على الله وعلى رسوله وخطأهما، فهل أعظم من هذا الإلحاد فنحن معاشر أهل السنة والجماعة لم نأت بكلام من تلقاء أنفسنا وإنما قلنا ما قاله ربنا ونبينا الذي فرض علينا وعليكم أن نأخذ به كله وأن لا نرد منه شيئاً ولا نستدرك عليه.

فإن قنعتم بهذا الجواب الذي لا يسـع مسلمٌ الخروج عنه وإلا انتقلنا معكم إلى الجواب الثالث: ما تعنون بالجسم الذي نفيتم به الصفات وألزمتم به أهل السنة هذا الإلزام الذي لا يصدر ممن في قلبه إيمان وتعظيم لله ورسوله. هل مرادكم به أن كل من قام بنفسه فهو جسم، أو كل من هو عال على خلقه فهو جسم. فعلى هذه التقادير قد دلت البراهين اليقينية والصريحة التي لا معارض لها أصلاً على ثبوت الصفات وعلو الباري على خلقه واستوائه على عرشه، فتعين على كل مسلم تصديقها والاعتراف بها. فإن كان الجسم لازماً للإثبات فهو الحق والصواب، وإن لم يكن لازماً للإثبات فإن إلزامكم لأهل السنة تشنيـع وهوى محض. وإن أردتم بالجسم غير ذلك فعينوا واحداً، فحينئذ تحتاجون إلى أمرين: أحدهما أن تبرهنوا على لزوم ذلك المعنى الذي

عنيتم ونفيتم به الصفات، الثاني أن تبرهنوا على نفي هذا اللازم على تقدير لزومه. ومن المعلوم أن هذه طلبات مفحمة لا جواب عنها لا من مقلديهم ولا من أئمتهم، فتعين بطلان هذا الطاغوت الذي نفوا به صفات الباري والحمد لله رب العالمين.

فصل

في مبدأ العداوة الواقعة بين المُثْبِتِين المُوَحِّدين وبين النَّافِين المُعَطِّلين

فالعداوة منشأها من المآخذ والأدلة التي بنى عليها كل فريق منهما اعتقاداته وأقواله وأحواله، وأنها في غاية التباين، وقد تقدم مراراً أن المثبتين الموحدين بنوا عقيدتهم على ما قاله الله في كتابه وقاله رسوله ﷺ وما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وأيد ذلك العقل الصحيح والفطرة المستقيمة، والمعطلة عكسوا الأمر فجعلوا عقولهم الفاسدة وآراءهم الضالة أصلاً عليه يعتمدون، فهذا التخالف في الأصل والطريق من لازمه التعارض والتخالف والتعادي، ومن أراد الوفاق بدون اتفاق فقد رام المحال.

فصل

في بيان أن التعطيل أساسُ الزَّندقة والكُفْران، والإثباتَ أساسُ العِلم والإيمان

ووجه ذلك ظاهر، فإن أصولهم التي ذكرناها وشرحناها مراراً تقتضي ما ذكره المصنف. فإثبات صفات الله على الوجه الوارد في الكتاب والسنة هو أصل العلوم وأسُّ الإيمان، فأصول الإيمان وفروعه لا تبنى ولا تثبت ولا تقوى ولا تتم إلا بإثبات الصفات، وأما تعطيل الصفات ونفيها لا فرق بين الصفات الذاتية وبين صفات الأفعال فهذا بعينه هو الكفر والإلحاد، فمن لا وصف له ولا فعل هل يتصور وجوده فيكون وجود كل الموجودات أكمل من وجود من قالوا فيه ذلك.

وأيضاً من كان من قوله إن أدلة الوحيين أدلة لفظية ظنية وأدلة عقول زنادقة الملحدين براهين يقينية فهذا إبطال للوحي وكفر بالرسالة وترجيح لأقوال أعداء الرسل على ما جاءت به الرسل، فالمثبتون لصفات الله قلوبهم ملآنة من تعظيم الله والخضوع له وألسنتهم على الدوام تلهج بذكره، وهم في كل وقت في مزيد من إيمانهم وأحوالهم بخلاف المعطلين.

فصل

في بهت أهل الشرك والتعطيل في ذَمِّهم أهل التوحيد بتنقيص الرسول

وهذا يعدُّ من العجائب، فإن أهل التعطيل كما تقدم عزلوا كلام الله وكلام رسوله عن الاحتجاج بهما في هذا الباب، وزعموا أن أدلة الوحيين لفظية ظنية، وأنها تدل على التجسيم، وأن من قال بما دلت عليه من المعاني المفهومة بلا ريب فهو كافر، وقدموا عليهما أصول أهل الإلحاد، ثم مع هذا زعموا أن أهل السنة والجماعة الذين لم يقدموا على الوحيين رأي أحد وقالوا بما دلت عليه بأنواعها الثلاثة وجعلوا الوحيين هما الأصل الذي ترجع إليه الأقوال والمذاهب كلها فما وافقهما فهو مقبول وما خالف الوحيين فهو مردود وما لم يعلم موافقته أو مخالفته فهو موقوف، ولم يتقدموا بين يدي رسوله بمقالة لا أصولية ولا فروعية، زعم أهل التعطيل مع هذا أنهم متنقصون للرسول، وهذا من أعظم قلب الحقائق وجعل الحق باطلاً والباطل حقاً والمحسن مسيئاً والمسيء محسناً، فمن عرف ما قاله أهل السنة وما قاله الجهمية في هذا الباب عرف أن الإيمان بالله ورسوله وتعظيم الله ورسوله دائر مع ما قاله أهل السنة إثباتاً ونفياً وظاهراً وباطناً، فإنهم كما عظموا ربهم بالإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة من صفات عظمته وكبريائه وانقادت قلوبهم وجوارحهم لذلك وشهدت به ألسنتهم فهم القائمون بتعظيم الرسول حقاً والإيمان به إذ قالوا نشهد أن ما جاء به الرسول حق يجب الإيمان به كله في جميع أبواب العلم

في أصول الدين وفروعه، ويجب الانقياد له واتباعه وتقديمه على غيره، وميزوا بين الحق المختص بالله وهو عبادته وحده لا شريك له فلا يستحق هذا الحق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا غيرهما، والحق المختص بالرسول وهو تعزيره وتوقيره وتبجيله، والحق المشترك هو الإيمان بالله ورسوله ومحبة الله ورسوله وطاعة الله ورسوله.

وأما غيرهم من أهل التعطيل والشرك فإنهم عزلوا الوحيين عن الاحتجاج بهما وقدموا عليهما أقوال المكذبين بالرسل وأعطوا الرسول من الحق المختص بالله من التأله والغلو ما لا يليق إلا بالله وشابهوا النصارى في غلوهم بعيسى بن مريم، إلى غير ذلك من أوصافهم المناقضة للدين، فأي الفريقين أحق بتعظيم الرسول، وأيهم أولى به في الدنيا والآخرة. لا يستريب العاقل المنصف أن أهل الشرك والتعطيل هم المتنقصون للرسول، المنقوصون حظهم من الإيمان بالله ورسوله.

ونظير رمي المعطلين للمثبتين في طريقتهم رمي المشركين للموحدين أنهم يتنقصون الرسول إذ لم يجعلوا للرسول من حق الله الخاص شيئاً، فلم يدعوه ولا تضرعوا إليه، ولا غلوا فيه غلو النصارى كما فعله المشركون، ولا فعلوا في زيارته كفعل المشركين الذين استغاثوا به في كشف شدائدهم وتمسحوا بقبره ورفعوا أصواتهم بالضجيج الجافي عنده وزعموا أنهم هم الموحدون وأن الموحدين متنقصون، فهل تنقص الرسول من قدم طاعة الرسول على كل طاعة، واتبعه في أصول الدين وفروعه، وقام بتوقيره وتبجيله اللائق بجنابه الشريف، وعلم أنه ﷺ أكمل الخلق في جميع الصفات الحميدة، وأنه أعلاهم مقاماً وأوجههم عند الله وأقربهم منه، وقدم محبته على محبة نفسه ووالديه وأولاده والناس أجمعين، وعلم أن عنوان محبته الاهتداء بهديه والاقتداء بأقواله وأفعاله والتأدب التام بين يدي سنته وأن لا يرفع عليها مذهب ولا عقيدة ولا قول أحد من الناس كائناً من كان، والتأدب عند

زيارته ﷺ، واعتقاد أن زيارة مسجده مع زيارته من أفضل القربات وسلوك طريق الأدب في ذلك، وأن أحدهم إذا وصل إلى تلك الربوع الشريفة والأمكنة المنيفة ابتدأ في مسجده ﷺ فصلى تحية المسجد ركعتين بطمأنينة وسكون وخضوع لله تعالى وحمد وثناء لله الذي منَّ عليه بوصوله. ثم يقوم إلى ما بين يدي الرسول ﷺ مستقبلاً وجهه الكريم غاض الطرف خافضاً صوته يخاطبه في هذه الحال كما يخاطبه في حياته فيقول:

«السلام عليك يا رسول الله وخيرته من خلقه وصفوته من عباده، أشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وبينت الهدى من الضلال والرشاد من الغي والحق والباطل، وجاهدت في الله حق جهاده وهديت الخلق ببيانك وإرشادك وقولك وفعلك وهديك إلى صراط مستقيم، فلم يبق خير إلا دللت الأمة عليه وبينته وأرشدت إلى طرقه، ولا شر إلا حذرتها عنه وعن مسالكه وسبله. وأشهد أن الله قد جمع لك من الفضائل والخصائص والمزايا والكمالات ما لم يجمعه لأحد من الأنبياء والمرسلين، فجزاك الله عن أمتك خير الجزاء، وصلى الله عليك وملائكته وجميع خلقه صلاة كاملة تامة، وآتاك الوسيلة والفضيلة والمقامات المحمودة».

ويثني عليه بكل ما يقدر عليه من الثناء الذي يليق بجنابه وهو أهله، بأبي هو وأمي، ويصلي عليه، ثم ينحرف يمنة فيسلم على أبي بكر الصديق، ثم على عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وذلك كله بأدب وطمأنينة وغض صوت وخضوع واستحضار لشخصه الكريم كأنه في حياته. فهذه الزيارة للموحدين تملأ القلب إيماناً وتصديقاً ومحبة للرسول وشوقاً إليه وتعظيماً وتبجيلاً. ثم ينصرف فيجعل الحجرة عن يساره ويستقبل القبلة ويدعو الله بما أحبه من خير دينه ودنياه وآخرته. أفمن كانت هذه حالهم مع الرسول ومع سنته لا يميلون عما قاله وفعله قيد شعرة يكونون متنقصين له، أم المتنقصون له في الحقيقة من خالفوا هذه الطريقة المستقيمة من كل وجه؟

فأهل السنة يقولون للمعطلين والمشركين ما قاله متبوعهم صلوات الله وسلامه عليه لأعدائه حين بين السبيل وأوضح المسالك

﴿وإِنَّا أَوْ إِيَّاكم لعلى هدًى أو في ضلال مبين﴾ [سورة سبأ: الآية ٢٤]

فصـــل
في تعيين أن اتِّباع السُّنَن والقرآن طريقُ النَّجاة من النيران

وذلك أن الطرق كلها مسدودة لا يوصل منها إلى الله وإلى ثوابه ولا ينجو بها العبد من عقابه إلا بطريق واحد وهو طريق السعادة والنجاة من العذاب، وهو اتباع كتاب الله الذي هو حبله المتين، وصراطه المستقيم، واتباع رسوله محمد ﷺ بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

وتفصيل هذه الجملة أن تأخذ كتاب الله وما صحت بـه السنة عن رسول الله، خصوصاً كتب الصحاح كالبخاري ومسلم، فتقرأها وتفهم معانيها وتقدر أن الخطاب من الله ورسوله كأنك مشافه للرسول جالس بين يديه مـع أصحابه، وتعلم أنه لا يصـح إيمانك حتى تعتقد وجوب عرض أقوال الخلق كلهم على قول الرسول، فما وافق ذلك فهو مقبول، وما خالفه فهو مردود، وما لم يعلم موافقته أو مخالفته فهو موقوف. وتوضيـح ذلك أن تقدر جميـع مقالات الخلق معدومة لا وجود لها، لأن الله لم يوجب طاعة أحد من الخلق غير رسوله، فتتلقى العقائد والأحكام: الأصول والفروع عن رسول الله ﷺ، ولو لا التعصب والهوى لكانت هذه الطريقة لا يشك مسلم أنها فرض عام على الناس كلهم.

وإذا عرفت أنه ﷺ قد جمـع الله له كمال العلم وكمال النصـح وقوة البيان الذي لا يشاركه في شيء من ذلك مشارك عرفت أن كلامه هو الغاية في الإرشاد والهداية واستفادة أصناف العلوم والحقائق من كلامه، مـع وجوب طاعته وتحقيق عصمته، فهذا برهان قاطـع على استيلاء كلامه على غاية البيان

وتمام الإرشاد، فالنقلة عنه أصدق الناس وأعظمهم تحرياً للصدق وأعرفهم بكلامه، وكلامه معصوم وصدق، فكيف يعدل مع هذا عن كلامه إلى قول غيره المنافي له في هذه الأمور. فقد وضح السبيل للسائرين فسر عليه مجداً، واهجر كل قاطع يقطعك عنه، فكل من قطع عن نيل المقاصد العالية فقد برهن على عداوته وكل من أعانك على سيرك فهو الصديق ولو كان من أبعد الناس.

فصل
في تيسير السير على المُثْبِتِين المُوَحِّدين وامتناعه على المُعَطِّلين والمشركين

العبد منذ عقل أمره وعرف النجدين فهو يسير إلى الدار الآخرة في ليله ونهاره وحركته وسكونه، ولكن الخلق يتفاوتون في سيرهم المستقيم وسيرهم المنحرف تفاوتاً عظيماً، فأعظم الطريق الموصلة إلى الله وإلى كرامته وأيسرها وأسهلها وأصحها وأحسنها هي طريق المثبتين لصفات ربهم المخلصين له في أعمالهم، فالسير إلى الله هو سير القلوب بالعقائد الصحيحة النافعة التي تملأ القلب معرفة ويقيناً وإيماناً وإخلاصاً وقوة وطيباً وسروراً. ومدارها على إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال، وتسهل على العبد الطاعات وأصناف القربات، وتورث محبة الله واللهج بذكره.

وهذه الأخلاق التي هي أعلى الأخلاق وأكملها تمنع صاحبها من وقوع المخالفات، فإن وقعت منه بادر إلى الإقلاع والتوبة النصوح، وكلما كان العبد أعرف بالله كان له أحب وله أخشى وأرجى وأطمع في فضله، وأما المعطلون فقطعوا هذا الطريق على أنفسهم وعلى السائرين، لأن المحبة تتعذر إذا لم يعرف العبد ربه، ولا يمكن أن يعرفه إلا بصفاته ونعوته فكان المعطلون محجوبين عن هذا المطلب الأعلى.

واعلم أنه لا بد للخلق أن يسألوا عن أمرين: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين. والجواب الصحيح عن السؤال الأول هو تجريد التوحيد عن شوائب الشرك كبيره وصغيره، وعن السؤال الثاني تجريد متابعة النبي ﷺ، وتقديم قوله وحكمه على قول غيره وحكم غيره. فنسأل المولى الذي ابتدأ بالإحسان وختم بالإحسان وعلم حالة الإنسان وما هو عليه من النقصان أن يتولانا بلطفه، ويمن علينا بتوحيده الكامل، وإخلاص العمل لأجله، وتجريد متابعة نبيه، وأن لا يزيغ قلوبنا إنه هو الوهاب.

فصل

في ظهور الفرق بين الطائفتين، وعدم التباسه إلّا على من ليس بذي عينين

وهذا الفرق بين أهل السنة وغيرهم هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فأهل السنة يدعون إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ويتلقون أصول الدين وفروعه عنهما ولا يعطلون الصفات بل يثبتونها، ومن سواهم بالعكس من ذلك يكذبون ويحرفون ويفوضون. وقد تقدم من تفاصيل فروقهم ما يكفي. ونظيره الفصل الذي بعده:

فصل

في ظهور التفاوت بين حظ المُثْبِتين والمُعَطِّلين من وحي رب العالمين

وذلك أنه يظهر التفاوت بين الخلق مدحاً وذماً وحقاً وباطلاً بصفاتهم ومآخذهم وأصولهم وأخلاقهم وثمرات أعمالهم وقوة أدلتهم وضعفها. فلأهل السنة والجماعة من كلام الله الحقيقة، لا يعدلون إلى المجاز الذي وضع أخيراً، كما اتفق أهل الأصول والعلوم على ذلك في كل كلام، وغيرهم

يتتبعون المجازات والاحتمالات البعيدة الشاذة المخالفة للظاهر وللمعلوم من الدين بالضرورة تحقيقاً لقوله تعالى:

﴿فأما الذين في قلوبهم زَيْـغٌ فيتَّبِعُون ما تشابه منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويله﴾ [سورة آل عمران: الآية ٧]

وكليات أدلة أهل السنة قواطـع الأدلة من الكتاب والسنة، وقواطـع العقل التي اتفق العقلاء على صحتها، واتباع إجماع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهدى ومصابيـح الدجى. وليس للنافين منها دليل واحد، وإنما أدلتهم شبه تدل على سفاهة مبديها وضلاله، وينقض بعضها بعضاً، وإذا استدلوا فبكلام أرسطو وابن سينا والفارابـي وابن الخطيب ممن عرف انحرافهم عن الحقائق الدينية. وخير ما يستدلون به كلام أبـي الحسن الأشعري مـع أنهم خالفوه فيما أثبته من العلو والاستواء على عرشه ونحو ذلك من الإثباتات التي صرح بها في كتبه (الإبلة) وغيرها كما هو معروف، فخيار أئمتهم خالفوه حين قال الحق وقرر الصواب ووافق أهل السنة فيه، وهذا غاية الخذلان.

وطريق أهل السنة إذا فرض التعارض بين النقل عن المعصوم وبين ما خالفه من الآراء قدموا النقل، والآخرون بالعكس. وطريق أهل السنة النفي المجمل والإثبات المفصل: ينفون عن الله أنواع النقائص والعيوب ومماثلة أحد من خلقه، ويثبتون على وجه التفصيل كل ما جاء به الكتاب والسنة من صفات الله ونعوته. والمعطلون يثبتون مجملاً وينفون مفصلاً: يثبتون ألفاظاً مجملة لا تسمن ولا تغني من جوع، وينفون نفياً مفصلاً لجميـع الصفات والأفعال لله. فأي الفريقين أحق باتباع الكتاب والسنة...

فصــل

في بيان الاستغناء بالوحي المنزل من السماء
عن تقليد الرجال والآراء

وذلك أن الله جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وأمر برد ما تنازع فيه الخلق من المسائل الأصولية والفروعية لله ولرسوله، وأخبر أنه أكمل لعباده الدين، فالوحي الذي هو الكتاب والسنة كفيل بجميع ما يحتاجه العباد في أمور دينهم من أصول وفروع، بل وفي أمور دنياهم، فيه بيان الأصول العظيمة بياناً منوعاً مصرفاً بأساليب متعددة، وطرق متنوعة، وفيه بيان جميع الأحكام، وفيه الإرشاد جملة وتفصيلاً إلى المنافع والمصالح الدينية والدنيوية. فيه علوم التوحيد والرسالة وتفاصيلها بأكملها وفيه علم الأحكام في العبادات والمعاملات والأنكحة والجنايات وغيرها، وفيه علم الجزاء وتفاصيل الجزاء الدنيوي والجزاء الأخروي، وفيه بيان الأسباب ومسبباتها تفصيلاً وإجمالاً.

فالكتاب والسنة إذا تم علم العبد بهما حصل له الكفاية والشفاء والهداية في كل أبواب العلم، ولم يحتج معهما إلى رأي أو قياس إلا في بيان حكمهما واستنباط أسرارهما. وقد يخفى على العالم بعض نصوص الكتاب والسنة أو يفوته بعض معانيها فيضطر إلى القياس على قواعد الشرع وأصوله، فالقياس يصار إليه عند الاضطرار كما قاله الأئمة الشافعي وأحمد وغيرهما.

والقياس الصحيح من العدل والميزان الذي أمر الله به وهو داخل في الشريعة، وإنما ينكر منه القياس الفاسد المخالف للنص أو لأصول الشريعة، أو القياس الضعيف الذي لم يستوف شروطه. والقياس الصحيح مبني على الجمع بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين. وهذا الاستغناء المذكور بالوحي لا يتم إلا بالإقبال التام على الكتاب والسنة، وأن يكون ذلك أكبر همة طالب العلم وغاية بغيته، وأن يلغي جميع الموانع والمعارضات التي تحول بينه وبين هذا المطلوب من التعصب والتقليد الأعمى ونصرة غير الحق.

وذكر المؤلف رحمه الله حاله في طلب العلم وأنه في ابتداء أمره ما زال متقيداً بقيود التقليد، غير منطلق الفكر في العلم الصحيح، ثم إن الله يسر له بحسن قصده وشدة طلبه أن خلع القيود وأقبل على الكتاب والسنة، وحصل منهما خيراً كثيراً وشرح الله صدره للهدى، واتسعت دائرة معارفه، واتضح له الفرق العظيم بين حالته الأولى والثانية. وغرض المؤلف أنه أخبر عن تجربة ومشاهدة، وليرغب في هذه الطريقة التي لا يسلكها إلا الكمل من العباد. ولكن هذه الطريقة لها شروط بينها في هذا الفصل وهو قوله:

فصل
في بيان شروط كفاية النَّصَّين والاستغناء بالوحيين

وجملة شروط ذلك وحاصلها يرجع إلى أمرين: وجود المقتضى، وهو الإقبال التام على الكتاب والسنة، وبذل الجهد في معرفة معانيهما والاهتداء بهما. ولا بد أيضاً من دفع المانع وهو التصميم الجازم على دفع كل ما عارض النصين من المذاهب والمقالات والقواعد والعوائد التي جرت عليها أكثر الخليقة وأوجبت من مخالفة الوحيين أموراً كثيرة متى دفعها العبد وأعرض عنها اتسعت دائرة علمه ومعرفته، فبالتجرد عنها والإقبال التام على الوحيين وسلوك كل طريق يعين على معرفتهما والاستنارة بنور العلماء والاهتداء بهداهم تحصل الكفاية التامة.

والناس في حالهم مع الأئمة والعلماء ثلاثة أقسام: **أحدها** من غلا فيهم وجعل أقوالهم معصومة بمنزلة أقوال الرسول وقدمها على الكتاب والسنة، مع أن كل إمام له قبول في الأمة قد حث على اتباع الكتاب والسنة، وأمر أن لا يتبع من أقواله ومذهبه ما خالف الكتاب والسنة.

القسم الثاني: من ألغى أقوال العلماء وأهدر مقالات أئمة الهدى

ومصابيح الدجى ولم يستغن بنور فهمهم، ولا استعان بعلومهم، أو بعدما استفاد منها لم يشكرهم على ذلك، فهذا قد حرم خيراً كثيراً. والذي حمل هؤلاء على ذلك ظنهم أن وجوب اتباع الرسول وتقديم قوله على قول كل أحد يوجب الزهد في أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الهدى، وهذا من الغلط الفاحش، فإن الصحابة وأهل العلم هم الوسائط بين الرسول وبين أمته في تبليغ سنته ألفاظها ومعانيها، فالمتبع لهم في ذلك مهتد بأفهامهم، مقتبس من أنوارهم، مستفيد من استنباطاتهم للمعاني النافعة، والدقائق التي لا تكاد تخطر على أذهان كثير من أهل العلم ولا تكاد الأفهام تدركها، فمن فضل الله على الأمة أن مَنَّ عليهم بهؤلاء العلماء الربانيين المربين لهم بنوعين من أنواع التربية العالية: أحدهما التربية العلمية، يربونهم بصغار العلم قبل كباره، وبإيصال معاني الكتاب والسنة إلى أذهانهم وعقولهم بالتعليم الشفاهي، وبتصنيف كتب العلم النافع المتنوعة التي لا يقدر العباد أن يصفوا ما اشتملت عليه من العلوم والفوائد التي لهم اليد البيضاء في استنباطها من الكتاب والسنة، وفي ترتيبها وتفصيلها وتقسيمها، وجمع النظائر والمتماثلات والشروط والأركان والموانع، وتفريق المعاني المتباينة وأصناف الفوائد المتنوعة، والنوع الثاني تربية عملية، يربون أخلاقهم ويحثونهم على كل خلق حميد، ببيان حكمه ومرتبته وما يترتب عليه من الفوائد، ويبينون لهم الأسباب والطرق التي يكتسبونها به، والموانع التي تعوقهم عن الاتصاف به. فهم في الحقيقة غذاء القلوب والأرواح، وهم أطباء أدواء القلوب وعللها، يعلمونهم بأقوالهم وأفعالهم وهديهم، فهؤلاء لهم الحق الأكبر على الأمة، ولهم من المحبة والتعظيم والتوقير والشكر على محاسنهم وإحسانهم المتنوع فوق كل حق بعد حق الله وحق رسوله.

ولهذا كان **القسم الثالث** الذين وفقوا لمعرفة أقدارهم، وقاموا بحقوقهم، وشكروهم على فواضلهم وفضائلهم، واكتسبوا من علومهم وقدروها حق قدرها، وعرفوا أنهم غير معصومين، وأن أقوالهم تابعة لأقوال الرسول، وأن

كل واحد منهم يؤخذ من قوله ما احتوى عليه من الهدى والعلم والرشاد والإصابة، ويترك منه ما أخطأ فيه، ولا يذم على خطئه إذ هو مجتهد في إصابة الحق وخطأهم مغفور، وسعيهم مشكور. وإذا ردوا ما قاله أحد هؤلاء السادة لما يرونه من الضعف ومخالفة الدليل الشرعي بينوا ضعف القول ومرتبته، ولم يقدحوا في قصد أهل العلم والدين ولم يذموهم على هذا، ويقولون كما هو الواجب أن يقولوا:

﴿ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعلْ في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربَّنا إنك رؤوف رحيم﴾ [سورة الحشر: الآية ١٠]

فهؤلاء أدوا الواجبين: جمعوا بين تقديم الكتاب والسنة على كل شيء، وبين معرفة أقدار العلماء وأئمة الهدى والقيام ولو ببعض حقهم، فنسأله أن يمن علينا ويجعلنا من أهل هذا القسم الثالث، ويجعلنا ممن يحبه ويحب من يحبه ويحب العمل الذي يقرب إلى حبه.

فصــل

في لازم المذهب: هل هو مذهبٌ أمْ لا.

أما كلام الله وكلام رسوله فإنه كله حق، ودلالاته الثلاث حق: دلالة المطابقة والتضمن ودلالة الالتزام، لأنه تنزيل من حكيم عليم حميد، محكم قد علم الله ما يلزم وحيه وما تتوقف عليه كلماته وكلمات رسوله من الشروط والمتممات التي يتوقف كثير من المعاني عليها.

فهذا النوع من الكلام لا يدخل في الخلاف الذي أشار إليه المؤلف، وأما كلام أهل العلم وأرباب المذاهب في الأصول والفروع فدلالة المطابقة والتضمن معلوم أنها داخلة في كلامهم لأنها هي معنى الكلام، وأما إذا قالوا مقالة ولزم منها أقوال أخر متوقفة عليها صحيحة أو فاسدة فالصواب والتحقيق الذي يدل عليه الدليل أن لازم المذهب الذي لم يصرح به صاحبه ولم يشر

إليه ولم يلتزمه ليس مذهباً، لأن القائل غير معصوم، وعلم المخلوق مهما بلـغ فإنه قاصر، فبأي برهان نلزم القائل بما لم يلتزمه، ونقوّله ما لم يقله، ولكننا نستدل بفساد اللازم على فساد الملزوم، فإن لوازم الأقوال من جملة الأدلة على صحتها وضعفها وعلى فسادها، فإن الحق لازمه حق، والباطل يكون له لوازم تناسبه فيستدل بفساد اللازم خصوصاً اللازم الذي يعترف القائل بفساده على فساد الملزوم، كما تقدم في إلزام الجهمية على أقوالهم الفاسدة لوازم يعترفون بفسادها ويكفرون من قال بتلك اللوازم، كإلزامهم في قولهم في الإيمان إنه مجرد إقرار العبد بأن الله ربه، أنه يلزم من هذا القول الحكم بإيمان إبليس وفرعون وقوم عاد وثمود وقوم نوح وكل مكذب للرسل إذا كان يعترف بالله.

وكذلك نفيهم لصفات الله وأفعاله وعلوه على خلقه من لوازم التعطيل المحض ونفي وجود الله بالكلية. وكذلك تقدم لوازم قولهم في تفسيرهم لكلام الله أنه يلزم منه أن كلام الخلق كلهم كلام الله كما قاله الاتحادية. والقول بنفي الرسالة ونحوها مما مر ومر توجيهه. فهذه الإلزامات الصحيحة. وأما إلزام أهل الكلام لأهل السنة القول بالجسمية أو التشبيه إذا أثبتوا الصفات فهو إلزام منهم باطل في نفسه، باطل في نفس إلزامهم، وتقدم وجه فساده واستفسارهم الذي يبطل به قولهم، فإلزامهم لأهل السنة ما لم يلتزموه افتراء منهم وتقوّل عليهم، واللازم الذي قالوه باطل بالنص والإجماع لأن الله ليس كمثله شيء في جميـع صفاته، فكما أثبت لنفسه عظيم الصفات فقد نفى عنه مماثلة أحد من المخلوقين وأن يكون له كفو أو نِدّ.

وقد تمادت هذه الطائفة أرباب الكلام الباطل حتى إن بعض من يشار إليه منهم بالفضل والعلم حكى الإجماع أن خلق العرش بعد خلق السماوات والأرض. وما حمله على هذا القول الذي فاه به وخالف نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة إلا تفسير الاستواء بالاستيلاء والخلق، وأن قوله:

﴿إنّ ربَّكم اللَّهُ الذي خلق السماواتِ والأرضَ في ستة أيامٍ ثم استوى على العرش﴾ [سورة الأعراف: الآية ٥٤]

يعني على زعم هذا المفتري: ثم خلق العرش. والقول إذا وصل إلى هذه الحالة السمجة فهو نهاية الافتراء والتحريف والتعصب.

فصــل
في الردِّ عليهم في تكفيرهم أهل العلم والإيمان وذكر انقسامهم إلى أهل الجهل والتفريط والبدعة والكفران

وبهذا التفصيل في هذا الفصل يتضح إنصاف أهل السنة في معاملتهم لأعدائهم من أهل البدع والمعطلين، كما يتضح جراءة أعدائهم وافتراؤهم حيث جعلوا ميزان الكفر والإيمان مخالفتهم وموافقتهم، فمن وافقهم على بدعتهم ونفيهم فهو المؤمن عندهم، ومن خالفهم فهو كافر. فانظر إلى هذه الجراءة العظيمة، وحكمهم على أهل السنة والشريعة بالكفر والخروج من الدين بغير بينة ولا برهان، بل بالتعصُّب والأقوال التي لم ينزل الله بها من سلطان. فلو أنهم حين ابتلوا بهذه البدعة الباطلة قالوا: هذا رأينا الذي رأيناه ولم يتعدوا هذا العدوان لكان أهون شراً وأقل مصيبة عليهم، ولكنهم جمعوا بين الشرين وجمعوا بين الضلالتين، وهذا من عقوبات الله القدرية لقلوب أعرضت عن وحيه وتعوضت عنه آراء كل أفاك أثيم، فنسألك اللهم عافيتك ولطفك.

أما أهل السنة والجماعة فيسلكون معهم ومع جميع أهل البدع المسلك المستقيم المبني على الأصول الشرعية والقواعد المرضية، ينصفونهم ولا يكفرون منهم إلا من كفره الله ورسوله، ويعتقدون أن الحكم بالكفر والإيمان من أكبر حقوق الله وحقوق رسوله، فمَنْ جحد ما جاء به الرسول أو جحد بعضه غير متأول من أهل البدع فهو كافر، لأنه كذّب الله ورسوله، واستكبر على الحق وعانده، فكل مبتدع من جهمي وقدري وخارجي ورافضي

ونحوهم عرف أن بدعته مناقضة لما جاء به الكتاب والسنة، ثم أصر عليها ونصرها فهو كافر بالله العظيم مشاقٌّ لله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى. ومن كان من أهل البدع مؤمناً بالله ورسوله ظاهراً وباطناً، معظماً لله ورسوله ملتزماً ما جاء به الرسول ﷺ، ولكنه خالف الحق وأخطأ في بعض المقالات وأخطأ في تأويله من غير كفر وجحد للهدى الذي تبين له لم يكن كافراً، ولكنه قد يكون فاسقاً مبتدعاً، أو مبتدعاً ضالاً، أو معفواً عنه لخفاء المقالة وقوة اجتهاده في طلب الحق الذي لم يظفر به.

ولهذا كان الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم من أهل البدع أقساماً متنوعة: منهم من هو كافر بلا ريب كغلاة الجهمية الذين نفوا الأسماء والصفات وقد عرفوا أن بدعتهم مخالفة لما جاء به الرسول، فهؤلاء مكذبون للرسول عالمون بذلك. ومنهم من هو مبتدع ضال فاسق كالخوارج المتأولين والمعتزلة المتأولين الذين ليس عندهم تكذيب للرسول ولكنهم ضلوا ببدعتهم وظنوا أن ما هم عليه هو الحق، ولهذا اتفق الصحابة رضي الله عنهم في الحكم على بدعة الخوارج ومروقهم كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة فيهم، واتفقوا أيضاً على عدم خروجهم من الإسلام مع أنهم استحلوا دماء المسلمين وأموالهم وأنكروا الشفاعة في أهل الكبائر وكثيراً من الأصول الدينية، ولكن تأويلهم منع من تكفيرهم.

ومن أهل البدع من هو دون هؤلاء ككثير من القدرية وكالكلابية والأشعرية فهؤلاء مبتدعة ضالون في الأصول التي خالفوا فيها الكتاب والسنة وهي معروفة مشهورة، وهم في بدعهم مراتب بحسب بعدهم عن الحق وقربهم، وبحسب بغيهم على أهل الحق بالتكفير والتفسيق والتبديع، وبحسب قدرتهم على الوصول إلى الحق واجتهادهم فيه وضد ذلك، وتفصيل القول فيه يطول جداً.

فأهل السنة والجماعة عندهم من الأصول الصحيحة، وملازمة ما دل عليه الكتاب والسنة، والتصديق بذلك كله والخوف من الله ما يمنعهم من

التعدي على الخلق وعلى أعدائهم من أهل البدع والكلام الباطل، ولا يحملهم بغضهم وعداوتهم على مجاوزة الحد فيهم، بل ينزلون كلًّا من أقسامهم منزلته، متبعين في ذلك ما جاء به الوحي وما دلت عليه أصوله، عالمين بالحق، راحمين للخلق، يدينون باتباع الكتاب والسنة ويتبرأون ممن خالف ذلك، ويسألون الله أن يعافيهم من أهل البلاء، ومن أعظم البلاء البدع في الدين. والله أعلم.

فصـــل
في تلاعب المُكَفِّرين لأهل السُّنة والإيمان بالدين كتلاعب الصبيان

أهل الكلام الباطل والبدع جعلوا دينهم ما قالته شيوخهم، فإذا جاءتهم نصوص الوحي قالوا: هذا مجمل، هذا مؤوّل، هذا كذا هذا كذا. وأما أقوال شيوخهم فلا يعتريها عندهم إجمال ولا إشكال، ولا يحل لأحد مخالفتها ولو كان ذلك لقول الله وقول رسوله، فهل أبلـغ من هذا التلاعب بالدين. . .

أمَّا أهل السنة والجماعة فعندهم أن نصوص الوحي صريحة بينة واضحة كما هو مشاهد، معصومة توجب العلم واليقين، لا تحل مخالفتها ولو اجتمعت عقول أهل الأرض وآراؤهم على مخالفة نص واحد منها. فالنص عندهم أعظم وأجل من أن يعارض بغيره، ولهذا كان أهل البدع لم يعيبوا أهل السنة بمخالفة شيء من النصوص وإنما عابوا عليهم مخالفة أئمة أهل البدع. ولما كان أبو الحسن الأشعري فيه سنة وبدعة، وأثنى عليه أهل السنة بما معه من السنة وما نصره من الحق وما ردّ به على المعتزلة وغيرهم، وأنكروا عليه ما يقوله مما خالف فيه الحق وخالفوه في ذلك، عاب أهل الكلام على أهل السنة مخالفة أبـي الحسن في أقواله البدعية، وهم في أنفسهم قد تناقضوا: فإنهم وافقوا الأشعري في أقواله المبتدعة، وخالفوه بما ذكره في كتبه: (الإبانة)

وغيرها، من التصريح بعلو الله واستوائه على عرشه وإثباته للصفات وردّه على الجهمية وموافقته للإمام أحمد وأصحابه كما صرح بذلك كله. وإنما ثبت على قوله في الكلام النفسي وبقي على مذهب ابن كلاب كما تقدمت حكايته. فأي الفريقين أحق بالحق إن كنتم تعلمون...

وهكذا صنيع أهل السنة مع كل من عرف بالعلم والإيمان، يعتقدون فضله ومقامه الذي أقامه الله به من العلم والإيمان، ويوافقونه فيما قاله من الحق، ويستفيدون من علمه، ويردّون ما غلط فيه من الباطل، لعلمهم أنه لا معصوم إلا رسول الله وإلا إجماع الأمة، وهؤلاء المبتدعة ليس لهم جواب عن هذا التحقيق إلا التكفير والتبديع والشكاية إلى الملوك ليؤيدوا ما قالوه من الباطل.

فصل

في بيان أن أهل الحديث هم أنصار رسول الله ﷺ وخاصته ولا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر

ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الأنصار (لا يبغضهم إلا منافق) وذلك بأسباب إيمانهم ومسابقتهم ونصرتهم التامة لرسول الله ﷺ وذبهم عنه من يريده بسوء. كذلك أهل السنة والجماعة وأهل الحديث هم أنصار دينه وكتابه ورسوله: نصروا الرسول بعد وفاته كما نصره الأنصار في حياته، فمحبتهم من الإيمان وبغضهم من النفاق، ولذلك قيل لهم «أهل السنة والجماعة» و«أهل الحديث» لانتسابهم لسنته دون المقالات كلها والمذاهب وغيرها، لأن الإنسان لا ينسب لشيء إلا لاتصاله به، بخلاف غيرهم فإنهم تباينت نسبهم إما إلى القائلين كالجهمية والكلابية والأشعرية ونحوهم، وإما إلى المقالات كالقدرية والجبرية والمعطلة، أو إلى الأمكنة أو إلى الأشخاص ونحو ذلك. ولا ينجي العبد من النار إلا اتباع السنة والقرآن، والناس في

الحقيقة هم المتبعون لهما، وخيار أهل الحق علماؤهم لأنهم هدوا واهتدوا، وشرار أهل الباطل علماؤهم لأنهم ضلوا وأضلوا، والجهال من هؤلاء وهؤلاء وسط بين الكمل الذين هم أهل العلم والإيمان وبين أئمة الباطل.

فصــل

في تعيين الهجرة من الآراء والبدع إلى سنته
كما كانت فرضاً من الأمصار إلى بلدته

وذلك أن الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ومن بلاد البدع إلى بلاد السنة واجبة عند وجود سببها وهو العجز عن إظهار الدين والسنة مع القدرة على الهجرة. وهذه قد تجب في وقت دون وقت وفي مكان دون مكان وعلى شخص دون آخر بحسب وجود سببها أو عدمه. وأما الهجرة إلى الله ورسوله بالإخلاص والمتابعة فهي فرض عين على كل شخص وفي كل مكان وزمان، وهي روح الدين وحقيقة الإيمان. فعلى كل عبد أن يقصد رضا ربه وطلب رضوانه في كل ما يأتي وما يذر في أقواله وأفعاله وسره وعلنه، بأن يكون حبه لله وفي الله وبغضه لله وولايته وعداوته لله، وينيب إلى ربه في جميع أعمال قلبه.

وعليه مع ذلك أن يكون في أقواله وأفعاله واعتقاداته وأصول دينه وفروعه متابعاً لرسول الله متلقياً عنه جميع دينه، وأن يعرض جميع المقالات والمذاهب على ما جاء به الرسول ﷺ، فما وافقه قبله، وما خالفه رده، وما أشكل أمره توقف فيه. فالعمل المقبول ما جمع هذين الوصفين. وقد صنف المؤلف في هذين الأصلين كتاباً سماه (سفر الهجرتين) فصَّلَ فيه مجمل ما ذكره في هذا الفصل تفصيلاً تاماً. ومن تفضل الله عليه بهذين الأمرين ــ الإخلاص والمتابعة ــ كان سيره إلى الله مستوعباً لجميع أوقاته على سهولته ويسره، وصار القليل من عمله كثيراً، وقد سبق المكثرين من الأعمال وهو

مطمئن في سيره. فعَلى العبد أن يسأل ربه أن يوفقه للقيام بهاتين الهجرتين، مع جده واجتهاده في تحقيقهما، وأن يضطر إليه في طلب الهداية، ويستعيذ به من شر نفسه وسيئات أعماله، وأن يعيذه من أكبر شرور نفسه وهو التكبر والهوى فإنهما يجمعان الشرور كلها، لأن أعظم ما يصد العبد عن الحق إما تكبره عنه وإما هواه وأغراضه النفسية وإما الأمران، ولا يسلم العبد ويستقيم أمره حتى يكون متواضعاً للحق يعرف نفسه حقيقة وأنه أحقر وأصغر من أن يكون في أخلاقه وإرادته معارضة للحق، وأن يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول. والمعافى من عافاه الله من التكبر والهوى بكمال تواضعه وبقوة صبره وحسن قصده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

فصل

في ظهور الفرق المبين
بين دعوة الرسل ودعوة المُعَطِّلين

الرسل صلوات الله وسلامه عليهم دعوا إلى الحق النافع، وغيرهم دعا إلى الباطل الضار. الرسل حققوا أصل التوحيد والرسالة والمعاد، وأعداؤهم خالفوهم في الأصول الثلاثة أو بعضها وقصروا فيما أثبتوه منها. الرسل أثبتوا لله نعوت الكمال وصفات المجد والعظمة والجلال، ونفوا عنه النقائص والعيوب والتشبيه والمثال، وأعداؤهم نفوا عنه كل وصف جميل وعطلوه عن كل نعت جليل، وأثبتوا ألفاظاً لا حقائق لها إلا النقص والعدم. الرسل جاؤوا بالحق الواضح في تبيين الأصول والفروع، وأعداؤهم حرفوا نصوصهم: كذبوا ما كذبوا منها، وبدلوا ما تمكنوا من تبديله، وحرفوا ما عجزوا عن تغيير لفظه. فلا يخفى الفرق بين ما يدعو إليه كل رسول، خصوصاً خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ، وبين ما يدعو إليه المعطلون وأهل الكلام الباطل، وأن الدعوتين متباينتان غاية التباين.

فصــل
في شكوى أهل السُّنة والقرآن
أهل التعطيل والآراء المخالفين للرحمٰن

لما عجز أهل التعطيل عن نصرة باطلهم ومعارضة أهل العلم والإيمان أيَّدوا باطلهم بكثرة الشكاوى إلى ولاة الأمور والسلاطين، وزوروا عليهم نوعين من الزور: مَوَّهوا عليهم بدعهم وألبسوها ألفاظاً مزخرفة وعبارات مموهة، ورفعوها بأقوالهم وهي وضيعة، وعظموها وهي حقيرة، وهوّلوها وهي أجسام بلا أرواح وأسماء بلا مسميات وألفاظ لا حقائق لها. والتمويه الثاني أنهم سموا أهل السنة والجماعة بالأسماء القبيحة: سموهم مجسمة مشبهة نوابت حشوية، ووضعوا لهم من الاحتقارات والازدراءات شيئاً كثيراً، فصادفت من الولاة آذاناً صاغية وقلوباً معرضة وعلوماً قاصرة وأهواء مختلفة، فصار لأقوال المبطلين عندهم رواج مبني على هذه التمويهات، وساعدوهم على كثير من باطلهم بأفعالهم وقمع أهل السنة والجماعة، ولكن الحق في علوّ دائم وأهله لا يزالون على الحق ثابتين، وفي نصرته صامدين، وعلى ربهم متوكلين، وبوعده الصادق ونصره واثقين. وهم مع حججهم العلمية وبراهينهم اليقينية وثباتهم التام مع هذه المعارضات والمقاومات من أهل الباطل وأنصارهم فهم لا يشتكون إلا إلى الله، فهم يشتكون إليه ما لقوا من أهل الباطل من أقوال وشبهات لا حظَّ لها من العلم، ومن أناس متناقضين لا يستقيمون على طريقة واحدة، بل كل طائفة تدعو إلى غير ما دعت إليه الأخرى، وكلهم في خوضهم يلعبون، وبعلومهم المخالفة لعلوم الرسل فرحون، وتجرأوا على تحريف النصوص، وعدم التأدب والتوقير لكلام الله وكلام رسوله، وهم يسألون الله العافية في الدنيا والآخرة.

فصـــل
في أذان أهل السُّنَّة الأعلام
بصريحها جَهراً على رؤوس منابر أهل الإسلام

الأذان المعروف هو الإعلام بدخول الوقت بذكر مخصوص معروف، وهو من أعظم شعائر الدين الظاهرة. فأهل السنة الأعلام ـ وهم العلماء الربانيون ـ نادوا على رؤوس منابر الإسلام جهراً وعلناً، بصريحها، بصريح السنة الدالة على الأصول الدينية والقواعد الإيمانية، وصرحوا بأنه لا يصح ولا يتم الدين والإيمان والإسلام إلا بذلك.

وهذا الأذان فرض على كل أحد إجابته ظاهراً وباطناً. وحاصل هذا الأذان العظيم هو أن يكبر الله ويعظم بإثبات جميع صفاته العظيمة، كعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه، والشهادة أنه الفعال لما يريد، وأن له صفات الذات وصفات المعاني وصفات الأفعال ثابتة على الوجه الثابت في الكتاب والسنة، والله أكبر عما يقوله الملحدون والمحرفون علوًّا كبيراً. فأهل السنة يعلنون بجميع الأصول الدينية، ولا يبالون بلوم اللائمين ومخالفة المخالفين.

فصـــل
في تلازم التعطيل والشِّرك

تقدم أن لازم المذهب ليس بمذهب على الإطلاق، ولكن يستدل بفساد اللازم وبطلانه على فساد الملزوم، وهذا اللازم الذي هو الشرك من أكبر الأدلة على فساد التعطيل. ووجه ذلك أن كل عبد مضطر إلى الله في كل أموره الدينية والدنيوية ليس له غنى عنه طرفة عين، وإليه يلجأ في مهماته ويقصده في كل حاجاته. فإذا انتفت صفات الله على قول المعطلين ـ كحياة الله وعلمه وقدرته وإرادته ورحمته وحكمته ـ لم يكن عند هذا المنفيِّ عنه هذه

الصفات مطالب الخلق وفزعت الخليقة إلى غيره وتوجهت القلوب لمن يعلم بأحوالها ويقدر على مصالحها ومنافعها ودفع مضارها، واضطرهم هذا الأمر إلى الشرك. وأما الإثبات لصفات كماله فإنه أصل التوحيد، وأوصاف الكمال هي المقتضية لإجابة الدعوات وتحصيل جميع المطلوبات، وبذلك يحصل للقلب الإنابة التامة والإخلاص الكامل لوجود المقتضى من الداعي والمدعوّ، فالداعي وجود ضرورته التامة في كل أموره، والمدعوّعنده جميع المطالب ولديه كل الرغائب، وهو الكفيل والوكيل، وهو نعم المولى ونعم النصير. فالإثبات مستلزم لكمال الإخلاص والتوحيد، والنفي مستلزم للشرك.

وفي هذا المقام انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: جاحد للرب لا يثبت شيئاً من صفاته وهو ملتفت بقلبه وقالبه إلى المخلوقات، وهذا شر الخليقة. ومشرك بالله يدعوه ويدعو غيره ويرجوه مع تعليق رجائه بغيره. وموحد وهو المخلص الذي يدعو الله في الرغبات والرهبات وجميع الحالات، وهو الجامع لنوعي التوحيد: التوحيد العلمي الاعتقادي المبني على إثبات الصفات، والتوحيد العملي وهو إخلاص الدين لله المستمد من التوحيد العلمي.

فصل
في بيان أن المعطِّل شرٌّ من المُشْرك

وهذا انتقال من الشر إلى أعظم منه، وذلك أن المعطل إما أن يكون معطلاً للذات، أو معطلاً لكماله بنفي بعض صفاته، وذلك قدح في ألوهية الله لأن الألوهية هي جميع صفات الكمال. وأما الشرك فهو تعظيم يجهل من المشرك حيث يظن بجهله أنه ليس بأهل أن يسأل الله ويتوجه إليه، فاتخذ وسيلة ووليجة بزعمه الباطل تقربه إليه، فهو من هذا الوجه معظم لله، ولكن التعظيم إذا كان على غير الصراط المستقيم فإنه مناف للتعظيم، فإن

المشركين قاسوا رب العالمين بالملوك المخلوقين. فرأوا أن الملوك لا يوصل إليهم إلا بالشفعاء والوجهاء عندهم، وهذا من أعظم الجهل، فإن الفرق بين الله وبين الملوك ثابت من جميع الوجوه، فالملوك غير عالمين بأحوال رعيتهم ويحتاجون إلى من يسترحمهم لهم ويستعطفهم عليهم لعجزهم وضعف قدرتهم وعلمهم وحاجتهم الشديدة إلى مساعدة الرعية لهم، والله هو القوي العزيز القدير الرحيم.

والملوك تخفى عليهم أحوال الرعايا يحتاجون إلى من يخبرهم بها. والله محيط علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً، والملوك قد لا يريدون مصالح رعاياهم فيحتاجون لمن يتوسط لهم عندهم أن يجعلهم مريدين رحمتهم، والله تعالى أرحم الراحمين وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلهذه الأسباب احتاج الملوك إلى وسائط وشفعاء يشفعون عندهم، وأما الرب تعالى فإن جميع الشفعاء يخافونه، ولا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه، فالشفاعة كلها ملك لله تعالى، وهو الذي يتفضل بها على من يشاء من عباده ممن رضي الله قوله وعمله من أهل الإخلاص والتوحيد. فهذه الشفاعة هي التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، فالمشركون غلطوا أشد الغلط إذ أثبتوا شفاعة بغير إذنه وللمشركين به، فتعلقوا بالمخلوقين، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً. وفي الجملة الأمر كله لله والحكم كله لله والشفاعة كلها لله والولاية كلها لله، فمن تولى ربه بالإيمان الكامل بأسمائه وصفاته وإخلاص العمل له وترك كل ما يكرهه تولاه ربه ولاية خاصة، فلطف به ويسره لليسرى وجنبه العسرى وأصلح له أحواله كلها.

والمقصود أن المشرك وإن كان مفترياً كافراً فالمعطل شر منه، لأنه عطل كماله ونفى صفاته، ويلزم من ذلك نفي أفعاله وربوبينه، وإن كان قد لا يشعر بهذا اللزوم.

فصــل
في مثل المُشْرك والمُعَطِّل

وهذا يقارب الفصل الذي قبله من حيث إن المعطل شر من المشرك، ويزاد في تنويـع العبارة ومخالفة الأسلوب، فإن المعطل عطل صفات المولى ونفى حقيقة ملكه وسلطانه الذي هو الأمر والنهي والأقدار والتدابير المتنوعة، ونفى أن يكون فعالاً لما يريد وأن يكون متكلمًا إذا شاء بما شاء. فأين هذا من المشرك الذي أثبت صفات المولى وأثبت ملكه وأفعاله، لكنه مـع ذلك زعم أنه من تمام تعظيمه لله لا يدخل عليه إلا بوسائط يخضـع لهم ويدعوهم ويتوكل عليهم ليوصلوه إلى الملك ويرفعوا حوائجه ويتوجهوا بجاههم عنده في قضائها. بهذا تجد الفرق بين الاثنين، مـع أن كلًّا منهما لا حظَّ له من الدين، وليس له في الآخرة من خلاق.

فصــل
فيما أعدَّ الله من الإحسان، للمتمسكين بالوحي
عند فساد الزمان

ذكر المؤلف في هذا الفصل الآثار الواردة في فضل المتمسكين بسنة رسول الله عند فسـاد الزمـان، وأن المحيـي لسنته لـه أجر خمسين من الصحابة، كما في سنن أبـي داود، وله شاهد في صحيـح مسلم (إن العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إليَّ) و(من أحيا سنة أميتت بعدي كان معي في الجنة)، رواه الترمذي وروى أيضاً: (إنما مثل أمتي مثل الغيث لا يدرى أوله خير أم آخره) إلى أن قال: (كيف تهلك أمة أنا في أولها والمسيـح في آخرها)، وفي القرآن:

﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخِرِين﴾

[سورة الواقعة: الآيتان ٣٩، ٤٠]

والآثار في هذا المعنى كثيرة أشكل معناها على كثير من أهل العلم، لاتفاق

الأمة على أن الصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علماً وعملاً وتصديقاً وصحبة لرسول الله ﷺ وسبقاً إلى كل خصلة جميلة وشهودهم للمشاهد مع رسول الله ﷺ، لهذا أشكلت هذه الآثار التي قد يخطر ببال من سمعها تفضيل من ذكر فيها على الصحابة، ولكن يقال فيها:

التحقيق أن الفضل نوعان: أحدهما تفضيل مطلق في جميع الفضائل فهذا النوع لا يصل أحد فيه إلى درجة الصحابة فضلاً عن أن يفضلهم فيه، فالصحابة رضي الله عنهم أفضل الأمة علماً وإيماناً وعملاً على وجه الإطلاق والعموم. والنوع الثاني هو الفضل المقيد بأن يوجد في الشخص تميز عن غيره في خصلة من خصال الخير، لسبب من الأسباب المختصة التي لا يشاركه فيها صاحب الفضل المطلق، وفي هذه الحالة الخاصة قد يقال إنه أفضل من الفاضل في هذه الحال الخاصة المقيدة، والفاضل أفضل منه في جهات وفضائل أخرى.

فعلى هذا، المتمسك بسنته عند فساد الناس والمحيي لها عند إماتتها إنما تميز بتبريزه وانفراده وقوّته العظيمة مع قوة المعارضات وعدم العوين والمساعد على الخير، وفي الحالة التي هونت عليه هذا الأمر الشاق من الرغبة التامة وإحياء السنن التي أميتت عمل عظيم لا يوجد له نظير، والرب تعالى شكور لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولا ما تحمله المتحملون من أجله من المشاق والمصاعب.

فهذه الإشارة تكفي في هذا المقام، وتفتح للعبد وجه الجمع بين النصوص، والله أعلم.

فصـــل

فيما أعد الله في الجنة

لأوليائه المتمسِّكين بالكتاب والسُّنَّة

ذكر المصنف فصولاً متعددة في تفاصيـل نعيم الجنة التي وعـدها المتمسكون بالكتاب والسنة، فهذا جزاؤهم إذا قدموا على ربهم. ونحيل القارىء على كتاب المؤلف (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) فإنه كالشرح لهذه الفصول، ولكونها واضحة المعاني، قراءتها تفسيرها، اكتفينا بالتحويل على الكتاب المذكور.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله على محمد وسلم.

قال ذلك وكتبه الفقير إلى ربه في شؤونه كلها عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميـع المسلمين، في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٦٧.

فهرس المجموع الثالث

القول السديد في مقاصد التوحيد

سؤال وجواب في أهم المهمات

التوضيـح والبيان لشجرة الإيمان

الدرة البهية

الحق الواضح المبين

توضيح الكافية الشافية